« تفسير ابن عطية »

المحرر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

الجزء الثامن

تحقيق وتعليق

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

السيد عبد العال السيد إبراهيم

طبع على نفقة

صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني

أمير دولة قطر

الطبعـة الأولى :

الدوحة في غرة رجب ١٤٠٥ — آذار — مارس ١٩٨٥

« تفسيرُ ابن عطية خيرٌ من تفسير الزمخشري ، وأصح نقلا وبحثاً ، وأبعد عن البدع ...... بلْ هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير » .

(ابن تيميـة)

« لمّا رجع النّاسُ إلى التّحقيق والتّمحيص ، وجاء أبو محمد عبد الحق ابن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فلَخّص تلك التفاسير كلها ، وتَحَرّى ما هو أقرب إلى الصحة منها » .

(ابن خلدون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثامن

ويبدأ بقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا
مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾

هذه أيضاً مختلف فيها ـ هل هي من كلام يوسف أم من كلام المرأة حسب التي قبلها ؟

فمن قال : «من كلام يوسف» روى في ذلك عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لما قال يوسف : ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال له جبريل : «ولا حين هممت وحَلَلْت سراويلك» ؟)[1] ، وقال نحوه ابن عباس ، وابن جبير ، وعكرمة ، والضحاك . وروي أن المرأة قالت له ذلك ، قاله السدي ، ورُوي أن يوسف تذكَّر من

(١) أخرج الحاكم في تاريخه ، وابن مردويه ، والديلمي عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية : ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ ، قال : لما قالها يوسف عليه السلام ، قال له جبريل عليه السلام : يا يوسف اذكر هَمَّك ، قال : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ .

تلقائه ما كان همَّ به فقال : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِالسُّوءِ﴾ ، قاله ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً .

ومن قال : «إن المرأة قالت : ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾» فوجه كلامها الاعتذار عن وقوعها فيما يقع فيه البشر من الشهوات ، كأنها قالت : وما هذا ببدع ولا ذلك بنكير على البشر فأُبَرِّئُ أنا منه نفسي ، والنفوس أمارات بالسوء مائلة إليه .

و [أَمَّارَةٌ] بناءُ مبالغة ، و [ما] في قوله : ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ﴾ مصدرية ، هذا قول الجمهور فيها ، وهو - على هذا - استثناءٌ منقطع ، أي : إلَّا رحمة رَبِّي [١] . ويجوز أن تكون بمعنى «مَنْ» ، وهذا على أن تكون [ٱلنَّفْس] يراد بها النفوس ، إذ النفس تجري صفة لمن يعقل كالعين والسمع ، كذا قال أبو علي ، فتقدير الآية : إلَّا النفوس التي يرحمها الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإذاً [ٱلنَّفْس] اسم جنس ، فصح أن تقع «ما» مكان «مَنْ» إذ هي كذلك في صفات من يعقل وفي أجناسه ، وهو نص في كلام

(١) قال الفراءُ في «معاني القرآن» : ومثله : ﴿إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ ، ومثله في سورة يس : ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ ، إنما هو - والله أعلم - إلا أن يُرحموا ، و «أنْ» تضارع «ما» إذا كانتا في معنى مصدر .

وقال أبو حيَّان في «البحر المحيط» : والظَّاهر أن ﴿إلا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ استثناءٌ متصل من قوله : ﴿لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ لأنه أراد الجنس بقوله : ﴿إِنَّ النَّفْسَ﴾ ، فكأنه قال : إلا النفس التي رحمها ربِّي فلا تأمر بالسوء ، فيكون استثناءً من الضمير المستكن في : ﴿أَمَّارَة﴾ .

المبرد ، وهو – عندي – معنى كلام سيبويه ، وهو مذهب أبي عليٍّ ، ذكره في «البغداديات» .

ويجوز أن تكون [ما] ظرفية ، والمعنى : إن النفس لأمَّارة بالسوء إلا مدة رحمة الله العبد وذهابه عن اشتهاء المعاصي .

ثم ترجَّى في آخر الآية بقوله : ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

المعنى : إن الملك لما تبينت له براءة يوسف مما نسب إليه ، وتحقق في القصة أمانته ، وفهم أيضاً صبره وجَلَده – عظمت منزلته عنده ، وتيقَّن حسن خلاله فقال : ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ . وهذا الذي أمَّ يوسف عليه السلام – بتَثَبُّتِهِ في السِّجْن – أن يرتقي إلى أعلى المنازل ، فتأمل أن الملك قال أولا – حين تحقق علمه – : ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾

فقط ، فلما فعل يوسف ما فعل ، فظهرت أمانته وصبره وعلو همته وجودة نظره قال : ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ ، فلما جاءه وكلمه قال : ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ ، فدل ذلك على أنه رأى من كلامه وحسن منطقه ما صدق به الخبر أو أربى عليه ، إذ المرءُ مخبوءٌ تحت لسانه ، ثم لما زاول الأعمال مشى القُدَمِيَّة[١] حتى وَلِيَ خطة العزيز .

و [أَمِينٌ] من الأمانة . وقالت فرقة : هو بمعنى آمِنٌ . وهذا ضعيف ، لأنه يخرج من نمط الكلام ، وينحط إكرام يوسف كثيراً .

ويُروى أن الملك لما أدنى يوسف قال له : إني أشاركك في كل شيء إلا أني أحب ألا تشركني في أهلي ، وألا تأْكل عندي[٢] . فقال له يوسف : أَتَأْنف أن آكل معك ؟ أنا أحق أن آنف ، أنا ابن إبراهيم الخليل ، وابن إسحق الذبيح[٣] ، وابن يعقوب الصديق ، وفي هذا الحديث بُعْدٌ وضعف . وقد قال ابن ميسرة : إنما جرى هذا في أول

(١) أي : تقدم في الشرف والفضل ، ولم يتأخر عن غيره في الإفضال على الناس . وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : «إن ابن أبي العاص مشى القُدَمِيَّة ، وإن ابن الزُّبير لوى ذنبه» . (عن اللسان) .

(٢) في إحدى النسخ : «وألا يأكل معي عبدي» ، والظاهر أن يوسف عليه السلام كان إلى هذا الوقت عبداً .

(٣) المعروف والثابت أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام ، ولعل هذا هو الذي جعل المؤلف يقول : «وفي هذا الحديث بُعْدٌ وضعف» .

أمره ، كان يأكل مع العزيز ، فلما جرت قصة المرأة قالت للعزيز : أتدع هذا يُؤَاكلك ؟ فقال له : اذهب فكل مع العبيد ، فأنف وقال ما تقدم . أما إن الظاهر من قصته وقت محاورة الملك أنه كان على عبودية ، وإلا كان اللائق به أن يَتَنَحَّى بنفسه عن عمل الكافر ، لأن القوم كانوا أهل أوثان . ومحاورة يوسف لصاحبي السجن تقضي بذلك .

وسمَّى الله تعالى فرعون مصر ملكاً إذ هي حكاية اسم مضى حكمه وتصرم زمنه ، ولو كان حيًّا لكان حكماً له إذا قيل لكافر : « ملك أو أمير » ، ولهذا كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل فقال : « عظيم الروم » ، ولم يقل : ملكاً أو أميراً ، لأن ذلك حكم ، والحق أن يسلم ويسلموا ، وأما كونه عظيمهم فتلك صفة لا تفارقه كيفما تقلب ، ولو كتب له النبي صلى الله عليه وسلم : « أمير الروم » لتمسك بتلك الحجة على نحو تمسك زياد في قوله : « شهد — والله — لي أبو الحسن » .

وقوله تعالى : ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ الآية . فهم يوسف عليه السلام من الملك أنه على تصريفه والاستعانة بنظره في المُلْك ، فألقى يده في الفعل الذي يمكنه فيه المَعْدلة ، ويترتب له الإحسان إلى من يجب ، ووضع الحق على أهله وعند أهله .

قال بعض أهل التأويل : في هذه الآية ما يُبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل ما لا

يعارض فيه ، فيصلح منه ما يشاء ، وأما إن كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز له ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وطلب يوسف للعمل إنما هي حسبة منه عليه السلام لرغبته في أن يقع العدل ، ونحو هذا هو دخول أبي بكر الصديق في الخلافة مع نهيه المستشير له من الأنصار أن يتـأمر على اثنين ، الحديث بكماله ، فجائز للفاضل أن يعمل وأن يطلب العمل إذا رأى ألا عِوَض منه [١] ، وجائز أيضاً للمرء أن يثني على نفسه بالحق إذا جُهِلَ أَمْرُهُ [٢] .

والخزائن لفظ عام لجميع ما تختزنه المملكة من طعام ومال وغيره ، و ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ صفتان تعم [٣] وجوه التثقيف والحيطة لا خلل معهما لعامل ، وقد خصص الناس بهاتين الصفتين أشياء مثل قولهم : حفيظ بالحساب عليم بالألسن ، وقول بعضهم : حفيظ لما استودعتني عليم بسني الجوع ، وهذا كله تخصيص لا وجه له ، وإنما أراد باتصافه

(١) وأيضاً فإن يوسف سأل الولاية بالحفظ والعلم فقال : ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ، ولم يطلبها بالحسب ولا بالنسب ، ولم يقل : « إنِّي حسيب نسيب » . ومع ذلك فقد روى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (رحم الله أخي يوسف ، لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ، ولكنه أخَّر ذلك عنه سنة) .

(٢) قال الماوردي : « وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات ، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصلة ، أو تعلق بظاهر من مكسب ، وممنوع فيما سواه » .

(٣) هكذا في جميع النسخ المخطوطة .

أن يعرف الملك بالوجه الذي به يستحق الكون على خزائن الأرض ، فاتصف بأنه يحفظ المُجْبَى من كل جهة تحتاج إلى الحفظ ، ويعلم التناول أجمع ، ورُوي عن مالك بن أنس أنه قال : «مصر خزانة الأرض» . واحتج بهذه الآية . وقوله : ﴿خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ يريد أرض مصر إذ لم تكن مملكة فرعون إلا بها فقط . ويؤكد أن تسمى خزانة الأرض بصيتها في بلاد الأرض وتوسطها ، فمنها ينتقل الناس إلى أقطار الأرض ، وهي محل كل جالب .

وقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ الآية . الإشارة بـ [ذَٰلِكَ] إلى ما تقدم من جميل صنع الله به . أي : ولهذه الأفعال المنصوصة درّجناه في الرتب ونقلناه فمكّنّا له في الأرض .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فروي أن العزيز مات في تلك الليالي ، وقال ابن إسحق : بل عزله الملك ، ثم مات قطفير فولّاه الملك مكانه وزوجه زوجته ، فلما دخلت عليه عروساً قال لها : أليس هذا خيراً مما كنت أردت ؟ فقالت له : أيها الصديق ، كنتَ في غاية الجمال وكنتُ شابة عذراء ، وكان زوجي لا يطأ ؛ فغلبتني نفسي في حبك . فدخل يوسف بها فوجدها بكرا ؛ وولدت له ولدين ، ورُوي أن الملك عزل العزيز وَولّاه موضعه ، ثم عظم مُلْك يوسف وتغلب على حال الملك أجمع ، قال مجاهد : وأسلم الملك آخر أمره ، ودَرَس أمْرُ العزيز وذهبت دنياه ومات وافتقرت

زوجته وزمنت وشاخت ، فلما كان في بعض الأيام لقيت يوسف في طريق والجنود حوله ووراءه ، وعلى رأسه بنود مكتوب عليها ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١) ، فصاحت به وقالت : سبحان من أعَزَّ العبيد بالطاعة ، وأذل الأرباب بالمعصية ، فعرفها ، وقالت له : تعطف علي وارزقني شيئاً فدعاها وكلمها ، وأشفق لحالها ، ودعا الله تعالى فرَدَّ عليها جمالها وتزوجها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ورُوي في نحو هذا من القصص مالا يوقف على صحته ، ويطول الكلام بسوقه .

وقرأ الجمهور : ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾ على الإخبار عن يوسف ، وقرأ ابن كثير وحده : ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾ بالنون على ضمير المتكلم ، أي حيث يشاء الله من تصرف يوسف على اختلاف تصرفه ، وحكى أبو حاتم هذه القراءة عن الحسن ، وشيبة ، ونافع ، وأبي جعفر – بخلاف عن الثلاثة المدنيين قال أبو علي : إمَّا أن يكون تقدير هذه القراءة : «حيث يشاء من المحاريب والمتعبدات» ، وأحوالُ الطاعات قُرَبٌ يريدها الله تبارك وتعالى ويشاؤها ؛ وإمَّا أن يكون معناها : «حيث يشاء يوسف» ،

(١) الآية (١٠٨) من سورة (يوسف) .

لكن أضاف الله عزّ وجلّ المشيئة التي ليوسف إليه من حيث هو عبد من عبيده ؛ وكانت مشيئته بقوة الله تعالى وقدرته ، كما قال : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَى﴾(١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله من أبي علي نزعة اعتزالية وتحفُّظٌ من أن أفعال العباد من فاعلين ، فتأمله .

واللام في قوله : ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ يجوز أن تكون على حدّ التي في قوله تعالى : ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾(٢) ، و ﴿لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾(٣) وقوله : [يَتَبَوَّأُ] في موضع نصب على الحال ؛ و ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ نصب على الظرف ، أو على المفعول به ، كما قال الشَّمَّاخ :

. . . . حيْثُ تُكْوَى النَّواجِزُ(٤)

وباقي الآية بيِّن .

(١) من الآية (١٧) من سورة (الأنفال) .

(٢) من قوله تعالى في الآية (٧٢) من سورة (النمل) : ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ .

(٣) من الآية (٤٣) من سورة (يوسف) .

(٤) هذا جزء من بيت ، وهو بتمامه :

وَجَلاهَا عَنْ ذِي الأَرَاكَةِ عَامِرٌ أخو الخُضْرِ يَرْمِي حيْثُ تُكْوَى النَّواجِزُ

ذو الأراكة : موضع من اليمامة لبني عجل مشهور بكثرة نخيله ، وجلاها : أخرجها وأبعدها ، وعامر أخو الخضر : قانص مشهور ، والخُضر : سرعة جري الفرس ، ومثله الإحْضار ؛ =

ولما تقدم في هذه الآية أن الإحسان من العبد والجري على طريق الحق لا يضيع عند الله ، ولابُدَّ من حُسْن عاقبته في الدنيا ــ أعقَب ذلك بأن حال الآخرة أحمد ، وأحرى أن يُجعل غرضاً ومقصداً ، وهذا هو الذي ينتزع من الآية بحسب التقييد بين الإيمان والتقوى من الناس ، وفيها ــ مع ذلك ــ إشارة إلى أن حاله من الآخرة خير من حاله العظيمة في الدنيا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾

قال السدي وغيره : سبب مجيئهم أن المجاعة التي أنذر بها يوسف أصابت البلاد التي كان بها يعقوب ، ورُوي أنه كان في العربات من أرض فلسطين بغور الشام ، وقيل : كان بالأَدلاج من ناحية الشعب [1] ،

= ولكن الحُضْر هو الاسم ، والإحضار هو المصدر ، وعامرٌ هذا كان سريع العدو حتى قيل عنه : أخو الحُضْر ، والنَّواحِز : الإبل التي بها نُحاز ، والنُّحاز داء يأخذ الدواب والإبل في رئاتها فتَسْعُل سعالاً شديداً ، ودواؤها هو الكي في جنوبها أو أصول أعناقها ، وقد روى : النَّحائزُ ، والحُزَاحِزُ والجزائزُ .

(١) اختلفت النسخ في كلمتي (العربات) و (الأدلاج) ، واخترنا ما يتفق مع كتب التفسير المحققة .

وكان صاحب بادية ، له إبل وشاءٌ ، فأصابهم الجوع ، وكان أهل مصر قد استعدوا وادخروا من السنين الخصيبة ، فكان الناس يمتارون من عند يوسف وهو في رتبة العزيز المتقدم ، وكان لا يعطي الوارد أكثر من حمل بعير ، يُسوِّي بين الناس ، فلما ورد إخوته عرفهم يوسف عليه السلام ولم يعرفوه هم لبعد العهد وتغير سنه ، ولم يقع لهم – بسبب مُلكه ولسانه القبطي – ظن عليه ، ورُوي في بعض القصص أنه لما عرفهم أراد أن يُخبروه بجميع أمرهم ، فباحثهم بأن قال لهم (بترجمان) : أظنكم جواسيس ، فاحتاجوا حينئذ إلى التعريف بأنفسهم فقالوا : نحن أبناءُ رجل صِدِّيق ، وكنا اثني عشر ، ذهب واحد منا في البرية ، وبقي أصغرنا عند أبينا ، وجئنا نحن للميرة ، وسقنا بعير الباقي منا ، وكانوا عشرة ولهم أحد عشر بعيرا ، فقال لهم يوسف : ولم تخلف أخوكم ؟ قالوا : لمحبة أبينا فيه ، قال : فائتوني بهذا الأخ حتى أعلم حقيقة قولكم ، وأرى : لم أحبه أبوكم أكثر منكم إن كنتم صادقين . ورُوي في القصص أنهم وردوا مصر ، واستأذنوا على العزيز وانتسبوا في الاستئذان ، فعرفهم وأمر بإنزالهم ، وأدخلهم في ثاني يوم على هيئة عظيمة لمُلكه وأُبَّهة شيقة ، ورُوي أنه كان متلثماً أبدا ستراً لجماله ، وأنه كان يأخذ الصُّواع فينقره ، ويفهم من طنينه صدق ما يُحَدَّث به أو كذبه ، فسُئِلوا عن أخبارهم ، فكلما صدقوا قال لهم يوسف : صدقتم ، فلما قالوا : وكان لنا أخ أكله

الذئب طنَّ يوسف الصواع وقال : كذبتم ؛ ثم تغير لهم وقال : أراكم جواسيس ، وكلفهم سوق الأخ الباقي ليظهر صدقهم . وفي ذلك قصص طويل جاءت الإشارة إليه في القرآن وجيزة .

والجهاز : ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع وكل ما يحمل ، وكذلك جهاز العروس وجهاز الميت .

وقول يوسف عليه السلام : ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ الآية . يرغبهم في نفسه آخرا ويؤنسهم ويستميلهم ، و [ٱلْمُنْزِلِينَ] : يعني المُضيفين في قُطره ووقته . والجهاز المشار إليه : الطعام الذي كان حمله لهم ، ثم توعدهم إن لم يجيئوا بالأخ بأنه لا يكيل لهم عنده في المستأنف ، وأمرهم ألا يقربوا له بلداً ولا طاعة : ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ نهيٌ لفظاً ومعنى ، ويجوز أن يكون لفظه الخبر ومعناه النهي ، وتحذف إحدى النونين ، كما قُرِئَ : ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونِ﴾[1] بكسر النون ، وهذا خبر لاغير ، وخلط النحاس في هذا الموضع ، وقال مالك رحمه الله : هذه الآية — وما يليها — تقتضي أن كيل الطعام على البائع ، وكذلك هي الرواية في الشركة والتولية أنها بمنزلة البيع ، والرواية في القرض أن الكيل على المستقرض ، ورُوي أنه حبس منهم شمعون رهينة حتى يجيئوهُ ببنيامين ، قاله السدي ، ورُوي أنه لم يحبس منهم أحداً .

(١) من قوله تعالى في الآية (٥٤) من سورة (الحِجْر) : ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ .

ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (كان يوسف يلقي حصاة في إناء فضة مخوص بالذهب فيطنُّ ، فيقول لهم : إن هذا الإناء يخبرني أن لكم أباً شيخاً) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كأنها حيلة وإيهامٌ لهم ، ورُوي أن ذلك الإناء به كان يكيل الطعام إظهاراً لعزته بحسب غلائه في تلك المدة ، ورُوي أن يوسف عليه السلام استوفى في تلك السنين أموال الناس ثم أملاكهم ، فمن هناك ليس لأحد في أرض مصر ومزارعها ملك ، وظاهر كل ما فعله يوسف معهم أنه بوحي وأمر ، وإلا فكان برُّ يعقوب يقتضي أن يبادر إليه ويستدعيه ، لكن الله تبارك وتعالى أعلمه بما يصنع ليكمل أجر يعقوب ومحنته وتتفسر الرؤيا الأولى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

تقدم معنى «المراودة» ، أي : سنفائل[1] أباه في أن يتركه يأتي معنا إليك ، ثم شدَّدوا هذه المقالة بأن التزموها لهم في قولهم : ﴿وإنَّا

(١) فاءله : لعب معه لعبة الفئال ، وهي أن يخبئ فريق شيئاً في التراب ثم يقسمه قسمين ، ويسأل الفريق الآخر : في أيِّهما يكون الشيء ؟

لَفَاعِلُونَ﴾ ، وأراد يوسف عليه السلام المبالغة في استمالتهم بأن ردَّ مال كل واحد منهم في رحله بين طعامه ، وأمر بذلك فتيانه .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [لِفِتْيَتِهِ] ، وقرأ حمزة ، والكسائي : [لِفِتْيَانِهِ] ، واختلف عن عاصم ، ففِتْيَان للكثرة – على مراعاة المأمورين ، وفِتْيَة للقِلَّة – على مراعاة المتناولين وهم الخدمة –(١) ويكون هذا الوصف للحر وللعبد ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : «وقال لفتيانه وهو يكايلهم» .

وقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ يريد : لعلهم يعرفون لها يداً أو تكرمة يرون حقها فيرغبون فينا فلعلهم يرجعون حينئذ ، وأما مَيْزُ البضاعة فلا يقال فيه : «لَعَلَّ» ، وقيل : قصد يوسف بِرَدِّ البضاعة أن يتحرجوا من أخذ الطعام بلا ثمن فيرجعوا لدفع الثمن ، وهذا ضعيف من وجوه ، وسرورُهم بالبضاعة وقولهم : ﴿هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ يكشف أن يوسف عليه السلام لم يقصد هذا ، وإنما قصد أن يستميلهم ويَصِلَهُم فيرغبهم في نفسه كالذي كان . وخصَّ البضاعة دون أن يعطيهم غيرها من الأموال لأنها أوقع في نفوسهم ، إذْ يعرفون حلَّها ، وماله هو إنما

---

(١) في صيغة الكثرة يكون مثل «غلمان» و «صبيان» ، وفي صيغة القِلَّة يكون مثل «غِلْمَة» و «صِبْيَة» ، فإن قيل : وزن «فَتَى» فَعَل ، و «فَعَل» لا يُجمع على «فِعْلَة» ، قيل : لما وافق «غلاماً» في الجمع الكثير فقيل فيه «فتيان» جمعوا بينهما في القليل فقيل «فِتْيَة» ليوافقوا بينهما . قاله ابن خالويه في كتابه : «الحجة في القراءات السبع» .

كان عندهم مالا مجهول الحال ، غايته أن يُسْتَجَاز على نحو استجازتهم قبول الميرة ، ويظهر أن ما فعل يوسف من صلتهم وجبرهم في تلك الشدة كان واجباً عليه ، إذ هو ملك عدل ، وهم أهل إيمان ونبوة . وقيل : علم عدم البضاعة والدراهم عند أبيه فردَّ البضاعة إليهم لئلا يمنعهم العدم من الإنصراف إليه ، وقيل : جعلها توطئة لجعل السقاية في رحل أخيه بعد ذلك ليُبَيِّن أنه لم يسرق لمن يتأمل القصة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والظاهر من القصة أنه إنما أراد الاستئلاف وصلة الرحم .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : [نكْتَلْ] بالنون على مراعاة : ﴿مُنِـع مِنَّا﴾ ، ويقويه : ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ [ونزْدادُ] ، وقرأ حمزة ، والكسائي : [يَكْتَلْ] بالياء ، أي : يكتل يامين كما اكْتَلْنَا ، وأصل «نكْتَلْ» : نَكْتَيِل ، وزنه نَفْتَعِل[1]. وقولهم : ﴿مُنِـعَ مِنَّا﴾ ظاهره أنهم أشاروا إلى قوله : ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ فهو مَنْعٌ في المستأْنف[2] ، وقيل : أشاروا إلى بعير يامين الذي لم يَمْتر ، والأول أرجح ، ثم تضمنوا له حفظه وحيطته .

---

(١) فاستثقلوا الكسرة على الياء فحذفت الكسرة ، فانقلبت الياء ألفاً لانفتاح ما قبلها ، فالتقى ساكنان فحذفت لالتقاء الساكنين .

(٢) في بعض النسخ : «فهو خوف من المستأنف» ، وكان خوفهم من المنع في المستأنف حقيقة لأنهم قد كِيلَ لهم بالفعل وجاءوا أباهم بالميرة ، لكن لما أنذروا بالمنع قالوا : (مُنِـعَ) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ ﴾

قوله : [هَلْ] توقيف وتقرير ، وتألم يعقوب عليه السلام من فرقة يامين ، ولم يصرح بمنعهم من حَمْله لِمَا رَأى في ذلك من المصلحة ، لكنه أعلمهم بقلة طمأنينته إليهم ، وأنه يخاف عليه من كيدهم ، ولكن ظاهر أمرهم أنهم كانوا نُبِّؤا وانتقلت حالُهم فلم يخف مثل ما خاف على يوسف من قبل ، لكن أَعْلَم بأن في نفسه شيئاً ثم استسلم لله تعالى ، بخلاف عبارته في قصة يوسف .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ : ﴿خَيْرٌ حِفْظاً﴾ ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص ـ عن عاصم ـ : ﴿خَيْرٌ حَافِظاً﴾ ، ونصب ذلك ـ في القراءتين ـ على التمييز ، وقال الزجاج : يجوز أن ينصب [حَافِظاً] على الحال ،

وضعف ذلك أبو علي الفارسي ، لأنها حال لابُدَّ للكلام والمعنى منها ، وذلك بخلاف شرط الحال ، وإنما المعنى أن حافظ الله خير من حافظكم ، ومن قرأ : [حِفْظاً] فهو مع قولهم : ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ ، ومن قرأ : [حَافِظاً] فهو مع قولهم : ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾[١] ، فاستسلم يعقوب عليه السلام لله وتوكل عليه ، قال أبو عمرو الداني : قرأ ابن مسعود : «فالله خيرُ حافظ وهو خير الحافظين» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا بُعْدٌ .

وقوله : ﴿فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ سمَّى المشدود المربوط بجملته متاعاً فلذلك حَسُن الفتح فيه ، وقرأ جمهور الناس : [رُدَّت] بضم الراء على اللغة الفاشية عند العرب ، وتليها لغة من يُشِمُّ ، وتليها لغة من يكسر ، وقرأ علقمة ، ويحيى بن وثاب : [رِدَّت] بكسر الراء على لغة من يكسر ، وهي في بني ضبَّة ، قال أبو الفتح : وأما المُعْتَلُّ نحو قِيلَ وبِيعَ فالفاشي فيه الكسر ، ثم الإشمام ، ثم الضم ، فيقولون :

---

(١) قال ابن خالويه : «كان الأصل الإضافة ، فلما حذفت خلفها التنوين ، فإن قيل : فما الفرق بين قولهم : «زيدٌ أفْرَهُ عبدٍ» بالخفض ، و «زيدٌ أفْرَهُ عبداً» بالنصب ؟ فقُلْ : إذا خفضوا فالفارهُ هو العبد ومَدْحَتُه في ذاته ، وإذا نصبوا فالعبد غير زيد ، ومعناه : زيد أفرهكم عبداً أو أفْرَهُ عبداً من غيره ، فهذا فرقانٌ بيِّن» . (الحجة ١٩٧) .

قُولَ وبُوعَ ، وأنشد ثعلب :

. . . . وقُولَ لا أهْلَ لَهُ ولَا مَالْ (١)

قال الزجاج : من قرأ : [رِدَّت] بكسر الراء جعلها منقولة من الدال ، كما فعل في قيل وبيع لِتَدُلَّ على أن أصل الدال الكسرة .

وقوله : ﴿ما نبْغِـي﴾ يحتمل أن تكون [مَا] استفهاماً ، قاله قتادة ، و [نَبْغِـي] من البُغْيَة ، أي : ما نطلب بعد هذه التكرمة ؟ هذا مالُنَا رُدَّ إلينا مع مِيرتنا . قال الزجاج : ويحتمل أن تكون [مَا] نافية ، أي : ما بقي لنا ما نطلب ، ويحتمل أيضاً أن تكون نافية و [نَبْغي] من البَغْي ، أي : ما تَعَدَّيْنَا فَكَذَبْنَا على هذا الملك ولا في وصف إجماله وإكرامه ، هذه البضاعة مردودة . وقرأ أبو حيوة : ﴿مَا تَبْغي﴾ بالتاء على مخاطبة يعقوب ، وهي بمعنى : ما تريد ؟ وما تطلب؟ قال المهدوي : وروتها عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وقرأت فرقة : [ونَمِيرُ] بفتح النون ، من : مار يميرُ إذا جلب الخير ، ومن ذلك قول الشاعر :

(١) هذا عجز بيت ، أورده في (اللسان ــ قول) ، و (المنصف ١ــ٢٥٠) ؛ و (المحتسب ١ــ٣٤٥) ، وهو بتمامه :

وابْتُذِلَتْ غَضْبَى وأُمَّ الرِّحَـالْ وقُولَ لا أهْلَ لَهُ ولا مَـــالْ

وفي (اللسان) : « وابتدأت » بدلا من « ابْتُذِلَتْ » . وقال ابن جني في « المحتسب » : « وأظنه عن أحمد بن يحيى » .

بَعَثْتُكَ مائِراً فَمَكَثْتَ حَــوْلًا   مَتَى يَأْتي غِياثُكَ مِنْ تُغِيثُ ؟ (١)

وقرأت عائشة رضي الله عنها : [ونُميرُ] بضم النون ، وهي من قراءة أبي عبد الرحمن السُّلَمي ، وعلى هذا يقال : مار وأَمَارَ بمعنى .

وقولهم : ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ يريدون بعير أخيهم ، إذْ كان يوسف إنما حمَّل لهم عشرة أبعرة ولم يحمل الحادي عشر لغيبة صاحبه ، وقال مجاهد : ﴿كَيْلَ بعِير﴾ أراد : كيل حمار ، قال : وبعض العرب يقول للحمار : بعير . وهذا شاذ .

وقولهم : ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ تقرير بغير ألف ، أي : أذلك كيلٌ يسيرٌ في مثل هذا العام فيهمل أمره ؟ وقيل : معناه : يسير على يوسف أن يعطيه ، وقال الحسن البصري : وقد كان يوسف وعدهم أن يزيدهم حمل بعير بغير ثمن ، وقال السدي : معنى ذلك : كيل يسير أي سريع لا نحبس فيه ولا نمطل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فكأنهم ــ على هذا ــ آنسوه بقرب العودة .

---

(١) يقال : مارَ أولاده وأهله يَميرهُم مَيْراً فهو مائِرٌ ، فالمائر : اسم فاعل ، والمِيرَة : الطعام يأتي به الإنسان ، وهم يمتارون لأنفسهم ، ويُميرون غيرهم ، والمَيَّار : جالب الميرة ، والمُيَّار : جمع مائر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

أراد يعقوب عليه السلام أن يتوثق منهم ، والمَوْثِقُ «مَفْعَل» من الوثاقة ، فلما عاهدوه أشهد الله بينه وبينهم بقوله : ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ، والوكيل : القَيِّم الحافظ .

وقرأ ابن كثير : [تُؤْتُونِي] بياءٍ في الوصل والوقف ، ورُوي عن نافع أنه وصل بياءٍ ووقف دونها ، والباقون تركوا الياءَ في الوجهين .

وقوله : ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ ، قيل : خشي عليهم العين لكونهم أحد عشر لرجل واحد ، وكانوا أهل جَمال وبسطة ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة وغيرهم ، والعين حقٌّ ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّ العين لتُدخِل الرجل القبر والجمل القِدْر)(١) ، وفي تعوذه عليه الصلاة والسلام : (أعوذ بكلمات الله

(١) أخرجه ابن عديّ في الكامل ، وأبو نعيم في الحلية عن جابر ، وابن عديّ في الكامل عن أبي ذر ، ولفظه في «الجامع الصغير» : (العين تدخل الرجل القبر ، وتدخل الجمل القدر) . ورمز له الإمام السيوطي بالصحة .

التامة من كل شيطان وهامة وكل عين لامة)[1] ، وقيل : خشي أن يُسْتَراب بهم لقول يوسف قبْلُ : «أنتم جواسيس» ، ويضعف هذا ظهورهم قبْلُ بمصر ، وقيل : طمع بافتراقهم أن يتسمّعوا ويتطلعوا خبر يوسف ، وهذا ضعيف يردُّه ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فإن ذلك لا يتركب على هذا المقصد .

وقوله : ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ لفظ عام لجميع وجوه الغلبة والقسر ، والمعنى : تعمكم الغلبة من جميع الجهات حتى لا تكون لكم حيلة ولا وجه تخلُّص ، وقال مجاهد : المعنى : إلا أن تهلكوا جميعاً ، وقال قتادة : إلّا ألاّ تطيقوا ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا يرجحه لفظ الآية .

وانظر أن يعقوب عليه السلام قد توثق في هذه القصة ، وأشهد الله تعالى ، ووصّى بنيه ، وأخبر بعد ذلك بتوكله ، فهذا توكل مع

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ، وأبو داود في السنّة ، والترمذي في الطب ، وكذلك ابن ماجه أخرجه في الطب ، والإمام أحمد في مسنده (١-٢٣٦ ، ٢٧٠) ، ولفظه فيه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُعَوِّذ حسناً وحُسَيْناً يقول : (أُعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة) ، وكان يقول : (كان إبراهيم أبي يُعَوِّذ بها إسماعيل وإسحق) .

تسبب : وهو توكل جميع المؤمنين إلا من شذَّ في رفض السعي ، وقنع بالماء وبقل البرية ونحوه ، فتلك غاية التوكل . وعليها بعض الأنبياء عليهم السلام ، والشارعون منهم مثبتون سُنن التسبب الجائز ، وما تجاوز ذلك من الإلقاء باليد مختلف في جوازه ، وقد فضله بعض المجيزين له ، ولا أقول بذلك ، وباقي الآية بيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

رُوي أنهم لما ودعوا أباهم قال لهم : «بلغوا ملك مصر سلامي ، وقولوا له : إن أبانا يصلي عليك ، ويدعو لك ، ويشكر صنيعك معنا». وفي كتاب أبي منصور المهراني أنه خاطبه بكتاب قرئ على يوسف فبكى.

وقوله : ﴿ما كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ ٱللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً في نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ بمثابة قوله : لم يكن في ذلك دفع قَدَر الله ، بل كان أرَباً ليوسف قضاه ، وطيباً لنفسه تمسك به وأمر بحسبه ، فجواب

[لَمَّا] في معنى قوله : ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾[(١)] ، و ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناءٌ ليس من الأول . والحاجة هي أن يكون طيب النفس بدخولهم من أبواب متفرقة خوف العين ، قال مجاهد : الحاجة : خيفة العين ، وقاله ابن إسحق ، وفي عبارتهما تجوز ، وفي نظير هذا الفعل أن النبي صلى الله عليه وسلم سدَّ كوَّة في قبرٍ بحجر وقال : (إن هذا لا يغني شيئاً ولكنه تطْيِيبٌ لنفس الحي) [(٢)] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

قوله — عندي — : ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ معناه : ما يردُّ عنهم قدراً ، لأنه لو قضى أن تصيبهم عين لأصابتهم مفترقين أو مجتمعين ، وإنما طمع يعقوب أن تصادف وصيتُه قَدَرَ السلامة فوصَّى؛ وقضى — بذلك — حاجة نفسه في أن يتنعَّم برجائه أن تصادف وصيتُه القدر في سلامتهم .

ثم أثنى الله عزَّ وجلَّ على يعقوب بأنه لقِنَ ما علمه الله من هذا المعنى ، واندرج غير ذلك في العموم ، وقال : إن أكثر الناس ليس

(١) قال أبو حيان في البحر : «وفيه حجة لمن زعم أن [لَـمَّا] حرف وُجوب لوجوب لا ظرف زمان بمعنى (حين) ، إذْ لو كانت ظرف زمان ما جاز أن تكون معمولة لِـمَّا بعد (ما) النافية ، لا يجوز : «حين قام زيد ما قام عمرو» . ويجوز : «لما قام زيد ما قام عمرو» ، فدلَّ ذلك على أن [لَـمَّا] حرف يترتب جوابه على ما بعده .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الطب .

كذلك ، وقيل : معناه : إنه لعامل بما علمناه ؛ قاله قتادة . وقال سفيان : من لا يعمل لا يكون عالماً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا لا يعطيه اللفظ ، أما إنه صحيح في نفسه يرجِّحه المعنى وما تقتضيه منزلة يعقوب عليه السلام ، قال أبو حاتم : قرأ الأعمش : ﴿لَذُو عِلْمٍ مِمَّا عَلَّمْنَاهُ﴾ . ويحتمل أن يكون جواب [لَمَّا] في هذه الآية محذوفاً مقدراً ، ثم يخبر عن دخولهم أنه ﴿مَا كَانَ يُغْنِي ...﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ولَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ الآية . المعنى أنه لما دخل إخوةُ يوسف عليه ورأى أخاه شكر ذلك لهم – على ما رُوي – وضمَّ إليه أخاه وآواه إلى نفسه ؛ ومن هذه الكلمة : المأْوى ، وكان يامين شقيق يوسف فآواه . وصورة ذلك – فيما رُوي عن ابن إسحق وغيره – أن يوسف عليه السلام أمر صاحب ضيافته أن ينزلهم رجلين رجلين ، فبقي يامين وحده ، فقال يوسف : أنا أُنزل هذا مع نفسي ، ففعل وبات عنده ، وقال له : ﴿إنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ ، واختلف المتأَولون في هذا اللفظ . فقال ابن إسحق وغيره : أخبره بأَنه أخوه حقيقة واستكتمه ، وقال له : لا تبال بكل ما تراه من المكروه في تحيُّلي في أخذك منهم ،

وعلى هذا التأويل يحتمل أن يشير بقوله : ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلى ما يعمله فتيان يوسف من أمر السقاية ونحو ذلك [١] ، ويحتمل أن يشير إلى ما عمله الإخوة قديماً . وقال وهب بن منبه : إنما أخبره أنه أخوه في الود مقام أخيه الذاهب ، ولم يكشف له الأمر بل تركه تجوز عليه الحيلة كسائر إخوته .

و [تَبْتَئِسْ] تفتعل ، من البؤس ، أي لا تحزن ولا تهتم وهكذا عبّر المفسرون .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

(١) اعترض أبو حيان في البحر على كلام ابن عطية ، قال : « ولا يحتمل ذلك ، لأنه لو كان التركيب « بِمَا يَعْمَلُونَ » بغير « كانوا » لأمكن عَلَى بُعْده ، لأن الكلام إنما هو مع إخوة يوسف ، وأما ذكر فتيانه فبعيد جداً ، لأنهم لم يتقدم لهم ذكر إلا في قوله : ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ﴾ ، وقد حال بينهما قصص ، واتسق الكلام مع الإخوة اتساقاً لا ينبغي أن يعدل فيه عن ضمير عائد إليهم ، وإن ذلك إشارة إلى ما كان يلقى منهم قديماً من الأذى » .

هذا من الكيد الذي يَسَّره الله ليوسف عليه السلام ، وذلك أنه كان في دين يعقوب أن يُسْتَعبد السارق ، وكان في دين ملك مصر أن يُضرب ويضاعف عليه الغرم ، فعلم يوسف أن إخوته ـ لثقتهم ببراءة ساحتهم ـ سيدعون في السرقة إلى حكمهم ، فتَحيَّل لذلك ، واستسهل الأَمر على مافيه من رمْي أَبرياء بالسرقة وإدخال الهَمِّ على يعقوب عليه السلام وعليهم ؛ لما علم في ذلك من الصلاح في الآجل ، وبوحيٍ لا محالة وإرادةٍ من الله محنتُهم بذلك . هذا تأْويل قوم ، ويُقَوِّيه قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ .

وقيل : إنما أُوحي إلى يوسف أن يجعل السقاية فقط ، ثم إن حافظها فقدها ، فنادى برأْيه على ما ظهر إليه ، ورجَّحه الطبريُّ ، وتفتيش الأَوعية يردُّ عليه .

وقيل : إنهم لما كانوا قد باعوا يوسف استجاز أن يقال لهم هذا ، وأنه عوقب على ذلك بأَن قالوا : ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ .

وقوله : [جَعَلَ] أي أَمر خَدَمه وفتيانه ، وقرأَ ابن مسعود : [وَجَعَلَ] بزيادة واو .

و [السِّقَايَةَ] : الإناء الذي يشرب به الملك ، وبه كان يكيل الطعام للناس ، هكذا نص جمهور المفسرين : ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن زيد ، وفي كتب من حرَّر أمرها أنها شكل له رأسان

ويصل بينهما مَقْبِض يمسك بالأيدي ؛ فَيُكال الطعام بالرأس الواحد ، ويشرب بالرأس الثاني أو بهما ، فيشبه أن يكون لِشَراب أضياف الملك وفي أطعمته الجميلة الّتي يحتاج فيها إلى عظم الأواني .

وقال سعيد بن جبير : الصُّواع مثل المكُّوك الفارسي ، وكان إناء يوسف الذي يشرب فيه ، وكان إلى الطول ما هو ، قال : وحدثني ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان للعباس مثله يشرب به في الجاهلية .

وقال ابن جبير أيضاً : الصُّواع : المكُّوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه ، كانت تشرب فيه الأعاجم ؛ ورُوي أنها كانت من فضة ، وهذا قول الجمهور ، ورُوي أنها كانت من ذهب ، قال الزجَّاج : وقيل : كان من مَسْك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد رُوي هذا بفتح الميم .

وقيل : كان يشبه الطاس ؛ وقيل : من نحاس ، قاله ابن عباس أيضاً ، ولِعِزَّة الطعام في تلك الأعوام قُصِر كيلها على ذلك الإناء . وكان هذا الجَعْلُ بغير علم يامين . قاله السُّدِّي ، وهو الظاهر .

فلما فصلت العير بأوقارها ، وخرجت من مصر فيما رُوي — وقالت فرقة : بل قبل الخروج من مصر — أمر بهم فحبسوا ، ﴿وَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ ، ومخاطبة الْعِير تَجَوُّز ؛ والمرادُ أربابُها ، وإنما المراد : أيتها القافلة

أو الرفقة ، وقال مجاهد : كانت دوابهم حميراً ، ووصفهم بالسرقة من حيث سرق – في الظاهر – أحدهم ؛ وهذا كما تقول : «بنو فلان قتلوا فلاناً» وإنما قتله أحدهم . فلما سمع إخوة يوسف هذه المقالة أقبلوا عليهم ، وساءهم أن يُرْمَوا بهذه المنقبة ، وقالوا : ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ ؟ ليقع التفتيش فتظهر براءتُهم ، ولم يلوذوا بالإنكار من أول ، بل سألوا إكمال الدعوى عسى أن يكون فيها ما تَبْطُل به فلا يحتاج إلى خصام . وقرأ أبو عبد الرحمن : [تُفْقِدُونَ] بضم التاء ، وضعفها أبو حاتم.

﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ وهو المكيال ، وهو السقاية ، رسمه أولا بإحدى جهتيه وآخرًا بالثانية . وقرأ جمهور الناس : [صُوَاع] بضم الصاد وبألف ، وقرأ أبو حَيْوة : [صِوَاع] بكسر الصاد وبألف ، وقرأ أبو هريرة ، ومجاهد : ﴿صَاعَ الْمَلِكِ﴾ بفتح الصاد دون واو ، وقرأ عبد الله بن عوف : [صُوعَ] بضم الصاد ، وقرأ أبو رجاء : [صَوْعَ][1] . وهذه لغات في المكيال ؛ قاله أبو الفتح وغيره . وتؤنث هذه الأسماء وتذكر ، وقال أبو عبيد : يؤنث الصاع من حيث سمي سقاية ، ويُذكَّر من حيث هو صاع ؛ وقرأ يحيى بن يعْمَر : [صَوْغَ] بالغين منقوطة ، وهذا على أنه الشيءُ المصوغ للملك على ما رُوي أنه كان من ذهب أو فضة ، فهو مصدر سُمِّي به ، ورويت هذه القراءة

(١) أي بفتح الصاد وسكون الواو ، والعبارة في إحدى النسخ : «وقرأ أبو رجاء كذلك إلا أنه فتح الصاد» ، وهي أدق .

عن أبي رجاءٍ ، قال أبو حاتم : وقرأ سعيد بن جبير ، والحسن : [صُوَاغ] بضم الصاد وألف وغين معجمة .

وقوله : ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي : لمن دلَّ على سارقه وفضحه وجبر الصواع على الملك[١] ، وهذا جُعْل[٢] . وقوله : ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ حَمَالة[٣] : وذلك أنه لما كان الطعام لا يوجد إلا عند الملك فُهِم عن المؤذِّن أنه إنما جعَلَ عن غيره ، فلخوفه ألا يوثَق بهذه الْجَعَالة — إذ هي عن الغَيْر — تحمل هو بذلك . قال مجاهد : الزَّعيم هو المؤَذِّن الذي قال : ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ ، والزعيم : الضامن في كلام العرب ، ويسمى الرئيس زعيماً لأنه يتضمن حوائج الناس .

وقوله : ﴿قَالُوا تَاللهِ﴾ الآية . رُوي أن إخوة يوسف كانوا ردُّوا البضاعة الموجودة في الرحال ، وتحرجوا من أخذ الطعام بلا ثمن ، فلذلك قالوا : ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ ، أي : لقد علمتم منا التحري ، ورُوي أنهم كانوا قد اشتهروا في مصر بصلاح وتعفف ، وكانوا يجعلون الأَكِمَّة[٤] في أفواه إبلهم لئلا تنال زرع الناس ، فلذلك قالوا : لقد

---

(١) جَبَر : رَدَّ ، يقال : جَبَرَ الله مصيبة فلان ، أي رَدَّ عليه ما ذهب منه ، أو عوَّضه عنه .
(٢) الجُعْل والجَعَالَة : ما يُجْعَل على العمل من أجر أو رشوة . وبمعناهما أيضاً الجِعال بكسر الجيم .
(٣) الحَمَالة والحَمَال : الدِّية أو الغرامة يحملها قوم عن قوم .
(٤) الأَكِمَّة : جمع كِمَام ، وهو الغطاء الذي يجعل على العناقيد والكبائس إلى حين صرامها . (اللسان — كم) .

علمتم ما جئنا لفساد وما نحن أهل سرقة . والتاءُ في [تَاللهِ] بدل من واو ، كما أُبدلت في «تُراثٍ» ، وفي «التَّوراة» و «تُخَمة»[1] ، ولا تدخل التاءُ في القسم إلا في المكتوبة من بين أسماء الله تعالى لا في غير ذلك ، لا تقول : «تالرحمن» ولا «تالرحيم»[2] .

وقوله تعالى : ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ الآية . قال فتيان يوسف : فما جزاءُ السارق إن كنتم كاذبين في قولكم : ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ؟ فقال إخوة يوسف : جزاءُ السارق الحكم الذي تتضمنه هذه الألفاظ ﴿مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُه﴾ ، ف [جَزَاؤُهُ] الأول مبتدأ ، و [مَنْ] مبتدأ ثان ، – و [مَنْ] شرط أو بمعنى الذي – وقوله : ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ خبر [مَنْ] ، والجملة خبر قوله : [جَزَاؤُهُ] الأول ، والضمير في قوله : ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ﴾ للسارق[3] ، ويصحُّ أن تكون [مَنْ] خبراً على أن المعنى : «جَزاءُ السارق من وجد في رحله» ، والضمير في [رَحْلِهِ] عائد على [مَنْ] ، ويكون قوله : [فَهُوَ] زيادةَ بيانٍ وتأكيداً ، وليس هذا

(١) هذا قول أكثر النحويين ، وخالف السهيلي في ذلك فزعم أنها أصل وليست بدلا من واو ، وقال أبو حيان : «وهو الصحيح» .

(٢) قال أبو حيان في «البحر» : «حكي عن العرب دخولها على «الرب» و «الرحمن» و «حياتك» ، قالوا : «تَرَبِّ الكعبة – وتالرَّحمن – وتَحَيَاتِكَ» . وابن عطية يطلق في أحيان كثيرة لفظ «المكتوبة» على اسم الجلالة «الله» .

(٣) من رأي صاحب «البحر المحيط» أن هذا الإعراب لا يصح لخلو جملة الجواب من رابط يربطها بالمبتدأ .

الموضع عندي من مواضع إبراز الضمير على ما ذهب إليه بعض المفسرين. ويحتمل أن يكون التقدير : «جزاؤُه استرقاق من وُجد في رحله» ، ثم يؤكّد بقوله : ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾[1] ، وقولهم هذا قولُ من لم يَسْتَرِبْ بنفسه ، لأنهم التزموا إرقاق من وُجد في رحله ، وهذا أكثر من موجب شرعهم ، إذ حق شرعهم ألا يُؤْخذ إلا من صحت سرقته ، وأمْر يامين في السقاية كان محتملا ، لكنهم التزموا أنَّ من وُجد في رحله فهو مأخوذ على أنه سارق .

وقولهم : ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّالِمِينَ﴾ أي : هذه سُنَّتُنَا ودِيننا في أهل السرقة ، أن يُتَمَلَّك السارق كما تَمَلَّك هو الشيء المسروقَ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وحكى بعض الناس أن هذا الحكم كان في أول الإسلام ثم نسخ بالقطع ، وهذا ضعيف ، ما كان قط فيما علمت . وحكى الزهراوي

---

(١) ذكر ابن عطية هنا إعرابين آخرين للجملة . الأول في قوله : «ويصح أن يكون [مَنْ] خبراً على أن المعنى : جزاءُ السارق من وُجد في رحله ، والضمير في [رَحْلِه] عائد على [مَنْ] ، وقوله : ﴿فَهُوَ جَزَاؤُه﴾ زيادة بيان وتأكيد . والثاني هو قوله : ويحتمل أن يكون التقدير : جزاؤُه استرقاقُ من وُجد في رحله ... الخ . وقد علّق أبو حيان على الإعراب الثاني بقوله : «وهذا القول هو الذي قبله غير أنه أبرز المضاف المحذوف في قوله : (استرقاق مَنْ وُجد في رحله) ، وفيما قبله لابد من تقديره ، لأن الذات لا تكون خبراً عن المصدر ، فالتقدير في الذي قبله : جزاؤُه أخْذ من وُجد في رحله ، أو استرقاق من وجد في رحله . فهذا لابد منه على هذا الإعراب» . ومعنى هذا أن القولين قول واحد . وفي رأي أبي حيان أن هذا الوجه الأخير في الإعراب هو أحسن الوجوه وأبعدها من التكلف .

عن السدي أن حكمهم إنما كان أن يُستخدم السارق على قدر سرقته ، وهذا يضعفه رجوع الصُّواعِ ، فكان ينبغي ألا يُؤْخذ يامين إذ لم يبق فيما يخدم .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

بدؤُه أيضاً بأوعيتهم تمكين للحيلة ، وإبعادٌ لظهور أنها حيلة . وقرأ جمهور الناس : [وِعَاء] بكسر الواو ، وقرأ الحسن : [وُعاء] بضمها ، وقرأ ابن جُبير : [إِعَاء] بهمزة بدل الواو ، وهذا شائع في الواو المكسورة ، وهو أكثر في المضمومة ، وقد جاء في المفتوحة أحد في وحَد .

وأضاف الله تعالى الكيد إلى ضميره لمَّا أخرج القدر الذي أباح به ليوسف أخذ أخيه مَخْرج ما هو في اعتياد الناس كَيْدٌ . وقال السدي ، والضحاك : [كِدْنَا] معناه : صنَعْنَا . و ﴿دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ فسَّره ابن عباس رضي الله عنهما بسلطانه ، وفسَّره قتادة بالقضاء والحكم . وهذا متقارب ،

والاستثناء في هذه الآية حكاية حال ، التقدير : «إلَّا أن شاء اللهُ ما وقع من هذه الحيلة » ، ويحتمل أن يقدر أنه تَسَنُّن لما قرر النفي .

وقرأ الجمهور : [نَرْفَعُ] على ضمير المعظم ، و [نَشَاءُ] كذلك ، وقرأ الحسن ، وعيسى ، ويعقوب بالياء ، أي الله تعالى ، وقرأ أبو عمرو ، ونافع ، وأهل المدينة : ﴿درَجَاتِ مَنْ﴾ بإضافة «الدرجات» إلى «مَن» ، وقرأ عاصم ، وابن محيصن : ﴿درجاتٍ مَنْ﴾ بتنوين الدرجات ، وقرأ الجمهور : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ ، وقرأ ابن مسعود : ﴿وفَوْقَ كُلِّ ذِي عَالِمٍ﴾ ، والمعنى أن البشر في العلم درجات ، فكل عالم فلابُدَّ من أعلم منه ، فإمَّا من البشر ، وإمَّا الله عزَّ وجلَّ ، وأمَّا على قراءة ابن مسعود فقيل : [ذي] زائدة . وقيل : [عَالِم] مصدر كالباطل [(١)] .

---

(١) قال ابن جني في المحتَسب : هو مصدر كالفالج والباطل ، فكأنه قال : «وفوق كل ذي علم عليم» . وأما على تقدير زيادة [ذي] فيصبح المعنى : «وفوق كل علم عليم» ؛ وهناك وجه ثالث في تبيين قراءة ابن مسعود ذكره ابن جني أيضاً ، وهو أن تكون من باب إضافة المسمى إلى الاسم ، والمعنى : «وفوق كل شخص يسمى عالماً عليم» ، وقد كثر عن العرب إضافة المسمَّى إلى اسمه ، فمن ذلك قول الكميت :

إلَيْكُمْ ذَوِي آل النَّبي تَطَلَّعَتْ نوازِعُ مِنْ نفْسِي ظِماءٌ وَألْبُبُ

والنوازع هي من الحنين والميل إلى الشيء ، وألْبُبُ : جمع لُبٍّ وهو العقل ، والمعنى في البيت : إليكم يا آل النبي ، يا مَنْ تُسَمَّوْن بهذا الاسم ، وعليه قول الأعشى :

فَكَذَّبُوهَا بما قَالَتْ فَصَبَّحَهُمْ ذُو آلِ حَسَّانَ يُزْجِي المَوْتَ والشَّرَعَا

أي : كذبوا زرقاء اليمامة فصبحهم الجيش الذي يقال له : آل حسَّانَ ، والشَّرَع : جمع شِرْعة وهي الحبالة التي يصيد بها الصائد .

ورُوي أن المفتش كان إذا فرغ من رَحْل رجُل فلم يجد فيه شيئاً استغفر الله عزَّ وجلَّ تائباً من فعله ذلك ، وظاهر كلام قتادة وغيره أن المستغفر كان يوسف لأنه كان يفتشهم ويعلم أين الصواع ، حتى فرغ منهم وانتهى إلى رحل بنيامين فقال : ما أظن هذا الفتى رضي بهذا ، ولا أخذ شيئاً . فقال له إخوته : والله لا نبرح حتى تفتشه فهو أطيب لنفسك ونفوسنا ، ففتش حينئذ فأخرج السقاية ، وهذا التفتيش من يوسف يقتضي أن المؤَذِّن إنما سرّقهم برأيه[1] ، وإمَّا أن يقال : جميع ذلك كان بأمر الله تعالى[2] ، ويُقَوِّي ذلك قوله : [كِدْنَا] . وكيف لا يكون برأي يوسف وهو مضطر في محاولته لأن يلزمهم حكم السرقة لِيَتِمَّ له أخذ أخيه .

والضمير في قوله : [ٱسْتَخْرَجَهَا] عائد على السقاية ، ويحتمل أن يعود على السرقة .

(١) أي : نسبهم المؤَذِّن إلى السرقة برأيه هو .

(٢) قد يستغنى عن [إمَّا] الثانية بذكر ما يغني عنها نحو قول المثقب العبدي :

فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَخِي بِصِدْقٍ ... فَأَعْرِفَ مِنْكَ غَثِّي مِنْ سَمِينِي
وَإِلَّا فَاطَّرِحْنِي وَاتَّخِذْنِي ... عَدُوّاً أَتَّقِيكَ وَتَتَّقِينِي

وقد يستغنى عن الأولى لفظاً كقول النمر بن تولب :

سَقَتْهُ الرَّوَاعِدُ مِنْ صَيِّفٍ ... وَإِنْ مِنْ خَرِيفٍ فَلَنْ يَعْدَمَا

ومن قول ذي الرمة (ونسب للفرزدق) :

تُلِمُّ بِدَارٍ قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهَا ... وَإِمَّا بِأَمْوَاتٍ أَلَمَّ خَيَالُهَا

أي : إمَّا بدار وإمَّا بأموات . ويمكن أن يكون ابن عطية على هذا الثاني ، أي : حذف إمَّا الأولى ، وتقدير الكلام : « إمَّا هذا ، وإمَّا أن يقال ... الخ » .

ورُوي أن إخوة يوسف لما رأوا ذلك قالوا : يَا بِنْيَامِين بن راحيل ، قبَّحكَ الله ، ولدت أُمك أخوين لِصَّيْن ، كيف سَرَقْت هذه السقاية ؟ فرفع يديه إلى السماء وقال : والله ما فعلتُ ، فقالوا له : فمن وضعها في رحلك ؟ قال : الذي وضع البضاعة في رحالكم .

وما ذكرناه من المعنى في قوله تعالى : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ هو قول الحسن وقتادة ، وقد رُوي عن ابن عباس ، ورُوي أيضاً عنه رضي الله عنه أنه حدَّث يوماً بحديث عجيب ، فتعجب منه رجلٌ ممن حضر وقال : «الحمد لله وفوق كل ذي علم عليم» ، فقال له ابن عباس : «بئس ما قلت ، إنما العليمُ اللهُ ، وهو فوق كل ذي علم» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وبين هذا وبين قول الْحَسَن فرقٌ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

الضمير في [قَالُوا] لإخوة يوسف ، والأخ الذي أشاروا إليه هو يوسف ، ونكَّروه تحقيراً للأمر ، إذ كان مما لا علْم للحاضرين به ، ثم ألصقوه ببنْيامين إذْ كان شقيقه .

ويحتمل قولهم : ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ تـأْويلَيْن:

أحدهما : أنهم حققوا السرقة في جانب بنيامين ويوسف عليهما السلام بحسب ظاهر الحكم ، فكأنهم قالوا : إن كان قد سرق فغير بدع من ابْنَيْ راحيل ؛ لأن أخاه يوسف كان قد سرق ، فهذا من الإخوة إنْحاءٌ على ابْنَيْ راحيل : يوسف وبنيامين .

والوجه الآخر الذي يحتمله لفظهم يتضمن أن السرقة في جانب يوسف وبنيامين مظنونة ، كأنهم قالوا : إن كان هذا الذي رمي به بنيامين حقاً في نفسه فالذي رُمِيَ به يوسف قَبْلُ حق إذاً ، وكأن قصة يوسف والظن به قوياً عندهم أقوى مما ظهر في جهة بنيامين .

وقال بعض المفسرين : «التقدير : فقد قيل عن يوسف إنه سرق» ، ونحو هذا من القول الذي لا ينطبق معناه على لفظ الآية .

وهذه الأقوال منهم عليهم السلام إنما كانت بحسب الظاهر وموجب الحكم في النازلين ، فلم يعنوا غيبة ليوسف ، وإنما قصدوا الإخبار بـأمر جرى لِتَزُول بعض المعرة عنهم ويختص بها هذان الشقيقان .

وأما ما رُوي في سرقة يوسف فثلاثة وجوه : الجمهور منها على أن عمته كانت ربَّته ، فلما شب أراد يعقوب أخذه منها ، فولعت به وأشفقت من فراقه ، فأخذت مِنْطقة إسحق ـ وكانت متوارثة عندهم ـ فَنَطَّقَتْهُ بها من تحت ثيابه ، ثم صاحت وقالت : إني قد فقدتُ

المِنْطَقة ويوسف قد خرج بها ، فَفُتِّش فوجدت عنده ، فاسْتَرَقَّتْهُ ـ حسبما كان في شرعهم ـ وبقي عندها حتى ماتت فصار عند أبيه ، وقال ابن إدريس عن أبيه : إنَّمَا أكل بنو يعقوب طعاماً فأخذ يوسف عَرْقاً[١] فخبأه فرموه لذلك بالسرقة . وقال سعيد بن جبير ، وقتادة : إنما أمرته أمه أن يسرق صنماً لأبيها فسرقه وكسره ، وكان ذلك ـ منها ومنه ـ تغييراً للمنكر ، وفي كتاب الزجّاج أنه كان صنم ذهب[٢].

والضمير في قوله : [فَأَسَرَّها] عائد يُرادُ به الحزازة التي حدثت في نفس يوسف من قولهم ، والكلام يتضمنها ، وهذا كما تضمن الكلام الضمير الذي في قول حاتم :

لَعمْرك ما يُغْني الثَّراءُ عن الفَتَى إذا حشْرَجتْ يَوْماً وضَاقَ بِهاالصَّدْرُ[٣]

وهذا كقوله تعالى : ﴿ثُمَّ إنَّ ربَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغفُورٌ رحِيمٌ﴾[٤] فهو مرادٌ به الحالة المتحصلة من هذه الأفعال المذكورة في الآية .

(١) العَرْق بفتح العين : اللحم المطبوخ ، وقيل : عظمٌ أُخذ جُلُّ لحمه .

(٢) وقيل : إن يوسف كان يسرق من طعام المائدة للمساكين ، حكاه ابن عيسى . وقال الحسن : إنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه .

(٣) البيت في (اللسان ـ حشرج) ، وقد تمثلت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين دخلت على أبيها عند موته ، والرواية في (اللسان) : أماويّ ما يغني ... وحاتم فيه يخاطب زوجه ماوية ، والحشرجة : تردد صوت النفس ، وهو الغرغرة في الصدر عند الموت ، والشاهد فيه أن الضمير في (حشرجت) ليس له مرجع مذكور في الكلام .

(٤) الآية (١١٠) من سورة (النحل) .

وقال قومٌ : أسرَّ المجازاة ؛ وقال قوم : أسرَّ الحجة . وما قدمناه أليق . وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿فَأَسَرَّهُ يُوسُف﴾ بضمير تذكير .

وقوله : ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مكاناً﴾ الآية . الظاهر منه أنه قالها إفصاحاً ، فكأنه أسرَّ لهم كراهية مقالتهم ثم وبَّخَهم بقوله : ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً﴾ أي لسوء أفعالكم ؛ والله يعلم إن كان ما وصفتموه حقاً ، وفي اللفظ إشارة إلى تكذيبهم ، ومما يُقَوِّي هذا عندي أنهم تركوا الشفاعة بأنفسهم وعدلوا إلى الشفاعة بالشيخ عليه السلام ، وقالت فرقة ــ وهو ظاهر كلام ابن عباس رضي الله عنهما ــ : لم يقل يوسف عليه السلام هذا الكلام إلا في نفسه ؛ وإنما هو تفسير للذي أسرَّ في نفسه ، أي : هذه المقالة هي التي أسر . فكأن المراد : قال في نفسه : ﴿أَنْتُمْ ...﴾ .

وذكر الطبري هنا قصصاً اختصاره أنه لما استخرجت السقاية من رحل بنيامين قال إخوته : يا بني راحيل ، ألا يزال البلاء ينالنا من جهتكم ؟ فقال بنيامين : بل بنو راحيل ينالهم البلاء منكم : ذهبتم بأخي فأهلكتموه ، وَوَضَع هذا الصواع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم ، فقالوا : لا تذكر الدراهم وإلا أخذنا بها ، ثم دخلوا على يوسف فأخذ الصواع فنقره فطَنَّ ، فقال : إنه يخبر أنكم ذهبتم بأخ لكم فبعتموه ، فسجد بنيامين وقال : أيها العزيز ، سل صواعك هذا يخبرك بالحق .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ونحو هذا من القصص الذي آثرنا اختصاره ، ورُوي أن روبيل غضب ووقف شعره حتى خرج من ثيابه ، فأمر يوسف بنيًّا له فمسَّه فسكن غضبه ، فقال روبيل : لقد مسَّني أحد من ولد يعقوب ، ثم إنهم تشاوروا في محاربة يوسف وكانوا أهل قوة لا يدانون في ذلك ـ فلما أحس يوسف بذلك قام إلى روبيل فلَبَّبه وصرعه ، فرأوا من قوته ما استعظموه عند ذلك ، وقالوا : أيها العزيز .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

خاطبوه باسم العزيز إذْ كان في تلك اللحظة بعزل الأول أو موته [1] ، على ما رُوي في ذلك . وقولهم : ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ يحتمل أن يكون

(١) يريد أنه في تلك اللحظة كان هو العزيز بعد عزل الأول وهو قطفير ، أو موته .

مجازاً وهم يعلمون أنه لا يصح أَخْذ حُرٍّ لِيُسْتَرَقَّ بدل من أحكمت السُّنة رقَّه ، وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله : «اقتلني ولا تفعل كذا وكذا» ، وأنت لا تريد أن يقتلك ولكن تبالغ في استنزاله ، وعلى هذا يتجه قول يوسف : ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ لأنه تعوذ من غير جائز ، ويحتمل أن يكون قولهم : ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ حقيقة ، وبعيد عليهم – وهم أنبياء – أن يريدوا استرقاق حُرٍّ ، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الحمالة ، أي : خذ أحدنا حتى ينصرف إليك صاحبك ، ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه ، ويعرف يعقوب جلية الأمر ؛ فمنع يوسف عليه السلام من ذلك ، إذ الحمالة في الحدود ونحوها بمعنى إحضار المضمون جائزةٌ مع التراضي غير لازمة إذا أَبَى الطالب . وأما الحمالة في مثل هذا – على أن يلزم الحميل ما كان يلزم المضمون من عقوبة – فلا يجوز ذلك إجماعاً ، وفي «الواضحة» أن الحمالة في الوجه فقط في جميع الحدود جائزة إلا في النفس .

وقولهم : ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل أن يريدوا وصفه بما رأوا من إحسانه في جميع أفعاله معهم ومع غيرهم ، ويحتمل أن يريدوا : إنا نرى لك إحساناً علينا في هذه اليد إنْ أسديتها إلينا ، وهذا تأْويل ابن إسحق .

و [مَعاذَ] نصب على المصدر ، ولا يجوز إظهار الفعل معه ، والظلم في قوله : [لَظَالِمُونَ] على حقيقته ؛ إذْ هو وضع الشيء في

غير موضعه ، وذكر الطبري أنه رُوي أن يوسف لما أيْأَسهم بلفظه هذا قال لهم : إذا أتيتم أباكم فاقرؤُوا عليه السلام ، وقولوا له : إن ملك مصر يدعو لك ألا تموت حتى ترى ولدك يوسف ، ليعلم أن في أرض مصر صدِّيقين مثله .

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا مِنْهُ﴾ الآية . يقال : يئِس واسْتَيْأَس بمعنى واحد ، كما يقال : سخِر واسْتَسْخَر ، ومنه قوله تعالى : [يَسْتَسْخِرُونَ][1] ، وكما يقال : عجب واستعجب ، ومنه قول أوس ابن حجر :

وَمُسْتَعْجِبٍ ممَّا يرى منْ أَنَاتِنَا ولَوْ زَبنَتْهُ الْحرْبُ لَمْ يَتَرَمْرَم [2]

ومنه : نَوِكَ واسْتَنْوَكَ[3] ، وعلى هذا يجيء قول الشاعر في بعض التأويلات :

. . . . واسْتَنْوَكَتْ ولِلشَّبابِ نُوكُ [4]

(١) من قوله تعالى في الآية (١٤) من سورة (الصَّافَّات) : ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ .

(٢) قال في (اللسان — عجب) : « الاستعجاب : شدَّة التعجب » ، والأناة : الحلم والوقار ، وزَبَنَتْهُ الحرب : دفعت به وأذهبته ، على التشبيه للحرب بالناقة التي تزْبِن وليدها أي تدفعه عنها ، ومعنى « لَمْ يَتَرَمْرَم » : لم يَرُدَّ جواباً ، قال الجوهري : تَرَمْرَمَ إذا حرك فاه بالكلام ، واستشهد ببيت أوس هذا . وأَوْسٌ في بيته هذا يمضي على طريقته التي التزمها في القصيدة كلها من الاعتزاز بشعره وبصفات الحلم والفروسية عنده .

(٣) نَوِكَ : حَمُقَ ، واسْتَنْوَكَ : صار أنوكَ ، ويقال : استَنْوَكَ فلاناً : استحمقه . (المعجم الوسيط) .

(٤) البيت بتمامه في (اللسان — نوك) ، قال : « الأنْوَك : الأحمق ، وجمعه النَّوْكى ، =

وهذه قراءة الجمهور ، وقرأ ابن كثير : ﴿اسْتَايَسُوا﴾[1] و ﴿لَا تَايَسُوا﴾[2]، و ﴿لَا يَايَسُ﴾[3] و ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَايَسَ الرُّسُلُ﴾[4] ، أصله : اسْتَأْيَسُوا «اسْتَفْعَلُوا» من (أَيِسَ) على قلب الفعل من (يَئِسَ) إلى (أَيِسَ) ، وليس هذا كَجَذَبَ وجَبَذ ، بل هذان أصلان والأول قلب ، دلَّ ذلك على أن المصدر من (يَئِسَ وأَيِسَ) واحد وهو (اليأْس) ؛ ولِجَذَبَ وجبَذَ مصدران[5] .

وقوله تعالى : ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ معناه : انفردوا عن غيرهم يناجي بعضهم بعضاً ، والنَّجِيُّ لفظ يوصف به من له نجوى ، واحداً أو

= ويقال في الشعر : قومٌ نُوكٌ ، وقومٌ نَوْكى ونُوكٌ أيضاً على القياس ، مثل أهْوَج وهُوجٌ ، قال الراجز :

تَضْحَكُ مِنِّي شَيْخَةٌ ضَحُوكُ واسْتَنْوَكَتْ ولِلشَّباب نُوكُ»

(١) أي بتقديم الهمزة على الياء ، فتكون الياء هي عين الفعل ، ثم خفف الهمزة . وكذلك في الآيات المشار إليها بعدها .

(٢) من الآية (٨٧) من هذه السورة (يوسف) .

(٣) من نفس الآية السابقة .

(٤) من الآية (١١٠) من هذه السورة (يوسف) .

(٥) قال الإمام ابن خالويه في كتاب «الحجة في القراءات السبع» : «وقد قرئ بتخفيف الهمزة . فالحجة لمن خففها وجعل الياء فاء الفعل أنه يجعلها ياءً مشددة ، لأنه أدغم الفاء لسكونها في العين وحركها بحركتها ، والحجة لمن خففها والهمزة فاء الفعل أنه يجعلها ألفاً خفيفة للفتحة قبلها» اهـ . قال القرطبي : «والأصل قراءة الجماعة ، لأن المصدر ما جاء إلا على تقديم الياء يأساً والإياسُ ليس بمصدر أيس ، بل هو مصدر : أسْتُه أوْساً وإياساً ، أي أعطيته» . (القرطبي ٩ ـ ٢٤١)

جماعة ، مؤنثاً أو مذكراً . فهو مثل عدُوّ وعَدْل ؛ وجمعه أنجية ، قال لبيد :

وشَهِدْتُ أَنْجِيَةَ الأُفَاقَة عالِيـــاً كَعْبي وأَرْدَافُ الْمُلوكِ شهودُ (١)

و [كَبِيرُهُمْ] قال مجاهد : هو شمعون ، لأنه كان كبيرهم رأياً وتدبيراً وعلماً ؛ وإن كان روبيل أسَنَّهم . وقال قتادة : هو روبيل لأنه أسنهم ، وهذا أظهر ورجحه الطبري ، وقال السدي : معنى الآية : وقال كبيرهم في العلم ، وذكَّرهم أخوهم الميثاق في قول يعقوب : ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ .

وقوله : ﴿مَا فَرَّطْتُمْ﴾ . يصح أن تكون [مَا] صلة في الكلام لا موضع لها من الإعراب ، ويصح أن تكون في موضع رفع بالابتداء ، والخبر قوله : ﴿فِي يُوسُفَ﴾ ، كذا قال أبو علي ، ولا يجوز أن يكون

(١) استشهد بهذا البيت أبو عبيدة في « مجاز القرآن » ، واللسان في « أفق » ؛ والأُفاقة : موضع بالحزن كانت تتبادى فيه ملوك الحيرة ، والأنجية : مجالس التجمع والمناجاة ، وعالياً كعبي : منتصراً مشهوراً أمري ، والأرداف : جمع رِدْف وهو الذي يجلس عن يمين الملك ، فإذا شرب الملك شرب بعده ، وإذا غزا ناب عنه حتى يرجع ، وله المرباع إذا أغارت كتيبة الملك . ويوم الأفاقة هو اليوم الذي انتصر فيه على الربيع بن زياد ، ولبيد يسميه بأسماء متعددة ، فهو يوم الغبيط ، والرجل ، والتاثور ، هذا وقد قال أبو عبيدة في تعليقه على البيت : « والنجي يقع لفظه على الواحد والجمع ، وقد يجمع فيقال : نَجِيٌّ وأنجية » ، ثم استشهد بالبيت . والبيت من قصيدة قالها لبيد يذكر طول عمره وسأمه من الحياة ، ويتحدث عن مآثره ، ومنها بيته المشهور :

ولَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الحياةِ وطُولِها وسُؤالِ هَذَا النَّاسِ : كَيْفَ لَبِيدُ ؟

قوله : ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ متعلقاً بـ ﴿مَا فَرَّطْتُمْ﴾ ، وإنما تكون ـ على هذا ـ مصدرية ، التقدير : «من قبل تفريطكم في يوسف واقع أو مستقر» ، وبهذا المقدر يتعلق قوله : ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ . ويصح أن تكون في موضع نصب عطفاً ، على أن التقدير : «وتعلموا تفريطكم» أو «وتعلموا الذي فرطتم» ، فيصح ـ على هذا الوجه ـ أن تكون بمعنى الذي ، ويصح أن تكون مصدرية [1] .

وقوله تعالى : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ ، أراد أرض القطر أو الموضع الذي ناله فيه المكروه المؤدي إلى سخط أبيه ، والمقصد بهذا اللفظ التحريج على نفسه والتزام التضييق ، كأنه سجن نفسه في ذلك القطر ليبلي عذرا [2] .

وقوله : ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ لفظ عام لجميع ما يمكن أن يرده من القدر كالموت أو النصرة وبلوغ الأمل ، وغير ذلك ، وقال أبو صالح : أو يحكم الله لي بالسيف ، ونصب [يحكُم] بالعطف على [يَأْذَنَ] ، ويجوز أن تكون [أَوْ] في هذا الموضع بمعنى «إلّا أنْ» ، كما تقول : «لألزمنك أو تقضيني حقي» ، فتنصب على هذا [يَحْكُمَ] بـ [أَوْ] .

(١) قال أبو حيان في «البحر» بعد أن اعترض على الإعرابات التي ذكرها ابن عطية هنا : وأفضل الآراء أن تكون [ما] زائدة .

(٢) أي : ليقدم أو يؤدي عذراً .

ورُوي أنهم لما وصلوا إلى يعقوب بكى وقال : «يا بنيّ ، ماتذهبون عني مرة إلا نقصتم ، ذهبتم فنقصتم يوسف ، ثم ذهبتم فنقصتم شمعون حيث ارتهن ، ثم ذهبتم فنقصتم بنيامين وروبيل» .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾

الأَمر بالرجوع – قيل : هو من قول كبيرهم ، وقيل : بل هو من قول يوسف لهم ، والأَول أظهر ، وقرأ الجمهور : [سَرَقَ] على تحقيق السرقة على «يامين» بحسب ظاهر الأَمر ، وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين : [سُرِّق] بضم السين وكسر الراء وتشديدها [1] ، وكأن في هذه القراءة لهم تحرٍ ولم يقطعوا عليه بسرقة ، وإنما أرادوا : جُعل

(١) أي : نُسب إلى السَّرقة ورُمي بها ، مثل : خَوَّنْتُه وفَسَّقْتُه وفَجَّرْتُه إذا نسبته إلى هذه الخلال ، وقال الزجاج : سُرِّق يحتمل معنيين : أحدهما : عُلم منه السَّرَق ، والآخر : اتُّهم بالسَّرَق . قال الجوهري : والسَّرِقُ والسَّرِقة بكسر الراء فيهما هو اسم الشيء المسروق ، والمصدر : سَرَق يسرقُ سَرَقاً بالفتح .

سارقاً بما ظهر من الحال ، ورويت هذه القراءة عن الكسائي ، وقرأ الضحاك : ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَارِقٌ﴾ بالألف وتنوين القاف . ثم تحرروا بعد على القراءتين - في قولهم : ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ ، أي : وقولنا لك : ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ إنما هي شهادة عندك بما علمناه من ظاهر ما جرى ، والعلم في الغيب إلى الله . ليس ذلك في حفظنا ، هذا قول ابن إسحق .

وقال ابن زيد : قولهم : ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أرادوا به : وما شهدنا عندك يوسف بأن السارق يُسْترقُّ في شرعك إلا بما علمنا من ذلك ، وما كنا للغيب حافظين أن السرقة تخرج من رحل أحدنا ، بل حسبنا أن ذلك لا يكون البتَّةَ ، فشهدنا عنده - حين سألنا - بعلمنا . وقرأ الحسن : «وما شهدنا عليه إلَّا بما علمنا» بزيادة «عليه» .

ويحتمل قوله : ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ ، أي حين واثقناك إنما قصدنا ألا يقع منا نحن من جهته شيءٌ يكرهُهُ ، ولم نعلم الغيب في أنه سيأتي هو بما يوجب رقّه . ورُوي أن معنى [لِلْغَيْبِ] أي : لِلَّيْلِ ، والغيب : الليل بلغة حمير . فكأنهم قالوا : وما شهدنا عندك إلا بما علمناه من ظاهر حاله ، وما كنا بالليل حافظين لما يقع من سرقته هو أو التدليس عليه .

ثم استشهدوا بأهل القرية التي كانوا فيها ، وهي مصر ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره . وهذا مجاز ، والمراد أهلها ،

وكذلك قوله : [وَٱلْعِيرَ] ، هذا قول الجمهور وهو الصحيح ، وحكى أبو المعالي في التلخيص عن بعض المتكلمين أنه قال : هذا من الحذف وليس من المجاز ، وإنما المجاز لفظة تستعار لغير ما هي له .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وحذف المضاف هو عين المجاز وعُظمه ؛ هذا مذهب سيبويه وغيره من أهل النظر، وليس كل حذف مجازاً. ورجّح أبو المعالي في هذه الآية أنه مجاز ، وحكى أنه قول الجمهور أو نحو هذا ، وقالت فرقة : بل أحالوه على سؤال الجمادات والبهائم حقيقة ؛ ومن حيث هو نبي فلا يبعد أن يُخبره بالحقيقة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا وإن جُوِّز فبعيد ، والأول أقوى .

وهنا كلام مقدر يقتضيه الظاهر ؛ تقديره : فلما قالوا هذه المقالة لأبيهم قال : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ ، وهذا على أن يتصل كلام كبيرهم إلى هنا ، ومن يرى أن كلام كبيرهم تمّ في قوله : ﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ فإنه يجعل الكلام هنالك تقديره : فلما رجعوا قالوا : ﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ الآية ، والظاهر أن قوله : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ إنما هو ظن سيّئٌ بهم ، كما كان في قصة يوسف قبل ، فاتفق أن صدق ظنه هناك ولم يتحقق هنا .

و [سوَّلَتْ] معناه : زَيَّنَت وخَيَّلَت وجعلته سُولا ، والسُّولُ : ما يتمناه الإنسان ويحرص عليه (١) .

وقوله : ﴿فَصَبْرٌ جمِيلٌ﴾ إمَّا ابتداءٌ وخبره : أمْثَلُ وأوْلَى ، وحسُنَ الابتداءُ بالنكرة من حيث وُصِفت . وإمَّا خبرُ ابتداءٍ تقديره : فأمري ، أو شأْني ، أو صبري صبرٌ جميل ، وهذا أليق بالنكرة ، أن تكون خبراً ، ومعنى وصفه بالجمال أنه ليس فيه شكوى إلى بشر ولا ضجر بقضاء الله تعالى (٢) .

ثم ترجَّى عليه السلام من الله أن يجبرهم عليه ، وهم : يوسف ويامين وروبيل الذي لم يبرح الأَرض ، ورجاؤُه هذا من جهات :

إحداها : الرؤْيا التي رأى يوسف ، فكان يعقوب ينتظرها . والثانية : حسن ظنه بالله تعالى في كل حال ، والثالثة : ما أخبروه به عن ملك مصر أنه يدعو له برؤْية ابنه ، فوقع له ــ من هنا ــ تَحسُّسٌ ورجاءٌ ،

---

(١) أصلُ السُّولِ مهموز عند العرب ، استثقلوا ضغطة الهمزة فيه فتكلموا به على تخفيف الهمز ، قال الراعي فيه فلم يهمزه :

اختارَكَ الناسُ إذْ رَثَّتْ خَلائِقُهُــمْ واعتَلَّ مَنْ كَانَ يُرْجَى عِنْدَهُ السُّولُ

والدليل على أن أصل (السُّول) همز قوله تعالى : ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ ، أي : أعطيتَ أمنيتك التي سألتَها .

(٢) روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من بَثَّ لم يصبر) ، ورُوي عن الحسن رضي الله عنه : «ما مِن جرعتين يتجرعهما العبد أحب إلى الله من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء ، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو» .

والوصفُ بالعلم والإحكام لائق بما يرجوه من لقاء بنيه ، وفيها تسليم لحكم الله تعالى في جميع ما جرى عليه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

المعنى أنه لما ساء ظنه بهم ولم يصدق قولهم بل استراب به ﴿تَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي زال بوجهه عنهم ، وجعل يتفجع ويتأسف . قال الحسن : خُصَّتْ هذه الأُمة بالاسترجاع[1] ، ألا ترى إلى قول يعقوب : ﴿يَا أَسَفَا﴾ ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمراد : يا أسفي ، لكن هذه لغة من يردُّ ياء الإضافة ألفاً نحو : يا أبتا ويا غلاما . ونادى الأسف على معنى : احضر فهذا من أوقاتك .

(١) يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، والاسترجاع هو قولنا عند المصيبة : « إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون » .

وقيل : قوله : ﴿يَا أَسَفَا﴾ على جهة النُّدبة ، وحذَف الهاء التي هي في النُّدبة علامةُ المبالغة في الحزن تجلُّداً منه عليه السلام ، إذْ كان قد ارتبط إلى الصبر الجميل ، وقيل : قوله : ﴿يَا أَسَفَا﴾ نداءٌ فيه استغاثة (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا يبعد أن يجتمع «الاسترجاع» و «يَا أَسَفَا» لهذه الأُمة وليعقوب عليه السلام .

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ أي : من ملازمة البكاء الذي هو ثمرة الحزن ، ورُوي أن يعقوب عليه السلام حَزِنَ حُزْن سبعين ثَكْلَى ، وأُعطي أجر مائة شهيد ، وما ساء ظنه بالله قط ، رواه الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم (٢) . وقرأ ابن عباس ، ومجاهد : ﴿مِنَ ٱلْحَزَنِ﴾

(١) قال الزمخشري : «والتجانس بين لفظي «الأسف ويوسف» مما يقع مطبوعاً غير مستعمل فيملح ، ونحوه : ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ﴾ و ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ و ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ و ﴿مِنْ سَبَأٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾» . اهـ . وهذا ما يسمى تجنيس التصريف : وهو أن تنفرد كل كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف وتتفق معها في بقية الحروف .

(٢) أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ليث بن أبي سليم رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فعرفه ، فقال له : (أيها الملَك الكريم على ربه ، هل لك علم بيعقوب ؟ قال : نعم ، قال : ما فعل ؟ قال : ابيضت عيناه من الحزن عليك . قال : فماذا بلغ من حزنه ؟ قال : حزن سبعين مثكلة ، قال : هل له على ذلك من أجر ؟ قال : نعم ، أجر مائة شهيد) . (الدر المنثور) .

بفتح الحاء والزاي ، وقرأ قتادة بضمهما ، وقرأ الجمهور بضم الحاء وسكون الزاي .

﴿وهُوَ كَظِيمٌ﴾ بمعنى : كاظم ، كما قال : ﴿وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾(١)، ووصف يعقوب بذلك لأنه لم يَشْكُ إلى أحد ، وإنما كان يكمد في نفسه ، ويُمسك همَّه في صدره ، وكان يكظمه أي يردُّه إلى قلبه ولا يرسله بالشكوى والغضب والضجر ، وقال ناس : [كَظِيمٌ] بمعنى : مكظوم . وقد وصف الله تعالى يونس عليه السلام بمكظوم في قوله : ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾(٢)، وهذا إنما يتجه على تقدير أنه مليءٌ بحزنه ، فكأنه كظم بثَّه في صدره ، وجَرْي [كَظِيمٍ] على باب «كاظم» أبْيَن ، وفسَّر ناس «الكظيم» بالمكروب وبالمكدور ، وذلك كله متقارب . وقال منذر بن سعيد : الأَسف إذا كان من جهة من هو أقل من الإنسان فهو غضب ، ومنه قول الله تعالى : ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا ٱنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾(٣)، ومنه قول الرجل الذي ذهبت لخادمه الشاةُ من الغنم : «فأسفت فلطمتها» ، وإذا كان من جهة لا يطيقها فهو همٌّ وحزنٌ .

(١) من الآية (١٣٤) من سورة (آل عمران) .
(٢) من الآية (٤٨) من سورة (القلم) .
(٣) من الآية (٥٥) من سورة (الزخرف) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتحرير هذا المنزع أن الأَسف يقال في الغضب ويقال في الحزن ، وكل واحد من هذين يحزر حاله التي يقال عليها .

وقوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُ﴾ الآية . المعنى : تالله لا تَفْتَأُ ، فتحذف (لا) في هذا الموضع من القسم لدلالة الكلام عليها ؛ فمن ذلك قول امرئ القيس :

فَقُلْتُ يَمِينُ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِـداً ولَوْ قَطَّعُوا رَأْسي لَدَيْكِ وَأَوْصالي(١)

ومنه قول الآخر :

تَاللهِ يبْقَى على الأَيَّامِ ذُو حِيدٍ بِمُشْمخِرٍّ بِهِ الظَّيَّانُ والآسُ (٢)

(١) البيت من قصيدة امرئ القيس الوجدانية التي يقول في مطلعها : «ألا عِمْ صَبَاحاً أيُّها الطَّلَلُ البالي» ، وفي البيت الذي قبله تقول له الحبيبة : «سبَاكَ اللهُ إنَّكَ فاضحي» فيجيبها : لن أبرح مكاني حتى لو أدركوني وقطَّعوا أوصالي . وهذا مما يؤكد شدة هيامه ووجده بها إلى درجة التفاخر والشجاعة التي هي خط القصيدة . و «يمينُ الله» تكون بالرفع على أنه مبتدأ خبره مضمر تقديره : يمين الله لازمني ، وتكون بالنصب على إضمار فعل ، مثل قول العرب : «أمانةَ الله» ، و «أبرح» معناه : «لا أبرح» بحذف (لا) لدلالة المعنى عليها ؛ وذلك لأن الفعل بعد القسم غير مؤكد . ولو كان الكلام إثباتاً لوجب توكيد الفعل بالنون فيقول : «أبرحنَّ» ، والأوصال : جمع وصْل بالكسر ، وهو كل عضو ينفصل من آخر .

(٢) البيت في «الصحاح» ، وقد نسبه إلى الهُذَلي ، وقال محققه : هو مالك بن خالد الخناعي ، و «حِيَد» بكسر الحاء وفتح الياء جمع «حَيْدة» على وزن بَدْرَة وبِدَر ؛ قال في الصحاح : والحَيْدَةُ : كل نُتُوء في قرن الوعل والجبل ، والحَيْد : حَرْف شاخص=

أراد: لا يَبْرَح، ولا يبْقَى. وقال الزَّجَّاجي[1]: وقد تحذف أيضاً (ما) في هذا الموضع. وخطَّأَهُ بعض النحويِّين. ومن المواضع التي حذفت فيها (لا) ويدل عليها الكلام قول الشاعر:

فَلَا – وأبي دهْماءَ – زالَتْ عَزِيزَةً   على قَوْمِها ما فتَّلَ الزَّنْدَ قـادِحُ[2]

وقوله: «ما فَتَّل الزَّنْدَ قادِحُ» يوجب أن المحذوف (لا)، وليست (ما).

و (فَتِيءَ) بمنزلة زال وبَرِح في المعنى والعمل، تقول: «والله لا فتِئْتُ قاعداً» كما تقول: «لا زلت ولا برِحْت»، ومنه قول أوس

= يخرج من الجبل. والظَّيَّان والآس: نوعان من الأزهار والرياحين التي تنبت في الجبال. والمُشْمَخِرّ: الجبل العالي المرتفع في السماء، والشاهد في البيت حذف حرف النفي (لا) لأن المعنى يدل عليه، والتقدير كما قال ابن عطية: «لا يَبْقَى على الأيام».

(١) هو عبد الرحمن بن إسحق النهاوندي الزَّجَّاجي، أبو القاسم، شيخ العربية في عصره، ولد في نهاوند، ونشأ في بغداد، وتوفي في طبرية. وله من الكتب المطبوعة: «الجُمل الكبرى» و «الإيضاح الكافي»، وله من الكتب التي لا تزال مخطوطة: «الزاهر» في اللغة. وكانت وفاته سنة ٣٣٧ هـ - ٩٤٩ م. (الأعلام، بغية الوعاة، وفيات الأعيان).

(٢) البيت مجهول القائل، وقد ذكره البغدادي في خزانة الأدب الكبرى شاهداً على أنه قد فصل بالجار والمجرور أعني الجملة القسمية «وأبي الدَّهماء» بين (لا) النافية و (زال). وذكره ابن هشام في الجملة الاعتراضية شاهداً على أنها تكون بين حرف النفي ومنفيه. وقال الفراء في معاني القرآن: «إن (لا) قد تضمر مع الأيمان لأنها إذا كانت خبراً لا يضمر فيها (لا)، لم تكن إلا بلام، ألا ترى أنك تقول: والله لآتينَّك، ولا يجوز أن تقول: والله آتيك، إلا أن تكون تريد: لا آتيك، فلما تبيَّن موضعها وفارقت الخبر أضمرت، قال امرىء القيس: فقلت يمينُ الله أبرح ... البيت، وأنشد بعضهم: فلا وأبي دهماء زالت عزيزةً... البيت». ودهماء: اسمُ امرأة، والشاعر يقسم بوالدها، وجملة (لا زالت عزيزةً) جواب القسم، وقد روى البيت: (ما دام للزَّنْد قادح).

ابن حجر :

فَما فَتِئَتْ حَتّى كأَنَّ غُبَـارَها سُرادِقُ يَوْمٍ ذي رِياحٍ تَرَفَّعُ (١)

و «الْحَرَضُ» : الذي قد نَهَكه الهرم أو الحب أو الحزن إلى حال فساد الأعضاء والبدن والحِسِّ ، وعلى هذا المعنى قراءة الجمهور : [حرَضاً] بفتح الراء والحاء ؛ وقرأ الحسن بن أبي الحسن بضمهما ، وقرأت فرقة : [حُرْضا] بضم الحاء وسكون الراء ، وهذا كله المصدر يوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والجمع بلفظ واحد ، كعَدْلٍ وعَدُوٌّ ؛ وقيل في قراءة الحسن : إنه فتات الأَشْنان (٢) ؛ أي : بالياً متفتتاً ، ويقال من هذا المعنى الذي هو شن الهمِّ والهرم : «رجلٌ حارضٌ» ، ويُثَنّى هذا البناء ويُجمع ويُؤَنَّث ويذكَّر ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

إِنّي امْرُؤٌ لَجَّ بي حُبٌّ فَأَحْرَضَني حتّى بَلِيتُ وحتّى شَفَّني السَّقَمُ (٣)

(١) قال أوس بن حجر هذا البيت من قصيدة له في وصف الخيل ، وقد استشهد به ابن عطية للدلالة على أن (فتئ) بمنزلة (زال) في المعنى وفي العمل. والسرادق : كلُّ ما أحاط بشيء من حائط أو مِضْرَب ؛ وقد جعل الشاعر الغبار الذي تثيره الخيل في اليوم الشديد الرياح كالسُّرادق الذي يغطي الفضاء كله .

(٢) الشَّنّ : القربة الخَلَق الصغيرة يكون الماء فيها أبرد من غيرها ، وجمعه : شِنان . وفي اللسان عن اللحياني : قربة أشْنَان . كأنهم جعلوا كل جزء منها شَنّاً ثم جمعوا على هذا ، قال : ولم أسمع «أشنانا» في جمع «شَنّ» إلا هنا .

(٣) البيت للعَرْجيّ عبد الله بن عمر بن عبد الله ، ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن شاهداً على أن معنى أحرضني هو : أذابني . وذكره في اللسان شاهداً على أن أحرض بمعنى : أفسد ، وقال : إن معنى «شَفَّني السَّقَم» : أذابني .

وقد سمع من العرب «رجلٌ مُحْرَضٌ» ، قال الشاعر وهو امرؤُ القَيْس :

أرى المَرْءَ ذا الأَذْوادِ يُصْبِحُ مُحْرَضاً كإحْراضِ بكْرٍ في الدِّيارِ مريضِ[1]

والحرض - بالجملة - : الذي فسد ودنا موته ، قال مجاهد : الحَرَضُ : ما دون الموت[2] ، قال قتادة : الحَرَض : البالي الهرم ، وقال نحوه الضحاك والحسن ، وقال الحسن : [حَرَضاً] : معناه : فاسدٌ لا عقل له ، فكأنهم قالوا على جهة التعنيف له : أنت لا تزال تذكر يوسف إلى حال القرب من الهلاك ، أو إلى الهلاك ، فأجابهم يعقوب عليه السلام رادًّا عليهم : إني لست ممن يجزع ويضجر فيستحق التعنيف ، وإنما أشكو بَثِّي وحزني إلى الله .

و «البَثُّ» : ما في صدر الإنسان مما هو معتزم أن يبثه وينشره ، وأكثر ما يستعمل البثُّ في المكروه ، وقال أبو عبيدة وغيره : البَثُّ : أشد الحزن ، وقد يستعمل البثُّ في المخفي على الجملة ، ومنه قول

(١) الأذْواد : جمع ذَوْدٍ ، وهو الثلاثة إلى العشرة من الإبل . وقد ذكره في اللسان دليلا على أن المُحْرَض هو الهالك مرضاً ، الذي لاحيٌ فيرجى ولا ميِّت فيُوءس منه ، والبَكْرُ : الفتيُّ من الإبل ، وجمعه : أبْكُر وبِكار ، يقول : إن المرء مهما كان صاحب مال يصيبه المرض الذي لا رجاء بعده تماماً كالبكر القوي من الإبل حين يصبح في الديار مريضاً .

(٢) ومن ذلك قول الشاعر :

سَرَى هَمِّي فأمْرَضَنِي وقِدْماً زادَني مَرَضَا
كذاكَ الحُبُّ قَبْلَ اليَوْمِ مِمَّا يُورِثُ الحَرَضَا

المرأة في حديث «أُمِّ زَرْعٍ» : (وَلا يُولج الكفَّ ليعلم البَثَّ)[1] ، ومنه قولهم : «أبثُّك حديثي»[2] .

وقرأ عيسى : [وَحَزَني] بفتح الحاء والزاي .

وحكى الطبري بسند أن يعقوب دخل على فرعون وقد سقط حاجباه على عينيه من الكبر ، فقال له فرعون : ما بلغ بك هذا يا إبراهيم ؟ فقالوا : إنه يعقوب ، فقال : ما بلغ بك هذا يا يعقوب ؟ قال له : طول الزمان وكثرة الأحزان ، فأوحى الله إليه : يا يعقوب ، أتشكوني إلى خلقي ؟ قال : يا رب ، خطيئة فاغفرها لي . وأسند الطبري إلى الحسن قال : كان بين خروج يوسف عن يعقوب إلى دخول يعقوب على يوسف ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه ، ولم يزل يبكي حتى كف بصره ، وما في الأرض يومئذ أكرم على الله من يعقوب .

(١) رواه البخاري في «كتاب النكاح» باب «حسن المعاشرة» ، وهو عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : (جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً ... فقالت الأولى ... الحديث) ، وفيه : (قالت السادسة : زوجي إن أكل لَفَّ ، وإن شرب اشْتَفَّ ، وإن اضطجع الْتَفَّ ، ولا يولج الكفَّ ليعلم البَثَّ) . وفي آخره : (قالت عائشة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنتُ لك كأبي زَرْعٍ لأم زَرْعٍ) ، وكانت أم زَرْعٍ أكرمهن على زوجها .

(٢) حقيقة البَثِّ في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التي لا يتهيأُ له أن يخفيها ، وهو من : بثثته أي فرقته ، فسميت المصيبة بثًّا مجازاً ؛ قال ذو الرمة :

وَقَفْتُ على رَبْعٍ لِمَيَّةَ نَاقَتِي ... فما زِلْتُ أبْكي عِنْدَهُ وأُخَاطِبُهْ
وأُسْقِيهِ حتَّى كادَ مِمَّا أَبُثُّهُ ... تُكَلِّمُني أحْجَارُهُ ومَلاعِبُهْ

وقوله : ﴿وأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مالَا تَعْلَمُونَ﴾ يحتمل أنه أشار إلى حسن ظنه بالله وجميل عادة الله عنده ، ويحتمل أنه أشار إلى الرؤيا المنتظرة ، أو إلى ما وقع في نفسه عن قول ملك مصر : إني أدعو له برؤية ابنه قبل الموت ، وهذا هو حسن الظن الذي قدمناه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

المعنى : اذهبوا إلى الأرض التي جئتم منها وتركتم أخويكم بنيامين وروبيل ، [فَتَحَسَّسُوا] ، أي : استقصوا وتفرقوا ، والتَّحَسُّس : طلب الشيء بالحواس ، ويستعمل في الخير والشر ، فمن استعماله في الخير هذه الآية ، وفي الشَّر نَهْي النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : (ولا تَحَسَّسُوا)[1] .

(١) جاء هذا في حديث رواه مسلم في كتاب البر ، وفيه (ولا تدابروا ولا تحسَّسُوا) .

وقوله : ﴿مِنْ يُوسُفَ﴾ يتعلق بمحذوف يعمل فيه [تَحَسَّسُوا] ، التقدير : فَتَحَسَّسُوا نبأً أو حقيقةً من أمر يوسف ؛ لكن يحذف ما يدل ظاهر القول عليه إيجازاً .

وقرأت فرقة : [تَيْأَسُوا] ، وقرأت فرقة : [تَأْيَسُوا] على ما تقدم[1] ، وقرأ الأعرج : [تِئْسُوا] بكسر التاء ، وخص يوسف وبنيامين بالذكر لأن روبيل إنما بقي مختاراً ، وهذان قد مُنعا الأَوْبة .

والرَّوْحُ : الرحمة ، ثم جعل اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين ، إذْ فيه : إمَّا التكذيب بالربوبية ، وإمَّا الجهل بصفات الله تبارك وتعالى . وقرأ الحسن ، وقتادة ، وعمر بن عبد العزيز[2] : ﴿مِنْ رُوحِ اللهِ﴾ بضم الراء ، وكأن معنى هذه القراءة : «لا تيأسوا من حيٍّ معه رُوحُ الله الذي وهبه ، فإنَّ من بقي رُوحُه فيرجى» ، ومن هذا قول الشاعر :

وَفي غَيْرِ مَنْ قَدْ وارَت الأَرْضُ فاطْمَع[3]

---

(١) عند تفسير قوله تعالى في الآية (٨٠) من هذه السورة : ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً﴾ .

(٢) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، أبو حفص الأموي ، أمير المؤمنين رضي الله عنه ، وردت الرواية عنه في حروف القرآن ، ومناقبه كثيرة ، عرف بالصلاح والتقوى ، وحكم بالعدل ، وأعاد سيرة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، توفي في رجب سنة ١٠١ هـ .

(٣) المعنى : لا أمل ولا رجاء فيمن مات ، أما من بقيت فيه الروح فإنه يظل موضع الأمل والرجاء. هذا وقد قال ابن جني تعليقاً على هذه القراءة : ينبغي أن تكون من الروح ←

ومن هذا قول عبيد :

وكُلُّ ذي غَيْبَةٍ يَؤُوبُ   وغائِبُ ٱلْمَوْتِ لا يَؤُوبُ (١)

ويظهر من حديث الذي قال : (إذا متُّ فأَحرقوني ثم اسحقوني ثم ذرُّوني في البحر والبرِّ في يوم راحٍ ، فلئن قَدَرَ اللهُ عليَّ فليعذبني عذاباً ما عذَّبه أحداً من العالمين)(٢) : إنه يئس من روح الله ، وليس الأمر كذلك لأن قول النبي صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث :

=الذي من الله، ويُعْنَى به رُوح ابن آدم ، وقد أُضيف نحو ذلك إلى الله ، قال لنا أبو عليٍّ في قولهم :

إذا رَضِيَتْ عَلَيَّ بَنُو قُشَيْر   لَعَمْرُ اللهِ أعْجَبَنِي رِضَاهَــا

أي : «وحق العمر الذي وهبه الله لي» . والبيت لِلْقُحَيْف العُقَيْلي يمدح حكيم بن المُسَيَّب القُرَشي .

(١) البيت لعبيد بن الأبرص من قصيدته المشهورة التي مطلعها :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُــــوبُ   فَالقُطَبِيَّـــاتُ فَالذَّنُــوبُ

وقبل هذا البيت يقول عبيد :

فَكُلُّ ذِي نِعْمَةٍ مَخْلُوسٌ   وَكُلُّ ذِي أَمَلٍ مَكْذُوبُ
وكُلُّ ذِي إِبِلٍ مَوْرُوثٌ   وكُلُّ ذِي سَلَبٍ مَسْلُوبُ

(٢) الحديث رواه البخاري في التوحيد ، والأنبياء ، والرقاق ، ورواه مسلم في التوبة ، والنسائي في الجنائز ، وابن ماجه في الزهد ، والإمام أحمد في مواطن كثيرة من مسنده ، ولفظه كما في البخاري في كتاب الرقاق باب الخوف من الله (عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر رجلا فيمن كان سلف ، أو قبلكم ، آتاه الله مالا وولداً — يعني أعطاه — قال : فلما حُضِر قال لبنيه : أيَّ أب كنتُ لكم ؟ قالوا : خير أب . قال فإنه لم يبتئر عند الله خيراً — فسَّرها قتادة : لم يدّخر — وإن يَقْدم على الله يعذبه ، فانظروا . فإذا متُّ فأحرقوني حتى إذا صرت فحماً فاسحقوني — أو قال : فاسهكوني — ثم إذا كان ريحٌ عاصف فأذْروني فيها ، فأخذ مواثقهم على ذلك وربي . ففعلوا ، فقال الله : كُنْ ، فإذا رجلٌ قائم ، فقال : أي عبدي ، ما حملك على ما فعلت ؟ قال : مخافتك أو فَرَقٌ منك ، فما تلافاه أنْ رحمه الله) .

(فغفر الله له) يقتضي أنه مات مؤمناً إذ لا يَغفر الله لكافر ، فبقي أن يُتأَول الحديث ، إما على أن (قَدَرَ) بمعنى : ضيَّق وناقش الحساب . فذلك معنى بيِّن ، وإما أن تكون من «القدرة» ويكون خطؤه في أن ظن أن الاجتماع بعد السحق والتذرية مُحال لا يوصف الله تعالى بالقدرة عليه ؛ فغلط في أن جعل الجائز محالا ، ولا يلزمه بهذا الكفر .

قال النقاش : وقرأ ابن مسعود : «مِنْ فضل» ، وقرأ أُبيٌّ بن كعب : «مِنْ رَحْمة الله» .

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ الآية ، في هذا الموضع اختصار محذوفات يعطيها الظاهر ، وهي أنهم نفذوا من الشام إلى مصر ووصلوها ، والضمير في [عَلَيْهِ] عائد على يوسف . و [الضُّرّ] أرادوا به المسغبة التي كانوا بسبيلها ، وأَمْرُ أخيهم الذي أهمَّ أباهم وغمَّ جميعهم ، و «البضاعة» : القطعة من المال يقصد بها شراءُ شيءٍ ، ولزمها عرف الفقه فيما لاحظ لحاملها من الربح ، و «المُزْجاةُ» معناها : المدفوعة المتحيل لها ، ومنه : إزجاءُ السحاب ، ومنه : إزجاءُ الإبل ، كما قال الشاعر :

عَلَى زَوَاحِفَ تُزْجَى مُخُّها رِيرُ (١)

(١) قال في (الصحاح) : «الفرّاء : مُخٌّ رَيْرٌ ورِيرٌ أيْ فاسدٌ ذاهبٌ من الهزال . وأنشد :

والسَّاقُ مِنِّي بادِيَاتُ الرَّيْرِ

أي : أنا ظاهر الهزال ، لأنه رقَّ عظمه ودقَّ جلده فظهر مُخُّه» . وتُزْجَى : تساق وتدفع إلى السير .

وكما قال النابغة :

وهبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ ذي أُرُلٍ تُزْجي مع اللَّيْلِ مِنْ صُرَّارِها صَرِمَا(١)

وقال الأعشى :

الوَاهِبُ المِائَةَ الْهِجان وعبْدَهَـا عُوذاً تُزَجِّي خَلْفَها أطْفَالَها (٢)

وقال الآخر :

وحَاجة غَيْرَ مُزْجاةٍ مِن الْحَاجِ (٣)

وقال حاتم :

لِيبْك على مِلْحَانَ ضيْفٌ مُدَفَّعٌ وأرْملَةٌ تُزْجِي مع اللَّيْلِ أرْمَلا(٤)

---

(١) البيت من قصيدة مطلعها :

بانَتْ سُعَادُ وأمْسَى حَبْلُها انْجَذَمَا واحْتَلَّتِ الشَّرْعَ فالأجْزَاعَ مِنْ إضَمَا

وأرُل بضم الهمزة والراء : جبل بأرض غطفان : قال ابن قتيبة : إذا كانت الريح شمالا أتت من عُرْضه ، وتُزْجي : تسوق ، وصُرَّارها بضم الصاد : غيم لا مطر فيه ، فهو يحجب الشمس ولا يمطر ، والصَّرِم : جمع صرمة وهي قطع السحاب ، وأصلها : القطعة من الإبل . والبيت شاهد على أن الإزجاء هو السوق بالدفع .

(٢) البيت لأعشى بني ثعلبة ميمون بن قيس ، وهو من قصيدة يمدح بها قيس بن معديكرب ، ومطلعها :

رَحَلَتْ سُمَيَّةُ غُدْوَةً أجْمَالُهَا غَضْبَى عَلَيْكَ فَمَا تَقُولُ بَدَالَهَا

والهجان : جمع هجين وهو الأبيض الكريم من الإبل ، والعَوْذُ : الحديثات النتاج ، يمدحه بالكرم فيقول : إنه يهب المائة من كرام الإبل وعبدها ، وأطفالها تتبعها وتسعى خلفها .

(٣) ذكره في (اللسان — زجا) شاهداً على أن معنى « مُزْجَاة » : قليلة يسيرة ، قال : « وقال ثعلب : بضاعة مزُجاةٌ : فيها إغماضٌ لم يتِمَّ صلاحها ، وقيل : يسيرة قليلة ، وأنشد : وحاجة ... البيت» ، ثم أورد كثيراً من الآراء في معنى (مُزْجَاة) .

(٤) البيت في (اللسان -- رمل) ، وقد أنشده ابن بري شاهداً على أن الأرمل هي المرأة =

فجملة هذا أن من يسوق شيئاً ويتلطف في تسييره فقد أزجاه ، فإذا كانت الدراهم المدفوعة نازلة القدر تحتاج أن يعتذر معها ويشفع لها فهي مُزجَاةٌ ، فقيل : كان ذلك لأنها كانت زُيُوفاً (١) . قاله ابن عباس ، وقال الحسن : كانت قليلة ، وقيل : كانت ناقصة ، قاله ابن جُبَيْر ، وقيل : كانت بضاعتهم عروضاً فلذلك قالوا هذا ، واختلف في تلك العُروض ـ ما كانت ؟ فقيل : كانت السَّمْن والصوف ، قاله عبد الله بن الحارث ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : كانت قديد وحْش ، ذكره النقاش ، وقال أبو صالح ، وزيد بن أسلم : كانت الصنوبر والحبة الخضراء .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

«وهي الفستق» (٢) : وقيل : كانت المُقْل (٣) ، وقيل : كانت

ـ التي لا زوج لها ، ونقل عن ابن جني قوله : « قلَّما يستعمل الأرمل في المذكر إلا في التشبيه والمغالطة ، قال جرير :

كلُّ الأرامل قَدْ قَضَّيْتَ حاجَتَهَا فَمَنْ لِحَاجَةِ هَذَا الأرْمَلِ الذَّكَرِ ؟

وابن عطية يستشهد بالبيت على أن معنى تُزْجي : تَسوق وتدفع .

(١) يقال : زافت النقود زَيْفاً وزُيُوفاً وزُيُوفة : ظهر فيها غشٌ ورداءة . (المعجم الوسيط) .

(٢) في إحدى النسخ : « وهي القسمور » ، ولا ندري ما هو .

(٣) هو بضم الميم وسكون القاف : حَمْل الدوم ، والدوم يشبه النخل .

القطن ، وقيل : كانت الحبال والأَعْدال والأَقْتاب[1] . وحكى مكي أن مالكاً رحمه الله قال : المزْجاة : الجائزة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا أعرف لذلك وجهاً ، والمعنى يأباه ، ويحتمل أنه صحف على مالك . وأن لفظه بالحاء غير منقوطة وبالراء[2] ، واستند مالك رحمه الله في أن الكيل على البائع إلى هذه الآية ، وذلك ظاهر منها وليس بنص .

وقولهم : ﴿وتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ معناه : بما بين الدراهم الجياد وهذه المُزْجاة ، قاله السدي وغيره ، وقيل : كانت الصدقة غير مُحرَّمة على أُولٰئك الأنبياء ، وإنما حرمت على محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله سفيان بن عُيَيْنَة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف يرُدُّهُ حديث النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : (نحن معاشر الأنبياء لا تحلُّ لنا الصدقة)[3] .

---

(١) الأعدال : الأحمال المتساوية من المتاع ، يقال : عدل الأمتعة : جعلها أعدالا متساوية لتحمل . والأقتاب : جمع قَتَب وهو الرَّحْلُ الصغير على قدر سنام البعير .
(٢) فتكون : الحائرة ، من الحيرة .
(٣) روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم تمراً من تمر الصدقة والحسن بن علي في حجره،فلما فرغ حمله =

وقالت فرقة : كانت الصدقة عليهم محرمة ولكن قالوا هذا تجوزاً واستعطافاً منهم في المبايعة ، كما تقول لمن تساومه في سلعة : هبني من ثمنها كذا وخُذْ كذا ، فلم تقصد أن يهبك ، وإنما حسنت له الانفعال [١] حتى يرجع معك إلى سومك . وقال ابن جريج : إنما خصوا بقولهم : ﴿وتَصدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أمر أخيهم (يامين) ، أي : أوف لنا الكيل في المبايعة ، وتصدق علينا بصرف أخينا إلى أبيه .

وقولهم : ﴿إنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ . قال النقاش : يُقال : هو من المعاريض [٢] التي هي مندوحة عن الكذب ، وذلك أنهم كانوا يعتقدونه ملِكاً كافراً على غير دينهم ، ولو قالوا : «إن الله يجزيك بصدقتك في الآخرة» كذبوا ، فقالوا له لفظاً يوهمه أنهم أرادوه ، وهم يصح لهم إخراجه منه بالتأْويل .

= النبي صلى الله عليه وسلم على عاتقه ، فسال لعابه على النبي صلى الله عليه وسلم ، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم رأسه فإذا تمرٌ في فيه ، فأدخل النبي صلى الله عليه وسلم يده فانتزعها منه ، ثم قال : (أما علمتَ أن الصدقة لا تحل لآل محمد ؟) ، وهذا الحديث يقوي رأي سفيان ابن عيينة .

(١) النص الذي نقله في «البحر» عن ابن عطية هو : إنما حسنت له الأفعال حتى يرجع ... الخ وهو أقرب وأشبه بالصواب من كلمة «الانفعال» .

(٢) المعاريض : جمع معْراض ، من التعريض وهو خلاف التصريح من القول ، وفي الحديث الشريف : (إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

رُوي أن يوسف عليه السلام لما قال له إخوته : ﴿مسَّنَا وأهْلَنَا الضُّرُّ﴾ واستعطفوه ــ رقَّ ورحمهم ، قال ابن إسحق : وارْفَضَّ[1] دمعه باكياً ، فشرع في كشف أمره إليهم ، فيروى أنه حسَرَ قناعه وقال لهم : ﴿هلْ علِمْتُمْ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ما فعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ يريد : من التفريق بينهما في الصغر ، والتمرس بهما ، وإذاية[2] (يامين) بعد مغيب يوسف ،

(١) ارْفَضَّ الدَّمع وترَفَّض : نزل وسال ، وفي حديث البُراق : (أنه استصعب عليَّ ــ النبي صلى الله عليه وسلم ــ ثم ارْفَضَّ عرقاً) .

(٢) المعروف في اللغة هو : آذاه يُؤذيه فتأذي هو أذًى وأذاةً وأذيَّة ، وأما إذاية فغير فصيحة وإن وردت في القاموس . (ويامين) هو (بنيامين)

فإنهم كانوا يذلونه ويشتمونه ، ولم يشر إلى قصة (يامين) الأخيرة لأنهم لم يفعلوا هم فيها شيئاً ، ونسبهم إمَّا إلى جهل المعصية ، وإمَّا إلى جهل الشباب وقلة الحنكة . فلما خاطبهم هذه المخاطبة ــ ويشبه أن يكون قد اقترن بها من هيئته وبِشْره وتبسمه مادَلَّهم ــ تنبهوا ووقع لهم من الظن القوي أنه يوسف ، فخاطبوه مستفهمين استفهام تقرير .

وقرأت فرقة : ﴿أَئِنَّك لَأَنْت يُوسُفُ﴾ بتحقيق الهمزتين ، وقرأت فرقة بإدخال ألف بين الهمزتين وتحقيقهما : [آئِنَّكَ] ، وقرأت فرقة بتسهيل الثانية [أَينَّكَ] ، وقرأ ابن مُحيْصن ، وقتادة ، وإبن كثير : [إنَّكَ] على الخبر وتأْكيده ، وقرأ أُبيٌّ بن كعب : «[أَئِنَّكَ] أَو أَنْتَ يُوسُفُ» ، قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون هذا على حذف خبر (إنَّ) ، كأَنه قال : أَئِنَّكَ لَغَيْر يوسف أو أنت يوسف[1]؟ وحكى أبو عمرو الداني : إن في قراءة أُبَيٍّ بن كعب : ﴿أَوْ أَنْتَ يُوسُفُ﴾ . وتأَولت فرقة ممن قرأ : [إنَّك] أنها استفهام بإسقاط حرف

---

(١) قال أبو الفتح : « فكأنه قال : بل أنت يوسف ، وقد جاء حذف خبر إنَّ كما قال الأعشى :

إنَّ مَحَلاًّ وإنَّ مُرْتَحَلا وإنَّ في السَّفْرِ إذْ مَضَى مَهَلا

أراد : إن لنا مَحَلاًّ ، وإنَّ لنا مُرْتَحَلا ، فحذف الخبر ، والكوفيون لا يجيزون حذف الخبر إلا إذا كان الاسم نكرة » .

الاستفهام . فأجابهم يوسف كاشفاً أمره . قال : ﴿أَنا يُوسُفُ وَهَذَا أخِي﴾[١] ، وقال مجاهد : أراد : من يَتَّق في ترك المعصية ويصبر في السجن ، وقال إبراهيم النَّخَعي : من يتق الزنى ويصبر على العزوبة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومقصد اللفظ إنما هو العموم في العظائم ، وإنما قال : « هذان ما خصصنا » لأنها[٢] كانت من نوازله ، ولو فرضنا نزول غيرها به لاتّقى وصبر .

وقرأ الجمهور : [يَتَّقِ] بغير ياء ، وقرأ ابن كثير وحده : [يَتَّقِي] بإثبات الياء ، واختلف في وجه ذلك ــ فقيل : قدر الياء متحركة وجعل الجزم في حذف الحركة ، كما قال الشاعر :

أَلَمْ يَأْتيكَ والأَنْباءُ تَنْمِـي بِما لاقَتْ لَبونُ بَني زيادِ ؟[٣]

(١) يظهر أن نقصاً حدث في الكلام هنا ، ويُستدل عليه بالعبارة بعده ، ولهذا رجعت إلى البحر فوجدت النص الآتي : « ثم ذكر سبب مَنّ الله عليه هو بالتقوى والصبر ، والأحسن ألا تُخَصّ التقوى بحالة ولا الصبر ، وقال مجاهد ... »

(٢) الضمير في (لأنها) يعود على النوازل التي نزلت بيوسف ، مثل فتنة الزنى ، والصبر على العزوبة ، ودخول السجن ، وغيرها .

(٣) البيت لقيس بن زهير ، من أبيات تجدها مع قصتها في « شرح الشواهد » للسيوطي ١١٣ . وتَنْمِي : تسير وتنتشر حتى تبلغ ، واللَّبون : جماعة الإبل ذات اللبن . والبيت في سيبويه ٢ ٥٩ . والخزانة ٣ ٥٣٤ . وسر صناعة الإعراب ٨٨ . والشاهد فيه هو إثبات الياء في الفعل (يأتي) بعد (لَمْ) ، وللعلماء في ذلك آراء ذكر منها ابن عطية اثنين ، ويضاف إليهما ما قيل من أن الفعل مجزوم بحذف الياء التي هي لام الكلمة ، وهذه الياء الموجودة إشباع .

قال أبو علي : وهذا مما لا نحمله عليه ، لأنه يجيء في الشعر لا في الكلام ، وقيل : [مَنْ] بمعنى الذي ، و [يَتَّقِي] فعل مرفوع ، و [يَصْبِرْ] عطف على المعنى ، لأن [مَنْ] وإن كانت بمعنى الذي ففيها معنى الشرط ، ونحوه قوله تعالى : ﴿فَأَصَّدَّقَ وأَكُنْ﴾[١] ، وقيل : أراد : «يصْبرُ» بالرفع ، لكنه سكن الراء تخفيفاً ، كما قرأ أبو عمرو : ﴿وَيَأْمُرْكُمْ﴾[٢] بإسكان الراء .

وقوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنا﴾ الآية ، هذا منهم استنزالٌ ليوسف ، وإقرارٌ بالذنب في ضمنه استغفارٌ منه ، و [آثَرَكَ] لفظ يعم جميع التفضيل وأنواع العطايا ، والأصل فيها همزتان وخُفِّفت الثانية ، ولا يجوز تحقيقها ، والمصدر : إيثارٌ .

و خاطئين : من خَطِئَ يخْطَأُ ، وهو المتعمد للخطإ ، والمُخْطِئُ : من أخطأ وهو الذي قصد الصَّواب فلم يوفق إليه ، ومن ذلك قول الشاعر ـ وهو أمية بن الأسكر ـ :

وَإِنَّ مُهَـــاجِرَيْنِ تَكَنَّفَــــاهُ غَداةَ غَد لَقَدْ خَطِئَا وخَابَا[٣]

---

(١) من الآية (١٠) من سورة (المنافقون) .

(٢) من قوله تعالى في الآية (٢٦٨) من سورة (البقرة) : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ .

(٣) البيت لأمية بن الأسكر ، ويقال : هو الأشكر بالشين ، وهو من الشعراء المخضرمين ، أدرك الإسلام وأسلم ، والبيت من شعر له في ابنه كلاب ، وكان ابنهُ قد لقي طلحة بن عبيد الله ، =

وقوله : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ عفو جميل ، وقال عكرمة : «أوحى الله إلى يوسف : بعفوك عن إخوتك رفعت لك ذكرك» . وفي الحديث أن أبا سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن أبي أُمية لما وردا مهاجرين على رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرض عنهما لِقُبْح فعلهما معه قبلُ ، فشق ذلك عليهما وأتيا أبا بكر رضي الله عنه فكلفاه الشفاعة ، فأبى ، وأتيا عمر رضي الله عنه فكذلك ، فذهب أبو سفيان بن الحارث إلى ابن عمه عليٍّ رضي الله عنه ، وذهب عبد الله إلى أُخته أُم سلمة ، فقال علي رضي الله عنه : الرأْي أن تلقيا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحفل فتصيحان به : «تالله لقد آثرك الله علينا وإنْ كنا لَخَاطِئين» ، فإنه لا يرضى أن يكون دون أحد من الأَنبياء ، فلابد لذلك أن يقول :

= والزبير بن العوام فسألهما : أي الأعمال أفضل في الإسلام ؟ فقالا له : الجهاد ، فذهب إلى عمر رضي الله عنه وطلب إليه أن يلحقه بالجيش ففعل ، وكان أبوه قد كبر وضعف ، فلما طالت غيبة كلاب على أبيه قال هذا الشعر ، وقد استشهد أبو عبيدة بهذا البيت في «مجاز القرآن» عند تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً﴾ ، أي إثماً ، وذلك أن الرواية في البيت و (حابا) بالحاء المهملة لا بالخاء كما هي مثبتة في الأصول هنا ، ثم عاد أبو عبيدة واستشهد بالبيت عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ وقال : «خَطِئْتُ وأخطأت واحد ، قال امرؤ القيس : (يا لَهْفَ هِنْدٍ إذْ خَطِئْنَ كاهلا) ، أي أخطأن ، وقال أُمية بن الأسكر : (وَإِنَّ مُهَاجِرَيْنِ ... البيت)» .

«لا تثريب عليكما» ، ففعلا ذلك ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ الآية [(١)] .

والتثريب : اللوم والعقوبة وما جرى معهما من سوء معتقد ونحوه ، وقد عبَّر بعض الناس عن التثريب بالتعيير ، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام : (إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ولا يُثَرِّب)[(٢)] ، أي : لا يُعيِّر ، أخرجه الشيخان في الحدود .

ووقف بعض القرأة : [عَلَيْكُمُ] ، وابتدأ : ﴿ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ، ووقف أكثرهم : [اليوْمَ] ، وابتدأ : ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ على جهة الدعاء ، وهو تأويل ابن إسحق والطبري ، وهو الصحيح ، و [الْيَوْمَ] ظرف ، وعلى هذا فالعامل فيه ما يتعلق به [عَلَيْكُمْ] ، تقديره : لا تثريب ثابت أو مستقر عليكم اليوم . وهذا الوقف أرجح في المعنى ، لأن الآخر فيه حكم على مغفرة الله ، اللَّهم إلا أن يكون ذلك بوحي .

(١) ذكر صاحب «الإصابة» هذا الخبر قائلا : «إن علياً علم أبا سفيان بن الحارث لما جاء ليُسْلم أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم من جهة وجهه فيقول : «تالله لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ علينا» ، وذكره أيضاً الرازي في تفسيره .

(٢) أخرجه البخاري في الحدود والبيوع ، ومسلم في الحدود ، وكذلك أبو داود ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢ ـ ٢٤٩ ، ٤٩٤) . ولفظه كما في البخاري عن أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا زنت الأمة فتبيَّن زناها فليجلدها ولا يُثرِّب ، ثم إن زنت فليجلدها ولا يُثرِّب ، ثم إن زنت الثالثة فليبعها ولو بحبل من شَعَر) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾

حُكْمُه - بعد الأمر بإلقاء القميص على وجه أبيه - بأن أباه يأتي بصيراً ويزول عماه - دليلٌ على أن هذا كلّه بوحي وإعلام من الله تبارك وتعالى ، قال النقاش : ورُوي أن هذا القميص كان لإبراهيم كساه الله إياه حين خرج من النار ، وكان من ثياب الجنة ، وكان بعْدُ لإسحق ، ثم ليعقوب ، ثم كان دفعه ليوسف فكان عنده في حفاظ من فضة [١] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله يحتاج إلى سند ، والظاهر أنه قميص يوسف الذي هو منه بمنزلة قميص كل أحد ، وهكذا تبين الغرابة في أن وجد ريحه

(١) في بعض النسخ : « في حفاظ من قصَب » ، والقصَب : ما كان مستطيلا أجوف من الفضة والذهب ونحوهما ، والواحدة : قصبة .

من بُعْد ، ولو كان من قُمُص الجنة لما كان في ذلك غرابة ولوجده كل أحد .

وأما «أَهْلُهُم» فرُوي أنهم كانوا ثمانين نسمة ؛ وقيل : ستة وسبعين نفساً بين رجالٍ ونساءٍ ، وفي هذا العدد دخلوا مصر ثم خرج منها أعقابهم مع موسى في ستمائة ألف ، وذكر الطبري عن السدي أنه لما كشف أمره لإخوته سألهم عن أبيهم : ما حاله ؟ فقالوا : ذهب بصره من البكاء ، فحينئذ قال لهم : ﴿ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِي﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ الآية ، معناه : فصلت العير من مصر متوجهة إلى موضع يعقوب حسبما اختلف فيه ، فقيل : كان على مقربة من بيت المقدس ، وقيل : كان بالجزيرة ؛ والأول أصح ، لأن آثارهم وقبورهم حتى الآن هناك ، ورُوي أن يعقوب وجد ريح يوسف وبينه وبين القميص مسيرة ثمانية أيام ، قاله ابن عباس ، وقال : هاجت ريح فحملت عَرْفه ، ورُوي أنه كان بينهما ثمانون فرسخاً ، قاله الحسن ، وابن جريج ، قال : وقد كان فارقه قبل ذلك سبعاً وسبعين سنة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قريب من الأول . ورُوي أنه كان بينهما مسيرة ثلاثين يوماً ، قاله الحسن بن أبي الحسن ؛ ورُوي عن أبي أيوب الهوزني أن الريح

استأذنت في أن توصل عرف يوسف إلى يعقوب ، فأُذن لها في ذلك ، وكانت مخاطبة يعقوب هذه لحاضريه . ورُوي أنهم كانوا حَفَدَتَهُ ، وقيل : كانوا بعض بنيه ، وقيل : كانوا قرابته .

و [تُفَنِّدُون] معناه : تَرُدُّون رأيي وتدفعون في صدري ، وهذا هو التفنيد في اللغة ، ومن ذلك قول الشاعر :

يا عاذِلَيَّ دَعا لَوْمي وَتفْنيدِي فَلَيْس ما فَاتَ مِنْ أَمْرِي بِمرْدودِ[1]

ويقال : «أَفْنَدَ الدهر فلاناً» إذا أفسده . قال ابن مقبل :

دَع الدَّهْر يفْعَلْ ما أَراد فَإِنَّهُ إِذَا كُلِّفَ الإِفْنادَ بالنَّاسِ أَفْنَدا[2]

(١) البيت لهانئ بن شكيم العدوي ، والرواية في الطبري يا صاحبيَّ ، وكذلك رواه القرطبي ، وقد استشهد به أبو عبيدة في «مجاز القرآن» دليلا على أن معنى [تُفَنِّدُون] هو تُسَفِّهون وتُعَجِّزون ، وفي روايته : (ما فات من أمرٍ) ، يقول الشاعر : لا داعي لِلَّوم وتسفيه الرأي فقد مضى ما مضى ولا سبيل إلى الرجوع فيه .

(٢) الخطاب في البيت لخليليه ، وقد ذكرهما قبل البيت ، ولهذا فالرواية (دَعَا) ، ولفظ البيت كما في الديوان :

دَعَا الدَّهْرَ يَفْعَلْ مَا أَرَادَ فَإِنَّه إذا كُلِّفَ الإفْسَادَ بالنَّاسِ أفْسَدا

وعلى هذا فلا شاهد فيه . ومعنى أفْنَدَ : أوقع في الفَنَد : وهو الخرف وإنكار العقل من الهرم والمرض .

ومما يعطي أَن الفَنَد : الفساد في الجملة قولُ النابغة :

إلَّا سُلَيْمَـــانَ إذْ قَـــالَ الإلهُ لَهُ قُمْ في البَرِيَّةِ فاحْدُدْهَا عن الفَنَدِ[١]

وقال منذر بن سعيد : يقال : شيخ مُفَنَّد ، أي قد فسد رأيه ، ولا يقال : عجوز .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والتَّفْنيد يقع إما لجهل المُفَنَّد ، وإما لهوًى غلبه ، وإما لكذبه ، وإما لضعفه وعجزه لذهاب عقله وهرمه ، فلهذا فسر الناس التفنيد في هذه الآية بهذه المعاني ؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : (أَوْ هَرِماً مُفَنِّداً)[٢] ، قال ابن عباس ، ومجاهد وقتادة : معناه : تُسَفِّهون ، وقال ابن عباس – رضي الله عنهما – أيضاً : تُجَهِّلُون ، وقال ابن جُبير ، وعطاء : معناه : تُكَذِّبون[٣] ، وقال ابن إسحق : معناه : تُضَعِّفُونَ ،

---

(١) البيت من قصيدته المشهورة التي قالها يمدح النعمان بن المنذر ، ويعتذر إليه مما بلغه عنه في أمر المتجردة ، وهو هنا يشبه النعمان بسيدنا سليمان عليه السلام في عظم الملك ، وقبل هذا البيت يقول النابغة :

ولا أرَى فاعِلاً في النَّاسِ يُشْبِهُهُ ولا أُحَاشِي مِنَ الأقْوَامِ مِنْ أحَدِ

(٢) هذا جزء من حديث رواه الترمذي في الزهد ، وقد ورد التفنيد في أحاديث كثيرة ، روى شمر في حديث واثلة بن الأسقع أنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (أتزعمون أنّي من آخركم وفاة ؟ ألا إني من أولكم وفاةً ، تتبعونني أفناداً يهلك بعضكم بعضاً) ، والمعنى تتبعونني ذوي فَنَد ؛ أي : عجز وكفر للنعمة .

(٣) ومنه قول الشاعر :

هَلْ في افْتِخارِ الكَرِيمِ مِنْ أَوَدِ ؟ أمْ هَلْ لِقَوْلِ الصَّدْقِ مِنْ فَنَدِ ؟

والأود : العوج ، والفَنَد هنا الكذب .

وقال ابن زيد ، ومجاهد : معناه : تقولون ذهب عقلك ، وقال الحسن : معناه : تهرمون .

والذي يشبه أن تفنيدهم ليعقوب عليه السلام إنما كان لأنهم كانوا يعتقدون أن هواه قد غلبه في جانب يوسف عليه السلام[1] ، قال الطبري : أصل التَّفْنيد الإفساد .

وقولهم : ﴿لَفِي ضَلَالِكَ﴾ يريدون : انْتِكَافِكَ وتحيُّرك[2] ، وليس هو بالضلال الذي هو في العُرف ضد الرشاد ، لأن ذلك من الجفاء الذي لا يسوغ لهم مواجهته به ، وقد تأوله بعض الناس على ذلك ، ولهذا قال قتادة رحمه الله : قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله عليه السلام . وقال ابن عباس : المعنى : لفي خطئك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكان حزن يعقوب قد تجدد بقصة (يامين) ، فلذلك يقال له : ذو الحزنين .

---

(١) فهو إذاً من فساد العقل ، وعليه قول الشاعر :

يَا عَاذِلَيَّ دَعَا المَلَامَ وَأَقْصِرَا طَالَ الهَوَى وَأَطَلْتُمَا التَّفْنِيدَا

(٢) الانتكاف هو الخروج من أمْر إلى أمْر ، ففيه معنى الحيرة ، وفي بعض النسخ : « ائتلافك » بمعنى : استمالتك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن البشير كان يهوذا لأنه كان جاء بقميص الدم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

حدثني أبي رضي الله عنه قال : سمعت الواعظ أبا الفضل بن الجوهري على المنبر بمصر يقول : إن يوسف عليه السلام لما قال : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي ﴾ قال يهوذا : قد علمت أني ذهبت إليه بقميص التَّرْحة فدعوني أذهب إليه بقميص الفَرْحة ، فتركوه وذلك . وقال هذا المعنى السدي .

و [ٱرْتَدَّ] معناه : رجع هو ، يقال : ارتدَّ الرجل وردَّه غيره ، و [بصِيراً] معناه : مبصراً . ثم وقفهم على قوله لهم : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ

مِنَ ٱللَّهِ مَالَا تَعْلَمُونَ﴾ ، وهذا ــ والله أعلم ــ هو انتظاره لتأويل الرُّؤيا ، ويحتمل أن يشير إلى حسن ظنه بالله تعالى فقط . ورُوي أنه قال للبشير : على أي دين تركت يوسف ؟ قال : على الإسلام ، قال : الحمد لله ، الآن تمت النعمة . وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : «فلما أن جاء البشير من بين يدي العير» ، وحكى الطبري عن بعض النحويين أنه قال : [أَنْ] في قوله : ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ زائدة ، والعرب تزيدها أحياناً في الكلام بعد (لمَّا) وبعد (حتَّى) فقط ، تقول : لما جئت كان كذا ، ولما أن جئت ، وكذلك تقول : ما قام زيد حتى قمت ، وحتى أن قمت .

وقوله : ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ . رُوي أن يوسف عليه السلام لما غفر لإخوته وتحققوا أيضاً أن يعقوب يغفر لهم قال بعضهم لبعض : ما يغني عنا هذا إن لم يغفر الله لنا ، فطلبوا حينئذ من يعقوب أن يطلب لهم المغفرة من الله تعالى ، واعترفوا بالخطأ ، فقال لهم يعقوب : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ ، قالت فرقة : سَوَّفَهم إلى السَّحَر ، ورُوي عن محارب بن دثار أنه قال : كان لي عمٌّ يأتي المسجد ، فسمع إنساناً يقول : «اللَّهم دعوتني فأجبت ، وأجبتني فأطعت ، وهذا سحَرٌ فاغفر لي» ، فاستمع الصوت فإذا هو

من دار عبد الله بن مسعود ، فسئل عبد الله بن مسعود عن ذلك فقال : إن يعقوب عليه السلام أَخَّر بنيه إلى السَّحَر ، ويُقوي هذا التأْويلَ قولُ النبي صلى الله عليه وسلم : (ينزل ربنا كل ليلة إذا كان الثلث الآخر إلى سماء الدنيا فيقول : من يدعوني فأَستجيب له ؟ من يستغفرني فأَغفر له ...) الحديث [١] ، ويقويه قوله تبارك وتعالى : ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾[٢] . وقالت فرقة : إنما سَوَّفهم يعقوب إلى قيام اللَّيل ؛ وقالت فرقة ــ منهم سعيد بن جبير ــ : سوَّفهم يعقوب إلى الليالي البيض ، فإن الدعاء فيهن يستجاب ، وقيل : إنما أَخَّرهم إلى ليلة الجمعة ، وروى ابن عباس هذا التأْويل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : أخرهم يعقوب حتى تأْتي ليلة الجمعة[٣] .

ثم رجَّاهم يعقوب عليه السلام بقوله : ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ .

وقوله : ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا﴾ الآية . ها هنا محذوفات يدل عليها الظاهر ، وهي : فرحل يعقوب بأَهله أَجمعين وساروا حتى بلغوا يوسف ،

(١) أخرجه البخاري في التهجد ، ومسلم في المسافرين ، وأبو داود في السُّنَّة ، والترمذي في الصلاة ، وفي الدعوات ، وابن ماجه في الإقامة ، والدارمي في الصلاة ، والموطأ في القرآن ، والإمام أحمد في مسنده (٢ ــ ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٨٢ ، ٤١٩ ، ٤٨٧ ، ٥٠٤) .

(٢) من الآية (١٧) من سورة (آل عمران) .

(٣) أخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (في قصة قول أخي يعقوب لبنيه) : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ يقول : حتى تأتي ليلة الجمعة . (الدر المنثور) .

فلما دخلوا عليه . و [آوى] معناه : ضَمَّ وأظهر الحَفَاوَة بهما (١) ، وفي الحديث : (أمَّا أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله) (٢) . وقيل : أراد بالأبوين أبَاهُ وأُمَّه ، قاله ابن إسحق ، والحسن ، وقال بعضهم : أباه وجَدَّته أُمَّ أُمِّه ، حكاه الزهراوي ، وقيل : أباه وخالته ، لأن أمه قد كانت ماتت ، قاله السدي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأول أظهر بحسب اللفظ ، إلا لو ثبت بسند أن أمه قد كانت ماتت ، وفي مصحف ابن مسعود : «آوى إليه أبويه وإخوته».

وقوله : ﴿ٱدْخُلُوا مِصْرَ﴾ معناه : تمكنوا واسكنوا واستقروا ، لأنهم قد كانوا دخلوا عليه ، وقيل : بل قال لهم ذلك في الطريق

(١) في بعض النسخ : « وأظهر الحفاية بهما » بكسر الحاء وبالياء المهملة ، وهي صحيحة مثل الحفاوة بالواو مع فتح الحاء وكسرها ؛ يقال : حَفِيَ بالرجل حَفَاوةً وحِفاوةً وحِفايةً ، وتحفَّى به واحْتَفَى : بلغ في إكرامه . (عن اللسان ــ حفا) .

(٢) الحديث في البخاري ، في باب « من قعد حيث ينتهي به المجلس » من كتاب العلم ، ولفظه في البخاري عن أبي واقد الليثي (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب واحد ، قال : فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما أحدهما فرأى فُرْجة في الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهباً ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه) . هذا وقد أخرجه البخاري أيضاً في الصلاة ، ومسلم في السلام ، والترمذي في الاستئذان ، ومالك في الموطأ (في السلام) ، وأحمد (٥ــ٢١٩) .

حين تلقاهم ، قاله السدي ، وهذا الاستثناءُ هو الذي ندب إليه القرآن أن يقوله الإنسان في جميع ما ينفذه بقوله في المستقبل ، وقال ابن جريج : هذا مؤخر في اللفظ وهو متصل في المعنى بقوله : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا التأْويل ضعف .

و [ٱلْعَرْش] : سرير المُلْك ، وكل ما عُرِّش فهو عريش وعرْش ، وخصصت اللغة الْعَرْش لسرير المُلْك . و [خَرُّوا] معناه : تصوبوا نحو الأَرض ، واختلف في هذا السجود ، فقيل : كان كالمعهود عندنا من وضع الجبهة بالأَرض ، وقيل : بل دون ذلك كالركوع البالغ ونحوه مما كان سير تحياتهم للملوك في ذلك الزمان . وأَجمع المفسرون أن ذلك السجود – على أي هيئة كان – فإنما كان تحية لا عبادة ، قال قتادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ، وأعطى الله هذه الأُمة السلام تحية أهل الجنة ، وقال الحسن : الضمير في [لهُ] لله عزَّ وجلَّ . ورُدَّ على هذا القول (١) .

(١) قال النقاش : هذا خطأ ، والهاء راجعةٌ إلى يوسف لقوله تعالى في أول السورة : ﴿رَأَيْتُهُمْ لي ساجدِينَ﴾ .

وحكى الطبري أن يعقوب لما بلغ مصر في جملته كلم يوسف عليه السلام فرعون في تلقيه ، فخرج إليه وخرج الملوك معه . فلما دنا يوسف من يعقوب – وكان يعقوب يمشي متوكئاً على يهوذا – قال : فنظر يعقوب إلى الخيل والناس فقال : يا يهوذا ، هذا فرعون مصر ؟ قال : لا ، هو ابنك ، قال : فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدأُ بالسلام ، فمنعه يعقوب من ذلك ، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل ، فقال : السلام عليك يا مُذْهِب الأحزان .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ونحو هذا من القصص .

وفي هذا الوقت قال يوسف ليعقوب : إن فرعون قد أحسن إلينا فادخل عليه شاكراً ، فدخل عليه ، فقال فرعون : يا شيخ ، ما صيَّرك إلى ما أرى ؟ قال : تتابع البلاء عليَّ ، قال : فما زالت قدمه حتى نزل الوحي : يا يعقوب ، أتشكوني إلى من لا يضرك ولا ينفعك ؟ قال : يا ربِّ ، ذنب فاغفره . وقال أبو عمرو الشيباني : تقدم يوسفُ يعقوب في المشي في بعض تلك المواطن ، فهبط جبريل فقال له : أتتقدم أباك ؟ إن عقوبتك لذلك ألا يخرج من ذُرِّيتك نبي .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

المعنى : قال يوسف ليعقوب : هذا السجود الذي كان منكم هو ما آلت إليه رؤياي قديماً في الأحد عشر كوكباً وفي الشمس والقمر .

وقوله : ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ ابتداءُ تعديد نعم الله تعالى عليه ، وقوله : ﴿قَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ أي : أوقع وناط إحسانه بي ، فهذا منحى في وصول الإحسان بالباء ، وقد يقال : أَحْسَنَ إليَّ ، وأَحْسن فيَّ ، ومنه قول عبد الله بن أُبي بن سلول : يا محمد ، أحسن في مواليَّ ، وهذه المناحي مختلفة المعنى ، وأليقها بيوسف قوله : [بي] لأنه إحسان خُرِّج فيه دون أن يقصد هو الغاية التي صار إليها (١) .

(١) الأصل في (أَحْسَنَ) أن يتعدى بـ (إلى) ، قال تعالى : ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ، وقد يتعدى بالباء كقوله تعالى : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ، وكذلك (أساء) ، يقال : أساء إليه ، وبه ، قال الشاعر :

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لا مَلُومَةً لَدَيْنَا وَلا مَقْلِيَّةً إنْ تَقَلَّتِ

وقد يكون (أَحْسَنَ) ضُمِّنَ معنى (لَطَفَ) فعُدِّي بالباء .

وذكر يوسف إخراجه من السجن وترك إخراجه من الجب لوجهين :

أحدهما أن في ذكر إخراجه من الجب تجديد فعل إخوته وخزيهم بذلك وتقليع نفوسهم وتحريك تلك الغوائل وتخبيث النفوس (١) .

والوجه الآخر أنه خرج من الجب إلى الرق ومن السجن إلى الملك ، فالنعمة هنا أوضح (٢) .

وقوله : ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ يعم جمع الشمل والتنقل من الشقاوة إلى النعمة بسكون الحاضرة ، وكان منزل يعقوب عليه السلام بأطراف الشام في بادية فلسطين ، وكان ربَّ إبل وغنم وبادية (٣) .

و [نَزَغَ] معناه : فَعَل فعلا أفسد به ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يُشِرْ أحدكم على أخيه بالسلاح ، لا ينزغ الشيطان

(١) وفي هذا المعنى يقول بعض الصوفية : « ذكْر الجفا في وقت الصفا جفا » .

(٢) وقيل : ذكر إخراجه من السجن دون الجب لأن دخوله في السجن كان باختياره بقوله : ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ وكان في الجب بإرادة الله ، وقيل لأنه كان في السجن مع العصاة واللصوص ، أما في الجب فكان مع الله ، وقيل : لأن المنَّة في الخروج من السجن كانت أكبر ، لأنه دخله بسبب أمرٍ هَمَّ به ، فكان الكرب فيه أكبر ، أما الجب فقد ألقي فيه بدون ذنب ، ولهذا كان كربه فيه أخف .

(٣) يقال : إن يعقوب خرج إلى مكان يُسَمَّى (بَدَا) ، وهو الموضع الذي عناه جميل بثينة بقوله :

وأنتِ التي حبَّبْتِ شَغْبًا إلى بَدَا ... إليَّ ، وأوطاني بلادٌ سواهُمَا

وليعقوب بهذا الموضع مسجد تحت جبل هناك . (ذكر ذلك القرطبي وأبو حيان في البحر المحيط) .

في يده)[1] ، وإنما ذكر يوسف هذا القدر من أمر إخوته ليُبَيِّن حسن موقع النعم ، لأن النعمة إذا جاءت إثر شدة وبلاءٍ فهي أحسن موقعاً .

وقوله : ﴿لِمَا يَشَاءُ﴾ أي : من الأُمور أن يفعله .

واختلف الناس في : كم كان بين رؤيا يوسف وبين ظهورها ؟ فقالت فرقة : أربعون سنة ، هذا قول سليمان الفارسي ، وعبد الله ابن شداد ، وقال عبد الله بن شداد : ذلك آخر ما تبطئُ الرؤيا ، وقالت فرقة ــ منهم الحسن ، وحسن بن فرقد ؛ وفضل بن عياض ــ : ثمانون سنة ، وقال ابن إسحق : ثمانية عشر ، وقيل : اثنان وعشرون ، قاله النقاش ، وقيل : ثلاثون ، وقيل : خمس وثلاثون ، قاله قتادة ، وقال السدي ، وابن جبير : ستة وثلاثون سنة . وقيل : إن يوسف عليه السلام عمِّر مائة وعشرين سنة ، وقيل : إن يعقوب بقي عند يوسف نيِّفاً على عشرين سنة ثم توفي صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا وجه في ترك تعريف يوسف أباه بحاله منذ خرج من السجن إلى العِزَّة إلَّا الوحي من الله تعالى لما أراد أن يمتحن به يعقوب وبنيه ،

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : من حمل علينا السلاح فليس منا ، ونصه : عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا يُشير أحدكم على أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعلَّ الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار) ، فالرواية هنا بالياء في (يشير) وهي على النفي المراد به النهي ؛ وهي أيضاً بالعين المهملة في (ينزع) ، والمعنى : يرمي به في يده ويحقق ضربته ؛ ومن رواه (ينزغ) بالمعجمة فمعناه الإغراء ، أي : يُزَيِّن له الشيطان تحقيق الضربة . والرواية في (مسلم) بالعين المهملة . (راجع شرح النووي) .

وأراد من صورة جمعهم ، لا إلٰه إلا هو ، وقال النقاش : كان ذلك الوحي في الجب ، وهو قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ، وهذا محتمل .

ومما رُوي في أخبار يعقوب عليه السلام : قال الحسن : لما ورده البشير لم يجد عنده شيئاً يثيبه به . فقال له : والله ما أصبت عندنا شيئاً ، وما خبزنا منذ سبع ليال . ولكن : «هَوَّن اللهُ عليك سكرات الموت» . ومن أخباره أنه لما اشتد بلاؤه قال : يا رب : أعميتَ بصري وغَيَّبْتَ عني يوسف ، أفما ترحمني ؟ فأوحى الله إليه : سوف أرحمك وأَرُدُّ عليك ولدك وبصرك ، وما عَاقَبْتُك بذلك إلا أنك طبخت في منزلك حَمَلًا ، فشمه جارٌ لك ، ولم تساهمه بشيء ؛ قال : فكان يعقوب بعْدُ يدعوه إلى غذائه وعشائه . وحكى الطبري أنه لما اجتمع شمله كلفه بنوه أن يدعو الله لهم حتى يأتي الوحي بأن الله قد غفر لهم ، قال : فكان يعقوب يصلي ويوسف وراءه وهم وراء يوسف ، ويدعو لهم ، فلبث كذلك عشرين سنة ثم جاءه الوحي : إني قد غفرت لهم وأعطيتهم مواثيق النبوة بعدك .

ومن أخباره أنه لما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف أن يدفنه بالشام . فلما مات نفخ فيه المُرّ وحمله إلى الشام ، ثم مات يوسف فدفن بمصر ، فلما خرج موسى عليه السلام – بعد ذلك – من أرض مصر احتمل عظام يوسف حتى دفنها بالشام مع آبائه .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ * رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

قرأ ابن مسعود : [آتَيْتَنِ] و [عَلَّمْتَنِ] بحذف الياء على التخفيف[١]، وقرأ ابن ذرٍّ وحده : «رَبِّ آتَيْتَنِي» بغير «قد» .

وذكر كثير من المفسرين أن يوسف عليه السلام لما عدَّد في هذه الآية نعم الله عنده تشوَّق إلى ربه ولقاء الجِلَّة من صالحي سلفه وغيرهم من المؤمنين ، ورأى أن الدنيا كلها قليلة ، فتمنى الموت في قوله : ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ . وقال ابن عباس : «لم يتمن الموت نبي غير يوسف» ، وذكر المهدويُّ تأويلا آخر – وهو الأقوى عندي – : إنه ليس في الآية تمني موت ، وإنما عدَّد يوسف عليه السلام نِعَم الله عنده ، ثم دعا أن يتم عليه النِّعَم في باقي عمره ، أي : توفني –

(١) وهذا واردٌ في كلام العرب ، ومنه قول الأعشى :

فَهَلْ يَمْنَعَنِّي ارْتِيَادِي البِـلا دَ مِنْ حَذَرِ المَوْتِ أَنْ يَأْتِيَنْ ؟

إذا حان أجلي – على الإسلام ، واجعل لحاقي بالصالحين ، وإنما تمنى الموافاة على الإسلام لا الموت . وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا يَتَمَنَّيَنَّ أحدكم الموت لِضُرٍّ نزل به ... الحديث بكماله)[1] ، ورُوي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال في بعض دعائه : (وإذا أردت في الناس فتنة فاقبضني إليك غير مفتون)[2] ، ورُوي عن عمر بن

---

(١) أخرجه البخاري في أكثر من كتاب ، وكذلك أخرجه مسلم . وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي ، وأحمد ، ولفظه كما جاء في مسلم : (لا يتمنَّيَنَّ أحدكم الموت لضُرٍّ نزل به ، فإن كان لابد مُتَمَنِّياً فليقل : اللَّهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي) .

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير ، والإمام مالك في الموطأ ، والإمام أحمد في مسنده (٥–٢٤٣) ، وهو حديث طويل ، جاء في أوله أن معاذ بن جبل قال : احتبس علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى قرن الشمس ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً فثوّب بالصلاة وصلى وتجوز في صلاته ، فلمَّا سلَّم قال : (كما أنتم على مصافكم) ، ثم أقبل علينا فقال : (إني سأُحدثكم ما حبسني عنكم الغداة ، إني قمت من الليل فصلَّيت ما قُدِّر لي ، فنعست في صلاتي حتى استيقظت فإذا أنا بربِّي عزَّ وجلَّ في أحسن صورة ، فقال : يا محمد ، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدري يا رب ، قال : يا محمد ، فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدري ربِّ ، فرأيته وضع كفَّه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري ، فتجلَّى لي كل شيء وعرفت ، فقال : يا محمد ، فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في الكفارات ، قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجُمُعات ، والجلوس في المساجد بعد الصلاة ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات ، قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام ، قال : سَلْ ، قلت : =

الخطاب رضي الله عنه أنه قال : «اللّهم قد رقّ عظمي ، واستَشْرت رَغْبتي ، فتوفني غير مقصر ولا عاجز» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فيُشبه أن قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لِضُرٍّ نزل به) إنما يريد به ضرر الدنيا كالفقر والمرض ونحو ذلك ، ويبقى تمني الموت مخافة فساد الدين مباحاً ، ويدلك على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : (يأْتي على الناس زمان يمر فيه الرجل بقبر الرجل فيقول : ياليتني مكانه ، ليس به الدين ولكن ما يرى من البلاء والفتن)[1] ، فقوله : (ليس به الدين) يقتضي إباحة ذلك إن لو كان عن الدين ، وإنما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حالة الناس كيف تكون .

= اللّهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحُبَّ المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون ، وأسألك حُبّك ، وحبَّ من يحبُّك ، وحُبَّ عمل يُقَرِّبني إلى حبك) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنها حقٌ فادرسوها وتعلموها) .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن باب خروج النار ، وفيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة) ... إلى أن قال : (وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : ياليتني مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ...) الحديث .

وقوله : ﴿آتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ ، قيل : [مِن] للتبعيض ، وقيل : لبيان الجنس . كذلك في قوله : ﴿مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ ، والمراد بقوله : [ٱلْأَحَـادِيث] : الأحــلام ، وقيــل : قصص الأنبيــاء والأُمم .

وقوله : [فَاطِرَ] منادى ، وقوله : ﴿أَنْتَ وَلِيِّي﴾ أي القائم بـأمري ، الكفيل بنصرتي ورحمتي .

وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ﴾ الآية . [ذَٰلِكَ] إشارة إلى ما تقدم من قصة يوسف ، وهذه الآية تعريض لقريش ، وتنبيه على آية صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي ضمن ذلك الطعن على مكذبيه . والضمير في [لَدَيْهِمْ] عائد إلى إخوة يوسف ، وكذلك الضمائر إلى آخر الآية . و [أَجْمَعُوا] معناه : عزموا وجزموا . و «الأَمر» هنا هو إلقاءُ يوسف في الجب . و «المكْرُ» هو أن تدبر على الإنسان تدبيراً يضره ويؤذيه ، والخديعة هي أن تفعل بإنسان وتقول له ما يوجب أن يفعل هو فعلا فيه عليه ضرر . وحكى الطبري عن أبي عمران الجوْني أنه قال : «والله ما قصَّ الله نبأَهم ليعيرهم بذلك ، إنهم لأَنبياءُ من أهل الجنة ، ولكن قصَّ الله علينا نبأَهم لئلا يقنط عبيده » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

هاتان الآيتان [١] تدلان على أن الآية التي قبلهما فيها تعريض لقريش ومعاصري محمد صلى الله عليه وسلم ، كأنه قال : فإخبارك بالغيوب دليل قائم على نبوتك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون وإن كنت أنت حريصاً على إيمانهم ، أي : إنما يؤمن من شاء الله ، وقوله : ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ اعتراض فصيح .

وقوله : ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ﴾ الآية ، توبيخ للكفرة وإقامة للحُجَّة عليهم ، أي : ما أسفههم في أن تدعوهم إلى الله دون أن تبتغي منهم

(١) يريد قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ، وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) ﴾ .

أجراً فيقول قائل : بسبب الأَجر يدعوهم ، وقرأ مُبشِّر بن عُبَيْد[١] : ﴿ومَا نَسْأَلُهُمْ﴾ بالنون .

ثم ابتدأ الله تبارك وتعالى الإخبار عن كتابه العزيز أنه ذِكر وموعظة لجميع العالم . نفعنا الله به ، ووفر حظنا منه بعزته .

وقرأت الجماعة : [وَكَأَيِّن] بهمز الأَلف وشدِّ الياء ، قال سيبويه : هي كاف التشبيه اتصلت بـ (أيٍّ) ، ومعناها معنى (كم) في التكثير ، وقرأ ابن كثير : [وَكَائِن] بمد الأَلف وهمز الياء ، وهو اسم الفاعل من (كان) فهو كائن ، ولكن معناه معنى (كم) أيضاً[٢] . وقد تقدم استيعاب القراءات في هذه الكلمة في قوله : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ﴾[٣] .

و «الآية» هنا : المخلوقات المنصوبة للاعتبار ، والحوادثُ الدالة على الله سبحانه في مصنوعاته ، ومعنى ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ الآية : إذا جاء منها ما يُحَسُّ أو يعلم في الجملة لم يتعظ الكافر به ، ولا تأمله ، ولا اعتبر به بحسب شهواته وعَمَهِهِ[٤] ، فهو ـ لذلك ـ كالْمُعْرِض ،

---

(١) في «البحر المحيط» : «وقرأ بِشْر بن عُبيد . وفي بعض الأصول : مُيَسَّر .

(٢) قال أبو حيان : «وهذا شيء يروى عن يونس ، وهو قول مرجوح في النحو» ، ثم ذكر أن المشهور عندهم هو رأي سيبويه .

(٣) من الآية (١٤٦) من سورة (آل عمران) .

(٤) العَمَه : التَّحَيُّر والتردد بحيث لا يدري أين يتوجه ، وهو في البصيرة كالأعمى في البصر .

ونحو هذا المعنى قول الشاعر :

تَمُرُّ الصَّبَا صَفْحاً بِسَاكِنِ ذي الغَضَا وَيَصْدعُ قَلْبي أَنْ يَهُبَّ هبوبُهَا[1]

وقرأ السدي : [وَٱلْأَرْضَ] بالنصب بإضمار فعل ، والوقف — على هذا — في [السَّمَوات] ، وقرأ عكرمة ، وعمرو بن فائد : [وَٱلْأَرْضُ] بالرفع على الابتداء ، والخبر قوله : [يَمُرُّونَ] ، وعلى القراءة بخفض [الْأَرضِ] ، فـ [يَمُرُّونَ] نعت لـ «الآية» ، وفي مصحف عبد الله : «والأَرْض يمشون عليها» .

وقوله : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ﴾ الآية . قال ابن عباس : هي في أهل الكتاب الذين يؤمنون بالله ثم يشركون من حيث كفروا بنبيه ، أو من حيث قالوا : عُزَيْر ابن الله ، والمسيح ابن الله ، وقال عكرمه ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : هي في كفار العرب . وإيمانهم هو إقرارهم بالخالق والرازق والمميت ، فسمَّاه إيماناً وإن أعقبه إشراكهم بالأوثان والأصنام ، فهذا الإيمان لغوي فقط من حيث هو تصديق مَّا . وقيل : هذه الآية نزلت بسبب قول قريش في الطواف والتلبية : لبيك

(١) الصَّبَا : ريح معروفة تقابل الدَّبور ، قال في الصحاح : «مَهَبُّها المُسْتَوِي أن تهب في موضع مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار» . وفي اللسان : «لقيه صفاحاً أي استقبله بصفح وجهه» ، وصَفْح الوجه وصُفْحُه : عرضه ، فكأنه يصف الصَّبا بأنها تمر على صفحة وجهه دون أن تؤثر فيه ، لكنها تشق قلبه شقاً لأنها تذكره الأحبة . والشاهد في البيت أن المرور يكون بدون أثر ، ولا تترتب عليه نتيجة .

لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع أحدهم يقول : «لا شريك لك» يقول له : (قط قط) ، أي : قف هنا ولا تزد: «إلا شريك هو لك».

و «الغاشية» : ما يغشى ويغطي ويغم ، وقرأ أبو حفص ، وبشر ابن عبيد[١] : ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ السَّاعَةَ بَغْتَةً﴾ بالياء و [بَغْتَةً] معناها : فجأة ، وذلك أصعب .

وهذه الآية من قوله : [وَكَأَيِّنْ] وإن كانت في الكفار بحكم ما قبلها ، فإن العصاة يأخذون من ألفاظها بحظ ، ويكون الإيمان والشرك لغوياً كالرياء ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : (الرياءُ الشرك الأصغر)[٢] .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ الآية ، إشارة إلى دعوة الإسلام والشريعة بأسرها ، قال ابن زيد : المعنى : هذا أمري وسُنَّتي ومنهاجي . وقرأ ابن مسعود : «قُلْ هَذَا سَبِيلِي» ، والسبيل : المسلك ، وتُؤَنَّث وتُذَكَّر ، وكذلك الطريق [٣] .

---

(١) في الأصول : «وقرأ أبو حفص مبشر بن عبيد» ، والتصويب عن «البحر المحيط».

(٢) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٥-٤٢٨) عن محمود بن لبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياءُ ، يقول الله عزّ وجلّ لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً ؟) .

(٣) في إعراب ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ آراء كثيرة ، أشهرها أن مفعول [أدعو] محذوف تقديره: أدْعو الناسَ ، و ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ متعلق بالفعل [أدْعُو] ، و (أَنَا) —

و «الْبَصِيرَةُ» : اسم لمعتقد الإنسان في الأَمر من الحقِّ واليقين ، والبصيرة أيضاً ـ في كلام العرب ـ : الطريقة من الدَّم ، وفي الحديث المشهور : (تنظر في النَّصل فلا ترى بصيرة)(١) ، وبها فسَّر بعض الناس قول الأشعر الجُعْفي :

رَاحُوا بَصَائِرُهُمْ عَلَى أَكْتَافِهِمْ وبَصِيرَتي يَعْدُو بها عَتِدٌ وأَي(٢)

يصف قوماً باعوا دم وَلِيِّهم ، فكأَن دمه حصلت منه طرائق على أكتافهم إذ هم موسومون عند الناس ببيع ذلك الدم .

= توكيد للضمير المستكن في [أَدْعُو] و [مَنْ] معطوف على [أنا] ، والمعنى : أدعو إليها أنا ومن اتبعني ، ويجوز أن يكون ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ خبراً مقدماً ، والمبتدأ [أنا] ، و [مَنْ] معطوف عليه ، ويجوز أن يكون ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ حالا من ضمير [أَدْعُو] فيتعلق بمحذوف ، و [أنا] فاعلا بالجار والمجرور النائب عن ذلك المحذوف ، و [مَنْ] معطوف على [أنا] .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة ، وأحمد في (٣–٥) ، ولفظه فيه عن أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر قوماً يكونون في أمته ، يخرجون في فرقة من الناس سيماهم التحليق ، هم شرُّ الخلق ، أو من شرِّ الخلق ، يقتلهم أدنى الطائفتين من الحق ، قال : فضرب النبي صلى الله عليه وسلم لهم مثلا ، أو قال قولا : الرجل يرمي الرمية ، أو قال : الغرض ، فينظر في النصل فلا يرى بصيرة ، وينظر في النضي فلا يرى بصيرة ، وينظر في الفوق فلا يرى بصيرة ، قال : قال أبو سعيد : وأنتم قتلتموهم يأهل العراق .

(٢) قال في اللسان : « البصيرة : مقدار الدرهم من الدم ، وقيل : البصيرة من الدم : ما لم يَسِلْ ، وقيل : هو الدفعة منه ، وقيل : البصيرة : دم البكر ، قال : راحوا بصائرهم ... البيت ، ويعني بالبصائر دم أبيهم ، يقول : تركوا دم أبيهم خلفهم ولم يثأروا به وطلبته أنا ، قال في الصحاح : وأنا طلبت ثأري ، وكان أبو عبيدة يقول : البصيرة في هذا البيت : الترس أو الدرع ، وكان يرويه : حملوا بصائرهم ، وقال ابن الأعرابي : راحـوا بصائرهم يعني ثِقْل دمائهم على أكتافهم لم يثأروا بها » . اهـ . مادة بَصُرَ .

هذا وعَتِدٌ : مُعَدٌّ مُهيأ يقصد نفسه ، يقال : فرسٌ عَتِدٌ : مُعَدٌّ للجري ، و (أي) استفهام للتهويل والتعظيم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويجوز أن تكون البصيرة في بيت الأشعر على المعتقد الحق ، أي : جعلوا اعتقادهم طلب الثأر وبصيرتهم في ذلك وراء ظهورهم ، كما تقول : طرح فلان أمري وراء ظهره .

وقوله : ﴿أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ يحتمل أن يكون تأكيداً للضمير في [أَدْعُو] ، ويحتمل أن تكون الآية كلها أمارةً بالمعروف داعيةً إلى الله الكفرةَ به والعصاة. و ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ﴾ تنزيه لله ، أي وقل : سبحان الله ، وقل متبرئاً من الشرك .

ورُوي أن هذه الآية ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ إلى آخرها كانت مرقومة على رايات يوسف عليه السلام .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾

هذه الآية تتضمن الردّ على مستغربي إرسال الرسل من البشر ، كالطائفة التي قالت : ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾(١) ، وكالطائفة التي اقترحت ملكاً ، وغيرهما .

---

(١) من الآية (٩٤) من سورة (الإسراء) .

وقرأ الجمهور : ﴿يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ بالياء وفتح الحاء : وهي قراءة عاصم في رواية أبي بكر ، وقرأ في رواية حفص [نُوحِي] بالنون وكسر الحاء ، وهي قراءة أبي عبد الرحمن ، وطلحة .

و [ٱلْقُرَىٰ] : المدن ، وخصصها دون القوم المنتوين[1] أهل العمود ، فإنهم في كل أُمَّةٍ أهل جفاء وجهالة مفرطة ، قال ابن زيد : أهل القرى أعلم وأحلم من أهل العمود .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فإنهم قليل نبلهم ، ولم يُنَبِّئْ الله منهم قطُّ رسولا . وقال الحسن : لم يبعث الله رسولا قطُّ من أهل البادية ، ولا من النساء ، ولا من الجن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والتَّبَدِّي مكروه إلا في الفتن وحين يُفَرُّ بالدين ، كقوله عليه الصلاة والسلام : (يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً ...) الحديث[2] . وفي ذلك أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لِسَلَمَةَ بن الأكوع[3] .

(١) التنوّي : انتقل من مكان إلى آخر ، وفي حديث المرأة البدوية التي توفي عنها زوجها : (إنها تنتوي حيث انتوى أهلها) . قال في النهاية : أي : تنتقل وتتحول . يريد البدو الرحل .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان : باب : « من الدين الفرار من الفتن » ، ولفظه كاملا عن أبي سعيد الخدري أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتّبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفرُّ بدينه من الفتن) .

(٣) أخرج البخاري في كتاب الفتن ، باب « التعرُّب في الفتنة » عن سلمة بن الأكوع (أنه دخل على الحجاج فقال : يا بن الأكوع ، ارتددتَ على عقبيك ، تعرَّبتَ ؟ قال : لا ، =

وقد قال صلى الله عليه وسلم : (لا تَعَرُّب في الإسلام) (١) ، وقال : (من بَدَا جفا) (٢) ، وروى عنه معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال : (الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية ، فإياكم والشعاب ، وعليكم بالمساجد والجماعات والعامة) (٣) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويعترض هذا ببدو يعقوب ، وينفصل عن ذلك بوجهين :

أحدهما : أن ذلك البدو لم يكن في أهل عمود ، بل هو بتَقَرٌّ وفي منازل وربوع ، والثاني : أنه إنما جعله بدواً بالإضافة إلى مصر ، كما هي بنات الحواضر بدو بالإضافة إلى الحواضر .

= ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لي في البدو) ، وعن يزيد بن أبي عبيد قال: لما قُتل عثمان بن عفان خرج سلمة بن الأكوع إلى الرَّبَذَة ، وتزوج هناك امرأة وولدت له أولاداً ، فلم يزل بها حتى أقبل قبل أن يموت بليال فنزل المدينة) .

(١) الذي وجدناه في «النهاية» ما نصه : (ثلاثٌ من الكبائر منها التَّعَرُّب بعد الهجرة ...) ثم فسَّر معنى «التَّعَرُّب» بقوله : هو أن يعود إلى البادية ويقيم مع الأعراب بعد أن كان مهاجراً .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢-٣٧١ ، ٤٤٠ ، ٤-٢٩٧) ، ولفظه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ بَدَا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد عبد من السلطان قُرْباً إلا ازداد من الله بُعْداً) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن معاذ رضي الله عنه ، ولفظه كما في «الجامع الصغير» : (إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية ، فإياكم والشِّعاب ، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد) . ورمز له الإمام السيوطي بأنه حديث حسن .

ثم أحالهم على الاعتبار في الأُمم السالفة في أقطار الأَرض التي كذبت رسلها فحاق بها عذاب الله ، ثم حضَّ على الآخرة والاستعداد لها والاتقاءِ من الموبقات فيها ، ثم وقفهم موبخاً بقوله : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

وقوله : ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾ زيادة في وصف إنعامه على المؤمنين ، أي : عذَّب الكفار ونجَّى المؤمنين ولدار الآخرة أحسن لهم .

وأما إضافة الدار إلى الآخرة فقال الفراءُ : هي إضافة الشيءِ إلى نفسه ، كما قال الشاعر :

فإنَّكَ لَوْ حَلَلْتَ دِيَـــارَ عَبْسٍ عرَفْت الذُّلَ عِرْفَـــان الْيَقِينِ (١)

وفي رواية : «فَلَوْ أَقْوَتْ عَلَيْكَ ديَارُ عَبْسٍ» . وكما يقال : «مسجد الجامع» ونحو هذا ، وقال البصريون : هذه على حذف مضاف تقديره : «ولدار الحياة الآخرة» ، أو «المدة الآخرة» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه الأَسماءُ التي هي للأَجناس كمسجد وثوب وحق وجبل ونحو ذلك ــ إذا نطق بها الناطق لم يُدْرَ ما يريد بها فتضاف إلى

(١) هذا واحد من بيتين رواهما الفراءُ عن بعضهم في «معاني القرآن» ، وهما :

أتَمْدَحُ فَقْعَساً وتَذُمُّ عَبْساً ؟ ألا للهِ أُمُّــــكَ مِنْ هَجِينِ

ولَوْ أقْوَتْ عَلَيْكَ دِيَارُ عَبْسٍ عَرَفْتَ الذُّلَّ عِرْفَانَ الْيَقِينِ

ثم قال : أضاف الدار إلى الآخرة ، وهي الآخرة ، وقد تضيف العربُ الشيءَ إلى نفسه ، كقوله : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ ، وجميع الأيام تضاف إلى أنفسها لاختلاف لفظها ، وكذلك شهر ربيع ، والعرب تقوله في كلامها ، ثم أنشد البيتين عن بعضهم .

مُعَرَّف مُخَصِّص للمعنى المقصود ، فقد تضاف إلى جنس آخر كقولك : « ثَوْبُ خَزٍّ » و « جَبَلُ تُرَابٍ » ، وقد تضاف إلى صفة كقولك : « مسْجِدُ الجامع » و « حقُّ اليقين » ، وقد تضاف إلى اسم خاص كقولك : « جبَلُ أُحُدٍ » ونحوه .

وقرأ الحسن ، والأعمش ، والأعرج ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وعلقمة : [يَعْقِلُونَ] بالياء ، واختلف عن الأعمش ، قال أبو حاتم : قراءة العامة : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء من فوق[1] .

ويتضمن قوله : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أن الرسل الذين بعثهم الله من أهل القُرى دعوا أُمَمَهُم فلم يؤمنوا بهم حتى نزلت بهم الْمَثُلات ، فصاروا في حيز من يُعْتبر بعاقبته ، فلهذا الْمُضَمَّن حسُن أن تدخل « حتى » في قوله : ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾[2] .

---

(١) قال في « البحر المحيط » : « وقرأ الحسن ، وعلقمة ، والأعرج ، وعاصم ، وابن عامر ، ونافع بالتاء على خطاب هذه الأمة تحذيراً لهم مما وقع فيه أُولئك فيصيبهم ما أصابهم » . تأمل الاختلاف بين الذي قاله ابن عطية والذي قاله أبو حيان .

(٢) قال أبو حيان في البحر بعد أن نقل كلام ابن عطية هذا : « ولم يتحصل لنا من كلامه شيءٌ يكون ما بعد (حَتَّى) غاية له ، لأنه علَّق الغاية بما ادعى أنه فهم ذلك من قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ الآية » . وقال القرطبي : « المعنى : وَمَا أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالا ثم لم نعاقب أُممهم بالعقاب حتَّى إذا استيأس الرسل » .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والحسن ، وعائشة ـ بخلاف ـ وعيسى ، وقتادة ، ومحمد بن كعب ، والأعرج ، وأبو رجاء ، وابن أبي مُلَيْكَة : [كُذِّبُوا] بتشديد الذال وضم الكاف ، وقرأ الباقون : [كُذِبوا] بضم الكاف وكسر الذال وتخفيفها ، وهي قراءة علي بن أبي طالب ، وأُبيٍّ بن كعب ، وابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وطلحة ، والأعمش ، وابن جبير ، ومسروق ، والضحاك ، وإبراهيم ، وأبي جعفر ، ورواها شيبة بن نصاح عن القاسم عن عائشة ، وقرأ مجاهد ، والضحاك ، وابن عباس ، وعبد الله بن الحارث ـ بخلاف عنهم ـ : [كَذَبوا] بفتح الكاف والذال [(١)] .

فأما الأُولى فتحتمل أن يكون الظن بمعنى اليقين ، ويكون الضمير في [ظَنُّوا] وفي [كُذِّبوا] للرسل ، ويكون المكذبون مشركي من أُرسل إليه ، والمعنى : وتيقَّن الرسلُ أن المشركين كذَّبوهم وصمموا على ذلك ، وأن لا انحراف عنه . ويحتمل أن يكون الظن على بابه ، والضميران للرسل ، والمكذبون مؤمنو من أُرسل إليه ، أي : لمَّا طالت المواعيد حسب الرسل أن المؤمنين أولا قد كذبوهم وارتابوا بقولهم .

وأما القراءة الثانية ـ وهي ضم الكاف وكسر الذال وتخفيفها ـ فيحتمل أن يكون المعنى : حتى إذا استيأس الرسل من النصر ، أو

(١) أي الذال الخفيفة .

من إيمان قومهم – على اختلاف تأويل المفسرين في ذلك – وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما ادَّعَوْه من النبوة، أو فيما توعدوهم به من العذاب، لمَّا طال الإمهال واتصلت العافية، فلما كان المرسل إليهم – على هذا التأويل – مكذبين، بني الفعل للمفعول في قوله: [كُذِبوا]، هذا مشهور قول ابن عباس، وابن جبير. وأسند الطبري أن مسلم بن يسار قال لسعيد بن جبير: يا أبا عبد الله، آية بلغت مني كل مَبْلَغ، ﴿حتَّى إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾، فهذا هو أن تظن الرسل أنهم قد كُذبوا مخففة، فقال له ابن جبير: «يا أبا عبد الرحمن، إنما يئس الرسل من قومهم أن يجيبوهم، وظن قومهم أن الرسل قد كَذَبتهم، فحينئذ جاء النصر»، فقام مسلم إلى سعيد فاعتنقه وقال: فرَّجت عني فرَّج الله عنك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فرضي الله عنهم، كيف كانت خلقهم في العلم [1]. وقال بهذا التأويل – في هذه القراءة – ابن مسعود ومجاهد، ورجح أبو علي الفارسي هذا التأويل، وقال: إن ردَّ الضمير في [ظَنُّوا] وفي [كُذِبُوا] على المرسل إليهم – وإن كان لم يتقدم لهم ذكْرٌ صريح – جائز لوجهين:

أحدهما: أن ذكر الرسل يقتضي ذكر مرسل إليه.

(١) هكذا في جميع النسخ الأصلية «كانت» بتاء التأنيث.

والآخر : أن ذكرهم قد أُشير إليه في قوله : ﴿عاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ .

وتحتمل هذه القراءة أيضاً أن يكون الضمير في [ظَنُّوا] وفي [كُذِبُوا] عائد على الرسل ؛ والمعنى : كَذَبَهم من أخبرهم عن الله ، والظن على بابه ، وحكى هذا التأويل قوم من أهل العلم ، والرُّسُلُ بشَرٌ ، فضعفوا وساء ظنهم ، قاله ابن عباس ، وابن مسعود أيضاً ، وابن جبير وقال : ألم يكونوا بشراً ؟ وقال ابن مسعود لمن سأله عن هذا : «هو الذي نَكْرَه» ، وردّت هذا التأويل عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وجماعة من أهل العلم ، وأعظموا أن توصف الرسل بهذا ، وقال أبو علي الفارسي : «هذا غير جائز على الرسل» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا هو الصواب ، وأين العصمة والعلم ؟

وأما القراءة الثالثة ، وهي فتح الكاف والذال ، فالضمير في [ظَنُّوا] للمرسل إليهم ، والضمير في [كَذَبُوا] للرسل . ويحتمل أن يكون الضميران للرسل ، أي : ظن الرسل أنهم قد كَذَبوا من حيث نقلوا الكذب وإن كانوا لم يتعمدوه ، فيرجع هذا التأويل إلى المعنى المردود الذي تقدم ذكره .

وقوله : ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي : بتعذيب أممهم الكافرة .

ثم وصف حال مجيء العذاب في أنه ينجي الرسل وأتباعهم ؛ وهم الذين شاء رحمتهم ، ويحل بأْسه بالمجرمين الكفرة . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : [فَنُنْجِي] بنونين ، من أنجى . وقرأ الحسن : [فَنُنَجِّي] ، النون الثانية مفتوحة والجيم مشددة ، وهو من نجّى يُنَجِّي . وقرأ أبو عمرو أيضاً وقتادة [فَنُجِّي] بنون واحدة وشدِّ الجيم وسكون الياء . فقالت فرقة : إنها كالأُولى أُدغمت النون الثانية في الجيم ، ومنع بعضهم أن يكون هذا موضع إدغامٍ لتنافر النون والجيم في الصفات لا في المخارج ، وقال : إنما حذفت النون في الكتابة لا في اللفظ ، وقد حكيت هذه القراءة عن الكسائي ، ونافع . وقرأ عاصم ، وابن عامر [فَنُجِّيَ] بفتح الياء ، على وزن فُعِّلَ ، وقرأت فرقة : [فَنُنَجِّي] بنونين وفتح الياء ، رواها هبيرة عن حفص عن عاصم ، وهي غلط من هبيرة [1] . وقرأ ابن محيصن ، ومجاهد : [فنَجَا] فعل ماض بتخفيف الجيم ، وهي قراءة نصر بن عاصم ، والحسن بن أبي الحسن ، وابن السميفع ، وأبي

(١) عقّب على ذلك أبو حيان في البحر بقوله : « وليست غلطاً ، ولها وجهٌ في العربية . وهو أن الشرط والجزاء يجوز أن يأتي بعدهما المضارع منصوباً بإضمار (أن) بعد الفاء ، كقراءة من قرأ : ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرَ﴾ بنصب (يَغْفِرَ) بإضمار (أن) بعد الفاء ، ولا فرق في ذلك بين أن تكون أداة الشرط جازمة أو غير جازمة » . (٥ـ٣٥٥) .

حيْوة . قال أبو عمرو الدَّاني : «وقرأْتُ لابن محيصن : [فَنَجِّى] بشد الجيم ، على معنى : فَنَجِّى النصرُ .

و «البأْس» : العذاب . وقرأ أبو حَيْوة : ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ بالياء ، وجاء الإخبارُ عن هلاك الكافرين بقوله : ﴿وَلَا يُرَدُّ بأْسُنَا﴾ الآية ، إذْ في هذه الألفاظ وعيد بيِّن ، وتهديد لمعاصري محمد عليه الصلاة والسلام ، وقرأ الحسن : [بأْسُهُ] بالهاء .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

الضمير في [قَصصِهِمْ] عامٌّ ليوسف وأبويه وإخوته وسائر الرسل الذين ذكروا على الجملة ، ولما كان ذلك كله في القرآن قال عنه : ﴿مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى﴾(١) ، فإذا تأملت قصة يوسف ظهر أن في

(١) وقيل : إن اسم كان ضمير يعود على «القَصَص» ، أي : ما كان القَصَص حديثاً مُختَلَقاً ، بل هو حديث صدق ناطق بالحكمة جاء به من لم يقرأ الكتب ، ولا تتلمذ لأحد ، ولا خالط العلماء ، فمحال أن يفتري هذه القصة بحيث تطابق ما ورد في التوراة من غير تفاوت.

غرائبها ، وامتحان الله فيها لقوم في مواضع ، ولُطْفه لقوم في مواضع ، وإحسانه لقوم في مواضع ـ معتبراً لمن له لُبٌّ وأجاد النظر حتى يعلم أن كل أمر من عند الله تبارك وتعالى وإليه .

وقوله : ﴿مَا كَانَ﴾ صيغة مَنْع ، وقرينة الحال تقتضي أن البرهان يقوم على أن ذلك لا يُفْتَرَى ، وذلك بأدلة النبوة وأدلة الإعجاز .

و «الحديث» هنا واحِدُ الأَحاديث ، وليس للذي هو خلاف القديم ها هنا مدخل .

ونصب [تَصْدِيقَ] إما على إضمار معنى كان ؛ وإما على أن تكون [لَكِنْ] بمعنى (لَكِنَّ) المشددة . وقرأ عيسى الثَّقفي[1] : [تَصْدِيقُ] بالرفع ، وكذلك كل ما عطف عليه ، وهذا على حذف المبتدأ ، والتقدير : «هو تصديقُ»[2] ، وقال أبو حاتم : النصب على تقدير : «ولكن كان» ، والرفع على تقدير : «ولكن هو» ، ويُنْشَدُ بيت ذي الرمة بالوجهين :

وما كانَ مالِي مِنْ تُرَاثٍ وَرِثْتُهُ   وَلَا ديةً كانتْ ولا كَسْب مَأْثَمِ

(١) ذكر صاحب «اللوامح» أنها قراءة حمران بن أعين ، وعيسى الكوفي ، ونقل ذلك صاحب البحر المحيط .

(٢) قال أبو الفتح في «المحتسب» : ويجوز على هذا الرفع في قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ﴾ ، أي : ولكن هو رسول الله .

ولكِنْ عطاءُ اللهِ مِنْ كُلِّ رِحْلَــةٍ   إلى كُلِّ محْجُوبِ السُّرادِقِ خِضْرَمِ (١)

رفع «عطاءُ اللهِ» ، والنصب أجود .

و ﴿ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هو التوراة والإنجيل ، والضمير في [يَدَيْهِ] عائد على القرآن ، وهو اسم [كانَ] ، وقوله : ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني من العقائد والأحكام والحلال والحرام .

وباقي الآية بَيِّنٌ .

تم بعون الله وتوفيقه تفسير سورة يوسف

عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام

والحمد لله رب العالمين

---

(١) المأثم : مصدر أَثِمَ بمعنى وقع في الإثم . والسُّرادق : واحد السُّرادقات التي تُمَدُّ فوق صحن الدار ، وكل بيت من كُرْسُفٍ (قطن) فهو سرادق ، قال رُؤْبة : «سُرَادِقُ المَجْدِ عَلَيْكَ مَمْدُودْ» . والخِضْرَمُ بكسر الخاء : الكثير العطية ، مشبه في ذلك بالبحر الخِضْرم وهو الكثير الماء . يقول : إن ما عندي من مال هو عطاء هذا الممدوح الكثير العطاء ، ولم يكن ميراثاً ورثته ، ولا دِيَةً انتفعت بها ، ولا كسْباً آخذته من حرام . والشاهد فيه هو أن كلمة (عطاء) تكون بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف ، وتكون بالنصب على تقدير كان . قال ابن عطية : والنصب أجود . ومثل هذا البيت قول لوط بن عبيد العائي اللص :

وإنِّي بِحَمْدِ اللهِ لا مالَ مُسْلِمٍ   أَخَذْتُ ولا مُعْطِي اليَمِينَ مُحالِفِ

ولكِنْ عَطَاءَ اللهِ مِنْ مَالِ فَاجِرٍ   قَصِيِّ المَحَلِّ مُعْوِرٍ للمَقَـــارِفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربِّ يسِّر وأعِنْ برحْمَتك

(١٣) سُورَةُ الرَّعْدِ مَدَنِيَّة وآياتها ثلاثٌ وأربعون

تفسير سورة الرعـــد

هذه السورة مكية ، قاله سعيد بن جُبَيْر ، وقال قتادة : هي مدنية غير آيتين: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1]، وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً﴾ الآية [2] ، حكاه الزهراوي ، وحكى المهدوي عن قتادة أن السورة مكية إلا قوله تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ﴾ ، وقوله : ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ﴾[3] ، والظاهر عندي أن المدني فيها كثير ،

---

(١) من الآية (٣١) من السورة .

(٢) هي نفس الآية (٣١) ، ولعلّ من يقول بهذا — وهو قتادة — يعتبرهما آيتين بخلاف ما في رسم المصحف اليوم .

(٣) من الآية (٤٣) وهي آخر آية في السورة .

وكل ما نزل في شأن عامر بن الطفيل ، وإربد بن ربيعة فهو مدني ، وقيل : السورة مدنية ؛ حكاه مُنْذِر بن سعيد البَلُّوطي ، وذكره مَكِّي ابن أبي طالب (١)

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ ﴾

تقدم القول في فواتح السور وذكر التأويلات في ذلك ، إلا أن الذي يخصُّ هذا الموضع من ذلك ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما : «إن هذه الحروف من قوله : أنا الله أعلم وأرى» ، ومن قال : «إن حروف أوائل السُّور هي مثال لحروف المعجم» قال : الإشارة هنا بـ [تِلْكَ] هي إلى حروف المعجم ، ويصح ـ على هذا ـ أن يكون [ٱلْكِتَاب] يراد به القرآن ، ويصح أن يراد به التوراة والإنجيل ، و [الٓمٓرۚ] ـ على هذا ـ ابتداءٌ ، و [تِلْكَ] ابتداءٌ ثان ، و [آيَاتُ] خبر الثاني ،

(١) الذي في الأصول «بكر بن أبي طالب» ، والتصويب عن تفسير «البحر المحيط» .

والجملة خبر الأول . وعلى قول ابن عباس في [الٓمٓر] تكون [تِلْكَ] ابتداءً ، و [آيَاتُ] بدلا منه ، ويصح في [الْكِتاب] التأويلان اللذان تقدمـا .

قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ . [ٱلَّذِي] رفع بالابتداء ، و [ٱلْحَقُّ] خبره ، وعلى هذا تأويل من يرى ﴿الٓمٓر تِلْكَ﴾ حروف المعجم ، و [تِلْكَ] و [آيَاتُ] ابتداءٌ وخبر ، وعلى قول ابن عباس يكون [ٱلَّذي] عطفاً على [تِلْكَ] ، و [ٱلْحقُّ] خبر [تِلْكَ] ، وإذا أُريد بـ [ٱلْكِتَاب] القرآن فالمراد بـ ﴿ٱلَّذِي أُنْزِلَ﴾ جميع الشريعة ، ما تضمنه القرآن منها وما لم يتضمنه . ويصح في [ٱلَّذِي] أن يكون في موضع خفض عطفاً على [ٱلْكِتَاب] ، فإن أردت – مع ذلك – بـ [ٱلْكِتَاب] القرآن كانت الواو عطف صفة لشيء واحد ، كما تقول : جاءني الظريفُ والعاقل وأنت تريد شخصاً واحداً [١] ، ومن ذلك قول الشاعر :

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وابنِ الهُمَامِ ولَيْثِ الكَتِيبَةِ في الْمُزْدَحَمْ [٢]

---

(١) هذا في الأصل هو رأي الفراء ، وأجازه الحوفي مع ابن عطية ، وذكره أيضاً الطبري في تفسيره ، وقال : « ثم يبتدئ الحقُّ بمعنى : « ذلك الحقُّ » ، فيكون رفعه بمضمر من الكلام قد استغنى بدلالة الظاهر عليه منه » .

(٢) القَرْم (بفتح القاف) : السَّيِّد المعظم ، قيل له ذلك على التشبيه بالفَحْل الذي يُتْرك من الركوب والعمل ويُودع لِلْفِحْلَة . والكتيبة : الطائفة المحدودة من الجيش . والمُزْدَحَم : محل الازدحام ، والشاهد هنا أن الواو عطفت صفات لشيء واحد ، والشاعر يريد : إلى الملك القرم بن الهُمام ليث الكتيبة .

وإن أردتَ ــ مع ذلك ــ بـ [ٱلْكِتَابِ] التوراة والإنجيل فذلك بَيِّن .
فإن تأولت ــ مع ذلك [الٓمٓرٓ] حروف المعجم رفعت قوله : [ٱلْحَقّ]
على إضمار مبتدأ تقديره : هو الحق ، وإن تأولتها كما قال ابن
عباس رضي الله عنهما فـ [ٱلْحَقّ] خبر [تِلْكَ] . ومن رفع [ٱلْحَق]
بإضمار ابتداء وقف على قوله : ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ وباقي الآية ظاهر إن شاء الله .

وقوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَاتِ﴾ الآية . لمَّا تضمن قوله :
﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ توبيخ الكفرة عقَّب ذلك بذكر الله
تبارك وتعالى الذي ينبغي أن يُوقَن به ، وبذكر الأدلة الداعية إلى
الإيمان به . والضمير في قوله : [تَرَوْنَهَا] قالت فرقة : هو عائد على
[ٱلسَّمَٰوَاتِ] فـ [تَرَوْنَهَا] ــ على هذا ــ في موضع الحال . وقال جمهور
الناس : لا عمد للسموات ، وقالت فرقة : الضمير عائد على «العَمَد» ،
فـ [تَرَوْنَهَا] ــ على هذا صفة للعَمَد ، وقالت هذه الفرقة : للسموات
عَمَدٌ غير مرئية ، قاله مجاهد ، وقتادة . وقال ابن عباس : وما يدريك
أنها بِعَمَد لا تُرى . وحكى بعضهم أن العَمَد جبل قاف المحيط بالأرض ،
والسماء عليه كالقبة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله ضعيف ، والحق ألَّا عَمَد جملة ، إذ العمد تحتاج
إلى عمد ، ويتسلسل الأمر فلابُدَّ من وقوفه على القدرة ، وهذا هو الظاهر

من قوله تعالى : ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (١) ، ونحو هذا من الآيات . وقال إياس بنُ معاوية : السَّمَاءُ مقببة على الأرض مثل القبة . وفي مصحف أُبَيٍّ «تَرَوْنه» بتذكير الضمير .

و «ٱلْعَمَدُ» اسم جمع عمود ، والباب في جمعه «عُمُد» بضم الحروف الثلاثة ، كرسول ورُسُل وشِهابٍ وشُهُب ، وغيره . ومن هذه الكلمة قول النابغة :

وخَبِّرَ الجِنَّ أني قَدْ أَذِنْتُ لَهُمْ يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والْعُمُدِ (٢)

وقال الطبريُّ : «العمَد (بفتح العَيْن) جمع عمود ، كما جُمع الأديم أدَمًا» ، وليس كما قال . وفي كتاب سيبويه أن الأَدَم اسم جمع ، وكذلك نصَّ اللغويون على العَمَد ، ولكن أبا عبيدة ذكر الأمر غير مُتَيَقَّنٍ فاتَّبعه الطبري . وقرأ يحيى بن وثَّاب : ﴿بِغَيْرِ عُمُدٍ﴾ بضم العين .

وقوله : [ثُمَّ] هي هنا لعطف الجُمَل لا للترتيب ، لأن الاستواء على العرش قبل رفع السموات ، ففي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (كان الله ولم يكن شيءٌ قبل ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض) (٣) .

---

(١) من الآية (٦٥) من سورة (الحج) .

(٢) ويُروى : وخَيِّسْ ، بمعنى : ذَلِّلْ . وتَدْمُر : بلد بالشام بناها سيدنا سليمان عليه السلام ، والصُّفَّاح : حجارة عراض رقاق . والعُمُد : جمع عمود .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب (بدء الخلق) ، والترمذي في التفسير ، والإمام أحمد في مسنده (٢–٣١٢ ، ٥٠١) و (٤–٤٣١) ، ولفظه كما جاء في البخاري عن عمران بن =

وقد تقدم القول في كلام الناس في الاستواء [١] ، واختصاره أن أبا المعالي رجَّح أنه استوى بقهره وغلبته ، وقال القاضي ابن الطيب وغيره : [ٱسْتَوَى] في هذا الموضع بمعنى : استولى ، والاستيلاء قد يكون دون قهر ، فهذا فرق ما بين القولين ، وقال سفيان : فعل فعلا سمَّاه استواءً ، وقال الفراءُ : [ٱسْتَوَى] ـ في هذا الموضع ـ كما تقول العرب : «فعل زيد كذا ثم استوى إليَّ يكلمني» ، بمعنى أَقْبلَ وقَصَدَ ، وحُكِيَ لي عن أبي الفضل بن النحوي أنه قال : [ٱلْعَرْشِ] ـ في هذا الموضع ـ مصدر (عَرَشَ) ، فكأنَّه أَرَادَ جميع المخلوقات ، وذكر أبو منصور عن الخليل أن العَرْش : المُلْك ، وهذا يؤيد منزع أبي الفضل بن النحوي إذ قال : «العرش مصدر» ، وهذا خلاف ما مشى عليه الناس من أن [ٱلْعَرْشِ] هو أعظم المخلوقات ، وهو الشخص المشهور الذي كان على الماء ، والذي بين يديه الكرسي ، وأيضاً فيبقى النظر على

= حُصَيْن رضي الله عنهما قال : (دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعقَلْتُ ناقتي بالباب ، فأتاه ناس من تميم ، فقال : اقبلوا البُشْرَى يا بني تميم ، قالوا : قد بشرتنا فأعطنا ، مرتين ، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن ، فقال : اقبلوا البشرى يأهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم ، قالوا : قد قبلنا يا رسول الله ، قالوا : جئناك نسألك عن هذا الأمر ، قال : كان الله ولم يكن شيءٌ غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض ، فنادى مناد : ذهبت ناقتك يا ابن الحصين ، فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب ، فوالله لوَدِدْتُ أني كنتُ تركتها .

(١) عند تفسير قوله تعالى في الآية (٥٤) من سورة الأعراف) : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ .

أبي الفضل في معنى الاستواء قريباً مما هو على قول الجميع . وفي البخاري عن مجاهد أنه قال : «المعنى : علا على العرش» ؛ وكذلك هي عبارة الطبري [(١)] ؛ والنظر الصحيح يرفع هذه العبارة .

وقوله : [وَسَخَّرَ] تنبيه على القدرة ؛ و ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ في ضمن ذكرهما ذِكْرُ الكواكب . ولذلك قال : ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ ، أي كل ما هو في معنى الشمس والقمر من التَّسْخير ؛ و (كُلٌّ) لفظة تقتضي الإضافة ظاهرة أو مقدرة .

والأَجلُ المُسَمَّى هو انقضاءُ الدنيا وفساد هذه البنية ، وقيل : يريد بقوله : ﴿لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ الحدود التي لا تتعداها هذه المخلوقات ، أي : تجري على رسوم معلومة [(٢)] .

وقوله : [يُدَبِّرُ] بمعنى يُبْرِم وينفِّذ ، وعبَّر بالتدبير تقريباً للأَفهام ، إذ التدبير إنما هو النظر في أدبار الأُمور وعواقبها ، وذلك من صفة البَشَر ، و [ٱلْأَمْرَ] عامٌّ في جميع الأُمور وما ينقضي في كل أوان

---

(١) في القرطبي : «وحكى أبو عمر بن عبد البر عن أبي عبيدة في قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ قال : علا ، وقال الشاعر :

فأَوْرَدْتهم ماءً بفَيْفَاءَ قَفْـــرةٍ وقد حلّقَ النَّجْمُ اليَمَانِيُّ فاستوَى

أي : علا وارتفع » . وعُلُوُّ الله تعالى عبارة عن علُوِّ مجده وصفاته وملكوته ، أي : ليس فوقه فيما يجب له من معاني الجلال أحد .

(٢) هذا رأي ابن عباس ، نقل في القرطبي عنه قوله : «أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التي ينتهيان إليها لا يتجاوزانها» .

في السموات والأرض . وقال مجاهد : ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ معناه يقضيه وحده . وقرأ الجمهور : [يُفَصِّلُ] بالياء ، وقرأ الحسن بنون العظمة ، ورواها الخفاف وعبد الوهاب عن أبي عمرو ، وهبيرة عن حفص ، قال المهدوي : ولم يختلفا في [يُدَبِّرُ] ، وقال أبو عمرو الداني : إن الحسن قرأ بالنون فيهما ، والنظر يقتضي أن قوله : ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ﴾ ليس على حدِّ قوله : [يُدَبِّرُ] من تعديد الآيات ، بل لما تعددت الآيات وفي جملتها تدبير الأمر أخبر أنه يُفَصِّل الآيات لعل الكفرة يوقنون بالبعث ، و [ٱلْآيَات] هنا إشارة إلى ما ذكر في الآية وبعدها .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

لما فرغت آيات السماء ذكر آيات الأرض . وقوله : ﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ يقتضي أنها بسيطة لا كروية ، وهذا هو ظاهر الشريعة . والرواسي :

الجبال الثابتة ، يقال : «رسا يرسو» إذا ثبت ، ومنه قول الشاعر :

بِهِ خـالداتٌ ما يُرِمْنَ وهَـامِدٌ وأشْعَثُ أرْسَتْهُ الْوَلِيدَةُ بالْفِهْرِ (١)

والزَّوْجُ في هذه الآية هو الصنف والنوع ، وليس بالزوج المعروف في المتلازمَيْن الفردين من الحيوان وغيره ، ومنه قوله : ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾(٢) الآية ، ومثل هذه الآية : ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ الآية في (ق)(٣) ، وهذه الآية تقتضي أن كل ثمرة فموجود منها نوعان ، فإن اتفق أنْ وُجد من ثمرة أكثر من نوعين فغير ضارٍّ في معنى الآية .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : [يُغْشِي] بسكون الغين وتخفيف الشين ، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم ـ في رواية أبي بكر ـ بفتح الغين وشدّ الشّين ، وكفى ذكر الواحد ذكر الآخر ، وباقي الآية بيِّن . ويشبه أن الأزواج

(١) البيت للأحوص ، ورواية (اللسان) : «سوى خالدات» بدلا من «به خالدات» ، وما يُرِمْنَ : ما يَطْلُبْنَ ، من قولك : رُمْتُ الشيء أرومه رَوْماً بمعنى أطلبه ، والهامد : الساكن الذي لا يتحرك ، والأرض الهامدة : التي لا نبات فيها ، والأشْعَث : المتفرق ، وأرْسَتْه : ثبّتته ، والفِهْرُ : الحَجَر قدْر ما يُدَقّ به الجَوْز ونحوه ، أو هو حجر يملأ الكف ، وفي الحديث : (لما نزل ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ جاءت امرأته وفي يدها فِهْر ، قال هو الحَجَر ملء (الكفّ) .

(٢) من الآية (٣٦) من سورة (يس) .

(٣) من الآية (٧) من سورة (ق) .

التي يراد بها الأنواع والأصناف والأجناس إنما سُمِّيَت بذلك من حيث هي اثنان اثنان في كل ثمرة ذكر أو أنثى ، وأشار إلى ذلك الفراء عند المهدوي ، وحكى عنه غيره ما يقتضي أن المعنى تم في قوله : ﴿ٱلثَّمَرَاتِ﴾ ، ثم ابتدأ أنه جعل في الأرض من كل ذكر وأنثى زوجين .

وقوله : ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ﴾ جمع قطعة ، وهي الأجزاء ، وقيَّد منها في هذا المثال ما تجاور وقَرُبَ بعضه من بعض لأن الاختلاف ذلك في القُرْب أغرب[1] ، وقرأ الجمهور : [وَجَنَّاتٌ] بالرفع عطفاً على [قِطَعٌ] ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن : [وجَنَّات] بالنصب بإضمار فعل ، وقيل : هو عطف على [رَوَاسِيَ] ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ بالرفع في الكل عطفاً على [قِطَع] ، وقرأ الباقون بالْخَفض في الكل عطفاً على [أَعْنَابٍ] ، وجعل الجنة من الأعناب ، ومَنْ رفع «الزَّرع» فالجنة حقيقة هي الأرض التي فيها الأعناب ، وفي ذلك تَجَوُّز ، ومنه قول الشاعر :

كَأَنَّ عَيْنَيَّ في غَــرْبَيْ مُقَتَّـلَةٍ ... مِنَ النَّوَاضِحِ تَسْقِي جَنَّةً سُحُقَا[2]

(١) قيل : في الكلام حذف ، والمعنى : وفي الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات ، كما قال تعالى : ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ أي : «وتقيكم البرد» ، ثم حُذف لعلم السامع ، والمتجاورات : المدن وما كان عامراً ، وغير المتجاورات : الصحارى وما كان غيرَ عامر .

(٢) البيت لزهير بن أبي سُلْمى . قال في (اللسان – جنن) : «والجَنَّة : البستان ، ومنه الجنات ، والعرب تسمي النخيل جنَّة ، قال زهير : كأن عينيّ ...» ، والمُقَتَّل : المُذَلَّل–

أي : نخيل جنَّة ؛ إذ لا يوصف بالسحق إلا النخيل . ومَنْ خفض الزرع فالجنات من مجموع ذلك لا من الزرع وحده ؛ لأنَّه لا يقال للمزرعة جَنَّة إلا إذا خالطها شجرات[١] .

و [صِنْوَانٌ] جمع صِنْو وهو الفرع تكوَّن مع الآخر في أصل واحد ؛ وربما كان أكثر من فرعين . قال البراء بن عازب : الصِّنوان : المجتمع ، وغير صنوان : المتفرق فرداً فرداً ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (العَمُّ صِنْوُ الأب)[٢] ؛ وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسرع

= المكدود بالعمل ، يقال : ناقة مُقَتَّلة أي مُذَلَّلة لعمل من الأعمال . وقد استشهد صاحب اللسان على هذا المعنى بالبيت نفسه في مادة (قتل) . والنَّواضح من الإبل : التي يستقى عليها ، واحدها ناضح ؛ ومنه ما جاء في حديث معاوية حين قال للأنصار وقد قعدوا عن تلقِّيه لما حجَّ : ما فعلت نواضحكم ؟ كأنه يُقَرِّعهم بذلك لأنهم كانوا أهل حرث وزرع وسقي . والغَرْبُ : عِرْقٌ في مجرى الدمع يسقي فلا ينقطع ؛ وغربا العين : مُقَدَّمها ومؤخرها ، يصور عينيه في كثرة الدموع بعيون النواضح المذللة من الإبل التي تدور لتسقي جنة من النخيل العالي في السماء .

(١) قال في « فتح القدير » : « ذكر سبحانه الزرع بين الأعناب والنخيل لأنه يكون في الخارج كثيراً كذلك ، ومثله في قوله سبحانه : ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً ﴾ .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة . وكذلك الدارمي ، وأخرجه الترمذي في المناقب . والإمام أحمد في مسنده (١- ٩٤ ، ٤-١٦٥) ، ولفظه كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : بعث رســـــول الله صلى الله عليه وســـلم عمر على الصدقة ، فقيل : منع ابنُ جميــــــل ، وخالد بن الوليد ، والعباسُ عمُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيراً فأغناه الله ، وأما خالد فإنكم تظلمون خالداً ، وقد احتبس أدراعه وأعتاده في سبيل الله ، وأما العباس فهي عليَّ ومثلها معها ، ثم قال : (يا عمر ، أما شعرت أن عمَّ الرجل صِنْو أبيه ؟) .

إليه العاص في ملاحاة ، فجاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال : أردت يا رسول الله أن أقول للعاص فذكرت مكانه منك فسَكَتُّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يرحمك الله يا عمر ، العم صنو الأب) ، وجمع الصنو صنوانٌ[1] ، وهو جمع مكسَّر ، قال أبو علي : وكَسْرة الصاد في الواحد ليست التي في الجمع ، وهو جار مجرى فُلْك ، وتقول : صنو وصنوانٌ في الجمع بتنوين النون وإعرابه . وقرأ عاصم – في رواية القواس – عن حفص : [صُنْوَان] بضم الصاد ، قال أبو علي : هو مثل ذِئْب وذُؤْبان ، وهي قراءة ابن مُصَرِّف ، وأبي عبد الرحمن السُّلَمي ، وهي لغة تميم وقيس ، وكسر الصَّاد لغة أهل الحجاز ، وقرأ الحسن ، وقتادة : [صَنْوَان] بفتح الصاد ، وهو اسم جمع لا جمع ، ونظير هذه اللفظة قَبْو وقَبْوان ، وإنما نص على الصنوان في هذه الآية لأنها بمثابة التجاور في القطع تظهر فيها غرابة اختلاف الأُكل . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، والحسن ، وأبو جعفر ، وأهل مكة : [تُسْقَى] بالتاء ، وأمال حمزة ، والكسائي القاف ، وقرأ عاصم ، وابن عامر : [يُسْقَى] بالياء على معنى : يُسْقَى ما ذُكر . وقرأ الجمهور : [ونُفَضِّلُ] بالنون ، وقرأ حمزة ، والكسائي :

(١) قال في (اللسان – صنا) : «والاثنان صِنْوَانِ ، والجمع صِنْوانٌ برفع النون» .

[وَيُفَضِّلُ] بالياء ، وقرأ ابن محيصن : [يُسْقَى] و [يُفَضِّلُ] بالياء فيهما ، وقرأ يحيى بن يَعْمَر ، وأبو حيْوَة : [ويُفَضَّل] بالياء وفتح الضاد [بَعْضُهَا] بالرفع . قال أبو حاتم : وجدته كذلك في لفظ يحيى بن يَعْمَر في مصحفه ، وهو أول من نقط المصاحف .

و [ٱلْأُكُل] اسم ما يُؤْكل بضم الهمزة والكاف ، والأَكْل المصدر ، وقرأت فرقة : ﴿في ٱلْأُكْلِ﴾ بضم الهمزة والكاف ، وقد تقدم هذا في البقرة [(١)] .

وحكى الطبري عن غير واحد – ابن عباس وغيره – : ﴿قِطَعٌ مُتَجَاوِراتٌ﴾ أي : واحدة سبخة والأُخرى عذبة ونحو هذا من القول ، وقال قتادة : المعنى : قُرىً متجاورات ، وهذا وجه من العبرة ، كأنه قال : وفي الأرض قطع مختلفات بتخصيص الله لها بمعان فهي تسقى بماءٍ واحد ولكن تختلف فيما تخرجه ، والذي يظهر من وصفه لها بالتجاور إنما هو : من تربة واحدة ونوع واحد ، والعبرة في هذا أبين ، لأنها مع اتفاقها في التربة والماء تفضل القدرة والإرادة بعض أُكلها على بعض . كما قال النبي عليه الصلاة والسلام حين سئل عن هذه

(١) عند تفسير قوله تعالى في الآية (٢٦٥) : ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ .

الآية فقال : (الدَّقَل والفارسي[١] والحلو والحامض)[٢] ، وعلى المعنى الأول قال الحسن : هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم ، كانت الأرض في يد الرحمن طينة واحدة ، فسطحها الله فصارت قطعاً متجاورة ينزل عليها ماءٌ واحد من السماء ، فتخرج هذه زهرة وثمرة ، وتخرج هذه سبخة وملحاً وخبثاً ، فكذلك الناس خلقوا من آدم فنزلت عليهم من السماء تذكرة فرقّت قلوب وخشعت ، وقست قلوب ، ولهت قلوب ، ووجفت قلوب[٣] ، قال الحسن : فوالله ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان ، قال تعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾[٤] ، والتفضيل في الأُكُل [يشمل][٥] الأذواق والألوان والملمس وغير ذلك .

(١) الدَّقَل : رديء التمر ، والفارسي : نوع جيد من التمر ينسب إلى فارس .

(٢) أخرجه الترمذي وحسنه ، والبزار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، (فتح القدير) .

(٣) وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

النَّـــاسُ كالنَّبْتِ والنَّبْتُ ألوانٌ منها شجرُ الصَّنْدَلِ والكافورِ والبَانْ
ومنها شَجَرٌ ينْضَحُ طولَ الدَّهْرِ قَطِرانْ

وقد روى جابر بن عبد الله قال : « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لعليٍّ رضي الله عنه : (الناس من شجر شتى ، وأنا وأنت من شجرة واحدة) ، ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ حتى بلغ قوله : ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ .

(٤) الآية (٨٢) من سورة (الإسراء) .

(٥) زيادة يحتاج إليها المعنى .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧ ﴾

آية توبيخ للكفرة ، أي : إن تعجب يا محمد من جهالتهم وإعراضهم عن الحق فهم أهل لذلك ، وعجب غريب ، والمراد به قولهم : «أنعود بعد كوننا تراباً خلقاً جديداً» ؟ ، ويحتمل اللفظ منزعاً آخر ، أي : إن كُنْت تزيد عجباً فهلُمَّ فإن من أعجب العجب قولهم (١) .

واختلف القراءُ في قراءة قوله : ﴿أئِذَا كُنَّا تُرَاباً﴾ ـ فقرأ ابن كثير : وأبو عمرو : ﴿آيذَا كُنَّا تُرَاباً آينَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ جميعاً

(١) قال العلماء : التعجب : تغيُّر النفس بما تخفى أسبابه ، وذلك في حق الله تعالى محال ، فهو لا يتعجب ولا يجوز عليه التعجب ، وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون ، وقيل : الآية في منكري الصانع ، أي : إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بُدَّ له من مغيِّر فهو محل التعجُّب .

بالاستفهام ، غير أن أبا عمرو مدَّ الهمزة ثم يأْتي بالياء ساكنة ، وابن كثير يأْتي بياء ساكنة بعد الهمزة من غير مَدٍّ ، وقرأ نافع : ﴿أَيِذَا كُنَّا تُرَاباً﴾ مثل أبي عمرو واختلف عنه في المدِّ ، وقرأ : ﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيد﴾ مكسورة على الخبر ، ووافقه الكسائي في اكتفائه بالاستفهام الأول من الثاني ، غير أنه كان يهمز همزتين ، وقرأ عاصم وحمزة : ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا﴾ بهمزتين فيهما ، وقرأ ابن عامر : ﴿إِذَا كُنَّا تُرَاباً﴾ مكسورة الألف من غير استفهام [آئِنَّا] بهمز ثم بمدٍّ ثم بهمز .
فمن قرأ بالاستفهامين فذلك للتأْكيد والتَّحفي والاهتبال بهذا التقرير [(١)] .
ومن استفهم في الأول فقط فإنما القصد بالاستفهام الموضع الثاني ، و [إِذَا] ظرف له ، و [إِذَا] في موضع نصب بفعل مضمر تقديره : أَنُبْعَث أو نُحْشَر إِذَا ؟ ومن استفهم في الثاني فقط فهو بَيِّن ، والإشارة بـ [أُولَئِكَ] إلى القوم القائلين : ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً﴾ ، وتلك المقالة إنما هي تقرير وتصميم على الجحد والإنكار للبعث فلذلك حكم عليهم بالكفــر .

وقوله : ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما الحقيقة وأنه أخبر عن كون الأغلال في أعناقهم في الآخرة ، فهي كقوله تعالى :

(١) الاهتبال : الاغتنام والاحتيال ، وفي حديث أبي ذرّ في ليلة القدر : (فاهتبلت غفلته وافْتَرَصْتُهَا واحتلت له حتى وجدتها ، كالرجل يطلب الفرصة في شيء) . (اللسان)

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَاسِلُ﴾[١]، ويحتمل أن يكون مجازاً وأنه أخبر عن كونهم مُغَلَّلين عن الإيمان ، فهي إذاً تجري مجرى الطبع والختم على القلوب ، وهي كقوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾[٢] ، وباقي الآية بيِّن . وقال بعض الناس : الأغلال هنا عبارة عن الأعمال ، أي : أعمالهم الفاسدة في أعناقهم كالأغلال .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتحرير هذا هو في التأويل الثاني الذي ذكرناه .

وقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ الآية ، هذه الآية تَبْيِينٌ لخطئهم في أن يتمنوا المصائب ويطلبوا سقوط كسف من السماء أو حجَارة تمطر عليهم[٣] ونحو هذا مع حلول ذلك في الأُمم ونزوله بأُناس كثير ، ولو كان ذلك لم ينزل قط لكان لهم العذر[٤].

(١) من الآية (٧١) من سورة (غافر) .

(٢) من الآية (٨) من سورة (يس) .

(٣) كقولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ ، قال قتادة : طلبوا العقوبة قبل العافية .

(٤) في أكثر النسخ : « لكانوا أعذر » .

و [ٱلْمَثُلَاتُ] جمع مَثُلَة كسَمُرَة وسَمُرَات وصَدُقة وصَدُقات ، وقرأ الجمهور : [ٱلْمَثُلَاتُ] بفتح الميم وضم الثاء ، وقرأ مجاهد بفتح الميم والثاء ، وذلك جمع مُثْلَة[1] في الآخرة بمعنى العدَة بالعقوبة . وقرأ عيسى بن عمر : [ٱلْمُثُلَات] بضم الميم والثاء ، ورُويت عن أبي عمرو ، وقرأ يحيى بن وثاب : [ٱلْمُثْلات] بضم الميم وسكون الثاء ، وهاتان جمع مُثْلَة[2] ، وقرأ طلحة بن مصرف : [ٱلْمَثْلات] بفتح الميم وسكون الثاء .

ثم رجّى تعالى بقوله : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ . قال الطبري : معناه : في الآخرة ، وقال قومٌ : المعنى : إذا تابوا ، و «شَدِيدُ العِقَابِ» إذا كفروا[3] .

(١) اختلفت الأصول في ضبط قراءة مجاهد ، ففي بعضها : « بضم الميم والثاء » ، وفي بعضها « بفتح الميم والثاء » ، وقد اخترنا ما أثبته أبو حيان في البحر ، ويؤكد صحته أن ابن عطية نسب بعد ذلك قراءة ضم الميم والثاء إلى عيسى بن عمر ، ولو كانت قراءة مجاهد كقراءة عيسى لما لجأ إلى هذا التفصيل .

(٢) على وزن غُرْفة وغرفات ، والثابت في كتب اللغة أن المُثُلات بضم الميم والثاء ، وكذلك المَثُلات بفتح الميم وضم الثاء كلاهما جمع مَثُلة بالفتح والضم ، وجمع مُثْلة بالضم والسكون .

(٣) الجار والمجرور في قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : حال كونهم ظالمين ، وفي الآية بشارة عظيمة لأن الإنسان حال اشتغاله بالظلم لا يكون تائباً ، ولهذا قيل إنها في عصاة الموحدين خاصة ، وقيل : المراد بالمغفرة هنا تأخير العقاب إلى الآخرة ليطابق ما حكاه الله من استعجال الكفار للعقوبة ، وكما تفيده الجملة المذكورة بعد جملة المغفرة وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ بمعنى أنه يعاقب العصاة من الكافرين عقاباً شديداً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والظاهر من معنى المغفرة هنا إنما هو : سَتْرُهُ في الدنيا وإمْهَالُه لِلْكَفَرَة ، ألا ترى التنكير في لفظ [مَغْفِرة] ، وأنها مُنكَّرة مُقَلَّلة وليس فيها مبالغة كما في قوله تعالى : ﴿وإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾[١] ، ونمط الآية يُعطي هذا ، ألا ترى حكمه عليهم بالنـــار ثم قال : [ويَسْتَعْجِلُونَكَ] ، فلما ظهر سُوءُ فعلهم وجب في نفس السامع تعذيبهم فأخبر بسيرته في الأُمم وأنه يمهل مع ظُلْم الكفر ؟ ولم يرد في الشرع أن الله تعالى يغفر ظلم العباد .

ثم خوَّف بقوله : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ، قال ابن المسيب : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لولا عفو الله ومغفرته لما تمنى أحدٌ عيشاً ، ولولا عقابه لاتَّكَل كل أحد)[٢] ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « ليس في القرآن أرْجى من هذه الآية » . و [الْمَثُلَاتُ] هي العقوبات الْمُنَكِّلات التي تجعل الإنسان مثلا يُتَمَثَّل به ، ومنه التمثيل بالقتلى ، ومنه الْمُثْلة بالعبيد .

---

(١) من الآية (٨٢) من سورة (طه) .

(٢) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس ، ذكر ذلك في (الدر المنثور) ، وقال في فتح القدير : « أخرجه ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب » ، ولفظه فيهما : (لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لأحد عيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كُل أحد) .

وقوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية . هذه آية غَضٌّ من اقتراحاتهم المُتَشَطِّطَة التي لم يُجْرِ الله بها عادة إلا للأُمة التي حتم بعذابها واستئصالها ، والآية ــ هنا ــ يراد بها الأشياء التي سمّتها قريش كالمُلْك والكَنْز وغير ذلك ، ثم أخبره الله بأنه منذر . وهذا الخبر قُصِد هُوَ بلفظه والناسُ أجمعون بمعناه .

واختلف المفسرون في قوله : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ــ فقال عكرمة ، وأبو الضُّحى : المراد بالهادِ محمد عليه الصلاة والسلام . و [هادٍ] عطف على [مُنْذِر] كأنه قال : «إنما أنت منذر وهاد لكل قومٍ» ، فيكون هذا المعنى يجري مع قوله عليه الصلاة والسلام : (بُعِثْت إلى الأحمر والأسود) (١) . و [هادٍ] ــ على هذا في هذه الآية . داعٍ إلى طريق الهدى . وقال مجاهد ، وابن زيد : المعنى : «إنما أنت منذر ، ولكل أُمّة سلفت هادٍ ، أي نبي يدعوهم ، والمقصد : فليس أمرك يا محمد ببِدْعٍ ولا بمنكر» ، وهذا يشبه غرض الآية . وقالت فرقة : «الهادي ــ في هذه الآية ــ الله عزّ وجلّ» ، رُوي ذلك عن ابن عباس ، ومجاهد ،

(١) أخرجه أبو داود في السير ، والإمام مسلم في المساجد ، والإمام أحمد في مسنده في مواضع متعددة ، ولفظه كما في مسند الإمام أحمد (١-٣٠١) : (أُعطيت خمساً لم يعطهن نبيٌّ قبلي ، ولا أقولهن فخراً ، بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود . ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأُعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتي فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً) .

وابن جُبير . و [هَادٍ] ـ على هذا ـ معناه : مخترع للرشاد ، والألفاظ تطلق بهذا المعنى ، ويعرف أن الله تعالى هو الهادي من غير هذا الموضع . وقالت فرقة : «الهادي علي بن أبي طالب» ، ورَدَت عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ هذه الآية وعليٌّ حاضر فأومأ بيده إلى منكب عليّ وقال : (أنْت الهادي يا علي ، بك يهتدي المهتدون من بعدي) (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي يشبه ـ إن صح هذا ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما جعل علياً مثالا من علماء الأمة وهداتها إلى الدين ، كأنه قال : يا عليّ أنت وصنفك ، فيدخل في هذا أبو بكر وعمر وعثمان وسائر علماء الصحابة ـ عليهم رضوان الله أجمعين ـ ثم كذلك من كل عصر ، فيكون المعنى ـ على هذا ـ : إنما أنت يا محمد منذر ، ولكل قوم في القديم والحديث دعاة وهداة إلى الخير ، والقول الأول أرجح ما تؤول في هذه الآية .

---

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في المعرفة ، والديلمي ، وابن عساكر ، وابن النجار . (الدر المنثور) . ويظهر من كلام ابن عطية أنه يشك في صحة هذا الحديث ، أو على الأقل أنه يؤوله بما وضحه في كلامه .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾

لما تقدم تعجُّبُ الكفار واستبعادُهم البعث من القبور نصَّ الله في هذه الآيات الأمثـال المنبهة على قدرة الله تبارك وتعـالى القاضية بتجويز البعث ، فمن ذلك هذه الواحدة من الخمس التي هي مفاتيح الغيب ، وهي أن الله تبارك وتعالى انفرد بمعرفة ماتحمل كل الإناث من الأجنة في كل نوع من الحيوان ، وهذه البدأة [1] تُبيِّن أنه لا يتعذر على القادر عليها الإعادة .

و [مَا] في قوله تعالى : ﴿ما تَحْمِلُ﴾ يصح أن تكون بمعنى الذي مفعولة بـ [يعْلَمُ] ، ويصح أن تكون مصدرية مفعولة أيضاً بـ [يعْلَمُ] ، ويصح أن تكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداء ، والخبر [تَحْمِلُ] ،

(١) البَدْءُ والبَدْأَةُ والبُدْأَةُ والبَدِيئَةُ والبَدَاءَةُ والبُدَاءَةُ كلها بمعنى واحد وهو فعل الشيء أولاً ، وبالنسبة لله تعالى يكون المعنى : هو الذي أنشأ الأشياء واخترعها ابتداء من غير سابق مثال . (اللسان) .

وفي هذا الوجه ضعف[١] . وفي مصحف أبي بن كعب : «ما تحمل كل أنثى وما تضع» .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ معناه : ما تنقص ، وذلك من معنى ﴿وَغِيضَ ٱلْمَاءُ﴾[٢] وهو من معنى النضوب ، فهي ها هنا بمعنى زوال الشيء عن الرَّحم وذهابه . فلما قابله قوله : ﴿وما تَزْدادُ﴾ فُسِّر بمعنى النقصان ؛ ثم اختلف المتأولون في صورة الزيادة والنقصان — فقال مجاهد : غَيْض الرَّحِم أن تهريق دماً على الحمل ، فإذا كان ذلك ضعف الولد في البطن وشحب ؛ فإذا أكملت الحامل تسعة أشهر لم تَضع ، ويبقى الولد في بطنها زيادة من الزمن يكمل فيها من جسمه وصحته ما نقص بهراقة الدم ، فهذا هو معنى قوله : ﴿وما تَغيضُ ٱلْأَرْحامُ وَمَا تَزْدادُ﴾ . وجمهور المتأولين على أن غيض الرحم إرسال الدم على الحمل ، وذهب بعض الناس إلى أن غيضه هو نضوب الدم فيه وإمساكه بعد عادة إرساله بالحيض ، فيكون قوله : ﴿وما تَزْدادُ﴾ بعد ذلك جارياً مجرى «تغيض» على غير مقابلة ، بل غيض الرحم هو بمعنى الزيادة فيه . وقال الضحاك : غيض الرحم أن تسقط المرأة

---

(١) إذا كانت [مَا] اسم موصول كان العائد عليها في صلاتها محذوفاً ، ويكون [تَغِيضُ] متعدياً ، وإذا كانت مصدرية كان كل من [تَغِيضُ] و [تَزْدادُ] لازماً ، وثابت عن العرب سماع تعديتهما ولزومهما ، وعلى الإعراب الثالث الذي ضعّفه ابن عطية تكون الجملة الاستفهامية في موضع المفعول . و [تَحْمِلُ] هنا بمعنى حمل البطن وليست بمعنى الحمل على الظهر .

(٢) من الآية (٤٤) من سورة (هود)

الولد ، والزيادة أن تضعه لمدة كاملة تامًّا في خلْقه . وقال قتادة : الغَيْض السقط ، والزيادة البقاءُ فوق تسعة أشهر .

وقوله تعالى : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ لفظ عام في كل ما يدخله التقدير .

و [ٱلْغَيْب] : ما غاب عن الإدراكات ، و [ٱلشَّهَادَة] : ما شوهد من الأمور ، ووضع المصادر موضع الأشياء التي كل واحد منها لابد أن يتصف بإحدى الحالتين .

وقوله : [ٱلْكَبِيرُ] صفة تعظيم على الإطلاق ، و [ٱلْمُتَعَالِ] من العُلُوِّ ، واختلف القراءُ في الوقف على (المُتَعالِ) — فأثبت ابن كثير ، وأبو عمرو — في بعض ما روي عنه — الياءَ في الوصل والوقف ، ولم يثبتها الباقون في وصل ولا وقف ، وإثباتها هو الوجه والباب ، واستسهل سيبويه حذفها في الفواصل كهذه الآية قياساً على القوافي في الشعر ، ويقبح حذفها في غير فاصلة ولا شعر ، ولكن وجهه أنه لما كان التنوين يعاقب الألف واللام أبداً ، وكانت هذه الياءُ تحذف مع التنوين حَسُن أن تحذف مع معاقبها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويتصل بهذه الآية فقه يحسن ذكره .

فمن ذلك اختلاف الفقهاءِ في الدم الذي تراهُ الحامل — فذهب مالك وأصحابه والشافعي وأصحابه وجماعةٌ إلى أنه حيض . وقالت

فرقة عظيمة : ليس بحيض ، ولو كان حيضاً لما صح استبراءُ الأَمة بحيض وهو إجماعٌ . وروي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أنه ليس بحيض ، ومن ذلك أن الأَئمة مجمعة على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وذلك منتزع من قوله : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً﴾(١) مع قوله تعالى : ﴿وَٱلْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾(٢) وهذه الستة الأَشهر هي بالأَهلَّة كسائر أشهر الشريعة ، ولذلك قد رُوي في المذهب عن بعض أصحاب مالك ـ وأظنه في كتاب ابن الحارث ـ أنه إن نقص من الأَشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يُلْحق لعلَّة نقص الشهور وزيادتها .

واختلف في أكثر الحمل ـ فقيل : تسعة أشهر : وهذا ضعيف ، وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ وجماعة من العلماء : أكثره حولان ، وقالت فرقة : ثلاثة أعوام ، وفي المدونة : أربعة أعوام وخمسة أعوام ، وقال ابن شهاب وغيره : سبعة أعوام ، وروي أن ابن عجلان ولدت امرأته لسبعة أعوام ، ورُوي أن الضحاك بن مزاحم بقي حولين ، قال : فولدت وقد نبتت ثناياي ، وروي أن عبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر .

---

(١) من الآية (١٥) من سورة (الأحقاف) .
(٢) من الآية (٢٣٣) من سورة (البقرة) .

وقوله تعالى : ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ﴾ الآية . سواءٌ مصدر ، وهو يطلب بعده شيئين يتماثلان ، ورفعه على خبر الابتداء الذي هو [مَنْ] ، والمصدر لا يكون خبراً إلا بإضمار كما قالت الخنساءُ :

. . . . فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَـــالٌ وإِدْبَـــارُ (١)

أي : ذاتُ إقبال وإدبار ، فقالت فرقة : هنا المعنى : «ذو سواءٍ» ، قال الزجاج : كثر استعمال (سواء) في كلام العرب حتى جرى مجرى اسم الفاعل فلا يحتاج إلى إضمار .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهو عندي كعدْلٍ وزَوْرٍ وضيْفٍ .

وقالت فرقة : المعنى : «مُسْتَوٍ منكم» ، فلا يحتاج إلى إضمار ، وضعف هذا سيبويه بأنه ابتداءٌ بنكرة(٢) . ومعنى هذه الآية : مُعْتدلٌ

(١) هذا عجز بيت قالته الخنساء ضمن أبيات في تصوير حيرتها وقلقها وآلامها لفقد أخيها ، وشبهت نفسها بناقة فقدت وليدها فهي في حنين وشوق ، وكلما نسيت عادت فتذكرت ورجعت إلى آلامها وحيرتها ، والبيت بتمامه مع بيت آخر قبله :

فَمَا عَجُولٌ عَلَى بَوٍّ تُطِيفُ بِهِ لَهَا حَنِينَانِ إِصْغَـارٌ وإِكْبَـارُ
تَرْتَعُ ما رَتَعَتْ حتَّى إِذَا ادَّكَرَتْ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وإِدْبَارُ

والبَوُّ هو الحُوَارُ الصغير ، والإصغار : الحنين إذا خفَضَتْه ، والإكبار : الحنين إذا رفَعَتْه ، ورتعت : رعت في خصب وسعة .

(٢) علّق أبو حيان في «البحر المحيط» على ذلك فقال : «وهو لا يصح ، بل يجوز أن يكون [سَوَاءٌ] مبتدأ لأنه موصوف بقوله : [مِنْكُمْ] ومن المعطوف الخبر ، وكذا أعرب سيبويه قول العرب : «سواءٌ عليه الخير والشر» .

منكم في إحاطة الله تعالى وعلمه مَنْ أَسَرَّ قولَه فهمس به في نفسه ومَنْ جهر به فأَسْمَعَ ، لا يخفى على الله تعالى شيءٌ .

وقوله : ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ معناه : من هو بالليل في غاية الاختفاء ومن هو متصرف بالنهار ذاهبٌ لوجهه سواءٌ في علم الله تبارك وتعالى وإحاطته بهما . وذهب ابن عباس ، ومجاهد إلى معنى مقتضاه أن المستخفي بالليل والسارب بالنهار هو راجل واحد مريب بالليل ويظهر بالنهار البراءة في التصرف مع الناس ، فهذا قسم واحد جعل الليل نهار راحة ، والمعنى : هذا والذي أمره كله واحد بريءٌ من الرِّيَب سواءٌ في اطلاع الله تعالى على الكل . ويؤيد هذا التأْويل عطف السارب دون تكرار "مِنْ"، ولا يأْتي حذفها إلا في ضرورة الشعر .

والسارب في اللغة المتصرف كيف شاء ، ومن ذلك قول الشاعر :

أَرَى كُلَّ قوم كارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ ... ونَحْنُ حلَلْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبُ(١)

أي منصرف غير مدفوع عن جهة ، وهذا رجل يفخر بعزة قومه ،

(١) هذا البيت للأخنس بن شهاب التغلبي . ورواه اللسان :

وكُلُّ أُناسٍ قارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ ... ونَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فَهْوَ سَارِبُ

وقد روى صاحب اللسان عن الأصمعي قوله : « هذا مثل ؛ يريد أن الناس أقاموا في موضع واحد لا يجترئون على النُّجْعَة إلى غيره ، وقاربوا قيد فحلهم ، أي : حبسوا فحلهم عن أن يتقدم فتتبعه إبلهم خوفاً أن يُغار عليها ، ونحن أعزاء نقري الأرض ؛ نذهب فيها حيث شئنا ، فنحن قد خلعنا قيد فحلنا ليذهب حيث شاء ؛ فحيثما نزع إلى غيث تبعناه » .

ومن ذلك قول الآخر :

أَنَّى سَرَبْتِ وكُنْتِ غَيْرَ سَرُوبِ ... وتُقَرِّبُ الأَحْلَامُ غَيْرَ قَرِيبِ [(١)]

وتحتمل الآية أن تتضمن ثلاثة أصناف ، فالذي يُسِرُّ طرف ، والذي يجهر طرف مضاد للأول ، والثالث متوسط مُتَلَوِّن يعصى بالليل مستخفياً ويظهر البراءة بالنهار ، والقول في الآية يطَّرد معناه في الأعمال ، وقال قطرب — فيما حكى الزجاج — : [مُسْتَخْفٍ] معناه : ظاهر ، من قولهم : «خفَيْتُ الشيء» إذا أظهرته ، قال امرؤ القيس :

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَـــا ... خَفَاهُنَّ وَدْقٌ من عَشِيٍّ مُجَلِّبِ [(٢)]

قال : و [سَارِبٌ] معناه : مُتَوَارٍ في سرب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا القول وإن كان متعلقاً باللغة فضعيف ، لأن اقتران الليل بالمستخفي والنهار بالسارب يردُّ على هذا القول .

(١) الشاعر هو قيس بن الخطيم ، وقد نقل صاحب اللسان عن ابن دريد قوله : «سَرَبْتَ» بباء موحدة ، لقوله : (وكُنْتِ غير سروب) ، ومَن رواه سَرَيْت بالياء باثنتين فمعناه : كيف سريْت ليلا وأنت لا تسْرُبين نهاراً ؟» .

(٢) البيت في وصف فرس ، والأنفاق جمع نَفَق ، وهو سرب في الأرض إلى موضع آخر ، واستعاره امرؤ القيس لحجرة الفئران . والوَدْق : المطر ، والغيث المجلِّب : المُصَوِّت . ويروى المحلِّب بالحاء المهملة ، وفي رواية اللسان : «وَدْقٌ من سحاب مُرَكَّب» ، ورواية ابن عطية هي الثابتة في شعر امرئ القيس .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾

اختلف المتأولون في عود الضمير من [لَهُ] — فقالت فرقة : هو عائد على اسم الله تعالى المتقدم ذكره ، و « المُعَقِّبَاتُ » — على هذا — الملائكة الحفظة على العباد أعمالهم ، والحفظة لهم أيضاً ، قاله الحسن ؛ وروى فيه عثمان بن عثمان عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً(١) ،

(١) الحديث رواه ابن جرير الطبري عن كنانة العدوي ، قال : دخل عثمان بن عفان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (يا رسول الله ، أخبرني عن العبد كم معه من ملك ؟ قال : ملك على يمينك على حسناتك . وهو أمير على الذي على الشمال ، فإذا عملت حسنة كُتبت عشراً . وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين : أأكتُبُ ؟ قال : لا ، لعله يستغفر الله ويتوب ، فإذا قال ثلاثاً قال : نعم ، اكتبْ أراحنا الله منه ، فبئس القرين ، =

وهو قول مجاهد ، والنَّخَعي ، والضمير – على هذا – في قوله [يَدَيْه] وما بعده من الضمائر عائد على العبد المذكور في قوله : ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ ، و ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يكون صفة للمُعَقِّبَات ، ويحتمل أن يكون المعنى : يحفظونه من كل ما جرى القدر باندفاعه ، فإذا جاء المقدور الواقع أسلم المرء إليه .

وقال ابن عباس أيضاً [(١)] : الضمير في [لهُ] عائد على المذكور في قوله : ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ وكذا باقي الضمائر التي في الآية ؛ قالوا [(٢)] : و « المعَقِّبَاتُ » – على هذا – حرس الرجل وجلاوزَتُه الذين يحفظونه [(٣)] ، قالوا : والآية – على هذا – في الرؤساء الكافرين ، واختار هذا القول الطبري ، وهو قول عكرمة وجماعة ، قال عكرمة : هي المواكب خلفه وأمامه .

= ما أقل مراقبته لله ، وأقل استحياءه منا ، يقول الله : ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ، وملكان من بين يديك ومن خلفك ، يقول الله : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ ، وملكٌ قابضٌ على ناصيتك ، فإذا تواضعت لله رفعك ، وإذا تجبرت على الله قصمك ، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد ، وملك قائم على فيك لا يدع الحية تدخل في فيك ، وملكان على عينيك ، فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي ، ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار ، فهؤلاء عشرون ملكاً على كل آدمي ، وإبليس بالنهار وولده بالليل) .

(١) قال : (أيضاً) لأن ابن عباس رُوي عنه القول الأول ، ورُويت عنه أقوال أخرى كثيرة .

(٢) يريد أصحاب هذا القول ، وقد أشار بعد ذلك إلى أن منهم عكرمة وجماعة .

(٣) الجلاوِزَةُ : الشُّرْطَة ، والمفرد : جِلْوَزٌ وجِلْوَازٌ (المعجم الوسيط) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويصح على التأويل الأول الذي قبل هذا أن يكون الضمير في [لَهُ] للعبد المؤمن على معنى : جعل الله له ، وهذا التأويل عندي أقوى(١) ، لأن غرض الآية إنما هو التنبيه على قدرة الله ، فذكر استواء من هو مُسْتَخْفٍ ومن هو سارب وأنَّ له معقبات من الله يحفظه في كل حال ، ثم ذكر أن الله لا يُغَيِّر هذه الحالة من الحفظ للعبد حتى يغيّر ما بنفسه ، وعلى كلا التأويلين ليست الضمائر لِمُعَيَّنين من البشر .

وقال عبد الرحمن بن زيد : الآية في النبي صلى الله عليه وسلم ، ونزلت في حفظ الله له من أربَد بن ربيعة ، وعامر بن الطُّفَيْل في القصة التي تأتي بعْدَ هذا في ذكر الصواعق .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه الآية وإن كانت ألفاظها تنطبق على معنى القصة فيُضْعِف القولَ أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتقدم له ذكر فيعود الضمير في [لَهُ] عليه .

و «المُعَقِّبات» : الجماعات التي يعقب بعضُها بعضاً ، فعلى التأويل الأول هي الملائكة ، وينظر هذا إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم :

---

(١) في بعض النسخ : «وغير هذا التأويل عندي أقوى» .

(يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة المغرب والصبح)[١] ، وعلى التأْويل الثاني هي الحرس والوزَعَة الذين للملوك . والمُعَقِّبَات جمع مُعَقِّبة ، وهي الجماعة التي تأْتي بعد الأُخرى ، والتعقيب بالجملة أَن تكون حالٌ تَعْقُبها حالٌ أُخرى من نوعها ، وقد تكون من غير النوع ، ومنه معاقبة الركوب ، ومعقب عقبة القدر ، والمعاقبة في الأَزواج ، ومنه قول سلامة بن جندل :

وكَرُّنَا الخَيْلَ في آثَارِهِمْ رُجُعــاً كُسَّ السَّنَابِكِ مِنْ بَدْءٍ وتعْقيب[٢]

وقرأ عبد الله بن زياد على المنبر : ﴿لَهُ المَعَاقِيبُ﴾ ، قال أبو الفتح : هو تكسير معْقِب .

---

(١) أخرجه البخاري في المواقيت والتوحيد ، ومسلم في المساجد ، والنسائي في الصلاة ، ومالك في الموطأ في السفر ، وأحمد في مسنده (٢ ـ ٢٥٧ ، ٣١٢ ، ٤٨٦) . ولفظه كما في صحيح مسلم : (عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون) .

(٢) قال سلامة بن جندل هذا البيت من قصيدة يرثي فيها شبابه ، ويفخر بنفسه وبقومه ، ويذكر بعض المواقع ويعدد الأسلحة ويصف القتال ، والرواية : «وكرّنا خيلنا أدراجها ....» ، والأدراج : الطرق ، ويقال : رجع على أدراجه بمعنى : رجع إلى المواضع التي جاء منها ، ومعنى «كُسّ السنابك» أن السّنابك تحاتّت وأكلتها الطريق لطولها ، والسّنابك جمع سُنْبُك وهو مُقَدّم الحافر ، والتعقيب : الرجوع . والشاعر جاهلي مُقِلّ ، واسمه : سلامة بن عمرو ابن كعب بن سعد بن تميم ، وهو من الفرسان المعدودين ، وتتمثل في شعره خشونة الصحراء .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

بسكون العين وكسر القاف كمطعم ومطاعيم ومقدِم ومقاديم ، وهي قراءة أبي البرهسم ، فكأن معقباً جمع على معاقبة ثم جعلت الياء في معاقيب عوضاً من الهاء المحذوفة في معاقبة .

والمُعَقِّبة ليست جمع مُعَقِّب كما ذكر الطبري وشبَّه ذلك برجل ورجالٍ ورجالات ، وليس الأمر كما ذكر لأن تلك كجَمَل وجِمَالٍ وجمالات ، ومُعَقبة ومُعَقِّبات إنما هي كضاربٍ وضاربات[1] .

وفي قراءة أُبيٍّ بن كعب : «من بين يديه ورقيب من خلفه» ، وقرأ ابن عباس : «ورقيباً من خلفه» ، وذكر عنه أبو حاتم أنه قرأ : «معقِّبات من خلفه ورقيب من بين يديه يحفظونه بأمر الله» .

وقوله : ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما أن يكون بمعنى يحرسونه ويذُبُّون عنه ، فالضمير معمول الحفظ ، والمعنى الثاني أن يكون بمعنى حفظ الأقوال وتحصيلها ، ففي اللفظة حينئذ حذف

---

(١) قال أبو حيان في «البحر» «وينبغي أن يُتأول كلام الطبري على أنه أراد بقوله : «جمع مُعَقِّب» أنه أطلق من حيث الاستعمال على جمع «مُعَقِّب» وإن كان أصله أن يُطلق على مؤنث «مُعَقِّب» ، وصار مثل «الواردة» للجماعة الذين يردون وإن كان أصله أن يُطلق على مؤنث «وارد» ، وتشبيه الطبري ذلك برجل ورجال ورجالات من حيث المعنى لا من حيث صناعة النحويين : فبيَّن أن «معقِّبة» من حيث أُريد به الجمع كرجال من حيث وضع للجمع ، وأن «معقّبات» من حيث استعمل جمعاً «لمعقّبة» المستعمل للجمع كرجالات الذي هو جمع رجال» . (البحر المحيط ٥-٣٧٢) .

مضاف تقديره : يحفظون أعمالهم ، ويكون هذا حينئذ من باب ﴿وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾(١) ، وهذا قول ابن جُرَيج .

وقوله : ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ـ مَنْ جعل [يحْفَظُونَهُ] بمعنى يحرسونه كان معنى قوله : ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يراد به المعقِّبات ، فيكون في الآية تقديم وتأْخير ، أي : له معقبات من أمر الله يحفظونه مِنْ بَيْن يديه ومِنْ خلفه ، قال أبو الفتح : فـ ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ في موضع رفع لأنه صفة لمرفوع وهي «المعقِّبات» ، ويحتمل هذا التأْويل في قوله : ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ مع التأْويل الأول في [يَحْفَظُونَهُ] ، ومَن تأول الضمير في [لَهُ] عائد على العبد وجعل «المعقبات» الحرس وجعل الآية في رؤساء الكافرين جَعَلَ قوله : ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى : يحفظونه بزعمه من قَدَر الله ويدفعونه في ظنه عنه ، وذلك لجهالته بالله تعالى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وبهذا التأْويل جعلها المتأَولون في الكافرين ، قال أبو الفتح : فـ ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ـ على هذا ـ في موضع نصب ، كقولك : «حفظت زيداً من الأَسد» ، فـ «مِنَ الأَسد» معمول لـ «حفظت» . وقال قتادة : معنى ﴿بِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي يحفظونه مما أمر الله ، وهذا تحكم في التأْويل ، قال

(١) من الآية (٨٢) من سورة (يوسف) .

قوم : المعنى : الحفظ من أمر الله ؛ وقد تقدم نحو هذا . وقرأ علي ابن أبي طالب ، وابن عباس ، وعكرمة ، وجعفر بن محمد – رضي الله عنهم – : ﴿يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ (١) .

ثم أخبر تعالى أنه لا يُغَيِّر ما بقوم بأن يعذبهم ويمتحنهم معاقباً حتى يقع منهم تكسُّب للمعاصي وتغيير ما أُمروا به من طاعة الله ، وهذا موضـــع تأمل ، لأنه يداخل هذا الخبـــر ما قرَّرت الشريعـــة من أخْذ العامة بذنوب الخاصة ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ (٢) ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام – وقد قيل له : يا رسول الله أنَهْلِكُ ومنا الصالحون ؟ – قال : (نعم ، إذا كثر الخبث) (٣) إلى أشياء كثيرة من هذا ، فقوله تعالى :

(١) تعليق ابن عطية على قول قتادة بأنه تحكم في التأويل علّق عليه أبو حيان في « البحر » فقال : « وليس بتحكم وورود (من) للسبب ثابت من لسان العرب ، تقول : كسوته من عُرْي وعن عُرْي ، ويكون معنى (من) ومعنى (الباء) سواء كأنه قيل : يحفظونه بأمر الله وبإذنه ، فحفظهم إياه مُتَسَبَّب عن أمر الله لهم بذلك » .

(٢) من الآية (٢٥) من سورة (الأنفال) .

(٣) أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجه في الفتن ، والإمام أحمد في مسنده (٦، ٤٢٨) ، ومالك في الموطأ ، ولفظه كما في صحيح مسلم : عن زينب بنت جحش أن النبي صلى الله عليه وسلم استيقظ من نومه وهو يقول : (لا إله إلا الله ، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب ، فُتح اليوم من ردْم يأجوج ومأجوج مثل هذه) ، وعقد سفيان بيده عشرة – سفيان راوي الحديث – قلت : يا رسول الله ، أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون ؟ قال : (نعم إذا كثر الخَبَث) ، وكلمة « الخبث » يمكن ضبطها بفتح الخاء والباء ، ويمكن ضبطها بضم الخاء وسكون الباء ويكون معناها : الفسق والفجور .

﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا﴾ معناه : حتى يقع تغييرٌ إمَّا منهم وإما من الناظر لهم أو ممن هو منهم بسبب ، كما عبّر تعالى بالمنهزمين يوم أُحد بسبب تغيير الرماة ما بأنفسهم ، إلى غير هذا من أمثال الشريعة ، فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب ، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير ، وثم أيضاً مصائب يريد الله بها أجر المصاب فتلك ليست تغييراً .

ثم أخبر تبارك وتعالى بأنه إذا أراد بقوم سوءًا فلا مَرَدَّ له ، ولا حفظ منه ، وهذا أُجري في مقام التنبيه على عادة الله تعالى وقدرته ، والشَّرُّ والخير بمنزلة واحدة إذا أرادهما الله بعبد لم يُرَدّ ، لكنه خصَّ السوء بالذكر ليكون في الآية تخويف .

واختلف القراءُ في [والٍ] ـ فأماله بعضهم ولم يُمِلْه بعضهم ، والوالي : الذي يلي أمر الإنسان كالولي ، وهما من الولاية كعليم وعالم من العلم .

وقوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ﴾ الآية . هذه آية تنبيه على القدرة ، «والبرق» رُوي فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مخراق بيد مَلَك يزجر به السحاب [(١)] ، وهذا أصح ما رُوي فيه ، ورُوي عن

(١) الذي وجدناه في المراجع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك عن « الرعد » وصوته، وقد أخرج أحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل، والضياء في المختارة عن ابن عباس =

بعض العلماء أنه قال : البرقُ : اصطكاك الأجرام ، وهذا عندي مردود ؛ وقال أبو الجلد في هذه الآية : البرقُ : الماءُ ، وذكَرَه مكي عن ابن عباس ، ومعنى هذا القول أنه لما كان داعية الماء وكان خوف المسافر من الماء وطمع المقيم فيه عُبِّر في هذا القول عنه بالماء .

وقوله : ﴿ خَوْفاً وطَمَعاً ﴾ ، من قال ذلك في الماء فهو على ما تقدم ، والظاهر أن الخوف إنما هو من صواعق البرق ، والطمع في المطر الذي يكون معه ، وهو قول الحسن ؛ و [ٱلسَّحَابُ] جمْعٌ سحابة ، ولذلك جَمَع الصفة ، و [ٱلثِّقَال] معناه : يحمل الماء ؛ وبذلك فسَّر قتادة

= رضي الله عنهما قال : أقبلت يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبا القاسم ، إنا نسألك عن خمسة أشياء فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتَّبعناك ، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال : ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ ؛ قال : هاتوا ، قالوا : أخبرنا عن علامة النبي ، قال : تنام عينه ولا ينام قلبه ، قالوا : أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر ، قال : يلتقي الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذْكرت ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنَّثَتْ ، قالوا : أخبرنا عما حرَّم إسرائيل على نفسه . فقال : كان يشتكي عرق النّسا فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألْبان كذا وكذا ـ يعني الإبل ـ فحرَّم لحومها ، قالوا : صدقتَ ، قالوا : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ قال : ملَكٌ من ملائكة الله مُوَكَّل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله ، قالوا : فماذا الصوت الذي نسمع ؟ قال : صوتُه ، قالوا : صدقْتَ ، إنما بقيت واحدة وهي أن نتابعك إن أخبرتنا ، إنه ليس من نبي إلا له ملَك يأتيه بالخبر ، فأخبرنا مَنْ صاحبك ؟ قال : جبريل ، قالوا : جبريل ذلك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا ، لو قلْتَ ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والمطر لكان ، فأنزل الله : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ إلى آخر الآية . راجع : الدر المنثور ، وفتح القدير ، ومسند الإمام أحمد (١ـ٢٧٤) ، أما النص الذي ذكره ابن عطية وفيه لفظ البرق فقد أخرجه أبو الشيخ عن مجاهد ، ذكر ذلك في الدر المنثور .

ومجاهد . والعربُ تصفها بذلك ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

فَمَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْقَطَـــا   كَأَنَّ الْمَصَـــابِيحَ حوذَانُهَـــا
بِأَحْسَنَ مِنْهَا وَلَا مُزْنَـــــــةٌ   دَلُـوحٍ تَكَشَّفُ أَدْجَانُهَـــا[1]

والدَّلوح : المُثْقَلَة .

و [ٱلرَّعْدُ] مَلَكٌ يزجر السحاب بصوته . وصوتُه هذا المسموع تسبيحٌ ، والرعد اسم المَلَك ، وقيل : الرَّعد اسم صوت المَلَك ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا سمع الرعد قال : (اللّهم لا تُهلكنا بغضبك ، ولا تقتلنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك)[2]. ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره أنهم كانوا إذا سمعوا الرَّعد قالوا : «سبحان الذي سبَّحت له» ، وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرَّعد قال : (سبحان من سبَّح الرعد

---

(١) قيس بن الخطيم بن عديّ بن حارثة الظطريف ، كان شاعر الأوس وبينه وبين حسّان ابن ثابت منافسات . قدم مكة فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام وتلا عليه القرآن ، فقال : إني لأسمع قولا عجباً فدعني أنظر في أمري هذه السنة وأعود ، فمات قبل الحول ، وهو في شعره يجري مجرى الجاهليين . والقطا : جمع قطاة ، وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء ، ويتخذ أفحوصه في الأرض ، ويطير في جماعات ، ويقطع مسافات شاسعة ، وبيضه مرقط . والمُزْن : السحاب يحمل الماء والواحدة مزنة ، والأدجان جمع دَجْن ، وهو ظل الغيم في اليوم المطير حين يكسو الأرض ، وقد قال قيس بن الخطيم البيتين من قصيدة يردّ بها على حسان حين تعرض لأخت قيس في إحدى قصائده .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والبخاري في الأدب ، والترمذي ، والنسائي ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم ، وابن مردويه ، والخرائطي في مكارم الأخلاق عن ابن عمر رضي الله عنهما . (الدر المنثور) .

بحمده)(١) ، وقال ابن أبي زكريا : «من قال إذا سمع الرَّعد : سبحان الله وبحمده لم تصبه صاعقته» ، وقيل في الرعد أيضاً : إنه ريح يختنق بين السحاب . ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا عندي لا يصح لأنَّها نزعات الطبيعيين وغيرهم من الملحدة ، ورُوي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الملَك إذا غضب وزجر السحاب اضطربت من خوفه فيكون البرق ، وتحتك فتكون الصواعق .

قوله تعالى : ﴿ويُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الآية . قيل : إنه أدخلها في التنبيه على القدرة بغير سبب ساق ذلك ، وقال ابن جريج : كان سبب نزولها قصة أَرْبَد أخي لبيد بن ربيعة ، وعامر بن الطُّفَيل ، وكان من أمرهما فيما روي أنهما قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعواه أن يجعل الأمر بعده إلى عامر بن الطفيل ويدخلا في دينه فأَبى ، فقال عامر : فتكون أنت على أهل المدر وأنا على أهل الوبر(٢) فأَبى ، فقال له عامر : فماذا تعطيني ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أُعطيك أعنة الخيل فإنك رجل فارس ، فقال له عامر : والله لأملأنها عليك

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ وهو حديث مرفوع . (الدر المنثور) .

(٢) أهل المدر : سكان البيوت المبنية ؛ وأهل الوبر : سكان الخيام من البدو .

خيلا ورجلا حتى آخذك ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يـأبى الله ذلك وأبناءُ قيلة (١) ، فخرجا من عنده ، فقال أحدهما لصاحبه : لو قتلناه ما انتطح فيها عنزان ، فتآمرا في الرجوع لذلك ، فقال عامر لأربد : أنا أشغله لك بالحديث واضربه أنت بالسيف ، فجعل عامر يحدثه وأربد لا يصنع شيئاً ، فلما انصرفا قال له عامر : والله يا أربد لا خفتك أبداً ، ولقد كنت أخافك قبل ذلك ، فقال له أربد : والله لقد أردت إخراج السيف فما قدرتُ على ذلك ، ولقد كنت أراك بيني وبينه أفأضربك ؟ فمضيا للحشد على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأصابت أرْبَد صاعقة فقتلته ، ففي ذلك يقول لبيد بن ربيعة أخوه :

أخشى على أَرْبَدَ الحُتُـــوفَ ولا أَرْهَبُ نَوْءَ السِّمَـاكِ والأَسَـــدِ
فَجَّعَني البَـــرْقُ والصَّوَاعِقُ بالْـ فَارِس يَوْمَ الكَرِيهَةِ النُّجُــدِ (٢)

---

(١) يريد : الأوس والخزرج .

(٢) كان أرْبد قد وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم في عام الوفود مع عامر بن الطفيل وجابر بن سلمى بن مالك ، ولم يوفقهم الله للإسلام ، وفي عودتهم توفي عامر بالطاعون ، وأصابت أرْبد صاعقة فقتلته حرقاً ، وقد قيل : إن أربد لم يكن شقيقاً للبيد بن ربيعة وإنما هو أخوه لأمه ، واسمه أرْبد بن قيس بن جَزء .

والحتف : الهلاك ، وجمعه حُتُوف ، والنَّوْء : النجم في السماء إذا مال للغروب ، وجمعه أنواء ، والنُّجُد : البطل ذو النجدة . يقول لبيد : كنت أخشى على أرْبد كل سبب من أسباب الهلاك فقد كان يتعرض لها كلها إلا سبباً واحداً لم أكن أخافه ولا أخشاه وهو أن يموت بصاعقة من السماء ، ثم يتحدث عن فجيعته في هذا الفارس المعروف بالشهامة والنجدة في يوم الكريهة وعند الشدة .

فنزلت الآية في ذلك ، وروي عن عبد الرحمن بن صحار العبدي أنه بلغه أن جباراً من جبابرة العرب بعث إليه النبي صلى الله عليه وسلم ليُسْلِم ، فقال : أخبروني عن إله محمد ، من لؤلؤ هو أو من ذهب ؟ فنزلت عليه صاعقة ونزلت الآية فيه(١) ، وقال مجاهد : إن بعض اليهود جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يناظره ، فبينما هو كذلك إذ نزلت صاعقة فأخذت قحف رأسه فنزلت الآية فيه .

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ ، يجوز أن تكون إشارة إلى جدال اليهود المذكور وتكون الواو واو حال ، أو إلى جدال الجبار المذكور ، ويجوز – إن كانت الآية على غير سبب – أن يكون قوله : ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى جميع الكفرة من العرب وغيرهم الذين جُلبت لهم هذه التنبيهات .

و [ٱلْمِحَال] : القوة والإهلاك ، ومنه قول الأعشى :

فَرْعُ نَبْعٍ يَهْتَزُّ في غُصُنِ الْمَجْـ ـد عَظِيمُ النَّدَى شَدِيدُ المحَال(٢)

---

(١) أخرجه ابن جرير ، والخرائطي في مكارم الأخلاق – وأخرج مثله النسائي ، والبزّار ، وأبو يعْلَى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والطّبراني في الأوسط ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل – عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وفي الرواية أن رسول النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الجبار قد ذهب إليه ثلاث مرات ، وفي كل مرة يتعاظم ويتكبر .

(٢) البيت من قصيدته المشهورة التي قالها يمدح الأسود بن المنذر اللّخْمي ، ومطلعها :

ما بُكاءُ الكَبِير بالأطْلالِ وسُؤالي ، فَهَلْ تَرُد سُؤَالي ؟ =

ومنه قول عبد المطلب :

لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُـــمْ وَمِحَالُهُمْ عَدْواً مِحَـالَكْ[١]

وقرأ الأعرج ، والضحَّاك : [الْمَحَال] بفتح الميـم بمعنى المحالة ، وهي الحيلة ، ومنه قول العرب في [ذكر] المثل : « المرءُ يعجز لا محالة »[٢] ، وهذا كالاستدراج والمكر ونحوه ، وهذه استعارات في ذكر الله تعالى ، والميم إذا كُسرَت أصلية ، وإذا فتحت زائدة ، ويقال : مَحَلَ الرجل بالرجل : مَكَر به وأخذه بسعاية شديدة[٣] .

= ورواية الديوان « غزير النَّدى »، والمِحال : المكر والقوة ، ويمكن أن يراد به العقوبة ، ومنه قول ذي الرمة :

ولَبَّس بَيْنَ أقْـــوَامٍ فكُلٌّ أعَدَّ لهُ الشَّغَازِبَ والمِحالا

والشَّغْزَبِيَّةُ : ضربٌ من الحيلة في الصراع ، وهي أن تلوي برجلك رجله .

(١) وقبله يقول عبد المطلب :

لا هُمَّ إنَّ الْمَرْءَ يَمْنَـــ ـعُ رَحْلَهُ فامْنَعْ حِلالَكْ

والحِلالُ بالكسر : القوم المقيمون المتجاورون ، يريد بهم سكان الحرم ، ويروى : « غَدْراً » ، والغدر معروف ، ويروى : « أبداً محالك » ، هكذا رواه في « البحر المحيط » .

(٢) معناه : لا تضيق الحِيَلُ ومخارج الأمور إلا على العاجز (مجمع الأمثال للميداني)، وكلمة (ذكر) وردت في بعض الأصول ، والأولى أن تحذف ، فالمعنى أسلم والتعبير أصح بدونها .

(٣) قال الزمخشري : « ويجوز أن يكون المعنى : شديد العقاب ويكون مثلا في القوة والقدرة ، كما جاء : « فساعِدُ الله أشدُّ ، وموساه أحَدُّ » ، لأن الحيوان إذا اشتد غاية كان منعوتاً بشدة القوة والاضطلاع بما يعجز عنه غيره ، ألا ترى إلى قولهم : « فَقَرَتْه الفواقر » ، وذلك أن الفقار عمود الظهر وقوامه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ
كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ
(١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ
(١٥) ۩ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ
أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ
أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ
عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ (١٦) ﴾

الضمير في [لَهُ] عائد على اسم الله تبارك وتعالى ، وقال ابن عباس : «﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ لا إِلَهَ إلا الله» . وما كان من الشريعة في معناه ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : «هي التوحيد» ، ويصح أن يكون معناها : له دعوة العباد بالحق ودعاء غيره من الأوثان باطل .

وقوله : [وَٱلَّذِينَ] يُراد به ما عُبِد من دون الله ، والضمير في [يَدْعُونَ] لكفار قريش ونحوهم من العرب ، وروى اليزيدي عن أبي عمرو بن العلاء ﴿تَدْعُونَ مِنْ دُونِه﴾ بالتاء من فوق ، و [يَسْتَجِيبُونَ]

بمعنى يُجيبونَ ، ومنه قول الشاعر :

وَدَاعٍ دَعَا يامَنْ يُجيبُ إلى النَّدَى فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عنْدَ ذَاكَ مُجيبُ (١)

ومعنى الكـلام : والذين يدعونهم الكفـار في حوائجهم ومنافعهم لا يجيبون بشيءٍ .

ثـم مثل تعالى مثالا لإجاباتهم بالذي يبسط كفَّيْه نحو الماء ويشير إليه بالإقبال إلى فيه ، فهو لا يبلغ فمه أبداً ؛ فكذلك إجابة هؤلاء والانتفاع بهم لا يقع(٢) . وقوله : [هُوَ] يريد به الماءَ وهو البالغ ، والضمير في [بَالِغِهِ] للفم ، ويصح أن يكون [هُوَ] يراد به الفم وهو البالغ أيضاً ، والضمير في [بَالِغِهِ] للماء ؛ لأن الفم لا يبلغ الماءَ أبداً على تلك الحال ، ثم أخبر تعالى عن دعاءِ الكافرين أنه في ضلال ولا يفيد شيئاً ولا يغني .

وقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ الآية . يحتمل ظاهر هذه الألفاظ أنه جرى في طريق التنبيه على قدرة الله وتسخير الأشياءِ له فقط ؛

(١) قال هذا البيت كعب بن سعد الغَنَويُّ يرثي أخاه أبا المغوار ، وبعده يقول :

فقُلْتُ ادْعُ أخْرَى وارْفَعِ الصَّوْتَ رَفْعَةً لعَلَّ أبا المِغْـوَارِ مِنْكَ قَرِيبُ

(٢) العرب تضرب مثلا لمن سعى فيما لا يدركه بالقابض على الماء ، قال ضابئُ بن الحارث البرجمي :

فَإنِّي وإيَّاكُمْ وشَوْقاً إلَيْكُمْ كَقَابِضِ ماءٍ لَمْ تَسِقْهُ أنامِلُهْ

أي : لم تحمله أنامله ، وروي : «لم تُطعه» ، يعني أنه ليس في يده من ذلك إلا كما في يد القابض على الماء ، والقابض على الماء ليس في يده شيءٌ ، وقال آخر :

فأصْبَحْتُ مِمَّا كانَ بَيْني وبَيْنَهَا مِنَ الوُدِّ مِثْلَ القَابِضِ الماءَ بالْيَدِ

ويحتمل أن يكون في ذلك طعن على كفار قريش وحاضري محمد صلى الله عليه وسلم ، أي : إن كنتم أنتم لا توقنون ولا تسجدون فإن جميع من في السموات والأرض لهم سجود لله تعالى ، وإلى هذا الاحتمال نحا الطبري ؛ و [مَنْ] تقع على الملائكة عموماً وسجودهم طوعاً بلا خلاف ، وأما أهل الأرض فالمؤمنون منهم داخلون في مَنْ سجودهم طَوْعٌ ، وأما سجود الكفرة فهو الكُرْه ، وذلك على نحوين من هذا المعنى ، فإن جعلنا السجود هنا الهيئة المعهودة فالمراد من الكفرة من يضمه السيف إلى الإسلام -- كما قال قتادة -- فيسجد كرهاً ؛ إمَّا نفاقاً ، وإمَّا أن يكون الكره أول حاله فتستمر عليه الصفة وإن صحَّ إيمانه بعد ، وإن جعلنا السجود الخضوع والتذلُّل على حسب ما هو في اللغة كقول الشاعر :

. . . . تَرَى الأُكْمَ فيها سُجَّداً للْحَوَافِرِ (١)

فيدخل الكفار أجمعون في [مَنْ] ، لأنه ليس من كافر إلا ويلحقه

(١) هذا عجز بيت قاله زيد الخيل ، والبيت بتمامه :

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ في حَجَرَاتِهِ تَرى الأُكْمَ فيها سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ

والبَلَقُ : سوادٌ وبياضٌ ، يقال فرس أبلق ، وهي بلقاء ، والعرب تقول : دابة أبلق وجبل أبرق ، والحَجَرات : الجوانب . والأكمة : التَّلُّ المرتفع ، والجمع : أكماتٌ وأكَمٌ ، وجمع الأكَم إكامٌ مثل جبل وجبال ، وجمع الإكام أُكُمٌ مثل كِتاب وكُتُب ، وجَمْع الأُكُم آكامٌ مثل عُنُق وأعناق .

من التذلُّل والاستكانة بقدرة الله أنواع أكثر من أن تُحصى بحسب زاياه واعتباراته ، وقال النحاس ، والزجَّاج : إن الكره يكون في سجود عصاة المسلمين وأهل الكسل منهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإن كان اللفظ يقتضي هذا فهو قلق من جهة المعنى المقصود بالآية .

وقوله تعالى : ﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ إخبار عن أن «الظِّلال» لها سجود لله تعالى بالبُكَر والعَشيَّات ، قال الطبري : وهذا كقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾[1] ، قال : وذلك هو فيئُهُ بالعشي ، وقال مجاهد : «ظلُّ الكافر يسجد طوعاً وهو كاره» ، وقال ابن عباس : «يسجد ظلُّ الكافر حين يفيءُ عن يمينه وشماله» ، وحكى الزجّاج أن بعض الناس قال : إن «الظِّلال» هنا يُراد بها الأشخاص ، وضعفه أبو إسحق . و [الْآصَالِ] جمع أصيل[2] . وقرأ أبو مجلز : [والإيصالِ] ، قال أبو الفتح :

(١) من الآية (٤٨) من سورة (النحل) .

(٢) قال ابن جرير في تفسيره : والآصال جمع أُصُل ، والأصل جمع أصيل ، والأصيل هو العشي ، وهو ما بين العصر إلى مغرب الشمس . قال أبو ذؤيب الهذلي :

لَعَمْرِي لأنتَ البَيْتُ أُكْرِمُ أهلَهُ وأقعُدُ في أفْيائهِ بالأصائلِ

واستشهد أيضاً بهذا البيت أبو عبيدة في (مجاز القرآن) على أن آصال جمع أصل ، وأصل جمع أصيل ، فآصال جمع الجمع ، وبهذا أيضاً قال الزجاج .

هو مصدر أصلنا ؛ أي : دخلنا في الأصيل ، كأصبحنا وأمسينا .

وروي أن الكافر إذا سجد لصنمه فإن ظله يسجد لله حينئذ .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية . جاء السؤال والجواب في هذه الآية من ناحية واحدة ، إذ كان السؤال والتقرير عن أمر واضح لا مدافعة لأحد فيه ملتزم للحجة ؛ فكان السبق إلى الجواب أفصح في الاحتجاج وأسرع في قطعهم من انتظار الجواب منهم ، إذ لا جواب إلا هذا الذي وقع البدار إليه (١) . وقال مكي : جهلوا الجواب وطلبوه من جهة السائل فأعلمهم به السائل ، فلما تقيد من هذا كله أن الله تعالى هو رب السموات والأرض وقع التوبيخ على اتخاذهم من دونه أولياء مُتَّصفين بأنهم لا ينفعون أنفسهم ولا يضرونها ، وهذه غاية العجز ، وفي ضمن هذا الكلام : «وتركتموه وهو الذي بيده ملكوت كل شيء» ، ولفظة ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ تقتضي ذلك .

ثم مثَّل الكفار والمؤمنين ــ بعد هذا ــ بقوله : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : ﴿تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَاتُ﴾ بالتاء ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : [يَسْتَوِي] بالياء ، فالتأنيث أحسن لأنه مؤنث لم يُفْصل بينه وبين فاعله بشيء ؛ والتذكير شائع لأنه

(١) ومثل هذا قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ﴾ .

تـأنيث غير حقيقي والفعل مقدم(١)، وشبهت هذه الآية الكافر بالأعمى والكفر بالظلمات ، وشبهت المؤمن بالبصير والإيمان بالنور . ثم وقفهم بعْدُ ، هل رأوا خلقاً لغير الله فحملهم ذلك واشتباهه بما خلق الله على أن جعلوا إلٰهاً غير الله . ثم أمر محمداً عليه الصلاة والسلام بالإفصاح بصفات الله تعالى في أنه خالق كل شيء ؛ وهذا عموم في اللفظ يراد به الخصوص في كل ما هو خلْق لله تعالى ؛ ويخرج عن ذلك صفات ذاته لا ربَّ غيره ، ووصف نفسه بالوحدانية من حيث لا موجود إلا به ، وهو في وجوده مستغن عن الموجودات ، لا إلٰه إلا هو العلي العظيم.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

(١) [أمْ] في قوله تعالى : ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ منقطعة ، فهي تقدر بـ (بَلْ والهمزة) ، فالتقدير : « بَلْ أهَلْ تستوي » ، و (هَلْ) وإن نابت عن (الهمزة) إلا أنها تأتي معها كما في قول الشاعر : « أهَلْ رأونا بوادي القفْر ذي الأكَم » ، فإذا جاءت معها صريحة كان من باب أولى أن تأتي مع [أمْ] المتضمنة لها ، قال ذلك صاحب البحر المحيط (٥- ٣٧٩) .

صدر هذه الآية تنبيه على قدرة الله تعالى وإقامة الحجة على الكفر به ، ثم لما فرغ ذكر ذلك جعله مثالا للحق والباطل والإيمان والكفر والشك في الشرع واليقين به .

و «الماء» : يريد به المطر ، و «الأَودية» : ما بين الجبال من الانخفاض والخنادق ، وقوله سبحانه : [بِقَدَرِهَا] يحتمل أن يريد : بما قُدّر لها من الماءِ : ويحتمل أن يريد : بقدر ما تحمله على قدر صغرها وكبرها ، وقرأ جمهور الناس : [بِقَدَرِهَا] بفتح الدال ، وقرأ الأَشهب العقيلي بسكونها .

و «الزَّبدُ» : ما يحمله السيل من غثاءٍ ونحوه وما يرمي به ضفَّتيه من الحَبابِ المُلْتَبِك[1] به ، ومنه قول حسّان بن ثابت :

والبَحْرُ حينَ تَهُبُّ الرِّيحُ شَامِيَةً فَبَاطِلٌ ويرْمي العِبْرَ بالزَّبَدِ[2]

و «الرَّابي» : المنتفخ الذي قَدْ رَبا ؛ ومنه الرَّبْوَة .

وقوله تعالى : [وَمِمَّا] خبر ابتداءٍ ، والابتداءُ قوله : [زَبَدٌ] و [مِثْلُهُ] نعت لـ «الزَّبَد» ، والمعنى : ومن الأَشياء التي توقدون عليها ابتغاءَ الحلي – وهي الذهب والفضة – أو ابتغاءَ الاستمتاع بها في المرافق – وهي

(١) الحَباب : الفقاقيع تظهر على وجه الماءِ ؛ والملتبك : المختلط بعضه ببعض

(٢) العِبْر بكسر العَيْن : الضفة أو الشاطئ ، وورد فيها الفتح ، والزَّبَد فسَّره ابن عطية . والريح الشامية هي التي تهب من جهة الشام . وروي البيت : و «النهر» بدلا من «البحر» .

الحديد والرصاص والنحاس ونحوها من الأشياء التي توقدون عليها ، فأخبر تعالى أن من هذه أيضاً ـ إذا أحمي عليها ـ تكون زبداً مماثلا للزَّبد الذي يحمله السيل ، ثم ضرب تعالى ذلك مثلا للحق والباطل ، أي أن الماء الذي تشربه الأرض فيقع النفع به هو كالحق ، والزَّبد الذي يجْفُو ويَنْفِش[1] ويذهب هو كالباطل ، وكذلك مايخلص من الذهب والفضة والحديد ونحوها هو كالحق ، وما يذهب في الدخان هو كالباطل.

وقوله : ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : كائناً كذا ، قال مكي وغيره : ومنعوا أن يتعلق بقوله : [يُوقِدُونَ] لأنهم زعموا أنه ليس يوقد على شيء إلا وهو في النار ، وتعلق حرف الجر بـ [يُوقِدُونَ] يتضمن تخصيص حال من حال أخرى[2]. وذهب أبو علي الفارسيُّ إلى تعلقه بـ [يُوقِدُونَ] ، وقال : قد يوقد على شيء وليس في النار كقوله تعالى : ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾[3] ، فذلك البناء الذي أمر به أن يوقد عليه ليس في النار ولكن يصيبه لهيبها ، وقوله : [جُفَاءً] مصدر من قولك : «جفأت القدر» إذا غلت خرج زبدها وذهب . وقرأ رؤبة :

---

(١) يجفو : يبعد ، يقال : جفا الشيء : نبا وبعُد ، وينفش : يتفرق وينتشر بعد تلبُّد .

(٢) قال أبو حيان رداً على هذا : «ولو قلنا إنه لا يوقد على شيء إلا وهو في النار لجاز أن يكون متعلقاً بـ [يُوقِدُونَ] ، ويجوز ذلك على سبيل التوكيد ، كما قالوا في قوله تعالى : ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ . البحر المحيط ٥ ـ ٣٨٢» .

(٣) من الآية (٣٨) من سورة (القصص) .

[جُفَالًا] من قولهم : «جفلت الريح السحاب» إذا حملته وفرقته ، قال أبو حاتم : لا تعتبر قراءة الأعراب في القرآن [١] .

وقوله : ﴿مَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ يريد الخالص من الماء ومن تلك الأحجار ؛ وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم في رواية أبي بكر ، وأبو جعفر ، والأعرج ، وشيبة ، والحسن : [تُوقِدُونَ] بالتاء ، أي أنتم أيها الموقدون ، وهي صفة لجميع أنواع الناس . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وابن محيصن ، ومجاهد ، وطلحة ، ويحيى ، وأهل الكوفة [يُوقِدُونَ] بالياء على الإشارة إلى الناس ، و [جُفَاءً] مصدر في موضع الحال ، وروي عن ابن عباس أنه قال : قوله تعالى : ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ يريد به الشرع والدين ، وقوله تعالى : ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ يريد به القلوب ، أي : أخذ النبيل بِحَظِّه والبليد بِحَظِّه [٢] .

(١) وعن أبي حاتم أيضاً : «لا يُقرأ بقراءة رؤبة لأنه كان يأكل الفأر» ، يعني أنه كان أعرابياً جافياً .

(٢) وقيل في هذه الآية أيضاً : «هذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب والحق والباطل ، فالماء مثل القرآن لما فيه من حياة القلوب وبقاء الشرع والدين ، والأودية مثل القلوب ، ومعنى [بِقَدَرِهَا] : على سعة القلوب وضيقها ، فمنها ما انتفع به القلب فحفظه ووعاه وتدبر فيه فظهرت ثمرته وأدرك تأويله ومعناه ، ومنها دون ذلك بطبقة ، ومنها دونه بطبقات ، والزَّبد مثل الشكوك والشُّبه وإنكار الكافرين أنه كلام الله ودفعهم إياه بالباطل ، والماء الصافي المُنْتَفع به مثل الحق» ، قال أبو حيان تعليقاً على هذا الكلام : «وفي الحديث الصحيح ما يؤيد هذا التأويل ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : (مثل ما بُعِثْتُ به من الهدى كمثل غيث أصاب أرضاً ، وكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعُشْب الكثير ، وكانت منها طائفة أجادب فأمسكت الماء فانتفع الناس به وسقوا وزرعوا ، وكانت منها قيعان لا تمسك ماء ولا تُنْبِت كلأً ، فذلك مثل ما جئت به من العلم والهدى ، ومثل من لم يقبل هدى الله الذي جئت به) .».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول لا يصح والله أعلم عن ابن عباس لأنه ينحو إلى قول أصحاب الرموز ، وقد تمسَّك به الغزالي وأهل ذلك الطريق ، ولا وجه لإخراج اللفظ عن مفهوم كلام العرب بغير علَّة تدعو إلى ذلك ، والله الموفق للصواب برحمته ، وإنْ صحَّ هذا القول عن ابن عباس فإنما قصد أن قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ ﴾ معناه : الحق الذي يتقرر في القلوب ، والباطل الذي يعتريها (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾

---

(١) وفي نفس الموضوع قال أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبري صاحب كتاب (سوق العروس) : « إن صح هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله سبحانه مثَّل القرآن بالماء ، ومثَّل القلوب بالأودية ، ومثَّل المحكم بالصافي ، ومثَّل المتشابه بالزَّبد . »

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا﴾ هم المؤمنون الذين دعاهم الله على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من اتِّبَاع دينه.

و [ٱلْحُسْنَى] هي الجنة ، ويدخل في هذا النصرُ في الدنيا ونحُو ذلك من البشارات التي تكون للمؤمن وكلٌّ ما يختص به المؤمنون من نعم الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ هم الكفرة ، و ﴿سُوءُ ٱلْحِسَابِ﴾ هو التَّقَصِي على المحاسَب ، ولا يقع في حسابه شيءٌ من التجاوز . قاله حوشب ، وإبراهيم النَّخَعي ، وفَرْقَدُ السَّبَخي[1] وغيره . و «المأْوى» حيث يأْوي الإنسان ويسكن ، و [ٱلْمِهَادُ] ما يُفترش ويُلبس بالجلوس والرقـــاد .

وقوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ﴾ استفهام بمعَنى التقرير ، والمعنى : أيَستوي مَنْ هداه الله تعالى فآمن بك وعلم صدق نبوتك ومَنْ لم يهتد ولا رُزق بصيرة فبقي على كفره ؟ فمثَّل عزَّ وجلَّ ذلك بالعمى ،

---

(١) بفتح السين والباء نِسْبَةً إلى السَّبَخة ، وهي موضع بالبصرة ، قال فرقد : قال لي إبراهيم النَّخَعي : يا فرقد ، أتدري ما سوءُ الحساب ؟ قلت : لا ، قال : أنْ يُحاسب الرجل بذنبه كله لا يُفقد منه شيءٌ .

ورُوي أن هذه نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل بن هشام ، وقيل : في عمار بن ياسر وأبي جهل . وهي – بعد هذا – مثال في جميع العالم . و [إِنَّمَا] في هذه الآية حاصِرة . أي : إنما يتذكر فيُؤْمن ويراقب الله مَنْ له لبٌّ وتحصيل .

ثم أخذ تبارك وتعالى في وصف هؤلاء الذين يسِّرهم للإيمان فقال : ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ ، وقوله : ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ اسم للجنس ، أي بجميع عهوده ، وهي أوامره ونواهيه التي وصَّى بها عبيده ، ويدخل في هذه الألفاظ التزامُ جميع الفروض وتجنُّب جميع المعاصي .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَاقَ﴾ يحتمل أن يريد به جنس المواثيق ، أي : إذا عقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقضوه ، قال قتادة : وتقدم الله إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضع وعشرين آية ، ويحتمل أن يشير إلى ميثاق معيّن وهو الذي أخذه الله على عباده وقت مسحه على ظهر أبيهم آدم عليه السلام .

وَوَصْلُ ما أمر الله به أن يُوصل ظاهِرُهُ في القرابات ، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات ، وسُوءُ الحساب هو أن يُتَقَصَّى ، ولا يقع فيه مسامحة ولا تغمّد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾

الصبر لوجه الله يدخل في الرَّزايا والأَسقام والعبادات ، وعن الشهوات ونحو ذلك . و [ٱبْتِغَآءَ] نصب على المصدر ، أَو على المفعول من أَجله ، و «الوَجْه» في هذه الآية ظاهره الجهة التي تقصد عند الله تعالى بالحسنات لتقع عليها المثوبة ، وهذا كما تقول : خرج الجيش لوجه كذا ، وهذا أَظهر ما فيه ، مع احتمال غيره ، و «إقامة الصلاة» هي الإتيان بها على كمالها ، والصلاة هنا هي المفروضة .

وقوله تعالى : [وَأَنْفَقُوا] يريد مواساة المحتاج ، و «السِّرُّ» هو فيما أُنفق تطوعاً ، والعلانية فيما أُنفق من الزكاة المفروضة ، لأَن التطوع كله الأَفضل فيه التكتم . وقوله ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أَي : ويدفعون من رأَوْا منه مكروهاً بالتي هي أَحسن ، وقيل : يدفعون بقول «لا إِلٰه إلا الله» شرْكَهُم ، وقيل : يدفعون بالسلام غوائل الناس .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وبالجملة لا يُكَافئون الشرَّ بالشرِّ ، وهذا بخلاف خُلُق الجاهلية . ورُوي أن هذه الآية نزلت في الأَنصار ثم بقيت عامة - بعد ذلك - في كل من اتصف بهذه الصفات .

وقوله : ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ يحتمل أن تكون عُقْبى دار الدنيا ، ثم فسَّر «العقبى» بقوله : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ إذ العقبى تعُمّ حالة الخير وحالة الشر ، ويحتمل أن يريد : عقبى دار الآخرة لدار الدنيا ، أي : العقبى الجنة[1] في الدار الآخرة هي لهم ، وقرأ الجمهور : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ ، وقرأ النَّخَعي : ﴿جَنَّةُ عَدْن يُدْخَلُونَها﴾ بضم الياء وفتح الخاء ، و [جَنَّات] بدلٌ من [عُقْبى] وتفسير لها[2]. و [عَدْن] هي مدينة الجنة ووسطها[3] ، ومنها «جنات الإقامة» ، من «عَدَن بالمكان» إذا أقام فيه طويلا ، ومنه المعادن ، وجناتُ عدْن يقال : هي سكن

(١) في بعض النسخ : «العقبى الحسنة في الدار الآخرة» .

(٢) ويكون التقدير : لهم دخول جنات عدْن ، لأن ﴿عُقْبى الدَّارِ﴾ حدَثٌ ، و ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ عيْنٌ . والحدث إنما يُفَسَّر بمثله ، فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول ، ويجوز أن تكون ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ خبر ابتداءٍ محذوف .

(٣) في صحيح البخاري : (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة) .

الأنبياء والشهداء والعلماء فقط ؛ قاله عبد الله بن عمرو بن العاص ، ويروى أن لها خمسة آلاف باب .

وقوله : ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ أي : من عمل صالحاً وآمن ، قاله مجاهد وغيره ، ويحتمل : أي مَنْ صلح لذلك بقدر الله تعالى وسابق علمه ، وحكى الطبري في صفة دخول الملائكة أحاديث لم نطول بها لضعف أسانيدها ، والمعنى : يقولون : سلام عليكم ، فحذف «يقولون» تخفيفاً وإيجازاً لدلالة ظاهر الكلام عليه ، والمعنى : هذا بما صبرتم[1] ، والمعنى في ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ على نحو ما تقدم من المعنيين ، وقرأ الجمهور : [فَنِعْمَ] بكسر النون وسكون العين ، وقرأ يحيى بن وثاب بفتح النون وكسر العين ، وقالت فرقة : معنى ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي : أنْ أُعْقبوا الجنة من جهنم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا التأويل مبني على حديث ورَدَ وهو : (إن كل رجل في الجنة فقد كان له مقعد معروف في النار فصرفه الله عنه إلى النعيم ، فيعرض

(١) ف[مَا] مع الفعل بمعنى المصدر ، والباء في [بِمَا] متعلقة بمعنى﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ ، ويجوز أن تتعلق بمحذوف تقديره : «هذا بصبركم» كما قال ابن عطية . والقول المضمر في ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ تكرر في القرآن الكريم . ومنه قوله تبارك وتعالى في الآية (١٢) من سورة (السجدة) : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا﴾ أي : يقولون : [رَبَّنَا] .

عليه ، ويقال له : هذا مكان مقعدك فبدّلك الله منه الجنة بإيمانك وطاعتك وصبرك) [١] .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

هذه صفة مضادة للمتقدمة ، وقال ابن جريج في قوله تعالى : ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أنه رُوي : «إذا لم تمش إلى قريبك برجلك ولم تواسه بمالك فقد قطعته» ، وقال مصعب بن سعد : سألت أبي عن قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ، والترمذي في فضائل الجهاد ، وابن ماجه في الجهاد ، والإمام أحمد في مسنده (٢-٥٤١ ، ٤-١٣١-٢٠٠ ، ٦-٨٩) .

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾(١) أَهُم الحرورية؟ قال : لا ، ولكن الحرورية هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، وتلا هذه الآية ، فكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يجعل فيهم الآيتين . و [ٱللَّعْنَة] : الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن الخير جملة ، و ﴿سُوءُ ٱلدَّارِ﴾ ضد ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ ، والأظهر في الدار هنا أنها دار الآخرة ؛ ويحتمل أن تكون الدنيا على ضعف .

وقوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ الآية . لما أخبر تعالى عمن تقدمت صفته بأن لهم اللعنة ولهم سوءُ الدار أنحى بعد ذلك على أغنيائهم ، وحقَّر شأنهم وشأن أموالهم ؛ والمعنى أن هذا كله بمشيئة الله ، يهب الكافر المال ليهلكه به ، ويقدر على المؤمن ليعظم بذلك أجره وذخره . وقوله : [وَيَقْدِرُ] من التقدير ، فهو مناقض لـ [يَبْسُطُ] ، ثم استجهلهم في قوله تعالى : ﴿فَرِحُوا بِٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهي بالإضافة إلى الآخرة متاع ذاهب مضمحل ، يستمتع به قليلا ثم يفنى ، و «المتاع» : ما يُتَمَتَّعُ به مما لا يبقى ، قال الشاعر :

تَمَتَّعْ يا مُشَعَّثُ إنَّ شيئــاً سَبَقْتَ بِهِ الْمَمَاتَ هُوَ الْمَتَاعُ(٢)

(١) الآية (١٠٣) ، ومن الآية (١٠٤) من سورة (الكهف) .

(٢) البيت للمُشَعَّث العامري ، وهو من مقطوعة له يخاطب نفسه ، استشهد به صاحب اللسان على معنى المتاع ، قال : «والمتاع : كل ما ينتفع به من عروض الدنيا قليلها وكثيرها» ، وكذلك ذكره صاحب تاج العروس في (متع) ، وذكره أبو عبيدة في «مجاز القرآن» شاهداً على معنى المتاع ، وكذلك ذكره المرزباني في «معجم الشعراء» .

وقوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية ، هذا ردٌّ على مقترحي الآيات من كفار قريش ، كسقوط السماء عليهم كِسَفاً ، ونحو ذلك من قولهم : سيِّر عنا الأخشبين ، واجعل لنا البطاح محارث ومغترساً كالأردنّ ، وأحْيِ لنا مُضيِّنا وأسلافنا ، فلما لم يكن ذلك بحسب أن آيات الاقتراح لم تجر عادة الأنبياء بالإتيان بها إلا إذا أراد الله تعذيب قوم قالوا هذه المقالة ، فردّ الله عليهم ، أي أن نزول الآية لا تكون معه ضرورة إيمانكم ولا هداكم ، وإنما الأمر بيد الله يُضل من يشاء ويهدي من يشاء إلى طاعته والإيمان به من أناب إلى الطاعة وآمن بالآيات الدالة ، ويحتمل أن يعود الضمير في [إِلَيْهِ] على القرآن الكريم ، أو على محمد صلى الله عليه وسلم(١).

و [ٱلَّذِينَ] بدلٌ مِن [مَنْ] في ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ ، وطمأْنينة القلوب هي الاستكانة والسرور بذكر الله والسكون به كمالاً به ، ورضًى بالثواب عليه ، وجودة اليقين . ثم استفتح الإخبار بأن طمأْنينة القلوب بذكر الله تعالى ، وفي هذا الإخبار حضٌّ وترغيبٌ في الإيمان ، والمعنى : إن بهذا تقع الطمأْنينة لا بالآيات المقترحة ، بل ربما كفر بعدها قوم فنزل العذاب كما سلف في بعض الأُمم .

(٣) قالوا : والأظهر أن يعود على الله تعالى مع تقدير مضاف محذوف ، والتقدير : إلى دينه وشرعه .

و [ٱلَّذِينَ] الثاني ابتداءٌ وخبره ﴿طُوبى لَهُمْ﴾ ، ويصح أن تكون [ٱلَّذِينَ] بدلًا من الأُولى . و [طُوبى] ابتداءٌ و [لَهُمْ] خبره . و طوبى اسم ، ويدل على ذلك كونه ابتداءً ، وهي فُعْلى من الطيب في قول بعضهم ، وذهب سيبويه بها مذهب الدعاء ، وقال : هي في موضع رفع ، ويدل على ذلك رفع [وحُسْنُ][1] ، قال ثعلب : وقرئ : [وحُسْنَ] بالنصب ، ف [طُوبَى] – على هذا – مصدر ، كما قالوا : سقْياً لك ، ونظيره من المصادر : الرُّجعى والعُقْبى . قال ابن سيدة : والطُّوبى جميع طيبة – عن كراع – ، ونظيره كُوسَى في جمع كيسَة ، وصُوفى في جمع صِيفة[2] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي قرأ : [وَحُسْنَ] بالنصب هو يحيى بن يَعْمَر ، وابن أبي عبـلة .

(١) وكما يقال في الكلام : «ويلٌ لعَمْرو» ، وإنما أوثر الرفع في «طوبى» لحسن الإضافة فيه بغير لام ، وذلك أنه يقال : طوباكَ ، كما يقال : ويلَك وويْحَك . ولولا حسن الإضافة فيه بغير لام لكان النصب فيه أحسن وأفصح ، كما أن النصب في قولهم : «تعْساً لزيد وبعْداً له وسحقاً» أحسن ، إذْ كانت الإضافة فيه بغير لام لا تحسن .

(٢) قال صاحب البحر المحيط تعليقاً على ذلك : «وفُعْلى ليست من ألفاظ الجموع ، فلعلّ المقصود أنها اسم جمع» . ورأي الجمهور أنها مفرد مصدر مثل بُشْرى وعُقْبى ، كما أشار ابن عطية .

واختلف في معنى [طُوبَى] – فقيل : معناه : خير لهم ، وقال عكرمة : معناه : نعم لهم ، وقال الضحاك : معناه : غبطة لهم ، وقال ابن عباس : طوبى اسم الجنة بالحبشية ، وقال سعيد بن مشجوح : اسم الجنة طوبى بالهندية ، وقيل : طوبى اسم شجرة في الجنة ، وبهذا تواترت الأحاديث ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (طوبى شجرة في في الجنة ، يسير الراكب المُجِدُّ في ظلها مائة عام مجداً لا يقطعها ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾[1]) . وحكى الطبري عن أبي هريرة ، وعن مغيث بن سُمَيّ ، وعتبة بن عبد يرفعه أخباراً مقتضاها أن هذه الشجرة ليست في الجنة دار إلا وفيها من أغصانها ، وأنها تثمر ثياب أهل الجنة ، وأنها تخرج منها الخيل بسُرُجِهَا ولُجُمِها ، ونحو هذا مما لا يثبت سنده .

و « ٱلْمَآبُ » : المرجع والمآل ، من آب يؤوب ، ويقال في طوبى : طِيبَـــى .

---

(١) قال في « فتح القدير » : ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه ... وساق الحديث . والأحاديث متواترة في أن (طُوبى) شجرة في الجنة ، لكن بعض الروايات تزيد أخباراً قال عنها ابن عطية : « إنها مما لا يثبت سندها » . وقوله تعالى : ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ هو الآية (٣٠) من سورة (الواقعة) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾

الكاف في قوله : [كَذَٰلِكَ] متعلقة بالمعنى الذي في قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ ، أي : كما أنفذ الله هذا كذلك أرسلناك ، هذا قول ، والذي يظهر لي أن المعنى : كما أجرينا العادة بأن الله يضل من يشاءُ ويهدي ، لا الآيات المقترحة ، فكذلك أيضاً فعلنا في هذه الأُمة ، أرسلناك إليها بوحي لا بالآيات المقترحة ، فيضل الله من يشاءُ ويهدي من يشاءُ (١) .

---

(١) وقال الزمخشري : « مثل ذلك الإرسال أرسلناك ، يعني أرسلناك إرسالا له شأن وفضل على سائر الإرسالات » ، وقال الحسن : « كإرسالنا الرسل أرسلناك » ، و (ذلك) إشارة إلى إرساله الرسل ، وقال الحوفي : « الكاف للتشبيه في موضع نصب » .

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ﴾ ، قال قتادة ، وابن جريج : نزلت في قريش حين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية ؛ فكتب الكتاب : «بسم الله الرحمن الرحيم» ، فقال قائلهم : نحن لا نعرف الرحمن ولا نقر اسمه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي أقول في هذا : إن [ٱلرَّحْمٰن] هنا يراد به الله تعالى وذاته ، ونسب إليهم الكُفْر به على الإطلاق ، وقصة الحديبية وقصة أُمية ابن خلف مع عبد الرحمن بن عوف إنما هي عن إباية الاسم فقط ، وهروب عن هذه العبارة التي لم يعرفوها إلا مِن قِبل محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أمر الله نبيَّه بالتصريح بالدين والإفصاح بالدعوة في قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ ، و «الْمَتَاب» : المرجع كالمآب ، لأن التوبة : الرجوع .

ويحتمل قوله : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية أن يكون متعلقاً بقوله : ﴿وَهُمْ يَكْفُرُون بِالرَّحْمٰنِ﴾ فيكون معنى الآية الإخبار عنهم أنهم لا يؤمنون ولو نزل قرآن سُيِّرت به الجبال أو قُطِّعت به الأرض ؛ هذا تأويل الفراء وفرقة من المتأوِّلين[١] . وقالت فرقة :

(١) الذي ذكره الفراء في معاني القرآن أن جواب (لَوْ) لم يأت ، فإن شئت جعلت جوابها متقدماً : ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ ، وإن شئت كان جوابه متروكاً لأن أمره معلوم ، والعرب تحذف جواب الشيء إذا كان معلوماً إرادة الإيجاز ؛ قال الشاعر وهو امرؤ القيس :

وأُقْسِمُ لوْ شيءٌ أتانا رَسُولُهُ سواكِ ، ولكِنْ لَمْ نَجِدْ لكِ مَدْفَعا =

بل جواب [لَوْ] محذوف تقديره : ولو أن قرآناً يكون صفته كذا لما آمنوا بوجه[1] ، قال أهل التأْويل : ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما : إن الكفار كانوا قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : أَزِح عنَّا ، أو سَيِّر عنا جبلي مكة فقد ضيقا علينا ، واجعل لنا أرضاً قطع غراسة وحرث ، وأَحْيِ لنا آباءنا وأجدادنا وفلاناً وفلاناً ، فنزلت الآية في ذلك مُعْلِمة أنهم لا يؤمنون ولو كان ذلك كله . وقالت فرقة : جواب [لَوْ] محذوف ولكنه ليس في هذا المعنى ، بل تقديره : لكان هذا القرآن الذي يصنع به هذا ، وتتضمن الآية ـ على هذا ـ تعظيم القرآن ، وهذا قول حسن يحرر فصاحة الآية . وقوله تعالى : ﴿بَلْ للهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ يعضد التأْويل الأخير ويترتب مع الآخرَيْن .

وقوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ﴾ بمعنى : يعلم ، وهي لغة هوازن ، قاله القاسم بن معن ، وقال ابن الكلبي : هي لغة « هَبْيل » حيٌّ من النخع ،

= ومعنى هذا أن الفراء ذكر التأويلين ، ولكن يترتب على التأويل الأول أن يكون الجواب : « لما آمنوا » ، ولا يصح أن يكون قوله : ﴿وهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ جواباً ، بل هو دليل الجواب ، وعبارة ابن عطية توضح أنه لاحظ ذلك عند تقدير الجواب على رأي الفراء .

(١) حذف الجواب لدلالة المعنى عليه كثير في القرآن وفي كلام العرب ، ومنه في القرآن قوله تعالى : ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ ، ومنه في كلام العرب بيت امرئ القيس الذي استشهد به الفراء ، وقول امرئ القيس أيضاً :

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً   وَلَكِنَّهَـــا نَفْسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسَا

ومنه قول سُحَيْم بن وثيل الرياحي :

أَقُولُ لهُمْ بِالشِّعْبِ إِذْ ييْسِرُونَني أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّي ابْنُ فارِسِ زهْدم؟ (١)

ويحتمل أن يكون «اليأْس» في هذه الآية على بابه ؛ وذلك أنه لما أبعد إيمانهم في قوله : ﴿ولوْ أنَّ قُرْآناً﴾ الآية ، على التأْويلين في المحذوف المقدر قال في هذه : أفلم ييأس المؤمنون من إيمان هؤلاء الكفرة علماً منهم أن لو شاء الله لهدى الناس جميعاً ؟

وقرأ ابن كثير ، وابن محيصن [يأْيَس] ؛ وقرأ ابن عباس ، وعليٌّ بن أبي طالب ، وابن أبي مُليْكَة ، وعكرمة ، والجحدري ،

(٣) قيل : إن البيت لابن سُحَيْم واسمه جابر بدليل قوله فيه : «أني ابن فارس زهدم» ، وزَهْدَم هي فرس سحيم بن وثيل . ويروى البيت : «أني ابن قاتل زهدم» ، وعلى هذا يصح أن ينسب إلى سحيم نفسه ، وقوله: ييْسرونني : من أيسار الجزور ، أي: يجتزُونني ويقتسمونني ؛ ويُروى : يأسرونني من الأسر ؛ وقال الشاعر ييْسرونني لأنه كان قد أُسر في صباه فضرب عليه الآسرون بالمَيْسر يتحاسبون على قسمة فدائه ، والشاهد فيه أن (ييْأس) بمعنى : يعلم ، ومثله في ذلك قول مالك بن عوف :

أَلَمْ يَيْأَسِ الأقوامُ أنّي أنا ابْنُهُ وإنْ كُنْتُ عَنْ أرْضِ العَشِيرَةِ نائيا

بمعنى ألم يعلموا ويتبينوا ؟

وكان بعض الكوفيين ينكر أن «يئس» تأتي بمعنى : «علم» ؛ ويزعم أنه لم يسمع أحداً من العرب يقول ذلك ، قال الفراء : وأما قول الشاعر (وهو لبيد) :

حتّى إذا يَئِسَ الرمـــاةُ وأرْسَلُوا غُضُفاً دواجِنَ قافلا أعْصامُهـــا

فمعناه : حتى إذا يئسوا من كل شيء مما يمكن إلا الذي ظهر لهم أرسلوا ؛ فهو معنى : «حتى إذا علموا أن ليس وجه إلا الذي رأوا» أرسلوا ؛ كان ما وراءه يأساً . (معاني القرآن ٢-٦٤) . وقد علّق أبو حيان على ذلك فقال : «وقد حفظ ذلك غيره ؛ فهذا القاسم بن معن من ثقاة الكوفيين يقول : «إنها لغة هوازن» ، وكذلك نقلها ابن الكلبي» (البحر ٥-٣٩٢) .

وعلي بن حسين ، وزيد بن عليّ ، وجعفر بن محمد : ﴿أَفَلَمْ يَتَبَيَّن﴾[(١)] .

ثم أخبر تعالى عن كفار قريش والعرب أنهم لا يزالون تصيبهم قوارع من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزواته ، وقرأ ابن مسعود ومجاهد : ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ، ثم قال : ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ أنت يا محمد قريباً من دارهم ، هذا تأويل فرقة منهم الطبري ، وعزاه إلى ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وقال الحسن بن أبي الحسن : المعنى : أوْ تحلُّ القارعةُ قريباً من دارهم ، وقرأ سعيد بن جبير ، ومجاهد : «أَوْ تحلُّ قريباً مِنْ دِيَارِهِمْ» بالجمع .

ووعْدُ الله ـ على قول ابن عباس وقوم ـ فتحُ مكة ، وقال الحسن ابن أبي الحسن : الآية عامة في الكفار إلى يوم القيامة ، وإن حال الكفار هكذا هي أبداً ، ووعد الله قيام الساعة ، و «القارعة» : الرزيَّة التي تقرع قلب صاحبها بفظاعتها كالقتل والأَسْر ونهب المال وكشف الحريم ونحوه .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَد ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ . هذه آية تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم ، أي : لا يضيق صدرك يا محمد بما ترى

---

(١) قال أبو حيان : «وتدل هذه القراءة على أن معنى ﴿أَفَلَمْ يَيْأَس﴾ هنا معنى العِلْم ، كما تضافرت النقول أنها لغة لبعض العرب . وهذه القراءة ليست قراءة تفسير لقوله : ﴿أَفَلَمْ يَيْأَس﴾ كما يدل عليه ظاهر كلام الزمخشري ، بل هي قراءة مسندة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وليست مخالفة للسواد إذ كتبوا (يَيْئَس) بغير صورة الهمزة ، وهذه كقراءة (فَتَبَيَّنُوا) و (فَتَثَبَّتُوا) وكلتاهما في السبعة» .

من قومك وتلقى منهم ، فليس ذلك ببدع ولا نكير ، قد تقدم هذا في الأُمم ، و «أَمْلَيْتُ لَهُمْ» : أي : مَدَدْتُ المدة وأَطْلَتُ ، والإملاءُ : الإمهال على جهة الاستدراج ، وهو من المُلاوة من الزمن ؛ ومنه : تَمَلَّيْتُ حُسْنَ العَيْشِ[1] .

وقوله : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ؟ تقرير وتعجيب ، وفي ضمنه وعيد للكفار المعاصرين لمحمد عليه الصلاة والسلام .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

---

(١) «تَمَلَّيْتُ حُسْنَ العيش» معناها : تمتعت به ، والملاوة بفتح الميم وضمها وكسرها ، ويقال : «تَمَلَّيْتُ عمري» بمعنى استمتعت به ، و «تَمَلَّيْتُ حبيباً» أي : عشت معه مُلاوة من دهري ؛ قال التَّميمي في يزيد بن مزيد الشيباني :

وقَدْ كنتُ أرجو أنْ أَمَلاّكَ حِقْبَةً ... فحال قَضاءُ الله دون رَجَائِيـــا

ألا فَلْيَمُتْ مَنْ شاء بعْدَكَ إنَّمَا ... عَلَيْكَ مِن الأقدارِ كانَ حِذَارِيا

هذه الآية بالمعنى راجعة إلى قوله : ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ ، والمعنى : أفمن هو هكذا أحقُّ بالعبادة أم الجمادات التي لا تضر ولا تنفع؟ هذا تأويل ، ويظهر أن القول مرتبط بقوله : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ ، كأن المعنى : أفَمن له القدرة والوحدانية ويُجْعل له شريكٌ أهْلٌ أن ينتقم ويعاقب أم لا[١] ؟ و« الأَنْفُس » من مخلوقاته وهو قائم على الكلِّ أي محيط به لِيُقرِّب الموعظة من حسِّ السامع ، ثم خصَّ من أحوال الأنفس حال كسبها ليتفكر الإنسان عند نظر الآية في أعماله وكسبه [٢] .

وقوله : ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي : سمُّوا من له صفات يستحق بها الألوهية ، ثم أضرب عن القَول وقرَّر : هل تُعلمون الله بما لا يعلم ، وقرأ الحسن : [تُنْبِؤُونَهُ] بإسكان النون وتخفيف الباء . و [أَمْ] بمعنى «بل» و «ألف الاستفهام» ، هذا مذهب سيبويه ، وهي كقولهم : «إنها لإبلٌ أَمْ شاةٌ» . ثم قررهم بعْدُ ، هل يريدون تجويز ذلك بظاهر من الأمر ؟ لأن ظاهر الأمر له إلباسٌ مّا وموضع من الاحتمال ، وما لم يكن إلا بظاهر من القول فقط فلا شبهة له . وقرأ الجمهور : [زُيِّن]

(١) [من] موصولة ، وصلتها ما بعدها ، والخبر محذوف تقديره ما وضحه ابن عطية على التأويلين اللذين ذكرهما ، وحذف الخبر إذا فهم جائز ، وقد ورد كثيراً ، ومنه قوله تبارك وتعالى : ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ ، والتقدير ها هنا : كالقاسي قلبه ، وقد دلَّ على الخبر في آيتنا هنا قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ ، كما دلَّ على القاسي قوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ ، هذا وقد جعل حذف الخبر حسناً في هاتين الآيتين أن المبتدأ يكون في مقابله الخبر المحذوف .

(٢) في بعض النسخ : «عند نظر الله إليه في أعماله وكسبه» .

على البناء للمفعول [مَكْرُهُمْ] بالرفع ، وقرأ مجاهد : [زَيَّنَ] على بناية الفاعل [مَكْرَهُمْ] بالنصب ، أي : زَيَّنَ الله ، و [مَكْرُهُم] لفظ يعم أقوالهم وأفعالهم التي كانت بسبيل مناقضة الشرع ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : [وَصُدُّوا] بضم الصاد ، وهذا على تعدي الفعل ، وقرأ الباقون هنا وفي «حمٓ المؤمن[1]» [وَصَدُّوا] بفتحها ، وذلك يحتمل أن يكون : صدُّوا أنفسهم أو صدُّوا غيرهم ، وقرأ يحيى بن وثاب : [وصِدُّوا] بكسر الصاد[2] .

وقوله تعالى : ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ الآية وعيدٌ ، أي : لهم عذاب في دنياهم بالقتل والأسر والجدوب والبلايا في أجسامهم وغير ذلك مما امتحنهم الله به ، ثم لهم عذاب أَشَقُّ من هذا كله وهو الاحتراق بالنار . و [أَشَقُّ] : أصعب ، من المشقة ، و«الواقي» هو الساتر على جهة الحماية ، من الوقاية .

وقوله تعالى : [مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ] الآية ، قال قوم : (مَثَل) معناه : صفة ، وهذا من قولك : «مثلتُ الشيء» إذا وصفته لأحد وقرّبتَ عليه فهم أمره ، وليس بضرب مثل لها ، وهو كقوله سبحانه : ﴿وَلَهُ

(١) في قوله تعالى في الآية (٣٧) من سورة المؤمن (غافر) : ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ .

(٢) وهي كقراءة : ﴿رِدَّتْ إِلَيْنَا﴾ بكسر الراء من قوله تعالى في الآية (٦٥) من سورة (يوسف) : ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رِدَّتْ إِلَيْنَا﴾ ، وفي اللوامح عن الكسائي وابن يعمر : (وَصِدُّوا) بالكسر لغة .

ٱلْمَثَلُ ٱلأَعْلَى ﴾[١] أي الوصف الأعلى ، ويظهر أن المعنى الذي يتحصل في النفس مثالا للجنة هو جرْي الأنهار وأن أُكُلَها دائم ، ورافعه عند سيبويه مُقَدّر ، قيل : تقديره : فيما يُتْلى عليكم أو يُنصّ عليكم مثلُ الجنة[٢] ، ورافعه عند الفراءِ قوله : [تَجْرِي] ، أي : صفة الجنة أنها تجري من تحتها الأنهار ، ونحو هذا موجود في كلام العرب ، وتأول عليه قومٌ أن [مَثَل] مُقْحم ، وأن التقدير : الجنة التي وُعد المتقون بها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قلق[٣] ، وقرأ علي بن أبي طالب ، وابن مسعود : ﴿أَمْثالُ ٱلْجنَّةِ﴾ ، وقد تقدم غير مرَّة معنى قوله : ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِها ٱلْأَنْهارُ﴾ .

---

(١) من الآية (٢٧) من سورة (الروم) ، ومثلها قوله تعالى في الآية (٦٠) من سورة (النحل) : ﴿وَلله الْمَثَلُ الأعْلَى﴾ .

(٢) عبارة أبي حيَّان هنا أدق من عبارة ابن عطية ، فقد قال : «ارتفع [مَثَلُ] على الابتداء عند سيبويه ، والخبر محذوف . أي : فيما قصصنا عليكم مَثَلُ الجنة ، و ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ تفسير لذلك المثل » . لأن ابن عطية يجعل عامل الرفع مقدراً عند سيبويه مع أنه هو الابتداءُ نفسه ، هذا وقد أنكر أبو علي الفارسيَ أن يكون [مَثَل] بمعنى صفة ، قال : «إنما معناه التشبيه ، ألا تراه يجري مجراه في مواضعه ومتصرفاته ؟ ، كقولهم : مررتُ برجل مثلك ، كما تقول : مررت برجل شبهك ، قال : ويَفْسد أيضاً من جهة المعنى ، لأننا حين نقول في شرح الآية : «صفة الجنة التي فيها أنهار» يكون كلاماً غير مستقيم المعنى ، لأن الأنهار في الجنة نفسها لا صفتها» اهـ . ولكن قيل ردًّا عليه : المثل بمعنى الصفة موجود كقوله تبارك وتعالى : ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ﴾ ، وقوله : ﴿وَلله المَثَلُ الأعْلَى﴾ .

(٣) لأن إقحام الأسماء لا يجوز في القرآن ، قال أبو حيان : وقد حكوا عن الفراءِ أن العرب تقحم كثيراً المَثَل والمِثْل ، وأنه خرّج على ذلك قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فقال : أيْ : ليس هو كشيء .

وقوله : [أُكُلُهَا] معناه : ما يُؤْكل فيها[(١)] ، «والعُقْبى» والعاقبة والعاقب : حال تتلو أُخرى قبلها . وباقي الآية بيِّن ؛ وقيل : التقدير في صدر الآية : «مثل الجنة جنة تجري» ؛ قاله الزجاج ، فتكون الآية - على هذا - ضَرْبَ مثل لجنة النعيم في الآخرة[(٢)] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(١) وفي الخبر : (إذا أُخذت ثمرةٌ عادت مكانها أُخرى) ، وقوله تعالى : (وَظِلُّهَا) أي : وظِلُّها كذلك دائم ، فحذف ، أي : ثمرها لا ينقطع ، وظلها لا يزول .

(٢) معنى كلام الزّجاج أن الله تعالى مثّل لنا ما غاب عنا بما نراه ، وأنكر أبو علي ذلك فقال : لا يخلو المَثَل على قوله أن يكون الصفة أو الشبه ، وفي كلا الوجهين لا يصح ما قاله ، لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصح ، لأنك إذا قلت : صفة الجنة جنة ، فجعلت الجنة خبراً لم يستقم ذلك ، لأن الجنة لا تكون الصفة ، وكذلك أيضاً شِبْهُ الجنة جنة ، ألا ترى أن الشبه عبارة عن المماثلة التي بين المتماثلين ، وهو حدث ، والجنة غير حدث ، فلا يكون الأول الثاني .

اختلف المتأولون فيمن عني بهذه الآية ـ فقال ابن زيد : عني به من آمن من أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام وشبهه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمعنى مَدْحُهم بأنهم لشدة إيمانهم يُسَرون بما يرد على النبي صلى الله عليه وسلم من مباحات الشرع ، وقال قتادة : عني به جميع المؤمنين ، و [ٱلْكِتَاب] هو القرآن ، و ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يراد به جميع الشرع ؛ وقالت فرقة : المراد «بالذين آتيناهم الكتاب» اليهود والنصارى ، وذلك أنهم لهم فرح بما ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم من تصديق شرائعهم وذكر أوائلهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويُضَعَّف هذا التأويل بأن همهم به أكثر من فرحهم فلا يُعْتد بفرحهم ، ويُضعَّف أيضاً بأن اليهود والنصارى ينكرون بعضه وقد فرّق الله في هذه الآية بين الذين ينكرون بعضه وبين الذين آتيناهم الكتـــاب .

و [ٱلْأَحْزَاب] قال مجاهد : هم اليهود والنصارى والمجوس ؛ وقالت فرقة : أحزاب الجاهلية من العرب ، وأمره الله تعالى أن يطرح اختلافهم ، وأن يصدع بأنه إنما أُمر بعبادة الله وترْك الإشراك والدعاء إليه ، واعتقاد المآب إليه ، وهو الرجوع عند البعث يوم القيامة .

وقوله : [وكَذَلِكَ] ، المعنى : كما يسَّرنا هؤلاء للفرح وهؤلاء لإنكار البعض ، كذلك ﴿أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيًّا﴾ ، ويحتمل المعنى : والمؤمنون الذين آتيناهم الكتاب يفرحون به لفهمهم له وسرعة تَلَقِّيهم ، ثم عدَّد النعمة بقوله : كذلك جعلناه ، أي : سَهَّلْنَاهُ عليهم في ذلك وتَفَضَّلْنَا . و [حُكْماً] نصب على الحال . والحُكْم : ما تضمنه القرآن من المعاني ، وجعله عربياً لما كانت العبارة عنه بالعربية . ثم خاطب النبي صلى الله عليه وسلم محذِّراً من اتباع أهواء هذه الفرق الضالة ، والخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام وهو بالمعنى يتناول المؤمنين إلى يوم القيامة . ووقف ابن كثير وحده على : [وَاقِي] و [هَادِي] و [وَالِي] بالياء ، قال أبو عليّ : «والجمهور يقفون بغير ياء ، وهو الوجه» ، وباقي الآية بيِّن .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية . في صدرها تأْنيس للنبي صلى الله عليه وسلم ، وردٌّ على المقترحين من قريش بالملائكة ، المتعجبين من بعثة الله بشراً رسولاً ، فالمعنى : إنَّ بعثك يا محمد ليس ببدع ، فقد تقدم هذا في الأُمم ، ثم جاء قوله : ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية . لفظه لفظ النهي والزجر ، والمقصد به إنما هو النفي المحض ، لكنه نفي تأْكيد بهذه العبارة ، ومتى كانت هذه العبارة عن أمر واقع تحت قدرة المنهي عنه فهي زجْرٌ ،

ومتى لم يقع ذلك تحت قدرته فهو نفيٌ مؤكَّد . و ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ معناه : إلَّا أن يأْذن الله في ذلك .

وقوله تعالى : ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لفظ عام في جميع الأَشياء التي لها آجال ، وذلك أنه ليس كائن فيها إلا وله أجل في بدنه وفي خاتمته ، وكل أجل مكتوب محصور ، فأخبر الله تعالى عن كتْبه الآجالَ التي للأَشياءِ عامة ، وقال الضحاك ، والفراءُ : المعنى : لكل كتاب أجل (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا العكس غير لازم ، ولا وجه له ، إذ المعنى تام في ترتيب القرآن ، بل يمكن هدم قولهما بأَن الأَشياءَ التي كتبها الله أزلية باقية كتنعيم أهل الجنة وغيره يوجد كتابها ولا أجل له .

وقوله تعالى : ﴿يَمْحُو ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ ، قرأ نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [وَيُثَبِّتُ] بتشديد الباء ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم بتخفيفها ، وقد تخبط الناس في معنى هذه

---

(١) قال الفراءُ في «معاني القرآن» : ومثله ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ ، وذلك عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه . «وجاءت سكرة الحقّ بالموت» ؛ لأن الحق يأتي بها وتأتي به ، فكذلك تقول : «لكل أجل مؤجل ولكلّ مؤجَّل أجل» والمعنى واحد ، والله أعلم اهـ. قال أبو حيان : ولا يجوز ادعاءُ القلب إلا في ضرورة الشعر ، وأما هنا فالمعنى في غاية الصحة بلا عكس ولا قلب ، بل ادعاءُ القلب هنا لا يصح المعنى عليه إذْ ثمّ أشياء كتبها الله أزلية كنعيم أهل الجنة – ولا أجل لها . وهذا هو نفس الرأي الذي قدمه ابن عطية .

الألفاظ ، والذي يتلخَّص من مسلكها أن الأشياء التي قدرها الله تعالى في الأزل ، وعلمها بحال مّا ، لا يصحّ فيها محْوٌ ولا تبديل ، وهي التي كتبت في أم الكتاب ، وسبق بها القضاءُ ، وهذا مروي عن ابن عباس وغيره من أهل العلم ؛ وأما الأشياءُ التي أخبر الله تعالى أنه يبدل فيها وينقل كغفر الذنوب بعد تقريرها ، وكنَسْخ آية بعد تلاوتها واستقرار حكمها ففيها يقع المحو والتَّثبيت فيما يقيده الحفظة ونحو ذلك ، وأما إذا رُدَّ الأمر إلى القضاء والقدر فقد محا الله ما محا وثبّت ما ثبّت ، وجاءت العبارة مستقبلة لمحي الحوادث[١] وهذه الأمور فيما يستأنف من الزمان ، فينتظر البشر ما يمحو أو ما يثبت ، وبحسب ذلك خوفهم ورجاؤهم ودعاؤهم . وقالت فرقة منهم الحسن : هي في آجال بني آدم ، وذلك أن الله تعالى في ليلة القدر ـ وقيل : ليلة نصف شعبان . يكتب آجال الموتى ، فيُمْحى ناس من ديوان الأحياء ويُثْبَتون في ديوان الموتى ؛ وقال قيس بن عُباد : العاشر من رجب هو يوم يمحو الله ما يشاء ويثبت .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا التخصيص في الآجال وغيرها لا معنى له ، وإنما يحسن من الأقوال هنا ما كان عامًّا في جميع الأشياء ، فمن ذلك أن يكون معنى

(١) في (اللسان) : يقال : محا يمحو محواً ومحياً .

الآية : إن الله تعالى يغير الأُمور عن أحوالها ، أعني ما من شأْنه أن يُغَيَّر على ما قدمناه ، فيمحو من تلك الحالة ويثبته في التي نقله إليها[(١)] . ورُوي عن عُمر ، وابن مسعود أنهما كانا يقولان في دعائهما : « اللَّهم إن كنت كتبتنا في ديوان الشقاوة فامحنا وأثبتنا في ديوان السعادة ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت » ، وهذا دعاء في غفران الذنوب وعلى جهة الجزع منهما ، أي : اللَّهم إن كنا شقينا بمعصيتك ، وكتبت علينا ذنوب وشقاوة بها فامحها عنا بالمغفرة والطاعة ، وفي لفظ عمر رضي الله عنه – في بعض الروايات . بعض من هذا ، ولم يكن دعاؤهما البَتَّة في تبديل سابق القضاء ، ولا يُتأَوَّل عليهما ذلك .

وقيل : إن هذه الآية نزلت لأن قريشاً لما سمعت قول الله تعالى : ﴿وما كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قالوا : ليس لمحمد في هذا الأمر قدرة ولا حظٌّ ، فنزلت ﴿يَمْحُو ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي : ربما أذن الله من ذلك كما تكرهون بعد أن لم يكن بإذن الله .

---

(١) قال القرطبي : « مثل هذا لا يدرك بالرأي والاجتهاد ، وإنما يؤخذ توقيفاً ، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده ، وإلا فتكون الآية عامة في جميع الأشياء ، وهو الأظهر والله أعلم » ، وهو بهذا يؤيد كلام ابن عطية ، وأبو حيان يقول : « الظاهر أن المحو عبارة عن النسخ من الشرائع والأحكام ، والإثبات عبارة عن دوامها وتقررها وبقائها ، أي : يمحو ما يشاء محوه ، ويثبت ما يشاء إثباته » . ورأيه يوافق رأي الزمخشري ، وقتادة – هذا وللمفسرين آراء كثيرة في معنى المحو والإثبات ذكر منها ابن عطية أهمها .

وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : يمحو الله ما يشاءُ ويثبت من أُمور عباده ، إلا السعادة والشقاوة والآجال فإنه لا محو فيها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا نحو ما أصَّلناه أوّلاً في الآية .

وحكى عن فرقة أنها قالت : يمحو الله ما يشاءُ ويثبت من كتاب حاشى أم الكتاب الذي عنده لا يغير منه شيئاً ، وقالت فرقة : معناه : يمحو كل ما يشاءُ ويثبت كل ما أراد ، ونحو هذه الأَقوال التي هي سهلة المعارضة . وأسند الطبري عن إبراهيم النَّخَعي أن كعباً قال لعمر ابن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، لولا آية في كتاب الله لأَنبأْتك بما هو كائن إلى يوم القيامة ، قال : وما هي ؟ قال : قوله تعالى : ﴿يَمْحُو ٱللَّهُ ما يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وعِنْدَهُ أُمُّ ٱلْكِتَابِ﴾ ، وذكر أبو المعالي في التلخيص أن علياً رضي الله عنه هو الذي قال هذه المقالة المذكورة عن كعب ، وذلك ـ عندي ـ لا يصح عن علي .

واختلفت أيضاً عبارة المفسرين في تفسير ﴿أُمُّ ٱلْكِتَابِ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما[1]: هو الذِّكر ، وقال كعب : هو علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون [2].

(١) دليله على ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا في الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ .

(٢) وقد رُوي هذا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً ، فقد سئل عن « أم الكتاب » فقال : « علم الله ما هو خالق ، وما خلقه عاملون ، فقال لعلمه : كن كتاباً ، ولا تبديل في علم الله » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأصوب ما يُفَسَّر به ﴿أُمُّ ٱلْكِتَابِ﴾ أنه ديوان الأمور المحدثة [١] التي قد سبق القضاءُ فيها بما هو كائن ، وسبق ألَّا يُبَدَّل ، ويبقى المحو والتثبيت في الأمور التي سبق في القضاء أن تُبدل وتُمْحى وتثبت ، قال نحوه قتادة ، وقالت فرقة : معنى ﴿أُمُّ ٱلْكِتابِ﴾ : الحلال والحرام ، وهذا قول الحسن بن أبي الحسن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

«إنْ» شرط دخلت عليها «مَا» ، وهي قبل الفعل ، فصارت بعدُ في ذلك بمنزلة اللام المؤكدة في القسَم التي تكون قبل الفعل في قولك :

(١) في الأصول : «الأمور المخزونة» ، والتصويب عن «البحر المحيط» ، إذ نقل كلام ابن عطية بهذا اللفظ .

«والله لتخرجنَّ» ، فلذلك يحسن أن تدخل النون الثقيلة في قولك «نُرِيَنَّكَ» لحلولها هنا محل اللام هناك ، ولو لم تدخل «ما» لما جاز ذلك إلا في الشِّعر .

وخصَّ «البعض» بالذكر إذ مفهومٌ أن الأعمار تقصر عن إدراك جميع ما تأتي به الأقدار مما يُوعد به الكفار ، وكذلك أعطى الوجود ، ألا ترى أن أكثر الفتوح إنما كان بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، و [أَوْ] عاطفة .

وقوله : [فَإِنَّما] جواب الشرط [1] ، ومعنى الآية : إنْ تبْقَ يا محمد لترى ، أو نتوفَّينَّك فعلى كلا الوجهين إنما يلزمك البلاغ فقط . وقوله : [نَعِدُهُم] يحتمل أن يريد به المَضَارَّ التي توعَّد الله بها الكفار ،

(١) هذا رأي الحوفي ، وقد تعقبه أبو حيان في البحر ، وقال : والذي تقدم شرطان ؛ لأن المعطوف على الشرط شرط ، فأما كونه جواباً للشرط الأول فليس بظاهر ، لأنه لا يترتب عليه ، إذ يصير المعنى : «وإما نُرِيَنَّكَ بعض ما نعدهم من العذاب فإنما عليك البلاغ» ، وأما كونه جواباً للشرط الثاني وهو ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ فكذلك ، لأنه يصير التقدير : إما نتوفينَّك فإنما عليك البلاغ ، ولا يترتب وجوب التبليغ عليه على وفاته عليه الصلاة والسلام ؛ لأن التكليف ينقطع بعد الوفاة . فيحتاج إلى تأويل ، وهو أن يتقدر لكل شرط منهما ما يناسب أن يكون جزاءً مترتباً عليه ، وذلك أن يكون التقدير والله أعلم : ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ بعض الذي نعدهم من العذاب فذلك شافيك من أعدائك . ودليل على صدقك ، إذ أخبرت بما يحل بهم ، ولم يعين زمان حلوله بهم ؛ فاحتمل أن يقع ذلك في حياتك ، واحتمل أن يقع بهم بعد وفاتك ، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي : إن نتوفينَّك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولا عتب ، إذ قد حلّ بهم بعض ما وعد الله به على تسلُّطك من عذابهم ، فإنما عليك البلاغ لا حلول العذاب بهم . إذ ذلك راجع إليَّ ، وعلينا جزاؤهم في تكذيبهم إياك وكفرهم بما جئت به » . (البحر المحيط ٥-٣٩٩) .

فأَطلق فيها لفظة الوعد لما كانت تلك المضَارّ معلومة مصرحاً بها ، ويحتمل أن يريد الوعد لمحمد عليه الصلاة والسلام في إهلاك الكفرة ، ثم أضاف الوعد إليهم لما كان في شأْنهم .

والضمير في قوله : [يَرَوْا] عائد على كفار قريش ، وهم المتقدم ضميرهم في قوله : [نَعِدُهُمْ] ، وقوله : ﴿نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ معناه : بالقدرة والأَمر ، كما قال الله تعالى : ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾(١) ، و [ٱلْأَرْضَ] يريد به اسم الجنس ، وقيل : يريد أَرض الكفار المذكورين ، وهذا بحسب الاختلاف في قوله : ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرافِهَا﴾ . وقرأَ الجمهور : [نَنْقُصُهَا] وقرأَ الضحاك : [نُنَقِّصُهَا](٢) ، وقوله : ﴿مِنْ أَطْرَافِها﴾ ، مَنْ قال : «إنها أرض الكفار المذكورين» قال : معناه : أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نأْتي أَرض هؤلاءِ بالفتح عليك فننقصها بما يدخل في دينك من القبائل والبلاد المجاورة لهم ، فما يؤَمِّنهم أن نمكِّنك منهم أيضاً كما فعلنا بمجاوريهم ؟ قاله ابن عباس ، والضحاك ، وهذا القول لا يتأَتّى إلا بأَن يُقدّر نزول هذه الآية بالمدينة . ومن قال : «إن [الأَرْضَ] اسم جنس» جعل الانتقاص من الأَطراف بتخريب العمران الذي يُحِلُّه الله بالكفرة ؛ وهذا قول ابن عباس أَيضاً ومجاهد ،

(١) من الآية (٢٦) من سورة (النحل) .

(٢) بتشديد القاف ، من نقَّص المتعدي بالتضعيف .

وقالت فرقة : الانتقاص هو بموت البَشَر ، وهلاك الثمرات ، ونقص البركة . قاله ابن عباس أيضاً والشعبي ، وعكرمة ، وقتادة . وقالت فرقة : الانتقاص بموت الأَخيار والعلماءِ ، قال ذلك ابن عباس أيضاً ومجاهد ، وكلٌّ ما ذكر يدخل في لفظ الآية . والطرف من كل شيءٍ : خياره ، ومنه قول علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : «العلوم أَودية ، في أَي وادٍ أَخذت منها خسرت، فخذوا من كل شيءٍ طرفاً» ، يعني خياراً . وجملة معنى هذه الآية الموعظة وضرْب المثل ، أَي : أَلَم يروا فيقع منهم اتِّعاظ ، وأَليق ما يقصد لفظ الآية هو تنقص الأَرض بالفتوح على محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله : ﴿لَا مُعَقِّبَ﴾ أَي : لا رادَّ ولا مناقض يتعقَّب أَحكامه ، أَي : ينظر في أَعقابها ، أَمصيبةٌ هي أَم لا ؟[1] وسُرْعَة حساب الله واجبة لأَنها بالإِحاطة وليست بعدد .

و «المَكْرُ» : ما يتمرس بالإِنسان ويسعى عليه ، علِم بذلك أَو لم يعلم ، فوصف الله تعالى الأُمم السَّالفة التي سعت على أَنبيائها ،

(١) المعقِّب هو الذي يكرُّ على الشيء فيُبطله ، وحقيقته الذي يعقبه بالردّ والإِبطال ، ومنه قيل لصاحب الحق : معقِّب لأَنه يقفي غريمه بالاقتضاء والطلب ، قال لبيد :

حتَّى تَهَجَّرَ في الرَّواح وهاجَهُ ... طَلَبُ المُعَقِّب حَقَّهُ المَظْلُومُ

أَي : طلب المظلوم المعقب حقه ، و «المعقب» في محلّ رفع لأَنها فاعل المصدر «طلَب» ، و «المَظْلُومُ» مرفوع عطفاً على موضع «المعقب» .

كما فعلت قريش بمحمد صلى الله عليه وسلم بالمكر ، وقوله : ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعاً﴾ ، أي العقوبات التي أحلّها بهم ، وسمّاها مكراً على عرف تسمية المعاقبة باسم الذنب ، كقوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[1] ونحو هذا ، وفي قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ تنبيهٌ وتحذيرٌ في طيِّ إخبار . ثم توعدهم تبارك وتعالى بقوله : ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ ، وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو : [ٱلْكافر] على الإفراد ، وهو اسم الجنس . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [ٱلْكُفَّار]، وقرأ ابن مسعود : [الكافرون] ، وقرأ أُبيّ بن كعب «الذين كفروا» ، وتقدم القول في ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ قبل هذا .

وقوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية . المعنى : ويُكذبك يا محمد هؤلاء الكفرة ، ويقولون : لسْت مرسلا من الله ، وإنما أنت مُدَّعٍ ، قل لهم : ﴿كَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾ ، و [بِاللهِ] في موضع رفع ، التقدير : كفى الله ، و «شهيد» بمعنى : شاهد ، وقوله : ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ﴾ ؛ قيل : يريد اليهود والنصارى الذين عندهم الكتب السابقة برفض الأصنام وتوحيد الله تبارك وتعالى ؛ يريد مَنْ آمن منهم ، كعبد الله بن سلام ، وتميم الدّاري ، وسلمان الفارسي الذين

(١) من الآية (١٥) من سورة (البقرة) .

يشهدون بتصديق محمد عليه الصلاة والسلام . وقال مجاهد : يريد عبدالله بن سلام خاصة ، قال هو : فيّ نزلت ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذان القولان الأخيران لا يستقيمان إلا أن تكون الآية مدنية والجمهور على أنها مكية ، قاله سعيد بن جبير ، وقال : لا يصح أن تكون الآية في عبد الله بن سلام لكونها مكية ، وكان يقرأ : ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ ٱلْكِتَابُ﴾(١) .

وقيل : يريد اللهَ تعالى ، كأنه استشهد بالله سبحانه ، ثم ذكره بهذه الألفاظ التي تتضمن صفة تعظيم ، ويعترض هذا القول بأن فيه عطف الصفة على الموصوف وذلك لا يجوز وإنما تعطف الصفات بعضها على بعض(٢) ، ويحتمل أن تكون [مَنْ] في موضع رفع بالابتداء

(١) على أن [مِنْ] حرف جر ، و [عِنْدِ] مجرورة بها ، و [عُلِمَ] مبني للمفعول ، و [الكتابُ] نائب فاعل مرفوع ، والمعنى : عُلِمَ الكتابُ من عند الله سبحانه وتعالى ، وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ كذلك ، روى ذلك محبوب عن إسماعيل ابن محمد اليماني ، ورُوي أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم قرأ : ﴿ وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الكِتَاب ﴾ بكسر الميم في [مِنْ] والعين والدال في (عِنْدِ) ، وأن [عِلْم] مصدر مضاف إلى [الكتاب] ، والمعنى : عِلْمُ الكتاب من عند الله ، روى ذلك سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه ، قال القرطبي : وفي الرواية ضعف ، و [الكِتَابُ] على هاتين القراءتين هو القرآن .

(٢) قال أبو حيان : « وليس ذلك كما زعم من عطف الصفة على الموصوف ، لأن« مَنْ » لا يوصف بها، ولا بشيءٍ من الموصولات إلا بـ « الذي » و « التي » وفروعها ، و « ذو »=

والخبر محذوف(١) والتقدير : أعدل أو أمضى قولاً ، ونحو هذا مما يدل عليه لفظة «شهيد» ، ويراد بذلك الله تعالى .

وقرأ علي بن أبي طالب ، وأُبيٌّ بن كعب ، وابن عباس ، وابن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، والحكم ، وغيرهم : ﴿ومِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ﴾ بكسر الميـم مِنْ [مِنْ] وخفض الدال ، قال أبو الفتح : ورُويت عن النبي عليه الصلاة والسلام . وقرأ علي ابن أبي طالب أيضاً ، والحسن ، وابن السميفع : ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الْكِتَابُ﴾ بكسر الميم والدال ، وبضم العين وكسر اللام على ما لم يسم فاعله ورفع (الكتاب) ، وهذه القراءات يرادُ فيها الله تعالى ، لا يحتمل لفظها غير ذلك .

تم تفسير سورة الرَّعد والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه

= و «ذوات» الطائيين ، وقوله : «وإنما تعطف الصفات بعضها على بعض» ليس على إطلاقه ، بل له شرط ، وهو أن تختلف مدلولاتها ، ويعني ابن عطية أنك لا تقول : «مررت بزيد والعالم» فتعطف «العالم» على الاسم ، وهو علَمٌ لم يلحظ منه معنى صفة ، وكذلك «الله» علَمٌ . ولما شعر بهذا الاعتراض من جعله معطوفاً على «الله» قدّر قوله «بالذي يستحق العبادة» حتى يكون من عطف الصفات بعضها على بعض ، لامن عطف الصفة على الاسم .

(١) والاحتمال الأظهر أن [مَنْ] — في قراءة الجمهور — في موضع خفض عطفاً على لفظ الجلالة [الله] ، أو في موضع رفع عطفاً على موضعه ، إذ هو في مذهب من جعل الباء في [بالله] زائدة فاعلٌ بـ [كَفَى] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

(١٤) سُورَةُ إبراهِيمَ مَكِّيَّة
وآياتُها اثْنتانِ وخمسون

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

هذه السورة مكية إلَّا آيتين [١] ، وهي [٢] قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا ﴾ إلى آخر الآيتين ، ذكره مكيّ ، والنقاش .

(١) حدد القرطبي الآيات المكية بدايةً ونهايةً ، فقال : وهي قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ ، وهي بهذا ثلاث آيات كما هو ثابت في المصحف الشريف ، وأرقامها (٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠) ، ونسب القرطبي هذا القول إلى ابن عباس وقتادة . وكذلك قال في « البحر المحيط » ، أما الجمهور فيقولون : السورة كلها مكية .

(٢) هكذا في جميع النسخ كما هي عادة ابن عطية ، وهو يقصد الآيات التي سيذكرها بعد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٣﴾ ﴾

تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور ، و [كِتَابٌ] رفع على خبر ابتداءٍ مضمر ؛ تقديره : هذا كتابٌ ، وهذا على أكثر الأقوال في الحروف المقطعة ، وأما مَنْ قال فيها : « إنها كناية عن حروف المعجم » فـ [كِتَابٌ] مرفوع بقوله : [الٓر] ، أي : هذه الحروف كتاب أنزلناه إليك[1] ، وقوله : [أَنْزَلْنَاهُ] في موضع الصفة لـ « الكتاب » ، قال القاضي ابن الطيب ، وأبو المعالي ، وغيرهما : إن الإنزال لم يتعلق بالكلام القديم الذي هو صفة الذات ، لكن بالمعاني التي أفهمها اللهُ جبريل عليه السلام من الكلام .

(١) جوَّز العلماء في إعراب [الٓر] أن تكون في موضع رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف تقديره : «هذه الٓر» ، وأن تكون في موضع نصب على تقدير : «الْزَمْ أو اقرأ الٓر» ، وتكون جملة ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ مفسِّرة . ويجوز في هذه الحالة أن يكون [كِتَابٌ] مبتدأ ، وسوَّغ الابتداء به كونه موصوفاً في التقدير ، أي : كتابٌ عظيم أنزلناه إليك .

وقوله تعالى : [لِتُخْرِجَ] أسند الإخراج إلى النبي صلى الله عليه وسلم من حيث له فيه المشاركة بالدعاء والإنذار ، وحقيقته إنما هي لله تعالى بالاختراع والهداية . وفي هذه اللفظة تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم ، ، وعمَّ «النَّاس» إذ هو مبعوث إلى جميع الخلق ، ثبت ذلك بآيات القرآن التي اقترن بها ما نُقل تواتراً من دعوته عليه الصلاة والسلام العالَمَ كلَّه ، وفي بعثه إلى الأحمر والأسود ، علم ذلك الصحابة مشاهدة ، ونقل عنهم تواترا ، فعلم قطعاً والحمد لله . واستعير الظُّلُمات للكفر والنور للإيمان تشبيهاً ، وقوله : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أي بعلمه وقضائه وتمكينه لهم ، و [إِلَى] في قوله : ﴿ إِلَى صِرَاطِ ﴾ بدل من الأول في قوله : ﴿ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[1] ، أي المَحَجَّة المؤدية إلى طاعة الله والإيمان به ورحمته ، فأضافها إلى الله بهذه المتعلقات ، و ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ صفتان لائقتان في هذا الموضع ، فالعزَّة من حيث الإنزال للكتب ، وما في ضمن ذلك من القدرة واستيجاب الحمد من حيث بثَّ هذه النعم على العالم في هدايتهم .

وقرأ نافع ، وابن عامر : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي ﴾ برفع اسم الله على القطع والابتداء ، وخبره [ٱلَّذِي] ، ويصحُّ رفعه على تقدير : «هو الله الذي» ،

---

(١) ولا يضر الفصل بين البدل والمبدل منه بقوله تعالى : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ لأنَّه معمول للعامل في المبدل منه وهو ﴿ لِتُخْرِجَ ﴾ .

وقرأ الباقون بكسر الهاء على البدل من قوله : ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ ، وروى الأصمعي وحده هذه القراءة عن نافع ، وعبّر بعض الناس عن هذا بأن قال : التقدير : «إلى صراط اللهِ العزيز الحميد» ، ثم قدم الصفات وأبدل منها الموصوف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإذا كان هذا فليست بعْدُ بصفات على طريقة صناعة النحو ، وإن كانت بالمعنى صفاته ذكر معها أو لم يذكر(١) .

وقوله : [وَوَيْلٌ] معناه : وشدّةٌ وبلاءٌ ونحوه ، أي يلقونه من عذاب شديد ينالهم الله به يوم القيامة . ويحتمل أن يريد : في الدنيا ، هذا معنى قوله : [وَوَيْلٌ] ، وقال بعض الناس : [وَيْلٌ] اسم واد في جهنم يسيل من صديد أهل النار .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا خبر يحتاج إلى سند يقطع العذر ، ثم لو كان هكذا لَقَلِقَ تأْويل هذه الآية لقوله : ﴿ مِنْ عَذَابٍ ﴾ ، وإنما يحسن تأْويله في قوله :

(١) عند تقديم الصفة على الموصوف يجوز في الإعراب أن تعرب الصفة نعتاً مقدماً ، ويجوز أن تجعل ما بعد الصفة بدلا ، ويجوز أيضاً أن تضيف الصفة إلى الموصوف ، ذكر ذلك أبو الحسن بن عصفور ، ومما جاء فيه تقديم الصفة قول الشاعر :

والْمُؤمِنِ الْعَائِذاتِ الطَّيْرَ يَمْسَحُها ... رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الْغِيلِ والسَّعَدِ

فلو جاء على المألوف الكثير لكان نصه : «والمؤمن الطير العائذات» .

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾(١) وما أشبهه ، وأما هنا فإنما يحسن في [ويْل] أن يكون مصدراً ، ورفعه على نحو رفعهم «سَلَامٌ عَلَيْكَ» وشبهه .

و [ٱلَّذِينَ] بدلٌ من [ٱلْكَافِرِينَ](٢) ، وقوله : [يَسْتَحِبُّونَ] من صفة الكافرين الذين توعدهم قَبْلُ ، والمعنى : يؤثرون دنياهم وكفرهم وترك الإذعان للشرع على رحمة الله تعالى وسكنى جنَّته ، وقوله : [يَصُدُّونَ] يحتمل أن يتعدى وأن يقف ، والمعنى على كلا الوجهين مستقل ، تقول : «صدَّ زيد» و «صدَّه غيره» ، ومن تعديته قول الشاعر :

صَدَدْتِ الْكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو وكانَ الْكَأْسُ مجْرَاها الْيَمِينَا(٣)

و ﴿ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ طريقة هداه وشرعه الذي جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الآية (١) من سورة (المطففين) .

(٢) ويجوز في إعراب [الذينَ] أن يكون مبتدأ خبره ﴿ أولَـٰئِكَ في ضَلالٍ بَعيدٍ ﴾. ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أي : هم الذين ، ويجوز أن يكون منصوباً بفعل مضمر تقديره : أذُمُّ . أما إعرابه بدلا من (الْكَافِرِينَ) الذي ذكره ابن عطية فهو إعراب الحوفي ، واختاره الزمخشري وأبو البقاء ؛ ولكن أبا حيان الأندلسي اعترض عليه في «البحر المحيط» بأنه لا يجوز ، وعلَّل ذلك بأن فيه الفصل بين الصفة والموصوف بأجنبي منهما وهو قوله تعالى : ﴿ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ سواءٌ أكان ﴿ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ في موضع الصفة لـ [وَيْل] أم متعلقاً بفعل محذوف تقديره : يضجون أو يولولون من عذاب شديد .

(٣) البيت لعمرو بن كلثوم ، وهو الخامس من معلقته المشهورة : «ألا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينا» ، وقد سقط مع ثلاثة أبيات أخرى بعده من شرح الأنباري للقصائد السبع الطوال «مجموعة ذخائر العرب» تحقيق عبد السلام هارون ، ويروى : «صَبَنْتِ» بدلا من «صَدَدْتِ» ، يقول لها : لقد صرفت الكأس عنا ، وكان مجراها اليمينا فأجريتها على اليسار ، أي : تعَمَّدْتِ صرفها عنا . هذا وقد سبق الاستشهاد به .

وقوله : ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ يحتمل ثلاثة أوجه من التأْويل : أَظهرها أَن يريد : ويطلبونها في حالة عِوَج منهم ، ولا يُراعى إن كانوا بزعمهم على طريق نظر وبسبيل اجتهاد واتباع الأَحسن ، فقد وصف الله تعالى حالهم تلك بالعوج ، كأَنه قال : ويصدُّون عن سبيل الله التي هي بالحقيقة نبيلة ، ويطلبونها على عوج في النظر .

والتأْويل الثاني أَن يكون المعنى : ويطلبون لها عوجاً يظهر فيها ، أي : يسعون على الشريعة بأَقوالهم وأفعالهم ، فـ [عِوَجاً] مفعول .

والتأْويل الثالث أَن تكون اللفظة من البغْي على معنى : ويبغون عليها أو فيها عوجاً ، ثم حذف الجار ، وفي هذا بعض القلق .

وقال كثير من أَهل اللغة : العِوَجُ بكسر العين ـ في الدِّين والأُمور ، وبالجملة في المعاني ، والعَوَجُ بفتح العين في الأَجرام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويعترض هذا القانون بقوله تعالى : ﴿فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً ، لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً﴾[1] ، وقد تتداخل اللفظة مع الأُخرى . ووصْف الضلال بالبُعد عبارة عن تعمُّقهم فيه وصعوبة خروجهم منه .

(١) الآيتان (١٠٦ ، ١٠٧) من سورة (طه) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ ﴾

هذه الآية رَدٌّ وطعن على المُسْتَغْرِبين أمْر محمد صلى الله عليه وسلم ، أي : لستَ يا محمد ببدع من الرسل ، وإنما أرسلناك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور على عادتنا في رسلنا في أن نبعثهم بألسنة أممهم ليقع التكلم بالبيان والعبارة المتمكنة ، ثم يكون تبايُن الناس من غير أهل اللسان عيالًا في التَّبْيين على أهل اللسان الذي يكون للنبي عليه الصلاة والسلام ، وجعل الله العلة في إرسال الرسل بألسنة قومهم طلب البيان ، ثم قطع[1] قوله : [فَيُضِلُّ] ، أي أن النبي عليه الصلاة والسلام إنما غايته أن

(١) أي أن النيّة الاستئناف لا العطف ولذلك رفع الفعل في [فَيُضِلُّ] ، ومثله قوله تبارك وتعالى : ﴿ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ ﴾ ، قال الفراء : « إذا رأيت الفعل منصوباً وبعده فعل قد نسق عليه بواو أو فاء أو ثم أوْ أوْ فإن كان يُشاكل معنى الفعل الذي قبله نسقته عليه ، وإن رأيته غير مشاكل لمعناه استأنفته فرفعته » .

يُبلِّغ ويُبَيِّن ، وليس فيما كلف أن يهدي ويضل ، ذلك بيد الله ينفذ فيه سابق قضائه ، وله في ذلك العزَّة التي لا تعارض ، والحكمة التي لا تُعَلَّل ، لا ربَّ غيره .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فإن اعترض أعجمي بأن يقول : من أين يبيّن هذا الرسول لي الشريعة وأنا لا أفهمه ؟ قيل له : أهل المعرفة باللسان يعبّرون لك ، وفي ذلك كفايتك ، وإن قال : من أين يتبيَّن لي المعجزة وأفهم الإعجاز وأنا لا أفهم اللغة ؟ قيل له : الحجة عليك إذْعان أهل الفصاحة والذين كانوا يُظَنُّ بهم أنهم قادرون على المعارضة ، وبإذعانهم قامت الحجة على البشر ، كما قامت الحجة في معجزة موسى بإذعان السَّحرة ، وفي معجزة عيسى بإذعان الأطباء .

و «اللِّسان» ـ في هذه الآية ـ يُراد به اللغة [1] ، وقرأ أبو السَّمَّال : «بِلِسْنِ قَوْمه» بسكون السين دون الألف ، كرِيْش ورياش ، ونقول :

(١) ومنه قول الشاعر :

« أَتَتْني لِسَانُ بَني عامِرٍ »

يعني لغة بني عامر ، وقد ذهب بها إلى الكلمة فأنثها ، وقال أعشى باهلة :

« إنِّي أتاني لِسانٌ لا أُسَرُّ بِهِ »

ذهب إلى الخبر فذكّره .

لِسْن ولِسَانٌ في «اللغة» ، فأما العضو فلا يقال فيه : لِسْن بسكون السين [١] .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى﴾ الآية . آيات الله هي العصا ، واليد ، وسائر التِّسع [٢] . وقوله : ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ ، تقديره : بأن أخرج ، ويجوز أن تكون [أنْ] مفسِّرةً لا موضع لها من الإعراب [٣] ، وأما «الظُّلمات والنُّور» هنا فيحتمل أن يراد بها : من الكفر إلى الإيمان ، وهذا على ظاهر أمر بني إسرائيل في أنهم كانوا قبل بعث موسى فيهم أشياعاً متفرقين في الدين ففرع مع القبط في عبادة فرعون ، وكلهم على غير شيء ، وهذا مذهب الطبري ، وحكاه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وإن صحَّ أنهم كانوا على دين إبراهيم وإسرائيل أو نحو هذا فالظلماتُ : الذل أو العبودية ، والنور : العزَّة بالدين والظهور بأمر الله تبارك وتعالى .

(١) وقرأ أبو رجاء ، وأبو المتوكل . والجحدري : [لُسُن] بضم اللام والسين ، وهو جمع لسانٍ كعمادٍ وعُمُد ، وقرئ أيضاً بضم اللام وسكون السين ، كرُسُل ورُسْل .

(٢) الآيات التسع هي : الطوفان . والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدَّم ، والعصا ، ويده البيضاء ، والسنين ، والنقص في الثمرات .

(٣) فتكون بمعنى «أيْ» . كقوله تعالى : ﴿وانْطَلَقَ المَلأُ مِنْهُم أنِ امْشُوا﴾ بمعنى : أي امشوا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وظاهر هذه الآية وأكثر الآيات في رسالة موسى عليه السلام أنها إنما كانت إلى بني إسرائيل خاصة في معنى الشرع لهم ، وأمرهم ونهيهم بفروع الديانة ، وإلى فرعون وأشراف قومه في أن ينظروا ويعتبروا في آيات موسى فيقرّوا بالله تعالى ويؤمنوا به وبموسى وبمعجزته ، ويتحققوا نبوته ، ويرسلوا معه بني إسرائيل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا يترتب هذا منهم إلا بالإيمان به .

وَأَمَّا أن تكون رسالته إليهم لمعنى اتّباعه والدخول في شرعه فليس هذا بظاهر القصة ، ولا كشف الغيب ذلك ، ألا ترى أن موسى عليه السلام خرج عنهم ببني إسرائيل ، فلو لم يُتبع لمضى بأُمته ؟ وألا ترى أنه لم يَدْعُ القبط بجملتهم وإنما كان يحاور أُولي الأمر ؟ وأيضاً فليس دعاؤُه لهم على حدّ دعاء نوح وهود وصالح ــ عليهم السلام ــ أُممهم في معنى كفرهم ومعاصيهم ، بل في الاهتداء والتّزكي وإرسال بني إسرائيل ، ومما يؤيد هذا أنه لو كانت دعوته لفرعون والقبط على حدّ دعوته لبني إسرائيل فلم كان يطلب بأمر الله أن يرسل معه بني إسرائيل ؟ بل كان المطلوب أن يؤمن الجميع ويتشَرَّعوا بشرعه ويستقرّ الأمر ، وأيضاً فلو كان مبعوثاً إلى القبط لردَّه الله إليهم حين أغرق فرعون وجنوده ، ولكن لم يكونوا أُمته فلم يُرَدّ إليهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واحتجَّ من ذهب إلى أن موسى عليه السلام بُعث إلى جميعهم بقوله تعالى في غير آية : ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾[1] ، و ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾[2] والله أعلم .

وقوله : ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ ٱللَّهِ﴾ الآية . أَمَرَ ٱللَّهُ عزَّ وجلَّ موسى أن يعظ قومه بالتهديد بنقم الله التي أحلَّها بالأُمم الكافرة قبلهم ، وبالتَّعديد لنعمه عليهم في المواطن المتقدمة ، وعلى غيرهم من أهل طاعته ، ليكون جَرْيُهُم على منهاج الذين أنعم الله عليهم ، وهربهم من طريق الذين حلَّت بهم النقمات ، وعُبِّر عن النِّعم والنِّقم بالأيام إذْ هي في أيام[3] ، وفي هذه العبارة تعظيم هذه الكوائن المُذَكَّر بها ، ومن هذا المعنى قولهم : يومٌ عصيب ، ويوم عبوسٌ ، ويوم بسَّام ، وإنما الحقيقة وصف ما وقع فيه من الشِّدَّة أو السرور ، وحكى الطبري

(١) تكررت في الآيات : (١٠٣ من الأعراف ، و ٧٥ من يونس ، و ٩٧ من هود ، و ٤٦ من المؤمنون ، و ٣٢ من القصص ، و ٤٦ من الزخرف) .

(٢) من الآية (١٢) من سورة (النمل) .

(٣) إطلاق الأيام على النقم والبلايا مشهور وكثير في كلام العرب ، وكانوا يطلقون الأيام على الوقائع والحروب ، كيوم ذي قار ، ويوم الفجار ، ويوم فضة ، ويوم حليمة ، ومن ذلك قول الشاعر :

وأيامُنا مَشْهُورَةٌ في عَدُوِّنَا

وإذا كانت أيام الوقائع بلايا على المغلوب ، فهي نعم على الغالب المنتصر ، وكانوا يفخرون بها ويذكرونها على أنها نعم الله عليهم ، قال عمرو بن كلثوم :

وأيَّـــامٍ لَنَـــا غُرٍّ طِـــوَالٍ عَصَيْنَا المَلْكَ فيها أن نَدِينَا

فأيامهم غُرٌّ لعُتُوِّهم على الملك وامتناعهم عليه ، وهي طوالٌ على أعدائهم ، وبهذا الفهم لمعنى البيت قد يكون من الصعب تفسير الأيام بأنها نعم الدنيا .

عن فرقة أنها قالت : أيام الله : نِعَمُه ، وعن فرقة أنها قالت : أيام الله : نِقَمُه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولفظة «الأيام» تعم المعنَيَيْن ، لأن التذكير يقع بالوجهين جميعاً .

وقوله سبحانه : ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ إنما أراد : لكل مؤمن ناظر لنفسه ، فأخذ من صفات المؤمن صفتين تجمعان أكثر الخصال ، وتعُمَّان أجمل الأفعال (١) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

(١) في الأصول : «فأخذ من صفات (المؤمنين) صفتين (تجمع) أكثر الخصال ، (وتعمّ) أجمل الأفعال» ، وهي عادة لابن عطية .

هذا من التذكير بأيام الله في النعم ، وكان يوم الإنجاء عظيماً لعظم الكائن فيه ، وقد تقدم تفسير هذه الآية وقصصها بما يغني عن إعادته [(١)]، غير أن في هذه الآية زيادة الواو في قوله : [وَيُذَبِّحُونَ] وفي البقرة : [يُذَبِّحُونَ] بغير واو عطف ، فهنالك فسر «سوء العذاب» بأنه التذبيح والاستحياء ، وهنا دلَّ بـ «سوء العذاب» على أنواع غير التذبيح والاستحياء ، وعطف التذبيح والاستحياء عليها . وقرأ ابن محيصن : [وَيَذْبَحُونَ] بفتح الياء والباءُ مخففة .

و «الْبَلاَءُ» في هذه الآية يحتمل أن يريد به المحنة ، ويحتمل أن يريد به الاختبار ، والمعنى متقارب .

و [تَأَذَّنَ] بمعنى : أَذَّن ، أي : أعلم ، وهو مثل : أَكْرم وتكرم ، وأَوْعد وتوعَّد ، وهذا الإعلام منه مقترن بإنفاذ وقضاء قد سبقه ، وما في «تَفَعَّل» هذه من المحاولة والشروع إذا أُسندت إلى البشر منفيٌّ في جهة الله تعالى ، وأما قول العرب : تَعلَّم بمعنى : اعْلَم فمرفوض الماضي على ما ذكر يعقوب ، كقول الشاعر :

تَعَلَّمْ ـ أَبَيْتَ اللَّعْنَ ـ . . . . (٢)

ونحوه .

(١) تقدم ذلك في تفسير الآية (٤٩) من سورة (البقرة) ، والآية (١٤١) من سورة (الأعراف) ، ولكن اللفظ في سورة (الأعراف) هو [يُقَتِّلُونَ] ، أما في سورة (البقرة) فهو [يُذَبِّحُونَ] بدون واو ، ولفظ القتل أعم إذ يشمل الذبح وغيره .

(٢) سبق أن شرح ابن عطية معنى [تأذّن] في سورة الأعراف . واستشهد بهذا الجزء من البيت ، راجع الجزء السادس صفحة ١٢٣ وما بعدها . والعرب تضع تَفَعَّل موضع أَفْعَل، فقالوا : أَوْعَدْته وتَوَعَّدْته بمعنى واحد . والبيت المشهور في هذا هو قول القطامي :

تَعَلَّمْ أَنَّ بعْدَ الغَيِّ رُشْداً وأَنَّ لِـــذلِكَ الغُبَرِ انْقِشاعاً

وقال بعض العلماء : الزِّيادة على الشكر ليست في الدنيا ، وإنما هي من نعم الآخرة . والدنيا أهون من ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وصحيح جائز أن يكون ذلك ، وأن يزيد الله تعالى المؤمن على شكره من نعم الدنيا ، وأن يزيده أيضاً منهما جميعاً ، وفي هذه الآية تَرْجية وتخويف ، ومما يقضي بأن الشكر متضمن الإيمان أنه عادله بالكفر ، وقد يحتمل أن يكون الكفر كفر النعم لا كفر الجحد ، وحكى الطبري عن سفيان وعن الحسن أنهما قالا : معنى الآية : لئن شكرتم لأزيدنكم من طاعتي ، وضعفه الطبريّ ، وليس كما قال ، بل هو قويٌّ حسَنٌ فتأمله ، وقوله : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾ هو جواب قَسَم يتضمنه الكلام .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ الآية . في هذه الآية تحقيرٌ للمخاطبين بشرط كفرهم وتوبيخٌ ، وذلك بيِّن في الصفتين اللتين وصف بهما نفسه تبارك وتعالى في آخر الآية ، وقوله : [لَغَنِيٌّ] يتضمن تحقيرهم وعظمته ، وقوله : [حَمِيدٌ] يتضمن توبيخهم ، وذلك أنه بصفة توجب المحامد كلها دائماً كذلك في ذاته لم يزل ولا يزال ، فكفركم أنتم بإله هذا حاله غاية التخلف والخذلان ، وقوله أيضاً : [حَمِيدٌ] يتضمن أنه ذو آلاءٍ عليكم أيها الكافرون به كان يستوجب بها حمدكم ، فكفركم به مع ذلك أذهب في الضلال ، وهذا توبيخ بيِّن .

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ الآية . هذا من التذكير بأيام الله في النقم من الأمم الكافرة . وقوله : ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ من نحو قوله : ﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾[1] . وفي مثل هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كذب النَّسابون من فوق عدنان)[2] ، ورُوي عن ابن عباس أنه قال : «كان بين زمن موسى وبين زمن نوح قرون ثلاثون لا يعلمهم إلا الله» ، وحكى عنه المهدوي أنه قال : «كان بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يُعرفون» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا الوقوف على عدتهم بعيد . ونفْي العلم بها جملة أصح ، وهو لفظ القرآن .

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ بحسب احتمال اللفظ ، و «الأيدي» في هذه الآية قد تُتَأَوَّل بمعنى الجوارح ، وقد تُتَأَوَّل بمعنى أيدي النعم فيما ذكر ، وعلى أن «الأَيدي» هي الجوارح يكون المعنى : رَدُّوا أيدي أنفسهم في أفواه أنفسهم عضًّا عليها من الغيظ

(١) من قوله تعالى في الآية (٣٨) من سورة (الفرقان) : ﴿وَعَاداً وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾ .

(٢) أخرجه ابن سعد ، وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة في الجامع الصغير ، ولفظه فيه : (كذب النَّسابون ، قال الله تعالى : ﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾).

على الرُّسل ، ومبالغةً في التكذيب ، هذا قول ابن مسعود ، وابن زيد ، وقال ابن عباس : عجبوا ففعلوا ذلك ، والعض من الغيظ مشهور[١] ، وفي كتاب الله عزّ وجلّ : ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[٢] ، وقال الشاعر :

قَدْ أَفْنَى أَنَامِلَهُ أَزْمَةً فَأَضْحَى يَعَضُّ عَلَيَّ الْوَظِيفَا[٣]

وقال الآخر :

لَوْ أَنَّ سَلْمَى أَبْصَرَتْ تَخَدُّدِي وَدِقَّةً في عَظْمِ سَاقِي وَيَدِي
وَبُعْدَ أَهْلِي وَجَفَاءَ عُوَّدِي عَضَّتْ مِنَ الْوَجْدِ بِأَطْرَافِ الْيَدِ[٤]

ومما ذُكر أن يكون المعنى أنهم ردُّوا أيدي أنفسهم في أفواه أنفسهم إشارةً على الأنبياء بالسكوت ، واستبشاعاً لما قد قالوه من دعوى النبوة ،

(١) في إحدى النسخ زيادة : «من البشر» .
(٢) من الآية (١١٩) من سورة (آل عمران) .
(٣) الأنامل : جمع أنْمُلَة : عُقْدَة الإصبع أوْ سُلامَاهَا ، وتطلق أيضاً على المفصل الأعلى من الإصْبَع وهو الذي فيه الظفر ، وأزمةً : عَضّاً ، يقال : أزَمَ على الشيء أزْماً : عضّ بالفم عضّاً شديداً ، والوظيف لكل ذي أربع : ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق ، وفي اليد : ما بين الرسغ والذراع ، والجمع : أوْظِفَة . والبيت غير منسوب . والمعنى أنه قطع أنامله من شدة العضّ عليها ، وانتقل إلى عض وظيفه بعد ذلك .
(٤) التَّخَدُّد : أن يَتَغَضَّن الجلد من شدة الهزال ، يقال: رجل مُتَخَدِّد ، وامرأة متخدِّدة : مهزول قليل اللحم ، والجفاء : الإعراض والقطيعة ، والعُوَّد : جمع عائد ، وهو الذي يزور المريض ، والوجْد : الحزن ، يقول : لو أنها رأت هزالي وضعفي ونحول جسمي مع بُعْد الأهل وقطيعة الأحبة والزائرين لعضَّت يدها من شدة الحزن عليَّ والرثاء لحالي .

ومما ذكر أن يكون المعنى : ورَدُّوا أيدي أنفسهم في أفواه الرُّسل تسكيناً لهم ، ودفعاً في صدر قولهم ، قاله الحسن ، وهذا أشنع في الردّ وأذهب في الاستطالة على الرسل والنيل منهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتحتمل الألفاظ معنى رابعاً ، وهو أن يُتجَوَّز في لفظ الأيدي ، أي أنهم ردُّوا أقوالهم ومكافحتهم ومدافعتهم فيما قالوه بأفواههم من التكذيب ، فكأن المعنى : ردُّوا جميع مدافعتهم في أفواههم ، أي في أقوالهم ، وعُبِّر عن جميع المدافعة بالأيدي إذ الأيدي موضعُ أشد المدافعة والمرادّة ، وحكى المهدوي قولا ضعيفاً ، وهو أن المعنى : أخذوا أيدي الرسل فجعلوها في أفواه الرسل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا عندي لا وجه له .

ومما ذكر على أن «الأيدي» أيادي النعم ما ذكره الزجاج ، وذلك أنهم ردُّوا الأيدي من الرسل في الإنذار والتبليغ بأفواههم ، أي بأقوالهم ، فوَصَل الفعلُ بـ (في) عِوَضَ وصوله بـ (الباء)[1] ، ورُوي نحوه عن مجاهد ،

---

(١) معنى هذا الرأي : «أنهم كذبوا الرسل بأفواههم» ، ولكن التعبير جاء بـ (في) بدلا من (الباء) فقال : «في أفواههم» بدلا من «بأفواههم» ، وذلك لأن (في) تأتي بمعنى (الباء) ، تقول: جلست في البيت وبالبيت ، قال الفراء : قد وجدنا من العرب من يجعل =

وقتادة . والمشهور جمع «يد» النعمة على «أيادٍ» ، ولا يجمع على «أيدٍ» ، إلا أن جمعه على «أيدٍ» لا يكسر باباً ولا ينقض أصلا ، وبحسبنا أن الزجّاج قدّره وتأوّل عليه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل اللفظ — على هذا — معنى ثانياً ، أن يكون المقصود : ردُّوا إنعام الرسل في أفواه الرسل ، أي لم يقبلوه ، كما تقول لمن لا يُعجبك كلامه : أمْسِك يافلان كلامك في فِيك ، ومن حيث كانت أيدي الرسل أقوالا ساغ هذا فيها ، كما تقول : كسرتُ كلام فلان في فمه ، أي : رَدَدْتُه عليه وقطعته بقلَّة القبول وبالردّ ، وحكى المهدوي عن مجاهد أنه قال : معناه : ردُّوا نعم الرُّسل في أفواه أنفسهم بالتكذيب والنَّجْه [1] .

وقوله تعالى : ﴿لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ يقتضي أنهم شكُّوا في صدق نبوتهم وأقوالهم وكذبوها ، وتوقفوا في إمضاء أحد

— (في) موضع (الباء) ، فتقول : أدخلك الله بالجنة ، تريد : في الجنة ، وأنشدني بعضهم :

وأرْغَبُ فيها عَنْ لقَيطٍ ورَهْطِه ... ولكِنَّني عَنْ سِنْبِسٍ لسْتُ أرْغَبُ

فقال : «أرغب فيها» يعني بنْتاً له ، أي أني أرْغَبُ بها عن لقيط ، وسِنْبِس : حيٌّ من طيِّء ، وهي قبيلته ، ولهذا فهو لا يرغب بها عن قبيلته .

(١) النَّجْهُ : الرَّدُّ القبيح جداً ، يقال : نَجَهَه فلاناً نَجْهاً : رَدَّه أقْبَح رَدٍّ .

المعتقدين ، ثم ارتابوا بالمعتقد الواحد في صدق نبوته ، فجاءهم شك مؤكد بارتياب ، وقرأ طلحة بن مصرف : ﴿مِمَّا تدْعُونَّا﴾ بنون واحدة مشددة [1] .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله : ﴿أَفِي ٱللَّهِ﴾ مُقدَّر فيه ضمير ، تقديره عند كثير من النحويين: أفي إلٰهيَّته شك ؟ وقال أبو علي الفارسي : أفي وحدانيته شك ؟

---

(١) معنى ذلك أنه يدغم نون الرفع في الضمير كما تُدغم في نون الوقاية في مثل : ﴿أَتُحَاجُّونِّي في الله﴾ ، وقوله تعالى : [مُرِيبٍ] صفة توكيدية . ومعناها : موجب للرِّيبة ، يقال : أرَبْتُهُ إذا فعلت أمراً أوجب ريبةً وشكاً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وزعم بعض الناس أن أبا عليٍّ إنما فزع إلى هذه العبارة حفظاً للاعتزال ، وزوالا عما تحتمله لفظة « الالٰهية » من الصفات بحسب عمومها ، ولفظة الوحدانية مخلصة من ذلك الاحتمال .

و « الْفَاطِر » : المخترع المبتدئ ، وسَوْقُ هذه الصفة احتجاج على الشَّاكِّين ، أي الشك فيمن هذه صفته ، فساق الصفة الّتي هي منصوبة لرفع الشك ، وقوله : ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ ، ذهب بعض النحاة إلى أنها [1] زائدة ، وسيبويه يأْبى أن تكون زائدة في الواجب ، ويراها للتبعيض ، وهو معنى صحيح ، وذلك أن الوعد وقع بغفران الشرك وما معه من المعاصي ، وبقي ما يستأْنف أحدهم بعد إيمانه من المعاصي مسكوتاً عليه ليبقى معه في مشيئة الله تعالى ، فالغفرانُ إنما يقدمه الوعد في البعض ، فصحَّ معنى [مِنْ] [2] .

وقوله : ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ، قد تقدم القول فيه في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ الآية [3] ، وجلبت

---

(١) الضمير في (أنّها) يعود على (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ والذي ذهب إلى زيادتها هو أبو عبيدة والأخفش ، والبصريون لا يجيزون ذلك إلا بشروط .

(٢) يعني أن الغفران يكون لما سبق من الذنوب حتى ولو كان الذنب شركاً بما معه من المعاصي ، أمّا ما يقع في المستقبل من الذنوب فليس داخلا في وعد الله ، بل هو مسكوت عنه ، وبهذا تكون (من) للتبعيض ، ويمكن أن يكون التبعيض بمعنى آخر هو أن الله يغفر ما بينه وبينهم من الذنوب ، وهو بعض ذنوبهم ، ويبقى بعض آخر من ذنوبهم وهو ما بينهم وبين العباد من المظالم .

(٣) الآية (٣٤) من سورة (الأعراف) . (راجع الجزء الخامس ، صفحة ٤٩٠)

هذه هناك بسبب ما يظهر بيْن الآيتين من التعارض . ويليق هنا أن نذكر مسألة المقتول : هل قُطع أجله أم ذلك هو أجله المحتوم عليه ؟ فالأول قول المعتزلة ، والثاني قول أهل السُّنَّة . فنقول : قول المعتزلة : «إنه لو لم يقتله لعاش . وهذا سبب القَوَد» ، وقالت فرقة من أهل السُّنَّة : «لو لم يقتله لمات حتف أنفه» . قال أبو المعالي : «وهذا كله تخبط . وإنما هو أجله الذي سبق في القضاء أنه يموت فيه على تلك الصفة ، فمحال أن يقع غير ذلك . فإن فرضنا أنه لم يقتله ، وفرضنا مع ذلك أن علم الله تعالى سبق بأنَّه لا يقتله بقي أمره في حيِّز الجواز في أن يعيش أو يقتل أو كيف ما كان علم الله تعالى سبق فيه».

وقول الكفرة : ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فيه استبعادٌ لبعثة البشر ، وقال بعض الناس : بل أرادوا إحالته . وذهبوا مذهب البراهمة [1] أو من يقول من الفلاسفة : إن الأجناس لا يقع فيها هذا التَّباين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وظاهر كلامهم لا يقتضي أنهم أغمضوا هذا الإغماض . ويدل على ما ذكرتُ أنهم طلبوا منهم الإتيان بآية وسلطان مبين ، ولو كانت بعثتهم عندهم محالا لما طلبوا منهم حجة ، ويحتمل أن طلبهم منهم

(١) البَـرَاهِمَة : طائفة من الهنود لا يجوّزون على الله تعالى بعث الأنبياء ، ويحرمون لحوم الحيوان ، والواحد : برهمي .

السلطان إنما هو على جهة التعجيز ، أي : بعثتكم محال وإلا فأتوا بسلطانٍ مبين ، أي : إنكم لا تفعلون ذلك أبداً . فيَتَقوَّى بهذا الاحتمال منحاهم إلى مذهب الفلاسفة .

قوله عزَّ وجلَّ : ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ ، المعنى : صدقتم في قولكم : «إنَّا بَشَرٌ» في الأشخاص والخلقة ، لكن تبَايَنَّا بفضل الله تعالى ومَنِّه الذي يختص به من يشاء ، ففارقوهم بالمعنى ، بخلاف قوله تعالى : ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾[(١)] فإنَّ ذلك في المعنى لا في الهيئة .

وقوله : ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ ، هذه العبارة إذا قالها الإنسان من نفسه ، أو قيلت له فيما يقع تحت مقدوره فمعناها النهي والحظر ، وإن كان ذلك فيما لا قدرة له عليه فمعناها نفي ذلك الأمر جملة ، وكذلك هذه الآية . وقال المهدوي : لفظها لفظ الحظر ومعناها النفي ، واللام في قوله : [فَلْيَتَوَكَّلْ] لام الأمر ، وقرأها الجمهور ساكنة ، وقرأها الحسن مكسورة ، وتحريكها بالكسر هو أصلها ، وتسكينُها طلب للتخفيف ، ولكثرة استعمالها ، وللفرق بينها وبين لام كي التي أُلزمت الحركة إجماعاً[(٢)] .

(١) الآية (٥٠) من سورة (المدثر) .

(٢) في الآيتين أمران بالتوكل . الأمر الأول وهو قوله تعالى : ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لاستحداث التوكل . والثاني وهو قوله تعالى : ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ للثبات على=

وقوله : ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الآية ، وقفهم الرسل على جهة التوبيخ على تعليل في ألّا يتوكلوا على الله وهو قد أنعم عليهم ، وهداهم طريق النجاة ، وفضلهم على خلقه ، ثم أقسموا أن يقع منهم الصبر على الإذاية في ذات الله تعالى ، و [مَا] في قوله : ﴿مَا آذَيْتُمُونَا﴾ مصدرية ، وهي حرف عند سيبويه بانفرادها ، إلا أنها اسمٌ مع ما اتصل بها من المصدر ، وقال بعض النحويين : «ما» المصدرية بانفرادها اسمٌ ، ويحتمل أن تكون [مَا] في هذا الموضع بمعنى الذي ، فيكون في [آذَيْتُمُونَا] ضمير عائد تقديره : آذيتموناه ، ولا يجوز أن يضمر به بسبب إضمار حرف الجر ، هذا مذهب سيبويه ، والأخفش يُجيز ذلك .

قوله عزّ وجلّ :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

...

= ما استحدثوه من توكلهم ، وقوله تعالى: [وَلَنَصْبِرَنَّ] جواب قسَم ، ويدل على سبْق ما يجب فيه الصبر ، بمعنى أنه لابد من حدوث شيء يحتاج إلى الصبر ، وهو هنا : الأذى .

قوله تعالى : ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ ، قالت فرقة : [أَوْ] هنا بمعنى : «إلَّا أن» ، كما هي في قول امرئ القيس :

فَقُلْتُ لَهُ لا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا ... نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا[١]

وتحتمل [أَوْ] في الآية أن تكون على بابها لوقوع أحد الأمرين ؛ لأنهم حملوا رسلهم على أحد الوجهين ، ولا يحتمل بيت امرئ القيس ذلك لأنه لم يحاول أن يموت فيعذر ، فتخلصت بمعنى «إلَّا أن» ولذلك نصب الفعل بعدها . وقالت فرقة : هي بمعنى «حتَّى» في الآية ، وهذا ضعيف ، وإنما يترتب ذلك في قوله : «لأَلْزَمَنَّك أو تقضيني حَقِّي» ، وفي قوله : «لا يقوم زيدٌ أو يقوم عمرو» ، وفي هذه المثل كلها يحسن تقدير «إلَّا أن» . والعوْدَةُ أبداً إنما هي إلى حالةٍ قد كانت ، والرُّسل ما كانوا

(١) من قصيدة له قالها حين ذهب إلى قيصر يطلب منه المساعدة على استرداد مُلكه والأخذ بثأر والده ممن قتلوه ، وقبله يقول :

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ ... وَأَيْقَنَ أَنَّا لاحِقَانِ بِقَيْصَرَا

فَقُلْتُ لَهُ لا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا ... نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

فقد رفع (نحاول) ونصب (نموت) على معنى : «إلا أن» .

ومثله قول الأحوص :

لا أَسْتَطِيعُ نُزُوعاً عَنْ مَوَدَّتِهَا ... أَوْ يَصْنَعَ الحُبُّ بِي غَيْرَ الَّذِي صَنَعَا

قال الفراء : ومن العرب من ينصب ما بعد (أو) ليؤذن نصبُه بالانقطاع عما قبله . وقال أعرابي حين عاد من سفر طويل فوجد امرأته قد ولدت له غلاماً فأنكره :

لَتَقْعُدِنَّ مَقْعَدَ القَصِيِّ ... مِنِّي ذِي القَاذُورَةِ المَقْلِيِّ

أَوْ تَحْلِفِي بِرَبِّكِ العَلِيِّ ... أَنِّي أَبُو ذَيَّالِكِ الصَّبِيِّ

قط في ملَّة الكفر ، فإنما المعنى : أو لتعودن إلى سكوتكم عنَّا إغفالا ، وذلك عند الكفار كونٌ في مِلَّتهم ، وخصَّص تعالى الظالمين من الذين كفروا إذ جائز أن يؤمن من الكفرة الذين قالوا المقالة ناسٌ ، فإنما توعَّد بإهلاك من خلص للظلم[١] .

وقوله تعالى : [وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ] الخطاب للحاضرين والمرادُ هُمْ وذريتهم ، ويترتب هذا المعنى في قوله : ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إلى أجلٍ مُسَمًّى﴾ ، أي : يؤخركم وأعقابكم ، وقرأ أبو حيْوة [لَيُهْلِكَنَّ] و [لَيُسْكِنَنَّكُمْ] بالياء فيهما[٢] . وقوله [مَقَامِي] يحتمل أن يريد به المصدر من القيام على الشيء بالقدرة ، ويحتمل أن يريد به الظرف لقيام العبد بين يديه في الآخرة ، فإضافته إذا كان مصدراً إضافةُ المصدر إلى الفاعل ، وإضافته إذا كان ظرفاً إضافة الظرف إلى حاضره . أي : مقام حسابي ، فجائز قوله : [مَقَامِي] ، وجائز لو قال : «مقامه» ، وجائز لو قال : «مقام العرض والحساب» ، وهذا كما تقول : «دار الحاكم ، ودار الحُكْم ، ودار المحكوم عليه» ، قال أبو عبيدة : [مَقَامِي] مجازُه : حيث أقيمُه بين يديَّ للحساب[٣] .

(١) وقيل : أراد بالظالمين المشركين ، قال تعالى : ﴿إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ .

(٢) اعتباراً بقوله : ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ ، إذ لفظه لفظ الغائب .

(٣) وقال الفراء في «معاني القرآن» : «معناه : ذلك لمن خاف مقامه بين يديَّ ، ومثله قوله تعالى : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ، معناه : رزقي إياكم ، والعرب تضيف أفعالها إلى أنفسها وإلى ما أُوقعت عليه ، فيقولون : ندمتُ على ضربي إياك -- وندمت على ضربك ، فهذا من ذلك» .

و «الاستفتاحُ» : طلب الحُكْم ، والفتَّاح : الحاكم ، والمعنى : إن الرُّسل استفتحوا ، أي : سأَلوا الله تعالى إنفاذ الحكم بنصرهم وتعذيب الكفرة ، وقيل : بل استفتح الكفارُ على نحو قول قريش : «عجِّل لنا قِطَّنا»[1] ، وعلى نحو قول أبي جهل في بدر : «اللَّهم أقْطَعُنَا للرحم ، وآتَانا بما لا نعرف فأَحِنْهُ الغداة»[2] هذا قول ابن دُريْد ، وقرأت فرقة : [واسْتَفْتِحُوا] بكسر التاءِ على معنى الأَمر للرسل ، قرأها ابن عباس ، ومجاهد ، وابن محيصن . و [خَاب] معناه : خسِر ولم ينجح ، و «الجَبَّارُ» : المتعظِّم في نفسه الذي لا يرى لأَحد عليه حقاً ، وقيل : معناه : الذي يجبر الناسَ على ما يكرهون .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا هو المفهوم من اللفظ . وعبَّر قتادة وغيره عن «الجبار» بأنه الذي يـأْبى أَن يقول : «لا إِلٰه إلا الله» ، و «العنيد» : الذي يعاند ولا ينقادُ .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ وَرَائِهِ﴾ ، ذكر الطبريُّ وغيره من المفسرين أن معناه : «من أمامه» ، وعلى ذلك حملوا قوله تعالى : ﴿وكَانَ وَرَاءَهُمْ

---

(١) يريدون : كتابَ حسابنا ، أو نصيبنا . وهي من الآية (١٦) من سورة (صٓ) .
(٢) أَحِنْه الغَداة : اجعل حَيْنَه (أي وقت وفاته) سريعاً في الغد .

ملكٌ ﴾(١)، وأنشد الطبريّ :

أَتُوعِدُونِي وراءَ بَنِي رِياحٍ كَذَبْتَ لتَقْصُرَنَّ يداكَ دُونِي (٢)

وليس الأمر كما ذكر ؛ و «الوراءُ» ها هنا على بابه ، أي : هو ما يأتي بعدُ في الزمان ؛ وذلك أن التقدير في هذه الحوادث بالأمام والوراء إنما هو بالزمان ، وما تقدم فهو أمامٌ ، وهو بين اليد ؛ كما يقال في التوراة والإنجيل : إنهما بين يدي القرآن ؛ والقرآن وراءهما على هذا ، وما تأخر في الزمان هو وراءَ المتقدم ؛ ومنه قولهم لِولَد الْولَد : الوراءُ ، وهذا الجبار العنيد وجودُه وكُفره وأعماله في وقت مًّا ، ثم بعد ذلك في الزمان يأتيه أمر جهنم ، قال : وتلخيص هذا أن يُشَبَّه الزمان بطريق تأتي الحوادث من جهته الواحدة متتابعة ، فما تقدم فهو أمام ؛ وما تأخر فهو وراءَ المتقدم ؛ وكذلك قوله : ﴿وكَانَ وَرَاءَهُمْ﴾ أيْ غَضْبُه وتَغَلُّبه يأتي بعد حذرهم وتحفظهم (٣) .

---

(١) من الآية (٧٩) من سورة (الكهف) .

(٢) هذا البيت لجرير ، وهو في الديوان ، وفي (مجاز القرآن) لأبي عبيدة ، وقد استشهد به الطبريُّ على أنَّ «دوني» بمعنى «عنِّي» عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ ، واستشهد به هنا على أن «وراء» بمعنى «أمام» ، فالمعنى على هذا : إنك توعدني أمام بني رياح وقد كذبت فستقصر يداك عني .

(٣) يشرح ابن عطية رأيه في أن «وراء» بمعنى «بَعْد» في الزمان ، ويردّ على الطبري بأدلة ، وهذا هو رأي أبو عبيدة ، وابن الأنباري أيضاً ، ومما يؤكد كلامهم قول النابغة :

حَلَفْتُ فلَمْ أتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وليْسَ وراءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَهْرَبُ

ويؤيد رأيَ الطبريُّ قطرب وأبو عبيدة أيضاً ، وكذلك الزمخشري إذ قال : معناها : من بين =

وقوله تعالى : ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ﴾ ، وليس بِمَاءٍ ، لكن لمَّا كان بدل الماء في العُرف عندنا[١] . ثم نعته بـ[صديدٍ] ؛ كما تقول : هذا خاتم حديد . و «الصَّديدُ» : القَيْحُ والدَّمُ ، وهو ما يسيل من أجساد أهل النار ، قاله مجاهد والضحاك .

وقوله : ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ عبارة عن صعوبة أَمْرِهِ عليهم[٢] ، وَيُرْوى أن الكافر يؤتى بالشربة من شراب أهل النار فيتكرهها ، فإذا أُدنيت منه شوت وجهه وسقطت فيها فروة رأسه ، فإذا شربها قطعت أمعاءه .

= يديه وأنشد :

عَسَى الكَرْبُ الذي أَمْسَيْتُ فيهِ يكونُ وراءهُ فَرَجٌ قَرِيبُ

وقال الشاعر :

أَلَيْسَ ورائي إنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي لُزُومُ العَصَا تُحْنَى عَلَيْهَا الأصابعُ ؟

وقال أبو عبيدة ، والأزهري : «وراء» من الأضداد ، وقال ثعلب : هي اسمٌ لما توارى عنك سواءٌ كان أمامك أم خلفك . وقيل : المعنى : من خَلْفِهِ ، أي في طلبه ، كما تقول : الأمر من ورائك ، أي : سوف يأتيك .

(١) يعني لمَّا كان بدل الماء أطلق عليه ماءٌ .

(٢) قوله تعالى : ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ معناه عند الفراء : «فهو يُسيغه» ، قال : «والعرب تجعل «لا يكاد» فيما قد فُعِل ، وفيما لم يُفعل ، فأما ما قد فُعِل فهو بيِّن هنا من ذلك ، لأن الله عزَّ وجلَّ يقول لِمَا جعله لهم طعاماً : ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ، طَعَامُ الأَثِيمِ ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ ؛ فهذا أيضاً عذاب في بطونهم يسيغونه ، وأما ما دخلت فيه (كاد) وهو لم يفعل فكقولك : ما أتيته ولا كِدت ، وكقوله تعالى : ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ فهو لا يراها ، لأنها لا تُرَى فيما هو دون هذا من الظلمات ، وكيف بظلمات قد وصفت بأشد الوصف» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا الخبر مفرق في آيات من كتاب الله (١) .

وقوله : ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي من كلِّ شعرةٍ في بدنه ؛ قاله إبراهيم التيمي ، وقيل : من جميع جهاته الست ؛ وقوله : ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ ، أي : لَا يُرَاحُ بالموت ؛ وباقي الآية كأَوَّلِها ؛ ووصْف العذاب بالغليظ مبالغة . وقال الفضيل بن عياض : العذابُ الغليظ : حبْسُ الأَنفاس في الأَجساد ؛ وقيل : إنَّ الضمير في [وَرَائِهِ] هنا هو العذابُ المتقدم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

اخْتُلِف في الشيء الذي ارتفع به [مَثَلُ] : فمذهب سيبويه أن التقدير : فيما يُتلى عليكم ، أَوْ يُقَصُّ مثلُ الذين كفروا ؛ ومذهب

(١) منها قوله تعالى : ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ . وقوله سبحانه : ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ .

الكسائي والفراءُ أنه ابتداءٌ وخبره [كَرمادٍ] ، والتقدير عندهم : مَثَل الذين كفروا كرماد ، وقد حكي عن الفراء أنه يرى إلغاء [مثل] ، وأن المعنى : الذين كفروا أعمالهم كرماد ، وقيل : هو ابتداءٌ ، و [أَعْمَالُهُم] ابتداءٌ ثانٍ ، و [كَرَمَادٍ] خبر الثاني ، والجملة خبر الأول ، وهذا عندي أرجح الأقوال ، وكذلك قامت : المُتَحَصِّل في النفس الذين كفروا ، هذه الجملة المذكورة ، وهي : أعمالهم كرمادٍ ، وهذا يطَّرد عندي في تقدير قوله تعالى : ﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ ، وشُبِّهت أعمال الكفرة ومساعيهم — في فسادها وقت الحاجة وتلاشيها — بالرماد الذي تذروه الريح وتفرقه لشدتها ، حتى لا يبقى أثر ، ولا يجتمع منه شيءٌ ، ووصَف اليومَ بالعَصُوف وهي من صفة الريح بالحقيقة لمَّا كانت في اليوم ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

وَقَدْ لُمْتِنَا يا أُمَّ غيلَانَ في السُّرَى وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمِ (١)

ومنه قول الآخر :

* يَوْمَيْنِ غَيْمَيْنِ وَيَوْماً شَمْساً * (٢)

---

(١) هذا البيت لجرير ، وهو في الديوان ٥٥٤ ، والخزانة ١—٢٢٣ ، وابن الشجري ١—٣٦، ٣٠١ ، والإنصاف ١٥١ ، والكامل ٧٠٠، وسيبويه ١ . ١٦٠ ، وأم غيلان هي بنت جرير ، والسُّرى: سير الليل ، والمطيُّ: جمع مطية ، وهي الراحلة يُمتطى ظهرها ، أي يُركب ، وأراد: ليلُ رُكَّاب المطيِّ ، يقول: دعي عنك اللوم ، فنحن لما نرجو من غِبِّ السُّرى لا نصغي إلى لومك وعذلك ، والشاهد فيه وصف الليل بالنوم اتساعاً ومجازاً .

(٢) البيت من الرَّجز ، وقد أنشده الفراء في « معاني القرآن » ، قال : « جعل العُصُوف تابعاً لليوم في إعرابه ، وإنما العُصوف للريح ، وذلك جائز على وجهين: أحدهما أن العصوف =

فأعمال الكفرة لتلاشيها لا يقدرون منها على شيء ، وقرأ نافع وحده ، وأبو جعفر : [الرِّيَاحُ] ، والباقون : [الرِّيحُ] بالإفراد ، وقد تقدم هذا ومعناه مستوفىً بحمد الله .

وقوله : [ذَٰلِكَ] إشارة إلى كونهم بهذه الحالة ، وعلى مثل هذا الغَرَر ، و ﴿ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ﴾ : الذي قد تعمق فيه صاحبه وأبْعَد عن لا حب النجاة . وقرأ ابن أبي إسحٰق ، وإبراهيم النَّخَعي ، وابن أبي بكر (١) : ﴿فِي يَوْمِ عَاصِفٍ﴾ بإضافة «يوم» إلى «عاصف» ، وهذا بيِّن .

= وإن كان للريح فإن اليوم يوصف به لأن الريح فيه تكون ، فجاز أن تقول : «يومٌ باردٌ ويومٌ حارٌ» ؛ وهنا وصف اليومين بالغيمين . وإنما يكون الغيم فيهما ، والوجه الآخر أن يريد : في يوم عاصف الريح ، فتحذف الريح لأنها قد ذكرت في أول الكلمة . كما قال الشاعر :

وَيُضْحِكُ عِرْفَانُ الدُّرُوعِ جُلُودَنَا إذا جاءَ يَوْمٌ مُظْلِمُ الشَّمْسِ كاسِفُ

يريد : كاسف الشمس .

هذا وقد نقل الطبري أن هذا من نعْت الريح خاصة ، «غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه ، وذلك أن العرب تُتْبِع الخفضَ الخفضَ في النعوت ، كما قال الشاعر :

تُرِيكَ سُنَّةَ وَجْهٍ غَيْرِ مُقْرِفَـــةٍ مَلْسَاءَ لَيْسَ بها خالٌ ولا نَـــدَبُ

فخفض «غير» إتباعاً لإعراب «الوجه» ، وإنما هي من نعت «السُّنَّة» ، والمعنى : «سُنَّة وجه غيرَ مقرفة» ، وكما قالوا : «هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ» اهـ ، فقد أتبعوا «خرب» لـ «ضَبٍّ» في الإعراب ، وهو في الحقيقة صفة للْجُحْر ، وإن كان ابن جني قد جعل كلمة «خَرِبٍ» نعتاً سببياً لـ «ضَبٍّ» المجرور ، وفاعله محذوفٌ ، فيكون التقدير : «خرب جُحْرُه» ؛ وعلى هذا فلا شذوذ في المثال ، والمسألة مشهورة بين النحويين . «راجع الخصائص لابن جني» .

(١) الذي أثبته أبو حيان في «البحر المحيط» أن هذه القراءة لابن أبي إسحق ، وإبراهيم ابن أبي بكر ، فتأمل الفرق .

وقرأ السُّلَمي : ﴿ أَلَمْ تَرْ ﴾ بسكون الراء ، بمعنى : « ألم تعلم » ، من رؤية القلب ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ ﴾ ، وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿ خَالِقُ ٱلسَّمَٰوَاتِ ﴾ ، فوجه الأول أنه فعل قد مضى فذكر ذلك ، ووجه الثاني أنه كـ ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[1] و ﴿ فَالِقُ ٱلإِصْبَاحِ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي : بما يحق في وجوده من جهة مصالح عباده ، وإنفاذ سابق قضائه ، ولتدلَّ عليه وعلى قدرته ، ثمَّ تَوَعَّدَ تبارك وتعالى بقوله : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ أي يعدمكم ويطمس آثاركم . وقوله: ﴿ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ يصح أن يريد : من فرق بني آدم ، ويصح غير ذلك . وقوله : ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أي بممتنـع .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً ﴾ معناه : صاروا بالبراز ، وهي

(١) من الآية (١) من سورة (فاطر) .
(٢) من الآية (٩٥) من سورة (الأنعام) .

الأَرض المتسعة كالبَراح والعَراء والخَبارِ [١] ، فاستعير ذلك ليوم القيامة ، وقوله : [تَبَعاً] يحتمل أن يكون مصدراً فيكون على نحو قولهم : «يوم عدل ويوم حرب» ، ويحتمل أن يكون جمع «تابع» على نحو «غايبٌ وغَيَبٌ» ، وهو تأْويل الطبري .

وفسَّر الناس [ٱلضُّعَفَاءُ] بالأَتْباع ، و «المستكبرين» بالقادة وأهل الرأي ، وقولهم : ﴿ مُغْنُونَ عَنَّا ﴾ من الغَناء ، وهي المنفعة التي تكون من الإنسان للآخر في الدفاع وغيره .

والأَلِف في قوله : [أَجَزِعْنَا] أَلِف التسوية وليست بأَلِف استفهام ، بل هي كقوله : ﴿ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُم ﴾ [٢] ، و «الْمَحِيصُ» : المفَرُّ والملجأُ . مأْخوذ من «حاص يحيص» إذا نفَر وفرَّ ، ومنه في حديث هرقل : (فحاصُوا حَيْصَة حُمُر الوحش إلى الأَبواب) [٣] ، وروي عن ابن زيد ، وعن محمد بن كعب أن أهل النار يقولون : إنما نال أهلُ الجنة الرحمة بالصبر على طاعة الله تعالى ، فلنصبر ، فيصبرون خمسمائة سنة فلا ينتفعون ، فيقولون : فلنجزع ، فيضجُّون ويصيحون

---

(١) الخَبارُ من الأرض : ما لان واسترخى وساخت فيه قوائم الدوابّ ، ويقال في المثل : «من تجنَّب الخَبارَ ، أَمِنَ العِثارَ» . (المعجم الوسيط - خَبَر) .

(٢) من الآية (٦) من سورة (البقرة) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب «بدء الوحي» ، وفي تفسير سورة النساء ، وأخرجه أبو داود ، والترمذي في الجهاد ، وهو حديث طويل . (راجع البخاري) .

ويبكون خمسمائة سنة أخرى فلا ينتفعون ، فيقولون هذا القول الذي في الآية[1] ، وظاهر الآية أنهم يقولونها في موقف العرض وقت البروز بين يدي الله تبارك وتعالى .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

المراد ها هنا «بالشيطان» إبليس الأقدم نفسه ، وروي في حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام من طريق عقبة بن عامر أنه قال : (يقوم يوم القيامة خطيبان : أحدهما إبليس ، يقوم في الكفرة بهذه الألفاظ ، والثاني عيسى بن مريم عليه السلام ، يقوم بقوله : ﴿ مَا قُلْتُ

---

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه في الآية ، وأخرج مثله ابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه عن كعب بن مالك رضي الله عنه ، رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيما أحسب في قوله : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ قال : يقول أهل النار ... الخ الحديث . (الدر المنثور) .

لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ الآية [١] وقال بعض العلماء : يقوم إبليس خطيب السوء الصادق بهذه الآية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فعلى معنى هذه الروايات يكون معنى قوله تعالى : ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أيْ : تعيَّن قومٌ لدخول النَّار ، وقومٌ لدخول الجنَّة ، وذلك كله في الموقف .

ورُوي في حديث أن إبليس إنما يقوم بهذه الألفاظ في النَّار على أهلها عند قولهم : ﴿ مَالَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ في الآية المتقدمة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فعلى هذه الرواية يكون معنى قوله تعالى : ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ ، أي : حصل أهل النار في النَّار ، وأهل الجنَّة في الجنَّة ، وهو تأويل الطبري . و «قُضِيَ» قد يُعبَّر بها في الأُمور عن فعل كقوله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ

---

(١) أخرج ابن المبارك في الزهد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، وابن عساكر بسند ضعيف عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا جمع الله الأولين والآخرين وقضى بينهم وفرغ من القضاء يقول المؤمنون قد قضى بيننا ربنا وفرغ من القضاء) وهو حديث طويل يأتي فيه أيضاً قول الكافرين وجدالهم مع إبليس . أما النَّص الذي ذكره ابن عطية فقد أخرجه ابن جرير ، وابن المنذر عن الشعبي رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾[١] ، وقد يُعبَّر بها عن عزم على أن يفعل كقوله : ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾[٢] .

و «الْوَعْد» في هذه الآية على بابه في الخير ، أي أن الله وعدهم النعيم إنْ آمنوا ، ووعدهم إبليسُ الظفر والأمل إنْ كذّبوا ، ومعلوم اقتران وعد الله بوعيده ، واتّفق أن لم يَتَّبعوا طلب وعد الله فوقعوا في وعيده ، وجاء من ذلك كأن إبليس أخلفهم .

والسلطان : الحُجَّة البيِّنة ، وقوله : ﴿ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ ﴾ استثناءٌ منقطع[٣] ، و [أَنْ] في موضع نصب ، ويصح أن تكون في موضع رفع على معنى : إلا أن النائب عن السلطان أنْ دعوتكم ، فيكون هذا في المعنى كقول الشاعر :

. . . .   تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[٤]

---

(١) من الآية (٤٤) من سورة (هود) .

(٢) من الآية (٤١) من سورة (يوسف) .

(٣) لأن دعاءه إياهم ليس من جنس السلطان وهو الحجة البيِّنة ، وقيل : هو استثناء متصل ، لأن القدرة على حمل الإنسان على الشيء تارة تكون بالقهر من الحامل ، وتارة تكون بتقوية الداعية في قلبه ، وذلك بإلقاء الوساوس إليه ، فهذا نوع من التسلط .

(٤) والضرب ليس من جنس التحية ، وكأن الشيطان قال ذلك لهم مبالغة في نفيه للسلطان عن نفسه ، كأنه قال : إنما يكون لي عليكم سلطان إذا كان مجرد الدعاء من السلطان ، وليس منه قطعاً ، هذا والشعر لعمرو بن معديكرب الزبيدي . والبيت بتمامه :

وَخَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهَا بِخَيْلٍ   تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

ومعنى قوله : ﴿ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ أي : رأيتم ما دعوتكم إليه ببصيرتكم ، واعتقدتموه الرأي ، وأتى نظركم عليه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذكر بعض الناس أن هذا المكان يبطل منه التقليد ، وفي هذه المقالة ضعف على احتمالها ، والتقليد وإن كان باطلا ففساده من غير هذا الموضع .

ويحتمل أن يريد بالسلطان في هذه الآية الغلبة والقدرة والملك ، أي : ما اضطررتكم ولا خوفتكم بقوة مني ، بل عرضت عليكم شيئاً فأتى رأيكم عليه .

وقوله : ﴿ فَلَا تَلُومُونِي ﴾ يريد بزعمه : إذ لاذنب لي ، ﴿ وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ في سوء نظركم وقلة تثبتكم ، فإنكم إنما أتيتم اتباعي عن بصيرة منكم وتكسُّب . و «المُصْرِخ» : المغيث ، والصَّـــارِخُ : المستغيث . ومنه قول الشاعر :

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَزِعٌ كانَ الصُّرَاخُ لَهُ قَرْعَ الظَّنَابِيبِ[1]

(١) البيت لسلامة بن جَنْدل ، وهو شاعر جاهلي مقلّ ، من شعراء الطبقة الثانية ، وهو فارس من فرسان تميم المعدودين ، والبيت من قصيدة له يرثي فيها شبابه وما كان فيه من فروسية ، ويقول في مطلعها :

أَوْدَى الشبابُ حميداً ذُو التَّعاجِيبِ أَوْدَى ، وذلِكَ شَأْوٌ غَيْرُ مَطْلُوبِ

والظَّنَابِيب: جمع ظُنْبُوب وهو عظم الساق ، وقرع الظنبوب هو أن يضرب الرجل ظنبوب =

فيقال : «صرخ الرَّجلُ وأصرخ غيره» ، وأما «الصَّريخُ» فهو مصدر بمنزلة البريح[1] ، ويوصف به كما يقال : «رجلٌ عَدْلٌ» ونحوه .

وقرأ حمزة ، والأعمش ، وابن وثاب : ﴿ بِمُصْرِخِيِّ ﴾ بكسر الياء تشبيهاً بياء الإضمار في قوله : بمصرخيه ، وردَّ الزجاج هذه القراءة وقال : هي رديئة مرذولة[2] ، وقال فيها القاسم بن معن : إنها صواب ، ووجهها أبو علي ، وحكى أبو حاتم أن أبا عمروٍ حسَّنها ، وأنكر أبو حاتم ذلك على أبي عمروٍ[3] .

=البعير ليتنوخ له فيركبه ، والمراد هنا سرعة الإجابة ، لأنهم يستجيبون للمستغيث الصارخ بإناخة الجمال للركوب ، فإذا تأخرت قرعوا ظنابيبها لتبرك بسرعة .

(١) يقال : قولٌ بريحٌ : مُصَوَّبٌ به ، قال الهُذَلِيّ :

فَإِنَّ ابْنَ تُرْنَى إِذَا جِئْتُكُمْ يُدَافِعُ عَنِّي قَوْلاً بَرِيحَا

(٢) في بعض النسخ : هي رديَّةٌ مردودة .

(٣) وقع خلاف كبير بين العلماء في هذه القراءة ، قال الفراء : «لعلَّها من وهم القراء طبقة يحيى ، فإنه قلَّ من سلم منهم من الوهم ، ولعلّه ظن أن الباء في [بِمُصْرِخِيِّ] خافضة للحرف كله ، والياء من المتكلم خارجة من ذلك» ، وقال أبو عبيد : «نراهم غلطوا ظنوا أن الباء تكسر ما بعدها» ، وقال الأخفش : «ما سمعتُ هذا من أحد من العرب ولا من النحويين» ، وقال النحاس : «صار هذا إجماعاً ، ولا يجوز أن يحمل كتابُ الله على الشذوذ» ، وحاول الزمخشري - مع اعترافه بضعفها - أن يستشهد لها ببيت مجهول (وقيل هو للأغلب العجلي) :

قَالَ لَهَا هَلْ لَكِ يَاتَافِيِّ قَالَتْ لَهُ مَا أَنْتَ بِالْمَرْضِيِّ

كأن الشاعر قدر ياء الإضافة ساكنة وقبلها ياءٌ ساكنة ، فحركها بالكسر لما عليه أصل التقاء الساكنين ، قال الزمخشري : «ولكن هذا غير صحيح ، لأن ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة=

وقوله : ﴿ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ ﴾ أي : مع الله في الطاعة التي ينبغي أن يُفْرد الله بها ، فـ [ما] مصدرية ، وكأنه يقول : إني الآن كافر بإشراككم إياي مع الله قبل هذا الوقت .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا تَبَرٍّ منه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾[(١)] ، ويحتمل اللفظ أن يكون إقراراً على نفسه بكفره الأقدم ، فتكون [ما] بمعنى الّذي ، يريد «الله» تعالى ، أي : خطيئتي قبل خطيئتكم فلا إصراخ عندي [(٢)] ، وباقي الآية بيِّن .

= حيث قبلها ألف نحو عصاي ، فما بالها وقبلها ياء؟ ؟ » ، وقال القاسم بن معن عن هذه القراءة: هي صوابٌ » ، وسأل حسين الجعفي أبا عمرو بن العلاء وذكر تلحين أهل النحو ، فقال : « هي جائزة » ، قال أبو حيان الأندلسي : « ولا التفات إلى إنكار أبي حاتم على أبي عمرو تحسينها ، فأبو عمرو إمامُ لغة ، وإمامُ نحو ، وإمامُ قراءة ، وعربي صريح ، وقد أجازها وحسَّنها ، وقدَّروا بيت النابغة :

عليَّ لعمروٍ نِعْمَةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ لِوالِدِهِ لَيْسَتْ بِذاتِ عَقَارِب

بخفض الياء من « عَلَيِّ » .

(١) من الآية (١٤) من سورة (فاطر) . ومثلها قوله تعالى : ﴿ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ .

(٢) يَرِدُ على هذا القول أن فيه إطلاق (ما) على الله تعالى ، و (ما) الأصح فيها أنها لا تطلق على آحاد من يعلم ويعقل .

وقرأ الجمهور : [وَأُدْخِلَ] على بناء الفعل للمفعول ، وقرأ الحسن : [وَأُدْخِلُ] على فعل المتكلم ، أي : يقولها الله تعالى (١) ، وقوله : ﴿مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ أي : من تحت ما علَا منها كالغُرف والمباني والأشجار وغيره ، و «الخلود» في هذه الآية على بابه في الدوام ، و «الإِذْنُ» هنا عبارة عن القضاء والإمضاء ، وقوله : [تَحِيَّتُهُمْ] مصدر مضاف إلى الضمير ، فجائز أن يكون الضمير للمفعول ، أي : تُحَيِّيهم الملائكة ، وجائز أن يكون الضمير للفاعل ، أي : يُحَيِّي بعضُهم بعضا ، و [تَحِيَّتُهُمْ] رفع بالابتداء ، و [سَلَامٌ] ابتداءٌ ثانٍ وخبره محذوف تقديره : عليكم ، والجملة خبر الأول ، والجميع في موضع الحال من الضمير في [خَالِدِينَ] ، أو يكون صفةً لـ [جَنَّاتٍ] .

(١) تثير هذه القراءة سؤالا هو : فبِمَ يتعلق قوله تعالى : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ ؟ لأن قوله : «أُدْخِلُهُمْ أنا بِإِذْنِ رِبِّهِم» كلام غير ملتئم ، وكان الظاهر أن يقال : أُدْخِلُهم بإذْني . وحاول الزمخشري أن يجيب عن ذلك فقال : «الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ بما بعده ، أي : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ بإذن ربهم ، يعني أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم» . وقال أبو حيان الأندلسي : «معنى كلام الزمخشري أن قوله ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ معمول لقوله : [تَحِيَّتُهُمْ] ، ولذلك قال : «إن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم» ، وهذا لا يجوز ؛ لأن فيه تقديم معمول المصدر المنحل بالفعل وبحرف مصدري عليه ، وهو غير جائز» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ بمعنى : ألم تعلم ، و [مَثَلًا] مفعول لـ [ضَربَ] ، و [كَلِمَةً] مفعول أول بها ، و «ضَرَبَ» هذه تتعدى إلى مفعولين ، لأنها بمنزلة «جَعَل» ونحوه ، إذ معناها : جعل ضربها ، وقال المهدوي : [مَثَلًا] مفعول ، و [كَلِمَةً] بدل منها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا على أنها تتعدى إلى مفعول واحد ، وإنما أوهم في هذا قلة التحرير في «ضرب» هذه . والكاف في قوله : [كَشَجَرَةٍ] في موضع الحال ، أي : مشبهة بشجرة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره : الكلمة الطيبة هي «لا إلٰه إلا الله» ، مثَّلها الله بالشجرة الطيبة وهي النخلة في قول أكثر

المتأولين ، فكأن هذه الكلمة أصلها ثابت في قلوب المؤمنين ، وفضلها وما يصدر عنها من الأفعال الزكية والخبيثة وما يتحصل عليها من عفو الله ورحمته هو فرعها يصعد إلى السماء من قِبَل العبد ، ويتنزل منها مِنْ قِبَل الله تبارك وتعالى . وقرأ أنس بن مالك : «ثابتٌ أَصْلُهَا»[١] ، وقالت فرقة : إنما مثَّل الله بالشجرة الطيبة المؤْمنَ نفسه ، إذ الكلمة الطيبة لا تقع إلا منه ، فكأن الكلام : كلمة طيبة قائلها ، وكأن المؤمن ثابت في الأرض ، وأفعاله وأقواله صاعدة ، فهو كشجرة فرعها في السماء ، وما يكون أبداً من المؤمن من الطاعة أو على الكلمة من الفضل والأجر والغفران هو بمثابة الأُكل الذي تأتي به كل حين ، وقوله عن الشجرة : ﴿ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَاءِ ﴾ أي : في الهواء نحو السماء ، وهذا كما تقول عن المستطيل : نحو الهواء ، وفي الحديث : (خَلَق الله آدم طوله في السماء ستون ذراعاً)[٢] ، والقيدودة : الطويل في غير سماء[٣] .

---

(١) في هذه القراءة أجريت الصفة على الشجرة لفظاً وإن كانت في الحقيقة للسَّبَبي ، أما في قراءة الجماعة فإن الثبوت أسند إلى السَّبَبي لفظاً ومعنى .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، وأخرجه الإمامان البخاري ومسلم ، عن أبي هريرة ، ولفظه كما في «الجامع الصغير» : (خلق الله آدم على صورته ، وطوله ستون ذراعاً ، ثم قال : اذهب فسلِّم على أولئك النَّفر -- وهم نفر من الملائكة جلوس -- فاستَمِع ما يحيونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فذهب فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه «ورحمة الله» ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم في طوله ستون ذراعاً ، فلم تزل الخلق تنقص بعده حتى الآن) ، وقد رمز له السيوطي بالصحة .

(٣) اختلفت الأصول في هذه الجملة ، ففي بعضها : «في سماء» ، وفي بعضها : «في غير سماء» ، كما أن كلمة «القيدودة» كتبت بالدال في بعض النسخ ، وبالراء في نسخ أخرى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كأنه انقاد وامتد ، وقال أنس بن مالك ، وابن مسعود ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد : الشجرة الطيبة في هذه الآية : النخلة ، ورُوي في ذلك أحاديث[1] ، وقال ابن عباس أيضاً : هي شجرة في الجنة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن تكون شجرة غير معينة إلا أنها كل ما اتّصف بهذه الصفات[2] فيدخل فيه النخلة وغيرها ، وقد شبّه الرسول عليه الصلاة

---

(١) منها ما روي عن أنس رضي الله عنه ، قال : أُتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقِناع من بسر — والقناع : الطبق من عسب النخل يوضع فيه الطعام والفاكهة — فقال : ﴿ مَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ حتى بلغ ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ قال : هي النخلة ، ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ حتى بلغ ﴿ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ قال : هي الحنظلة . أخرجه الترمذي ، والنسائي ، والبزار ، وابن جرير ، وغيرهم ، ومنها ما أخرجه البخاري ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وغيرهم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أخبروني بشجرة مثل الرجل المسلم ، لا يتحات ورقها ، وتؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها ؛ قال عبد الله رضي الله عنه : فوقع في نفسي أنها النخلة ، فأردت أن أقول : هي النخلة ، فإذا أنا أصغر القوم ، وثمّ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، فلما لم يتكلما بشيء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هي النخلة .

(٢) وصفت هذه الشجرة بصفات أربع : الأولى أنها طيبة ، أي : كريمة المنبت ، والثانية رسوخ أصلها ، وهذا يدل على تمكنها ، وعلى أن الرياح لا تقصفها ، وهي لهذا طويلة العمر ، والثالثة علوّ فرعها ، وذلك يدل على رسوخ عروقها في الأرض ، والرابعة أن ثمرها دائم مستمر ، وأن عطاءها لا ينقطع ، فهي تعطي جناها في كل وقت أراده الله سبحانه .

والسلام المؤمنَ الذي يقرأ القرآن بالأُتْرُجّة[١] ، فلا يتعذر أن يُشَبَّه أيضاً بشجرتها ، و «الأُكل» : الثَّمر ، وقرأ عاصم وحده : [أُكُلَهَا] بضم الكاف .

وقوله تعالى : ﴿ كُلَّ حِينٍ ﴾ ، الحينُ في اللغة : القطيع من الزمان غير محدود ، كقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾[٢] ، وقوله : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾[٣] ، وقد تقتضي لفظة «الحين» بقرينتها تحديداً كقوله في هذه الآية : ﴿ كُلَّ حِينٍ ﴾ ، وقال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والحَكَمُ ، وحَمَّاد ، وجماعة من الفقهاء ، قالوا : من حلف لا يفعل شيئاً حيناً فإنه لا يفعله سنة ، واستشهدوا بهذه الآية : ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ أي : كل سنة ، وقال ابن

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة ، وفي فضائل القرآن ، وفي التوحيد ، وأخرجه مسلم في المسافرين ، وأبو داود في الأدب ، وكذلك الترمذي ، والنسائي في الإيمان ، وابن ماجه في المقدمة ، والدارمي في فضائل القرآن ، والإمام أحمد في مسنده (٤ـ٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٨) ، ولفظه كما في البخاري في كتاب «فضائل القرآن» عن أبي موسى الأشعري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مثل الذي يقرأ القرآن كالأُتْرُجَّة ، طعمها طيب وريحها طيب ، والذي لا يقرأ القرآن كالتَّمرة ، طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ، ريحها طيب وطعمها مُرٌّ ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ، طعمها مُرٌّ ولا ريح لها) . والأُتْرُج : شجر يعلو ، ناعم الأغصان والورق والثمر ، وثمره كالليمون الكبار ، وهو ذهبيّ اللون ، زكي الرائحة ، حامض الماء . (المعجم الوسيط) .

(٢) من الآية (١) من سورة (الإنسان) .

(٣) الآية (٨٨) من سورة (ص) وهي آخر السورة .

عباس ، وعكرمة ، والحسن : أي كل ستة أشهر ، وقال ابن المُسَيَّب : الحينُ : شهران ، لأن النخلة تدوم مثمرة شهرين ، وقال ابن عباس أيضاً والضحاك ، والربيع بن أنس : ﴿ كُلَّ حِينٍ ﴾ أي : كل غدوة وعشية ومتى أُريد جناها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهكذا يشبهها المؤمن الذي هو في جميع أيامه في عمل ، والكلمة التي أَخرجها والصادر عنها من الأَعمال مستمر ، فيشبه أن الله تعالى إنما شبَّه المؤمن أو الكلمة بالشجرة في حال إثمارها ، إذ تلك أفضل أحوالها ؛ وتأْويل الطبري في ذلك أن أُكُل الطلْع في الشتاء ، وأن أُكل الثمر في كل وقت من أوقات العام هو إتيانُ أُكُل وإن فارق النخل ، وإن فرضنا التشبيه بها على الإطلاق وهي إنما تؤتي في وقت دون وقت فالمعنى : كشجرة لا تخل بما جعلت له من الإتيان بالأُكل في الأَوقات المعلومة ، فكذلك هو المؤْمن لا يُخل بما يُسِّر له من الأَعمال الصالحة ، أو الكلمة لا تغيب بركتها والأَعمال الصادرة عنها ، بل هي في حفظ النظام كالشجرة الطيبة في حفظ وقتها المعلوم ، وباقي الآية بيِّن .

ومَن قـال : «الحين سـنة» راعَى أن ثمر النخلة وجنـاها إنما يـأْتي كل سنة ، ومن قـال : «ستة أَشهر» راعى من وقت جَـداد النخلة(١) إلى حملها من الوقت المقبل ، وقيل : إن التشبيه وقع بالنخل الذي يثمر مرتين في العام ، ومن قال : «شهرين» قال : هي مدة الجني في النخل ، وكلهم أفتى بقوله في الإتيان على الحين (٢) .

وحكى الكسائي والفراءُ أن في قراءة أُبَيٍّ بن كعب : «وضرب اللهُ مَثَلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ»(٣) ، والكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر وما قاربها من الكلام السوقي في الظلم ونحوه ، ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ ، قال أكثر المفسرين : شجرة الحنظل ، قاله أنس بن مالك ، ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم (٤) ، وهذا عندي على جهة المثال ، وقالت فرقة : هي الثُّوْم ، وقال الزجاج : هي الكَشُوثَا (٥) .

---

(١) الجَداد : أوان قطع ثمر النخل .

(٢) يعني أن رأي كل واحد في معنى «الإتيان» متوقف على رأيه في معنى «الحين» .

(٣) نصُّ عبارة الفراء كما هي في كتابه «معاني القرآن» : «وهي في قراءة أُبي : (وضَرَبَ مَثَلا كلمةً خَبِيثَةً) كشجرة خبيثة ، وكلٌّ صواب» . أي بدون إضافة كلمة «مثل» إلى «الكلمة» .

(٤) راجع الحديث الذي رُوي عن أنس رضي الله عنه في أن المراد بالشجرة الطيبة النخلة ، هامش رقم (١) ص (٢٣٤) .

(٥) قال عنها أبو حيَّان في تفسيره «البحر المحيط» : «هي شجرة لا ورق لها ولا أصل» ، يقال : هي كَشُوثٌ ، أي : لا أصل ولا ثمر . وقال الشاعر :

وهُمْ كَشُوثٌ فلا أصْلٌ ولا ورَقٌ ولا نَسِيـمٌ ولا ظِلٌّ ولا ثَمَـرُ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعلى هذه الأقوال من الاعتراض أن هذه كلها من النَّجْم[١]، وليست من الشجر ، والله تعالى إنَّما مثَّل بالشجرة ، فلا تسمى هذه بشجرة إلَّا بتجوز ، فقد قال عليه الصلاة والسلام في الثوم والبصل : (من أكل من هذه الشجرة)[٢] ، وأيضاً فإن هذه كلها ضعيفة وإن لم تخبث ، اللَّهم إلا أن نقول : اجتثت بالخلقة .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « هذا مثل ضربه الله تبارك وتعالى ولم يخلق هذه الشجرة على وجه الأرض » . والظاهر عندي أن التشبيه وقع بشجرة غير معينة إذا وجدت فيها هذه الأوصاف ، فالخبث هو أن تكون كالعضاة أو كشجرة السموم ونحوها إذا اجتثت ، أي اقتلعت جثتها بنزع الأُصول ، وبقيت في غاية الوهن والضعف فتقلبها أقل ريح ، فالكافر يرى أن بيده شيئاً ، وهو لا يستقر ولا يغني عنه ، كهذه الشجرة التي يُظَن بها على بعد – أوللجهل بها – أنها شيءٌ نافع ، وهي خبيثة الجنى غير باقية .

---

(١) النَّجْم من النَّبات : مالا ساقَ له ، ويقال : ليس لهذا الشيء نَجْمٌ : أيْ أصْل .

(٢) الذي رواه البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه هو : (مَن أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا ، وليعتزل مسجدنا ، وليقعد في بيته) ، وهذا ما نقله السيوطي عنهما في « الجامع الصغير » ، وقال : هو حديث صحيحٌ ، ولا يوجد في اللفظ الذي رواه كل منهما كلمة « شجرة » ، ولعلها موجودة في رواية غيرهما .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾

القولُ الثابت في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة كلمة الإخلاص والنجاة من النار «لا إلٰه إلا الله» والإقرار بالنبوة ، وهذه الآية تعم العالم من لدن آدم عليه السلام إلى يوم القيامة . وقال طاوس ، وقتادة ، وجمهور من العلماء : ﴿ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ هي مدة حياة الإنسان ، ﴿ وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ هي وقت سؤاله في القبر ، وقال البراءُ بن عازب وجماعة : ﴿ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ هي وقت سؤاله في قبره ، ورواه البراءُ عن النبي صلى الله عليه وسلم في لفظ مُتَأَوَّل[1] ، لأَن ذلك في مدة

(١) الحديث جاء موقوفاً في بعض طرق مسلم عن البراء ، قال القرطبي : والصحيح فيه الرفع كما في صحيح مسلم ، وكتاب النسائي ، وأبي داود ، وابن ماجه ، وغيرهم ، وذكر البخاري بسنده عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا أُقعد المؤمن في قبره أتاهُ آت ، ثم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فذلك قوله : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفي الآخِرَةِ ﴾ ، وقيل: معنى =

وجود الدنيا ، وقوله : ﴿ وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ هو يوم القيامة عند العرض . والأَول أَحسن ؛ ورجَّحه الطبريُّ .

و «الظَّالِمُونَ» في هذه الآية : الكافرون ، بدليل أَنه عادل بهم المؤمنين ، وعادل التثبيت بالإِضلال ، وقوله : ﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ تقرير لهذا التقسيم المتقدم ، وكأَن امرءًا رأَى التقسيم فطلب في نفسه علّته فقيل له : ﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ بحق الملك ، وفي هذه الآية ردٌّ على القدرية . وذكر الطبريُّ في صفة مُساءلة العبد في قبره أَحاديث منها ما وقع في الصحيح ، وهي من عقائد الدين ، وأَنكرت ذلك المعتزلة ، ولم تقل بأَن العبد يُسأَل في قبره ، وجماعة السنة تقول : إن الله يخلق له في قبره إدراكات وتحصيلا ؛ إما بحياة كالمتعارفة وإما بحضور النفس وإن لم تتلبس بالجسد كالعرف ، كل هذا جائز في قدرة الله تعالى ، غير أَن في الأَحاديث أَنه يسمع خفق النعال ، ومنها أَنه يرى الضوء كالشمس دنت للغروب ، وفيها : أَنه يراجع ، وفيها : فتعاد روحه إلى جسده ؛ وهذا كله يتضمن الحياة ، فسُبْحَانَ ربِّ هذه القدرة .

= يُثَبِّت : يُديمهم الله على القول الثابت ، ومنه قول عبد الله بن رواحة :

يُثَبِّتُ الله مَا آتَـــاكَ مِنْ حَسَنٍ   تَثْبِيتَ مُوسى وَنَصْرًا كالَّذي نُصِرَا

وليس في الحديث ما يفيد أَن الحياة الدنيا هي في القبر ، وأَن الآخرة هي يوم القيامة ، وليس فيه أَيضاً ما يفيد العكس ، ولهذا قال ابن عطية : «في لفظ مُتأَوَّل» .

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ كُفْراً﴾ ، هذا تنبيه على مثال من الظالمين ، والتقدير : بدَّلوا شكر نعمة الله كفراً ، وهذا كقوله سبحانه : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[1]، ونعمة الله المشار إليها في هذه الآية هو محمد عليه الصلاة والسلام ودينه ، أنعم الله به على قريش فكفروا النعمة ولم يقبلوها وتبدلوا بها الكفر ، والمراد بالذين كفروا قريشٌ جملة ، وهذا بحسب ما اشتهر من حالهم ، وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم . وروي عن عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب أنها نزلت في الأَفْجَرَيْنِ من قريش : بني مخزوم وبني أُمية ، قال عمر : فأَمَّا بنو المغيرة فكفوا يوم بدر [2] ، وأما بنو أُمية فمُتِّعوا إلى حين ، وقال ابن عباس : هذه الآية في جَبَلَة بن الأَيْهَم[3] .

---

(١) الآية (٨٢) من سورة (الواقعة) ، والتقدير فيها : وتجعلون شكر رزقكم .

(٢) الكلام عن بني مخزوم ، والمراد أن الله أهلكهم يوم بدر وكفى المؤمنين شرَّهم .

(٣) في الأصول كلها : «جبلة بن إبراهيم» ، وهو خطأ واضح من النساخ ، والصواب ما أثبتناهُ ، وله قصة معروفة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد أسلم ، وأكرم عمر مقدمه ، وخرج للحج مع عمر ، فوطىء فزاري إزاره في الطواف ، فضربه جبَلَة فهشم أنفه ، فلما شكاه إلى عمر رضي الله عنه قال عمر : لابد من القود ، قال : هو من السوقة وأنا ملك ، قال عمر : الإسلام سوى بينكما ، قال : إذاً أتنصر ، قال عمر : أضرب عنقك لأنك مسلم مرتد ، فلما رأى الجد في كلام عمر رضي الله عنه هرب مع قومه إلى الشام وتنصر وعاش حزيناً نادماً في بلاط الروم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولم يُرِد ابن عباس أنها فيه نزلت ، لأن نزول الآية قبل قصته ، وإنما أراد أنها تخص مَنْ فَعَلَ فِعْلَ جَبَلَة إلى يوم القيامة .

وقوله : ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ﴾ أي : من أطاعهم وكان معهم في التبديل ، فكأن الإشارة والتعنيف إنما هو للرؤوس والأعلام ، و [الْبَوَار] الهلاك ، ومنه قول سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

يَا رَسُولَ الْمَلِيكِ إنَّ لِسَانِي   راتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ (١)

قاله الطبريُّ ، وقال هو وغيره : إنه يُرْوى لابن الزِّبعرى ، ويحتمل أن يريد بـ [الْبَوَار] الهلاك في الآخرة ففسَّره حينئذ بقوله : ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ ، أي : يحترقون في حرِّها ويحتملونه ؛ ويحتمل أن يريد بـ [الْبَوَار] الهلاك في الدنيا بالقتل والخزي فتكون «الدار» قَلِيبَ بدر ونحوه . وقال عطاء بن يسار : نزلت هذه الآية في قتلى بدر ؛ فيكون قوله : [جَهَنَّمَ] نصباً على حدِّ قولك : «زيداً ضربته» بإضمار فعل يقتضيه الظاهر ، و [الْقَرَار] موضع استقرار الإنسان .

(١) نسبه في (اللسان) إلى عبد الله بن الزِّبعرى السهمي ، وكذلك في سيرة ابن هشام أنشده ونسبه إلى ابن الزِّبعرى ضمن أبيات قالها حين قدم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان هارباً منه في نجران ، وقد ذكر ابن عطية أن الطبريّ وغيره ينسبون البيت أيضاً لابن الزِّبعرى ، والرَّاتق : الذي يصلح ما تمزق من الثوب ، وفَتَقَ : شقَّ وقطع ؛ والمراد هنا ما أحدث في الدين ، وما قاله من هجاء النبي بشعره ، وهذا كله إثم يشبه الفتق في الثوب ؛ والتوبة رَتْقٌ وإصلاح له ؛ وبورٌ : هالِكٌ ، يقالُ : رجلٌ بورٌ ، وكذلك الاثنان والجمع ؛ وقد استشهد أبو عبيدة في «مجاز القرآن» بهذا البيت منسوباً إلى ابن الزِّبعرى على أن البوار معناه الهلاك ، وأنه يقال منه : بار يبور .

و «الأنداد» جمع نِدٍّ ، وهو المثل والشبيه المناوئ ، والمراد الأصنام ، واللام في قوله : [لِيُضِلُّوا] بضم الياء لام كي ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [لِيَضِلُّوا] بفتح الياء ، أي هم أنفسهم ، فاللام – على هذا – لام عاقبة وصيرورة ، وقرأ الباقون بضمها ، أي : يُضِلُّوا غيرهم . وأَمْرُهم بالتمتع هو وعيد وتهديد على حدِّ قوله : ﴿ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [1] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

(١) من الآية (٤٠) من سورة (فُصِّلَت) ، ومثلها في الوعيد والتهديد قوله تعالى : ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ، هذا وقوله تعالى : [مَصِيرَكُمْ] معناه : مرجعكم ، فمصيركم مصدر من صار التامة بمعنى رجع ، وخبر [إنَّ] هو قوله تبارك وتعالى : ﴿إِلَى النَّارِ﴾ ، ولا يقال هنا إن «صار» بمعنى انتقل ولذلك تعدى بإلى ، لأنه بذلك تبقى [إنَّ] بدون خبر ، قال أبو حيَّان في «البحر» : «ولا ينبغي أن يُدَّعى حذفه فيكون التقدير : فإن مصيركم إلى النار واقع لا محالة ، أو كائنٌ ، لأن حذف الخبر في مثل هذا التركيب قليل» .

العباد : جمع عبدٍ ، وعرفه في التكرمة بخلاف العبيد[١] ، وقوله : ﴿يُقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ ، قالت فرقة من النحويِّين : جزْمه بإضمار لام الأمر على حدِّ قول الشاعر :

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كلُّ نَفْسٍ . . . .[٢]

أنشده سيبويه ، إلا أنه قال : إن هذا لا يجوز إلا في الشعر . وقالت فرقة ـ أبو عليٍّ وغيره ـ : هو فعل مضارع جزم لما كان في معنى فعل أمر ؛ لأن المراد : أقيموا ، وهذا كما يبنى الاسم المتمكن في النداء في قولك : «يا زيدُ» ، لما شُبِّه بـ «قبل وبعد»[٣] ، وقال سيبويه : هو جواب شرط مقدر يتضمنه صدر الآية ، تقديره : إن تقل لهم : أقيموا يقيموا .

---

(١) في (اللسان) : قال الأزهري : «اجتمع العامة على تفرقة ما بين عباد الله والمماليك ، فقالوا : هذا عبد من عباد الله ، وهؤلاء عبيد مماليك» ، وجعل بعضهم العباد لله ، وغيره من الجمع لله وللمخلوقين .

(٢) يقال : فدَيْتُهُ فِداءً وفِدىً ، وافتديته ، والبيت نُسب إلى أبي طالب ، وحسَّان ، والأعشى ، وليس في ديوان أحد منهم ، وهو في سيبويه ، والخزانة ، والعيني ، والأشموني ، وهو بتمامه :

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ إذَا مَا خِفْتَ مِنْ شَيْءٍ تَبَالا

والمعنى : كل النفوس فداءٌ للنبي صلى الله عليه وسلم ، والشاهد فيه أن «تَفْدِ» مجزوم بإضمار لام الأمر ، والتقدير : لِتَفْدِ نَفْسَكَ كلُّ نَفْسٍ . والتَّبال : سوءُ العاقبة .

(٣) ردَّ بعض العلماء هذا بقولهم : لو كان مضارعاً بلفظ الخبر ومعناه الأمر لَبَقي على إعرابه بالنون كقوله تعالى : ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ، ثم قال : ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ ، والمعنى : آمنوا بالله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يكون جواب الأمر الذي يعطينا معناه قوله : [قُلْ] ، وذلك بأن تجعل [قُلْ] في هذه الآية بمعنى بَلِّغ وأَدِّ الشريعة يقيموا الصلاة[1] ، وهذا كله على أن المقول هو الأمر بالإقامة والإنفاق ، ويظهر أن المقول هو الآية التي بعدُ ، أعني قوله : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ﴾ الآية . و «السِّرُّ» صدقةُ النَّفل ، والعلانية الصدقةُ المفروضة ، هذا هو مقتضى الأحاديث ، وفسَّر ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية بزكاة الأموال مجملًا ، وكذلك فسَّر الصلاة بأنها الخمس ، وهذا عندي منه تقريب للمخاطب .

و «الْخِلَال» مصدر من خالَّك إذا وَادَّ وصافى ، ومنه الخُلَّة والخليل ، قال امرؤُ القيس :

صَرَفْتُ الْهَوَى عَنْهُنَّ مِن خَشْيَةِ الرَّدَى وَلَسْتُ بِمَقْلِيِّ الْخِلَالِ وَلَا قَالِ[2]

(١) علّق عليه أبو حيان في تفسيره (البحر المحيط) بقوله : «هذا الذي ذهب إليه تفكيك للكلام يخالفه ترتيب التركيب ، ويكون قوله : ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ كلاماً مفلتاً من القول ومعموله ، أو يكون جواباً فُصل به بين القول ومعموله ، ولا يترتب أن يكون جواباً لأن قوله : ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لا يستدعي إقامة الصلاة والإنفاق إلا بتقدير بعيد جداً» .

(٢) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله :

أَلا عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصُرِ الْخَالِي

والمَقْلِيّ : المُبْغَض ، والقالي : المُبْغِض ، والخلال : الصفات ، يقول : إنه لم يدع حبَّ الحسان يتملكه خشية الهلاك ، وهو يريد الهلاك بالشهوة والضنى والتَّيَتُّم ، فإن هذا يقضي على الحبيب ، ثم يقول : إنه لم ينصرف عنهن لسوء في طباعه ، بل نجاة من الهلاك .

وقال الأخفش : الخِلالُ جمع خُلَّة . وقرأ نافع ، وعاصم ، وحمزة والكسائي ، وابن عامر : ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ بالرفع على إلغاء [لَا] ، وقرأ أبو عمرو ، والحسن ، وابن كثير : ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ بالنصب على التبرية ، وقد تقدم هذا ، والمرادُ بهذا اليوم يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ﴾ الآية تذكير بآلاء الله ، وتنبيه على قدرته التي فيها إحسانٌ إلى البشر لتقوم الحُجَّة من وجهين ، و [ٱللَّهُ] مبتدأٌ ، و [ٱلَّذِي] خبره ، ومن أُخبر بهذه الجملة وتقررت في نفسه آمَن وصلَّى وأنفق ، و [ٱلسَّمٰوَات] هي الأرفعة السبعة ، وقوله : ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ يريد : السحاب . وقوله : ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ﴾ يجوز أن تكون [مِنْ] التبعيض ، فيكون المراد بعض جنى الأشجار ، ويسقط ما كان منها سُمًّا أو مجرداً للمضرات ، ويجوز أن تكون [مِنْ] لبيان الجنس كأنه قال : فأخرج به رزقاً لكم من الثمرات[1] ، وقال بعض الناس : [مِنْ] زائدة ، وهذا لا يجوز عند سيبويه لكونها في الجواب ، ويجوز عند الأخفش ، و «الْفُلْك» جمع فُلْك ، وقد تقدم القول فيه مراراً ،

(١) قال أبو حيان : هذا ليس بجيد ، لأن «مِنْ» التي لبيان الجنس إنما تأتي بعد المبهم الذي تُبَيِّنُه .

وقوله : [بِأَمْرِهِ] مصدر من أمر يأمُر ؛ وهذا راجع إلى الكلام القائم بالذات ، كقوله تعالى للبحار وللأرض وسائر الأشياء : «كن» عند الإيجاد ؛ إنما معناه : كن بحال كذا ، أو على وتيرة كذا ، وفي هذا تدريج دوران الفلك وغيره ، وفي تسخير الفُلك ينطوي تسخير البحر وتسخير الرياح ؛ وأما تسخير الأنهار فتفجيرها في كل بلد وانقيادها للسقي وسائر المنافع .

و [دَائِبَيْنِ] معناه : متماديين ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لصاحب الجمل الذي بكى وأجهش إليه : (إن هذا الجمل شكا إليَّ أنك تجيعه وتدئبه)[1] أي تديمه في الخدمة والعمل ؛ وظاهر الآية أن معناه : دَائِبَيْنِ في الطلوع والغروب وما بينهما من المنافع للناس التي لا تُحصى كثرة ؛ وحكى الطبريُّ عن مقاتل بن حيان – يرفعه عن ابن عباس – أنه قال : معناه : دائبين في طاعة الله ، وهذا قول

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد ، وأحمد في مسنده (١–٢٠٤ ، ٢٠٥) ، ولفظه فيه . عن عبد الله بن جعفر قال : أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم خلفه ، فأسرَّ إلي حديثاً لا أُخبر به أحداً أبداً . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب ما استتر به في حاجته هدف أو حشائش نخل ، فدخل يوماً حائطاً من حيطان الأنصار ، فإذا جمل قد أتاه فجرجر وذرفت عيناه ، قال بهز وعفان : فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حنَّ وذرفت عيناه . فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم سراته وذفراه فسكن ، فقال : من صاحب الجمل ؟ فجاء فتىً من الأنصار فقال : هو لي يا رسول الله ، فقال : أما تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّككها الله ؟ إنه شكا إليَّ أنك تُجيعه وتُدئبه ،

إن كان يُراد به أن الطاعة انقياد منهما في التسخير فذلك موجود في قوله : [سخَّرَ] ، وإن كان يُراد أنها طاعة مقصودة كطاعة العباد من البشر فهذا بعيد ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ للجنس من البشر ، أي أن الإنسان بجملته قد أُوتي من كل ما شأنه أن يُسأل ويُنتفع به ، ولا يطرد هذا في واحد من الناس ، وإنما تفرقت هذه النعم في البشر ، فيقال بحسب هذا للجميع : «أُوتيتم كذا» على جهة التعديد للنعمة ، وقيل : المعنى : وآتاكم من كل ما سألتموه إن لو سألتموه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قريب من الأول ، و [ما] في قوله سبحانه : ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يصح أن تكون مصدرية ، ويكون الضمير في قوله : [سَأَلْتُمُوهُ] عائداً على الله تبارك وتعالى ، ويصح أن تكون [مَا] بمعنى «الذي» ، ويكون الضمير عائداً على «الذي» ، وقرأ الضحاك بن مزاحم(١) ، وابن عباس : ﴿مِنْ كُلٍّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ بتنوين [كُلٍّ] ، وهي قراءة الحسن ، وقتادة ، وسلام ، ورويت عن نافع ، والمعنى : وآتاكم من

(١) هو الضحاك بن مُزاحم البلخي الخراساني ، أبو القاسم ، مفسِّر ، كان يؤدب الأطفال ، ذكره ابن حبيب تحت عنوان : «أشراف المعلمين وفقهاؤهم» ، له كتاب في التفسير . (راجع ميزان الاعتدال ١: ٤٧١ ، والمحبر ٤٧٥ ، والأعلام ٣-٣١٠)

كل هذه المخلوقات المذكورات قبلُ ما شأْنه أن يُسأَل لمعنى الانتفاع به ؛ فـ [مَا] في قوله : ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ مفعول ثانٍ بـ [آتَاكُمْ] . وقال بعض الناس : [مَا] نافية على هذه القراءة ، أي : أعطاكم من كُلٍّ شيئاً ، ما سألتموه ، والمفعول الثاني هو قولنا : «شيئاً» ، فعدَّد — على هذه — النعمةَ في تفضله بما لم يسأله البشر من النعم ، وكأن ما سألوه لم يعرض له .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تفسير الضحاك . وأما القراءة الأُولى بإضافة [كُلِّ] إلى [مَا] فلابُدَّ من تقدير المفعول الثاني : جُزءًا أو شيئاً أو نحو هذا .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ أي : لكثرتها وعظمها في الحواس والقوى والإيجاد من العدم إلى الهداية إلى الإيمان وغير ذلك . وقال طلق بن حبيب : إن حقَّ الله أثقل من أن يقوم به العباد ، ونعمه أكثر من أن يُحصيها العباد ، ولكن اصبحوا توابين وامسوا توابين . وقال أبو الدرداء : من لم ير نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قلَّ علمه وحَضر عذابه .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ﴾ يريد به النوعَ والجنسَ ، المعنى : توجد فيه هذه الخلال ، وهي الظلم والكفر ، فإن كانت هذه الخلال من جاحد فهي بصفة ، وإن كانت من عاص فهي بصفة أُخرى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

المعنى : واذكر إذ قال إبراهيم ، و [ٱلْبَلَدَ] : مكة ، و [آمِناً] معناه : فيه أَمْن ، فوصفه بالأمن تجوزاً ، كما قال : ﴿في يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ ، وكما قال الشاعر :

. . . . وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمِ(١)

و [ٱجْنُبْنِي] معناه : امنعني ، يقال : جَنَبَه كذا وجَنَّبَه وأجنبه إذا منعه من الأمر وحماه منه ؛ وقرأ الجحدريُّ ، والثقفي : [وأَجْنِبْنِي] بقطع الألف وكسر النون . و [بَنِيَّ] أراد بني صُلْبِه ؛ ولذلك أُجيبت

(١) هذا جزء من بيت ، وهو بتمامه :

لَقَدْ لُمْتِنَا يا أُمَّ غَيْلانَ في السُّرَى وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمِ

وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ...﴾ الآية ، من هذه السورة (صفحة ٢٢١ هامش ١) .

دعوته فيهم ، وأما باقي نسله فقد عبدوا الأصنام ، وهذا الدعاءُ من الخليل عليه الصلاة والسلام يقتضي إفراط خوفه على نفسه ومن حصل في رتبته ، فكيف يخاف أن يعبد صنماً ؟ لكن هذه الآية ينبغي أن يُقتدى بها في الخوف وطلب الخاتمة .

و «الأصنام» هي المنحوتة على خلقة البشر ، وما كان منحوتاً على غير خِلْقة البشر فهي أوثان ، قاله الطبري عن مجاهد ؛ ونسب إلى الأصنام أنها أضلت كثيراً من الناس تجوُّزاً إذ كانت عرضة الإضلال والأسباب المنصوبة للغي ، وعليها منشأُ الأعمال ، وحقيقة الإضلال إنما هي لمخترعه .

قوله : ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ ظاهره بالكفر لمعادلة قوله : ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ ، وإذا كان ذلك ، كذلك فقوله : ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ معناه : بتوبتك على الكفرة حتَّى يؤمنوا ، لا أنه أراد أن الله يغفر لكافر ، ولكن حمله على هذه العبارة ما كان يأْخذ نفسه به من القول الجميل والنطق الحسن وجميل الأدب صلى الله عليه وسلم ، قال قتادة : اسمعوا قول الخليل ، والله ما كانوا طعَّانين ولا لعَّانين ، وكذلك قال نبيُّ الله عيسى عليه السلام : ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1] ، وأسند الطبريّ عن عبد الله بن عمرو حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تلا هاتين الآيتين ، ثم دعا لأُمته فبُشِّر

(١) من الآية (١١٨) من سورة (المائدة) .

فيهم[١] ، وكان إبراهيم التيمي يقول : من يأمن على نفسه بعد خوف الخليل على نفسه من عبادة الأصنام ؟

وقوله : ﴿ مِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ يريد إسماعيل عليه السلام ، وذلك أن سارة لما غارت لهاجر بعد أن ولدت إسماعيل تعذَّب إبراهيم عليه السلام بهما ، فركب البراق هو وهاجر والطفل ، فجاء في يوم واحد من الشام إلى بطن مكة ، فنزل ونزل ابنه وأَمَتُه هنالك ، وركب منصرفاً من يومه ذلك ، وكان هذا كله بوحي من الله تبارك وتعالى ؛ فلما ولَّى دعا بمضمن هذه الآية ، وأما كيفية بقاء هاجر وما صنعت وسائر خبر إسماعيل ففي كتاب البخاري والسِّير وغيره ، و [مِنْ] في قوله : ﴿ مِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ للتبعيض ، لأن إسحق كان بالشام . و «ٱلْوَادِي»: ما بين الجبلين ، وليس من شرطه أن يكون فيه ماءٌ ؛ وهذه الآية تقتضي أن إبراهيم عليه السلام قد كان عَلِمَ من الله تعالى أن الله لا يُضَيِّع هاجر وابنها في ذلك الوادي ، وأنه يرزقهما الماء ، وإنما نظر

(١) نصُّ الحديث كما أخرجه الطبري — أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وقول عيسى : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فرفع يديه ثم قال : اللَّهم أُمَّتي ، اللَّهم أُمَّتي ؛ وبكى ، فقال الله تعالى : يا جبريل اذهب إلى محمد — وربُّك أعلم — فاسأله : ما يبكيه ؟ فأتاه جبريل فسأله ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ، قال : فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد وقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك .

النظر البعيد للعاقبة فقال : ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ ، ولو لم يعلم ذلك من الله لقال : «غير ذي ماء» على ما كانت عليه حال الوادي عند ذلك[١].

وقوله : ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ إما أن يكون البيت قد كان قديماً على ما رُوي قبل الطوفان ، وكان علمه عند إبراهيم ، وإما أن يكون قالها لما كان قد أعلمه الله تعالى أنه سيبني هنالك بيتاً لله تعالى فيكون مُحَرَّماً ، والمعنى : محرَّماً على الجبابرة أن تُنْتَهك حرمته ويُستخف بحقه ؛ قاله قتادة وغيره ؛ وجَمْعُه الضمير في قوله : [لِيُقِيمُوا] يدل على أن الله قد أعلمه أن ذلك الطفل سيعقب هنالك ويكون له نسل. واللام في قوله : [لِيُقِيمُوا] هي لام «كي» ، هذا هو الظاهر فيها ، على أنها متعلقة بـ [أَسْكَنْتُ] ، والنداءُ اعتراضٌ ، ويصحُّ أن تكون لام أمْر ، كأنه رغب إلى الله أن يوفقهم لإقامة الصلاة ؛ ثم ساق عبارة ملزمة لهم إقامة الصلاة ، وفي اللفظ – على هذا التأويل – بعض تجوز يربطه المعنى ويُصلحه .

و «الأَفْئِدَةُ» : القلوب ، جمع فؤاد ، سمي بذلك لانفآده ، مأخوذ من : فَأَدَ ، ومنه المُفْتَأَد وهو مستوقد النار حيث يشوى اللحم[٢] ،

(١) قيل : إن انتفاء كونه ذا زرع يستلزم انتفاء الماء الذي لا يمكن أن يوجد زرع إلا به ، فنُفي ما يتسبب عن الماء وهو الزرع لانتفاء سببه وهو الماء .

(٢) قال في (اللسان) : «وفَأَدَ اللحم في النار يَفْأَدُه فأداً : شواه ، والمِفْأَدُ والمِفْأَدة : السَّفُّودُ ، وهو من فأَدْتُ اللحم وافتأَدْتُه إذا شويتَه ، ولحمٌ فَئِيدٌ أي : مشويٌّ» .

وقرأ ابن عامر بخلاف عنه : ﴿فَاجْعَلْ أَفْيِدَةً﴾ بياءٍ بعد الهمزة[١] . وقوله : ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ تبعيض ، ومراده : المؤمنون ، قال مجاهد : لو قال إبراهيم : «أفئدة الناس» لازدحمت على البيت فارس والروم ، وقال سعيد بن جبير : «لَحَجَّتْه اليهود والنصارى»[٢] . و [تَهْوِي] معناه : تسير بجدٍّ وقصد مستعجل ، ومنه قول الشاعر :

وَإِذَا رَمَيْتَ بِهِ الْفِجَاجَ رَأَيْتَهُ يَهْوِي مَخَارِمَهَا هُوِيَّ الْأَجْدَلِ[٣]

ومنه البيت المروي :

تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تبغي الْهُـــدَى ما مُؤْمنو الْجِنِّ كَأَجْنَاسِهَـــا[٤]

---

(١) وقرئ : «آفِدَة» على وزن فاعلة ، ويحتمل أن يكون اسم فاعل من أفد أي دنا وقرب ، والمعنى : جماعات آفِدَةٌ ، وقرأت أم الهيثم : «أفْوِدَةٌ» بالواو المكسورة بدل الهمزة ، قال صاحب اللوامح : «وهو جمع وَفْد ، والقراءة حسنة ولكني لا أعرف هذه المرأة ، بل ذكرها أبو حاتم» ، قال أبو حيان الأندلسي : «وأم الهيثم امرأة نقل عنها شيءٌ من لغات العرب» .

(٢) المعنى : لو قال إبراهيم : «أفئدة الناس» لحَجَّته اليهود والنصارى .

(٣) قال في (اللسان) : «البيت لأبي كبير الهُذَلي» ، واسمه عامر بن الحُلَيس ، وهو من شعراء الحماسة ، قيل : إنه أدرك الإسلام وأسلم . ويروى : «ينضو مخارمها» بدلا من «يهوي» ، والفجاج : جمع فجّ وهو الطريق ، والمخارم : جمع مَخْرِم ، وتطلق المخارم على أنوف الجبال ورؤوسها ، والأجدل : الصقر ، وفي حديث مُطَرِّف : يَهْوي هُوِيَّ الأجادل ، وقوله : «يَهْوى مَخارِمَها» أراد به : «يهوى في مخارمها» ، فهو على هذا ظرف ، كقولك : ذهبت الشام ، وكقولهم : «عَسَل الطريقَ الثَّعْلَبُ» ، أي : في الطريق . وقيل : «يهوي» بمعنى «يقطع» ، ومخارمها مفعول صحيح .

(٤) رواه أبو حيان في «البحر» : «ما مُؤْمِنُ الجنِّ كَكُفَّارِها» ، و «تَهْوِي» في البيت مثلها في الآية : تقصد في جِدٍّ وسرعة ، وتبغي : تريد وتطلب . والبيت غير منسوب .

وقرأ سلمة بن عبد الله : [تُهْوِي] بضم التاء ، مِنْ أهوى ، وهو الفعل المذكور معدى بالهمزة ، وقرأ علي بن أبي طالب ، ومحمد بن علي ، ومجاهد : [تَهْوَى] بفتح التاء والواو ، ويُعَدَّى هذا الفعل — وهو من الهُوِيِّ — بـ «إلى» لما كان مقترناً بسَيْرٍ وقصد : وروي عن مسلم ابن محمد الطائفي أنه لما دعا عليه السلام بأن يرزق سكان مكة من الثمرات بعث الله جبريل عليه السلام فاقتلع بجناحه قطعة من أرض فلسطين ، وقيل — من الأردن — فجاء بها وطاف حول البيت بها سبعاً ووضعها قريب مكة ، فهي الطائف ، وبهذه القصة سُمِّيت ، وهي موضع ثقيف ، وبها أشجار وثمرات .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

مقصد إبراهيم عليه السلام التنبيه على اختصاره في الدعاء ، وتفويضه إلى ما علم الله من رغائبه وحرصه على هداية بنيه والرفق بهم ، وغير ذلك . ثم انصرف إلى الثناء على الله تعالى بأنه علام

الغيوب ، وإلى حمده على هباته ، وهذه من الآيات المعلمة أن علم الله تبارك وتعالى بالأشياء هو على التفصيل التام .

ورُوي في قوله : ﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾ أنه وُلد له إسماعيل وهو ابن مائة وسبعة عشر عاماً ؛ ورُوي أقل من هذا ؛ وإسماعيل أَسَنُّ من إسحٰق فيما روي ، وبحسب ترتيب هذه الآية ، ورُوي عن سعيد بن جُبير أنه قال : بُشِّر إبراهيم وهو ابن مائة وسبعة عشر عاماً .

وقوله : ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ . دعا إبراهيم عليه السلام في أمر كان مثابراً عليه ، متمسكاً به ، ومتى دعا الإنسان في مثل هذا فإنما المقصد إدامة ذلك الأمر واستمراره ، وقرأ طلحة والأعمش : ﴿دُعَاءِ رَبَّنَا﴾ بغير ياءٍ ، وقرأ أبو عمرو ، وابن كثير : [دُعَايْ] بياءٍ ساكنة في الوصل ، وأثبتها بعضهم في الوصل دون الوقف ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي بغير ياءٍ في وصل ولا وقف ، وروى ورش عن نافع إثبات الياءِ في الوصل ، وقرأت فرقة : [وَلِوَالِدَيَّ] ، واختلف في تأْويل ذلك ، فقالت فرقة : كان هذا من إبراهيم قبل يأْسه من إيمان أبيه وتَبَيُّنِهِ أنه عدوٌّ لله ، فأَراد أَباهُ وأُمه لأَنها كانت مؤمنة ؛ وقيل : أَراد أُمه ونوحاً عليه السلام ، وقيل : أَراد آدم وحوَّاء لأَن أُمه لم تكن مؤمنة ، وقيل : أَراد آدم ونوحاً عليهما السلام ، وقرأ سعيد بن جبير : [وَلِوَالِدِي] بإفراد الأَب وحده ، وهذا يدخله ما تقدم من التأْويلات ، وقرأ الزهري ، وإبراهيم النَّخَعيّ :

[وَلِوَلَدَيَّ] على أنه دعاءٌ لإسماعيل وإسحٰق ، وأنكرها عاصم الجحدري وقال : إن في مصحف أُبَيٍّ بن كعب : «ولأَبَوَيَّ» ، وقرأ يحيى بن يَعْمَر : [ولِوُلْدِي] بضم الواو وسكون اللام ، وهي لغة في الوَلَد ، ومنه ما أسند أبو عليٍّ وغيره :

فَلَيْتَ زِيَاداً كانَ في بَطْنِ أُمِّهِ   ولَيْتَ زياداً كان وُلْدَ حِمارِ (١)

ويحتمل أن يكون الوُلْدُ جمع وَلَد كأُسْدٍ في جمع أَسَدٍ .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ يعني : يوم يقوم الناس للحساب ، فأسند القيام إلى الحساب إيجازاً إذ المعنى مفهوم ، ويتوجه أن يريد قيام الحساب نفسه ، ويكون القيام بمعنى ظهوره وتَلَبُّس العباد بين يدي الله به كما تقول : قامت السوقُ ، وقامت الصلاة ، كما قال : وقامت الحرب على ساق(٢) .

---

(١) رواه في (اللسان) غير منسوب بلفظ : فليت «فُلاناً» . ونقل عن الزجاج قوله : الوَلَد والوُلْد واحد ، مثل العَرَب والعُرْب والعَجَم والعُجْم ، قال الفراء : وأنشد :

ولَقَــدْ رَأَيْتُ مَعَاشِـــراً   قَدْ ثَمَّرُوا مـــالا وَوُلْــدا

ثم أنشد البيت المذكور هنا ، وقال : فهذا واحد ، وقيسٌ تجعل الوُلْدَ جمعاً والوَلَدَ واحدا .

(٢) في (اللسان — سوق) : «السَّاقُ في اللغة الأمر الشديد ، وكَشْفُه — في قولهم : يكشف عن ساقه — مَثَلٌ في شدة الأمر ، كما يقال للشَّحيح : يده مغلولة ، ولا يَدَ ثَمَّ ولا غُلَّ ، وإنما هو مثل في شدة البخل ، فكذلك هذا ، لا ساق هناك ولا كشف » . فقولهم : قامت الحرب على ساق ، إنما يراد به شدة الأمر ، ثم قال صاحب اللسان : ولسنا ندفع مع ذلك أن الساق إذا أُريدت بها الشدة فإنما هي مشبهة بالساق التي تعلو القدم » .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

هذه الآية بجملتها فيها وعيد للظالمين ، وتسلية للمظلومين ، والخطاب بقوله : [تَحْسَبَنَّ] لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالنهي غيره مِمّن تَلَبَّس به أن يحسب مثل هذا ، وقرأ طلحة بن مصرف : ﴿ وَلَا تَحْسَبِ ٱللَّهَ غَافِلًا ﴾ بإسقاط النون ، وكذلك : ﴿ فَلَا تَحْسَبِ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ ﴾ ، وقرأ أبو حيوة ، وعبد الرحمن ، والحسن ، والأعرج : [نُؤَخِّرُهُمْ] بنون العظمة ، وقرأ الجمهور : [يُؤَخِّرُهُمْ] بالياء ، أي الله تعالى . و [تَشْخَصُ] معناه : تُحِدُّ النظر لفزع ، ولفرط ذلك يشخص المحتضر .

و «المُهْطِع» : المُسْرِعُ في مشيه ، قاله ابن جبير ، وقتادة ، وذلك بِذِلَّةٍ واستكانة ، كإسْراع الأسير الخائف ونحوه ، وهذا هو أرجح الأقوال ، وقد توصف الإبل بالإهطاع على معنى الإسراع ،

وقلّما يكون إسراعها إلّا خوف السوط ونحوه ، فمن ذلك قول الشاعر :

وبِمُهْطِعٍ سُرُحٍ كأَنَّ عِنَانَهُ   في رأسِ جِذْعٍ مِنْ أَوَالَ مُشَذَّبِ (١)

ومن ذلك قول عِمْرانَ بن حِطّان :

إِذَا دَعَانَا فَأَهْطَعْنَا لِدَعْوَتِهِ   داعٍ سميعٌ فَلَفُّونا وسَاقُونا (٢)

ومنه قول ابن مفرغ :

بِدِجْلَةَ دارُهُمْ وَلَقَدْ أَرَاهُمْ   بِدِجْلَةَ مُهْطِعِينَ إِلَى السَّمَاعِ (٣)

ومن ذلك قول الآخر :

بِمُسْتَهْطِعٍ رَسْلٍ كَأَنَّ جَدِيلَهُ   بِقَيْدُومِ رَعْنٍ مِنْ صَوامٍ مُمَنَّعُ (٤)

---

(١) البيت في (اللسان — أول) ، ونسبه ابن بري فيه لأنيف بن جبلة ، وروايته فيه :

أمّا إذا استقبلته فكأنّه   للعين جِذْعٌ من أوالٍ مُشذّبُ

وفي معجم ما استعجم للبكري : أوَلُ : قرية بالبحرين، وقيل : جزيرة ، فإن كانت قرية فهي من قُرى السِّيف ، ويشهد لذلك قول ابن مُقْبل : « وكأنّها سُفُنٌ بسيفِ أوالِ » . والمُهْطِع : الذي يسرع في مشيته مع خوف ، والسُّرُح : السريعة ، قال في اللسان : « خيلٌ سُرُحٌ في سيرها : أي سريعة » ، والجذع : الساق من الشجرة ونحوه من الأغصان المتينة ، والمشَذَّب : الذي هُذِّبَ وأزيل عنه قشره .

(٢) رواه أبو حيان في « البحر » : فلَبُّونا ، ولَفَّ معناها : جَمَعَ ، أما لَبَّه فمعناها : ضربَ لَبَّتَه ، والإهطاع هو الإسراع في خضوع ، وسميع معناها : مُسْمِعٌ .

(٣) البيت في « اللسان » غير منسوب ، أنشده الليث للتدليل على أن قوله تعالى ﴿ مُهْطِعِينَ إلى الدّاعِ ﴾ يحتمل الوجهين اللّذَيْن ذكرهما ابن عطية نقلا عن أبي عبيدة ، والرواية فيه : « بِدِجْلَةَ أهْلُها » بدلا من « دارُهم » .

(٤) أورده صاحب (اللسان — قدم) ، وأورده الزمخشري في (أساس البلاغة — هطع) ، والرواية فيه: « من رُضَامٍ مُمَتَّع » بالتاء ، وقال : إنه في صفة ثور ، والمُسْتَهْطِع =

وقال ابن عباس ، وأبو الضحى : الإهطاع : شدة النظر من غير أن يطرف ، وقال ابن زيد : الذي لا يرفع رأسه ، قال أبو عبيدة : وقد يكون الإهطاع للوجهين جميعاً : الإسراع وإدامة النظر .

و «والمُقْنِـــع» هو الذي يرفع رأسه قدماً بوجهه نحو الشيء ؛ ومن ذلك قول الشاعر :

يُبَاكِرْنَ الْعِضَـــاهَ بِمُقْنَعَـــاتٍ نَوَاجِذُهُنَّ كَالحِدَإِ الْوَقِيعِ (١)

يصف الإبل بالإقناع عند رعيها أعالي الشجر . وقال الحسن في تفسير هذه الآية : وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء ، لا ينظر أحد إلى

= هو المُشْرِع ، ورَسْل: سَهْلٌ فيه لين ، والْجَدِيل : حبْلٌ مجدولٌ أي مفتول من أدم أو شعر ، يكون في عُنُق البعير أو الناقة ، وجمعه جُدُل ، والرَّعْن : أنف الجبل ، وقيدوم كلُّ شيء : صدْرُه ومقدمه ، وقيدوم الجبل : أنفٌ يتقدم منه ، والقيدوم الرَّعْن : هو الأنف المندفع في ارتفاعه ، وصَوَام (كسَحاب) : اسم جبل ، قال ذلك صاحب اللسان ، والبكري ، والمُمتنَع بالنُّون : المرتفع الصعب الذي يمتنع على الناس فلا يستطيعون الصعود والارتقاء فيه . وقد أورد أبو عبيدة البيت في « مجاز القرآن » ، وقال : « صُؤَام : بضم الصاد وهمز الواو » ، وفسَّر الرَّسْلَ بأنه الذي لا يكلفك شيئاً .

(١) هذا البيت للشَّمَّاخ بن ضرار ، والرواية في الديوان « يبادِرْنَ » بدلا من «يُبَاكِرْنَ» والمعنى واحد ، وهو الإسراع ، والعِضاه : جمع عضاهة وهي أعظم الشجر ، والمُقْنَعات : جمع مُقْنَع وهو الذي يرفع رأسه نحو الشيء ، يصف الإبل وهي تسارع إلى أعلى الشجر الكبير فترفع رؤوسها لتأكل منه ، والنَّواجذ : أقصى الأضراس ، والحِدَأ : جمع حِدَأة ، وهي فأسٌ ذات رأسين ، والوقيع : الذي حُدِّدَ بالمِيقَعَة وهي المطرقة ، يعني : طرقت حتى أصبحت حادَّةً قاطعة ، يشبه أضراس الإبل بالفؤوس الحادة التي طرقت بالمطارق حتى أصبحت شديدة القطع . وقد استشهد به أبو عبيدة في « مجاز القرآن » في نفس الموضع .

أحد ، وذكر المبرِّد فيما حكي عنه أنَّ الإقناع يوجد في كلام العرب بمعنى خفض الرأس من الذِّلَّة ، والأوَّل أشهر .

وقوله : ﴿ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أي : لا يطرفون من الحذر والجزع وشدة الحال .

وقوله : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ تشبيه محض ، لأنها ليست بهواءٍ حقيقة ، وجهة التشبيه يحتمل أن تكون في فراغ الأفئدة من الخير والرجاءِ والطمع في الرحمة ، فهي منخرقة مشبهة الهواءَ في تفرغه من الأشياءِ وانخراقه ، ويحتمل أن يكون في اضطراب أفئدتهم وجيشانها في صدورهم ، وإنما تجيءُ وتذهب وتبلغ – على ما رُوي – حناجرهم ، فهي في ذلك كالهواءِ الذي هو أبداً في اضطراب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعلى هاتين الجهتين يشبه قلب الجبان وقلب الرجل المضطرب في أموره بالهواءِ ، فمن ذلك قول الشاعر :

ولا تَكُ مِنْ أَخْدَانِ كُلِّ يَرَاعَةٍ هَوَاءٍ كَسَقْبِ الْبَانِ جُوفٍ مَكَاسِرُهْ[1]

(١) نسبه في (اللسان – يرع) إلى كعب الأمثال ، والأخدان : جمع خِدْن وهو الصديق ، واليَرَاعة : الجبان الذي لا عقل له ولا رأي ، مشتق من القصب ، فهو مثل القصب الأجوف ، والهواءُ : الجبان الخفيف الفؤاد ، أو الذي انتزع فؤاده ، والبان : شجر من أشجار البادية ، يطول ويرتفع في اعتدال ، وبه يشبه الشعراء قوام الحسناء ، وسَقْبُ البانِ : عمودُ الخيمة فإذا صُنع من شجر البان كان ضعيفاً لا يحتمل ثقلَه صلابته ، وجُوفٍ : جمع أجوف ، والمكاسر : مواضع الكسر ، يعني أنه إذا كُسِر بان أنه أجوف ضعيف . ينهى عن صداقة الأخدان الجبناء الذين لا يعتمد عليهم ، وتظهر حقيقتهم الضعيفة عند الاختبار .

ومن ذلك قول حسَّان :

أَلا أَبْلِـغْ أَبا سُفْيَانَ عَنِّي فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ (١)

ومن ذلك قول زهير :

كَأَنَّ الرَّحْلَ مِنْهَا فَوْقَ صَعْلٍ مِنَ الظِّلْمَانِ جُؤْجُؤُهُ هَوَاءُ (٢)

فالمعنى أنه في غاية الخفَّة في إجفاله .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ الآية . المرادُ باليوم يومُ القيامة ، ونصبه على أنه مفعول بـ [أَنْذِر] ، ولا يجوز أن يكون ظرفاً لأَن القيامة ليست بموطن إنذار . وقوله : [فَيَقُولُ] رفع عطفاً على قوله : [يَأْتِيهِم] . وقوله : ﴿ أَوَ لَمْ تَكُونُوا ﴾ إلى آخر الآية معناه : يقال لهم ، فحذف ذلك إيجازاً إذ المعنى يدلُّ عليه ، وقوله : ﴿ مَالَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ هو المقسم عليه نقل المعنى (٣) ، و ﴿ مِنْ زَوَالٍ ﴾ معناه : من الأَرض بعد

---

(١) أبو سفيان هو المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب ، كان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم ، وكان حسَّان يَرُدُّ عليه . والمُجَوَّف : الخالي الجوف ، وهذا دليل الجبن والضعف مع التظاهر بالشجاعة ، والنَّخِب والهَوَاء لهما نفس المعنى . وحسَّان هنا يصف أبا سفيان بالجبن والضعف ، وأن هذه هي حقيقته .

(٢) يصف زهير في هذا البيت ناقته ، والرَّحل : ما يوضع على ظهر البعير للركوب عليه ، وكذلك هو كل شيء يوضع على ظهر البعير من وعاء للمتاع وغيره ، والصَّعْل : الصغير الرأس ، ويريد به هنا ذَكَر النعام (الظَّلِيم) لأنه صغير الرأس ، وجؤجؤه : صدره ، وهواءٌ : خالٍ لا قلب فيه ، وهو يريد أن يقول : إن الظليم ليس له عقل فهو كالمجنون .

(٣) هكذا في جميع الأصول .

الموت ، أي : لا بعث من القبور ، وهذه الآية ناظرة إلى ما حكي عنهم في قوله : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ﴾[1].

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

يقول عزَّ وجلَّ : أيها المعرضون عن آيات الله من جميع العالم سكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر من الأمم السالفة فنزلت بهم المثلات ، فكان قولكم الاعتبار والاتعاظ ، وقرأ الجمهور : [تَبَيَّنَ] بتاءٍ ، وقرأ السُّلَمي ـ فيما حكى المهدوي ـ : [وَنُبَيِّنْ] بنون عظمة مضمومة وجزم على معنى : أو لم نُبَيِّنْ ، عطف على ﴿ أَوَ لَمْ تَكُونُوا ﴾ ، قال أبو عمرو : وقرأ أبو عبد الرحمن بضم النون الأُولى ورفع النون الآخرة .

(١) من الآية (٣٨) من سورة (النحل) .

وقوله : ﴿ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ هو على حذف مضاف تقديره : وعند الله عقاب مكرهم ، أو جزاءُ مكرهم ، ويحتمل قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ أن يكون خطاباً لمحمد عليه الصلاة والسلام والضمير لمعاصريه ، ويحتمل أن يكون مما يقال للظلمة يوم القيامة ، والضمير للذين سُكن في منازلهم .

وقرأ السبعة سوى الكسائي : ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ بكسر اللام الأُولى وفتح الثانية ، وهي قراءة علي بن أبي طالب وجماعة ، وهذا على أن تكون [إنْ] نافية بمعنى «ما» ، ومعنى الآية تحقير مكرهم ، وأنه ما كان لتزول منه الشرائع والنبوات وأقدار الله بها التي هي كالجبال في ثبوتها وقوتها ، وهذا تأْويل الحسن وجماعة المفسرين . وتحتمل عندي هذه القراءة أن تكون بمعنى تعظيم مكرهم ، أي : وإن كان شديداً إنما يفعل لتذهب به عظام الأُمور ، وقرأ الكسائي : [لَتَزُولُ] بفتح اللام الأُولى ورفع الثانية[1] ، وهي قراءة ابن عباس ، ومجاهد ، وابن وثاب ، وهذا على أن تكون [إنْ] مخففة من الثقيلة ، ومعنى الآية تعظيم مكرهم وشدته ، أي

(١) قال ابن خالويه في كتاب «الحجة في القراءات السبع» : «الحُجَّة لمن فتح أنه جعل اللام للتأكيد ، فلم تؤثر في الفعل ، ولم تُزِله عن أصل إعرابه ، والحجة لمن كَسَرَ اللام أنه جعلها لام «كي» ، وهي في الحقيقة لام الجحد» ، ويترتب مع هذا الكلام ما ذكره ابن عطية في [إن] على القراءتين .

أنه مما يُشقى به ، ويزيل الجبال من مستقراتها بقوته . ولكن الله تعالى أبطله ونصر أولياءه ، وهذا أشد في العبرة .

وقرأ علي بن أبي طالب ، وابن مسعود ، وعمر بن الخطاب ، وَأُبَيٌّ بن كعب : ﴿ وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ ﴾ ، ويترتب مع هذه القراءة في [لَتَزُولُ] ما تقدم [١] ، وذكر أبو حاتم أن في قراءة أُبيٍّ بن كعب : «وَلَوْلَا كَلِمَةُ اللهِ لَزَالَ مِنْ مَكْرِهِمُ ٱلْجِبَالُ» . وحكى الطبريُّ عن بعض المفسرين أنهم جعلوا هذه الآية إشارة إلى ما فعل نمروذ ، إذْ علَّق التابوت بين الأنسر ورفع لها اللَّحم في أطراف الرِّماح بعد أن أجاعها ، ودخل هو وحاجبه في التابوت فعلت بهما الأنسر حتى قال له النمرود : ماذا ترى ؟ قال : أرى بحراً وجزيرة ، يريد الدنيا المعمورة ، ثم قال : ما ترى ؟ قال : أرى غماماً ولا أرى جبلا ، فكأن الجبال زالت عن نظر العين بهذا المكر ، وذكر ذلك عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وذلك عندي لا يصح عن عليٍّ ، وفي هذه القصة كلها ضعف من طريق المعنى ، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسر كما وصف ، وبعيد أن يُغَرِّر أحد بنفسه في مثل هذا .

---

(١) في «البحر المحيط» أن هذه القراءة بالدال بدلا من النون تكون مع فتح اللام الأولى ورفع الثانية في [لَتَزُولُ] . ولعلَّ هذا هو ما قصد إليه ابن عطية في عبارته : «ويترتب مع هذه القراءة في [لَتَزُولُ] ما تقدم ، أي : من فتح اللام الأولى ورفع الثانية ، وإن كان الكلام يوهم غير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ ﴾ الآية . تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم ولغيره من أمّته ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ممن يحسب مثل هذا ، ولكن خرجت العبارة هكذا ، والمراد بما فيها من الزَّجر من شارك النبي صلى الله عليه وسلم في أن قصد تثبيته . وقرأ جمهور الناس : ﴿ مُخْلِفَ وَعْدِهِ ﴾ بالإضافة [رُسُلَهُ] بالنصب ، وأضاف [مُخْلِفَ] إلى «الْوَعْدِ» إذ للإخلاف تعلق بالوعيد على تجوز ، وإنما حقيقة تعلقه بالرسل ، وهذا نحو قول الشاعر :

تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رأْسَه   وسَائِرُهُ بادٍ إلى الشَّمْسِ أَجْمَعُ (١)

وكقولك : «هذا مُعْطِي زَيْدٍ درهماً» ، وقرأت فرقة : ﴿ مُخْلِفَ وَعْدَهُ رُسُلِهِ ﴾ بنصب «الوعد» وخفض «الرسل» على الإضافة ، وهذه القراءة ذكرها الزَّجاج وضعفها ، وهي تَحُول بين المضاف والمضاف

---

(١) استشهد الفراء بهذا البيت في «معاني القرآن» ، وكذلك استشهد به الطبري ، وأبو حيَّان في «البحر» ، ولم ينسبه أحد منهم ، قال الفراء : «فأضاف (مُدْخِلَ) إلى (الظِّلِّ)، وكان الوجه أن يضيف (مُدْخِل) إلى الرأس» ، ومن كلامه هنا : «إذا كان الفعل يقع على شيئين مختلفين مثل : كسَوْتُكَ الثوب ، وأدْخَلْتُكَ الدارَ ، فابدأ بإضافة الفعل إلى الرجل ، فتقول : هو كاسي عبد الله ثوباً ، ومُدْخله الدار ، ويجوز هو كاسي الثوب عبد الله ، ومدخل الدار زيداً ، ومنه قول الشاعر «تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رَأْسَهُ» ... البيت . ومثله :

فَرِشْني بِخَيْرٍ لا أَكُونَنْ وَمِدْحَتِي   كَنَاحِتِ يَوْمٍ صَخْرَةً بِعَسِيل

والشاهد أنه أضاف (ناحت) إلى (يوم) ، ونصب (صخرةً) . ومعنى رِشْنِي : انفعني ، والعسيل : مكنسة العطار ، وهي من شعر يكنس به العطار الطيب ، والمراد أنه لا فائدة فيه كمن ينحت الصخرة بهذه المكنسة الناعمة .

إليه بالمفعول ، وهو كقول الشاعر :

فَزَجَجْتُهَـــا بِمَزَجَّـــةٍ زَجَّ الْقَلُوصَ أبي مَزَادَه (١)

وأمَّا إذا حِيلَ في مثل هذا بالظرف فهو أشهر في الكلام كقوله :

* لله دَرُّ الْيَوْمَ مَن لَامَهَا * (٢)

وقال آخر :

كَمَا خُطَّ الْكِتَابُ بِكَفِّ يَوْماً يَهُودِيٍّ يُقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ (٣)

والمعنى : لا تحسب يا محمد أنت ومن اعتبر بالأمر من أُمَّتك وغيرهم أن الله لا يُنْجِزُ وعده في نصر رسله وإظهارهم ، ومعاقبة من كفر بهم في الدنيا والآخرة ، فإن الله عزيز لا يمتنع منه شيءٌ ، ذو انتقام من الكفرة ، ولا سبيل إلى عفوه عنهم .

---

(١) ذكره الفراءُ في « معاني القرآن » مرتين ، الأولى عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ ، (١٣٧ من سورة الأنعام) ، والثانية هنا في سورة إبراهيم ، ونقله عنه ابن عطية وغيره من المفسرين ، ورواية الفراء : « فزَجَجْتُهَا مُتَمَكِّناً » ، والمراد : زَجَجْتُ الكتيبة ، أي دفعتها ، والقلوص : الناقة الفتية ، وأبو مزادة : كنية رجل ، والشاهد فيه أنه فصل بين المضاف وهو (زَجَّ) والمضاف إليه وهو (أبي مزادة) بالمفعول وهو (القلوصَ) ، وأصل الكلام : زَجَّ أبي مزادةَ القلوصَ . والفراءُ ينكر هذا على أهل المدينة ، ويقول : هو باطلٌ ، والصوابُ : « زَجَّ القَلُوصِ أبو مزادة » .

(٢) أصل الكلام : لله درُّ مَنْ لامها اليومَ ، لكن الشاعر فصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف وهو « اليوم » ، وهو كثير في كلام العرب .

(٣) هو كالشاهد السابق في الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف وهو « يوماً » ، وأصل الكلام : خُطَّ الكتابُ بكفِّ يهوديٍّ يوماً .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ ﴾ الآية . [يَوْمَ] ظرف للانتقام المذكور قبله ، ورُوي في «تبديل الأرض» أقوال : منها في الصحيح أن الله يبدل هذه الأرض بأرض عفراء بيضاء كأنها قُرْصَةُ النَّقِيِّ(١) ، وفي الصحيح أن الله يبدلها خبزة يأكل المؤمن منها من تحت قدميه(٢) ، وروي أنها تبدل أرضاً من فضة ؛ وروي أنها أرض كالفضة في بياضها(٣) ، وروي أنها تبدل أرضاً من نار(٤) وقال بعض المفسرين : تبديل الأرض هو نسف جبالها ، وتفجير بحارها ، وتَغْيِيرها حتى لا تَرى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً . فهذه حال غير الأُولى ، وبهذا وقع التبديل .

(١) أخرج البخاري ، ومسلم ، وابن جرير ، وابن مردويه ، عن سهل بن سعد : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (يُحْشَرُ الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة نَقِيٍّ ليس فيها معلم لأحد) ، والنَّقِيُّ : دقيق خالص البياض والنقاء يسمى الحواريّ ، وهو ما حُوِّرَ أي بُيِّضَ . والقرصة فطيرة مصنوعة من هذا النقيّ . (الدر المنثور)

(٢) أخرج البخاريُّ ، ومسلم ، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفرة نزلا لأهل الجنة ...) راجع البخاري – كتاب الرقاق ففيه بقية الحديث ، وكذلك في الدر المنثور .

(٣) أخرج البزّار ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ ﴾ ، قال : (أرضٌ بيضاءُ كأنها فضة لم يسفك فيها دمٌ حرامٌ ، ولم يعمل فيها خطيئة) . (الدر المنثور) و (فتح القدير) .

(٤) أخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : «الأرض كلها نار يوم القيامة والجنة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها ، والذي نفس عبد الله بيده إن الرجل ليفيض عرقاً حتى يرشح في الأرض قدمه ... الخ» (تفسير الطبري) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وسمعت من أبي رضي الله عنه أنه رُوي أن التبديل يقع في الأَرض ، ولكن يُبدَّل لكل فريق بما يقتضيه حاله ، فالمؤمن يكون على خبز يأْكل منه بحسب حاجته إليه ، وفريق يكون على فضة – إن صحَّ السند بها – ، وفريق الكفرة يكونون على نار ، ويجوز هذا مما كله واقع تحت قدرة الله تعالى . وأكثر المفسِّرين على أن التبديل يكون بأَرض بيضاء عفراء لم يُعْصَ اللهُ فيها ، ولا سُفك فيها دم ، وليس فيها مَعْلم لأَحد . وروي فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : (المؤمن وقت التبديل في ظل العرش)[١] ، وروي عنه أنه قال : (الناس وقت التبديل على الصراط)[٢] ، وعنه أنه قال : (الناسُ حينئذ أَضياف الله فلا يعجزهم ما لديه)[٣] .

(١) الذي رواه الإمام أحمد في مسنده (٥- ٣٠٠ ، ٣٠٨) هو أن أبا قتادة كان له دين على أحد الناس ، وكان المدين يختبئ منه ، ثم علم ذات يوم أنه في البيت فناداه وسأله عن سبب اختفائه ، فقال : إني معسر – فبكى أبو قتادة وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من نفَّس عن غريمه ، أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة) ، وليس لهذا صلة بالتبديل .

(٢) أخرجه أحمد ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، وابن مردويه ، والحاكم – عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : (أنا أول الناس سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ ﴾ ، قلت : أين الناس يومئذ ؟ قال : على الصراط . (الدر المنثور ، وتفسير الطبري ، وفتح القدير) .

(٣) أخرجه أحمد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو نعيم في الدلائل عن أبي أيوب الأنصاري . (الدر المنثور) .

[وَبَرَزُوا] مأْخوذ من الْبَرَاز ، أي : ظهروا بين يديه لا يواريهم بناءٌ ولا حِصْن . وقوله ﴿ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ صفتان لائقتان بهذه الحال .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾

المجرمون هم الكفار ، و [مُقَرَّنِينَ] مربوطين في قَرَنٍ وهو الحبل الذي يُشَدُّ به رُؤُوس الإبلِ والبقر ، ومنه قول الشاعر :

وابْنُ اللَّبونِ إذَا مَا لُزَّ فِي قَرَنٍ لم يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُزْلِ الْقَنَاعِيسِ [1]

و[الأَصْفَاد] الأغلال ، واحدها صَفَد ، يقال : صَفَده وأَصْفَدَهُ

(١) البيت لجرير ، قاله في (اللسان — لزز وقنعس) ، واللَّبون : التي نزل اللَّبن في ضرعها ، وابن اللَّبون : ولد الناقة إذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة لأن أمَّه ولدت غيره فصار لها لبن . ولُزَّ : أُلْصِقَ وشُدَّ في قَرَن ، والقَرَن : الحبل الذي تربط فيه الإبل والبقر . والبُزْل : جمع بازل وهو البعير الذي طلع نابه ، ويكون ذلك في الثامنة أو التاسعة . والقنعاس : الجمل الضخم العظيم ، وهو من صفات الذكور عند أبي عبيد ، والجمع : القناعس ، ويقال فيها : القناعيس .

وصَفَّدَه إذا غَلَّهُ ، والاسم الصفاد ، ومنه قول سلامة بن جندل :

وَزَيْدُ الْخَيْلِ قَدْ لاقَى صِفَـاداً   يَعَضُّ بِسَاعِدٍ وبِعَظْمِ سَـاقِ [(١)]

وكذلك يقال في العطاء ، ومنه قول النابغة :

. . . .   فَلَمْ أُعَرِّض ـ أَبَيْتَ اللَّعْنَ ـ بالصَّفَدِ [(٢)]

و «السَّرَابِيل» : القُمُص [(٣)] ، و «الْقَطِرَان» هو الذي تُهْنَأُ به الإبل ، وللنار فيه اشتعال شديد ، فلذلك جعل الله قُمُص أهل النار

---

(١) هو سلامة بن عمرو ، من بني تميم ، فارس وشاعر مقل ، والصِّفادُ : الغُلُّ أو الوثاق يُشدُّ به الإنسان ، يقول : لقد لقي زيد الخيل وثاقاً يشد به شداً قوياً ، فكأنما يعض من شدته على ساعديه وساقيه .

(٢) هذا عجز بيت ، قاله النابغة في قصيدته التي يمدح بها النعمان ويعتذر إليه عما بلغه عنه ، والتي مطلعها : «يا دَارَ مَيَّةَ بالعَلْيَاءِ فالسَّنَدِ» ، والبيت بتمامه :

هَذَا الثَّنَاءُ ـ فَإِنْ تَسْمَعْ بِهِ ـ حَسَنَاً   فَلَمْ أُعَرِّضْ ـ أَبَيْتَ اللَّعْنَ ـ بالصَّفَدِ

قول الشاعر : «فإن تسمع به» جملة معترضة بين «الثَّنَاء» و «حَسَنَاً» ، والباء في «به» زائدة ، وأصل المعنى : هذا الثناء حسناً يأتيكَ ، أي : هذا مديحي لك ، ومعنى تَسْمَع : تقبل ، يريد أن يقول : فإن تقبله مني فهو ما أُريد . و «حسَنَاً» حال من اسم الإشارة «هذا» . و «أبَيْتَ اللَّعْنَ» كلمة يخاطب بها العرب ملوكهم ، ومعناها : أبيت أن تفعل شيئاً تُلْعَن به ، فأنت لا تفعل إلا الحسن الجميل ، وأُعَرِّض : أقول كلاماً أكني به عن شيء يستلزمه معناه ، يريد : لم أقُلْ شيئاً فيه تعريض ، و «بالصفد» معناها : بالعطاء ، أي : لم أقصد بمديحي أيَّ عطاء ، بل أردتُ رضاك فقط . والشاهد أن الصفد جاء بمعنى العطاء . وقد روي الشطر الأول : «هذا الثناء فإن تَسْمَعَ لِقائِلِه» ...

(٣) واحد السَّرابيل : سِرْبَال ، والفعل سَرْبَلْتُ وتَسَرْبَلْتُ ، قال كعب بن مالك :

تَلْقَاكُمُ عُصَبٌ حَوْلَ النَّبِيِّ لَهُمْ   مِنْ نَسْجِ داودَ في الهَيْجا سَرَابِيلُ

منه ، ويقال بفتح القاف وكسر الطاء ، وبكسر القاف وسكون الطاء ، وبفتح القاف وسكون الطاء : وقرأ عُمَرُ ، وعليٌّ ، والحسن ـ بخلاف ـ وابن عباس ، وأبو هريرة ، وعلقمة ، وسِنانُ بن سَلَمة ، وعكرمة ، وابن سيرين ، وابن جُبَيْر ، والكَلْبيُّ ، وقتادة ، وعمرو بن عبيد : «قَطِرٍ آنٍ»[1] ، والقَطِرُ : القصدير ، وقيل : النحاس . وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : ليس بالقطران ، ولكنه النحاس يُسَرْبلونه ، و [آن] صفة ، وهو الذائب الحارُّ الذي قد تناهى حرُّه ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : يعذبون به ، وقال الحسن : قد سُعِّرَت عليه جهنم منذ خلقت فتناهى حرُّه . وقرأ جمهور الناس : [وُجُوهَهُمْ] بالنّصب [النَّارُ] بالرفع ، وقرأ ابن مسعود بالعكس ، فالأول على نحو : ﴿ واللَّيْلِ إذَا يَغْشَى ﴾[2] فهي حقيقة الغشيان ، والثاني على نحو قول الشاعر :

يُغْشَوْنَ حَتَّى ما تَهِرُّ كِلَابُهُـــمْ ... لا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ المُقْبِلِ[3]

(١) مكونة من كلمتين : صفة وهي (آن) ، وموصوف وهو (قَطِر) . وقد فسَّر العلماء معنى كل منهما على ما ذكر ابن عطية .

(٢) الآية الأولى من سورة (الليل) .

(٣) ذلك لأنه يريد بالغشيان هنا الزيارة ، فمجرد قدوم الزوار إليهم غشيان . والهرير : صوت الكلب دون النباح ، يقول: يأتيهم الضيوف ويطرقون أبوابهم في كل وقت حتى أن =

فهو يتجوّز في الغشيـــان ، كأن ورود الوجـــوه على النــــار غشيان .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ﴾ أي : لكي يجزي الله ، واللام متعلقة بفعل مضمر تقديره : أُنفذ على المجرمين هذا العقاب ليكون في ذلك جزاءُ المسيءِ على إساءته ، وجاء من لفظة الكسب بما يعم المسيء والمحسنَ لِيُنَبِّه على أن المحسن أيضاً يجازى بإحسانه خيراً .

وقوله تعالى : ﴿ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي : فاصله بين خلقه بالإحاطة التي له بدقيق أُمورهم وجليلها ، لا إلٰه غيره ، وقيل لِعَلي بن أبي طالب رضي الله عنه : كيف يحاسبُ الله العبادَ في وقت واحد مع كثرتهم ؟ قال : كما يرزقهم في وقت واحد .

وقوله : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ الآية إشارة إلى القرآن والوعيد الذي تضمنه[1] ، ووصفه بالمصدر في قوله : [بَلَاغٌ] ، والمعنى :

= كلابهم قد اعتادت ذلك فهي لا تنبح ولا تهرُّ أحداً ، وهم لا يسألون عن القادم إذا رأوا سواداً لشجاعتهم ولكرمهم . هذا والبيت لحسّان بن ثابت قاله يمدح جبَلَة بن الأيهم الغساني ، وهو من قصيدته التي مطلعها :

لله درُّ عِصَابَةٍ نادَمْتُهُـــمْ ... يَوْماً بِجِلِّقَ في الزَّمانِ الأوّلِ

وفيها يقول :

بيضُ الوُجُوهِ كَرِيمَةٌ أحْسَابُهُمْ ... شُمُّ الأنوفِ مِنَ الطِّرازِ الأوّلِ

(١) وقيل : الإشارة إلى السورة . وقيل : الإشارة إلى ما ذكّر به تعالى من قوله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا ﴾ إلى قوله : ﴿ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

هذا ذو بلاغ للناس ، وهو لينذروا به[١] ، وقرأ الجمهور : [وَلِيُنْذَرُوا] بضم الياء وفتح الذال على بناء الفعل للمفعول ، وقرأ يحيى بن عمارة ، وأحمد بن يزيد بن أُسيد : [وَلِيَنْذَرُوا] بفتح الياء والذال ، تقول العرب : «نَذِرْتُ بكذا» إذا أُشعرتَ به ، وتحرَّزْتَ منه ، وأعْدَدْتَ له[٢].

ورُوي أن قوله سبحانه : ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُواْ الْأَلْبَابِ ﴾ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه[٣] .

انتهى تفسير سورة إبراهيــم عليه الصلاة والسـلام
والحمد لله كثيراً ، وصلى الله على سيدنا محمد
المبعوث بشيراً ونذيراً وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) معنى [بَلاغ] : كفاية في الوعظ والتذكير ، والواو في [وَلِيُنْذَرُوا] زائدة عند الماوردي ، وقال المبرد : هي واو عطف مفرد على مفرد ، فالمعنى عنده : هذا بلاغٌ وإنذار ، والمعنى عند الماوردي : هذا بلاغ للإنذار . وهذا من تفسير المعنى لا تفسير الإعراب . والمعنى الذي يفهم من كلام ابن عطية أنه بلاغ للناس ، وهو لينذروا به ، فجعل [وَلِيُنْذَرُوا] في موضع رفع خبر لمبتدإ تقديره : هو .

(٢) قالوا : لم يُعرف للفعل «نَذِرَ بِهِ» مصدر ، فهو مثل «عسى» وغيرها مما استعمل من الأفعال ولم يعرف له أصل .

(٣) رَوَى ذلك يَمَان بنُ رئاب ، وقد سئل بعضهم : هل لكتاب الله عنوان ؟ فقال : نعم ، قيل : وأين هو ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ هَـٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(١٥) سُورَةُ الحِجْرِ مَكِّيَّة
وآياتها تسع وتسعون

تفسير سورة الحِجْر

هذه السورة مكية (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥ ﴾

(١) قال الشوكاني : « وهي مكية بالاتفاق كما قال القرطبي » ، وأخرج النحاس في ناسخه ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « نزلت سورة الحِجْر بمكة » ، وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله .

[الٓر] ، تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور ، و [تِلْكَ] يمكن أن تكون إشارة إلى حروف المعجم بحسب بعض الأقوال ، ويحتمل أن تكون إشارة إلى الحِكَم والعِبَر ونحوها التي تضمنتها آيات التوراة والإنجيل ، وعطف القرآن عليه ، قال مجاهد ، وقتادة : [الكتاب] في هذه الآية ما نزل من الكتب قبْل القرآن ، ويحتمل أن يراد بـ [الكتاب] القرآن ، ثم تعطف الصفة عليه (١) .

وقرأ نافع ، وعاصم : [رُبَمَا] بتخفيف الباء ، وقرأ الباقون بشدها ، إلا أن أبا عمرو قرأها على الوجهين ، وهما لغتان (٢) ، ورُوي عن طلحة بن مصرف [رُبَّتَما] بزيادة التاء ، وهي لغة ، و «رُبَّمَا» للتقليل ، وقد تجيءُ شاذة للتكثير ، وقال قومٌ : إن هذه من تلك (٣) ، ومنه :

---

(١) تنكير «القرآن» هنا للتفخيم ، كأنه قيل : تلك آيات الكتاب الكامل ، والقرآن الجامع للكمال والغرابة في الشأن .

(٢) قال ابن خالويه في كتاب «الحجة» : «الحجة لمن خفف أن الأصل عنده في التشديد باءان ، أُدغمت إحداهما في الأخرى ، فأسقط واحدة تخفيفاً ، والحجة لمن شدّد أنه أتى بلفظها على الأصل ، وهو الاختيار ، قال الشاعر :

يا رُبَّ سارٍ باتَ لن يُوَسَّـــدا إلا ذراعَ العَنْسِ أوْ كَفَّ اليَـــدا»

(والعَنْس : الناقة الصلبة) . وأحكام «رُبَّ» كثيرة ، وعلى الرغم من كثرة ورودها في لسان العرب فإنها لم تقع في القرآن إلا في هذه السورة .

(٣) يعني أن «رُبَمَا» في هذه الآية من تلك التي جاءت للتكثير .

رُبَّ كأْسٍ هَرَقْتَ يا بْن لُؤَيٍّ . . . . (١)

وأنكر الزَّجَّاج أن تجيء «رُبَّ» للتكثير (٢) .

و «ما» التي تدخل عليها «رُبَّ» قد تكون اسماً نكرةً بمنزلة «شيء»، وذلك إذا كان في الكلام ضمير عائد عليه كقول الشاعر :

رُبَّما تَكْرَهُ النُّفوسُ مِنَ الأَمْـ ... ـرِ لَهُ فَرْجَةٌ كَحَلِّ الْعِقَالِ (٣)

التقدير : رُبَّ شيءٍ . وقد تكون حرفاً كافًّا لِـ «رُبَّ» وَمُوَطِّئاً لتدخل على الفعل ، إذْ ليس من شأْنها أَنْ تدخل إلا على الأَسماءِ ، وذلك إذا

(١) هذا صدر بيت ، نقل صاحب اللسان عن الجوهري أنه يقال : هراقَ الماءَ يُهَرِيقه بفتح الهاء هِرَاقَةً ، أي صبَّه ، وأنشد ابن برِّي :

رُبَّ كأسٍ هَرَقْتَها ابنَ لُؤَيٍّ ... حَذَرَ الموتِ لم تَكُنْ مُهْرَاقَهْ

وابن عطية يستشهد بالبيت على أن «ربَّ» فيه للتكثير .

(٢) قال الزجاج : «من قال : إن رُبَّ يعنى بها التكثير فهو ضد ما تعرفه العرب ، فإن قال قائل : فلم جازت ربَّ في قوله تعالى : ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وربَّ للتقليل ؟ فالجواب في هذا أن العرب خوطبت بما تعلمه في التهديد ، والرجل يهدد الرجل فيقول له : لعلَّك ستندم على فعلك ، وهو لا يشك في أنه يندم ، ويقول : ربما ندم الإنسان من مثل ما صنعت، وهو يعلم أن الإنسان يندم كثيراً ، ولكن مجازه أن هذا لو كان مما يُوَدُّ في حالٍ واحدة من أحوال العذاب ، أو كان الإنسان يخاف أن يندم على الشيء لوجب عليه اجتنابه ، والدليل على أنه على معنى التهديد قوله تعالى : ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ .

(٣) البيت لأُمَيَّةَ بن أبي الصَّلْت ، والفَرْجة : الكشاف الهَمِّ والغَمِّ ، والنحويون يستشهدون بهذا البيت على أن «ربَّ» تدخل على مضارع في لفظه ، ولكنه ماض في زمنه ، بقرينة تدل على المضيِّ الزمني ، فالشاعر يقول البيت لرجل هارب من حاكم توعده بالقتل ، ثم جاءه الخبر بموت ذلك الحاكم ، فهو يريد : ربما جزعتَ . ولا يصلح زمن المضارع هنا إلا للمضي ، لأن الجزع لن يقع في المستقبل بعد موت الحاكم وزوال سبب الجزع . والبيت في الكتاب ، والخزانة ، والعيني ، والأشموني ، واللسان ، وابن الشجري ، وابن يعيش .

لم يكن ثَمَّ ضمير عائدٌ ؛ كقول الشاعر :

رُبَّمَـــا أَوْفَيْتُ في عَلَـمٍ تَرْفَعَنْ ثَوْبي شَمَـالاتُ (١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكذلك تدخل «ما» على «مِنْ» كافَّةً في نحو قوله : «وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مِمَّا يُحرك شفتيه.»(٢)، ونحو قول الشاعر :

وإنَّا لمِمَّا نَضْرِبُ الْكَبْشَ ضَرْبَةً عَلَى رَأْسِهِ تُلْقِي اللِّسَانَ مِنَ الْفَمِ (٣)

---

(١) البيت لجذيمة بن مالك الأبرش يفتخر بأنه يصعد الجبل بنفسه ليستطلع أعداءه ، ولا يعتمد في ذلك على غيره ، وأَوْفَيْتُ : أشرفت . والعَلَم : الجبل ؛ والشمالات : رياح الشمال الشديدة ، وفي البيت الشاهد الذي ذكره ابن عطية وهو أن «ما» هيأت لـ «رُبَّ» أن تدخل على الفعل ؛ وهو شاهد آخر على أن «رُبَّما» هنا للتكثير ؛ لأن البيت مسوق للافتخار ، ولا يناسبه التقليل ، وفيه شاهد ثالث على إدخال نون التوكيد للضرورة ، والبيت في سيبويه ، وفي الخزانة ، وفي مغني اللبيب .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي ، والتوحيد ، وفضائل القرآن .. عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ ، قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة ؛ وكان مِمَّا يحرك شفتيه ، فقال ابن عباس : فأنا أحركهما لك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما ، فحرَّك شفتيه ، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ ، قال : جَمْعَهُ لك صدرُك وتقرأُهُ ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ ؛ قال : فاستمعْ له وأنصت ؛ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ ، ثم إن علينا أنْ تَقْرَأَهُ ؛ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع . فإذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما قرأ) .

(٣) البيت لأبي حيَّةَ النميري ؛ واسمه : الهيثم بن الربيع ، وهو شاعر مجيد . وراجز فصيح ، من أهل البصرة ومخضرمي الدولتين ، والمراد بالكبش سيِّدُ القوم ، والبيت في الخزانة ، وفي سيبويه . والشاهد فيه أن «ما» تدخل على «من» فتجعلها صالحة لأن يليها الفعل .

قال الكسائي ، والفراءُ : الباب في «رُبَّما» أن تدخل على الفعل الماضي ، ودخلت هنا على المستقبل إذ هذه الأَفعال المستقبلة في كلام الله تعالى لمَّا كانت صادقةً واقعةً ولابُدَّ تجري مجرى الماضي الواقع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد تدخل «رُبَّ» على الماضي الذي يراد به الاستقبال ، وتدخل على العكس .

والظاهر في «رُبَّما» في هذه الآية أن «ما» حرف كافٌّ ، هكذا قال أبو عليٍّ ، قال : ويحتمل أن تكون اسماً ، ويكون في [يَوَدُّ] ضمير عائد عليه ، التقدير : رُبَّ ودٍّ ، أو شيءٍ يوده الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ويكون ﴿ لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ بدلا من [ما] . وقالت فرقة : تقدير الآية : ربما كان يود الذين كفروا ، قال أبو علي : وهذا لا يجيزه سيبويه ، لأَن «كان» لا تضمر عنده .

واختلف المتأَولون في الوقت الذي يود فيه الذين كفروا لو كانوا مسلمين — فقالت فرقة : هو عند معاينة الموت في الدنيا ، حكى ذلك الضحاك ، وفيه نظر ؛ إذ لا يقين للكافر حينئذ بحسن حال المسلمين ؛ وقالت فرقة : هو عند معاينة أَهوال يوم القيامة ؛ قاله مجاهد ؛ وهذا بيِّن ؛ لأَن حُسْن حال المسلمين ظاهر فيُوَدُّ ؛ وقال ابن عباس

رضي الله عنهما ، وأنس بن مالك رضي الله عنه : هو عند دخولهم النار ومعرفتهم بدخول المؤمنين الجنة ؛ واحتج لهذا القول بحديث رُوي في هذا من طريق أبي موسى الأشعري ، وهو أن الله تعالى إذا أدخل عصاة المسلمين النار نظر إليهم الكفار فقالوا : أليس هؤلاء من المسلمين؟ فماذا أغنت عنهم لا إلٰه إلا الله ؟ فيغضب الله تعالى لقولهم ، فيقول : أخرجوا من النار كل مسلم ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فحينئذ يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين)[(١)]. وهذا يقينهم فيه متمكن بحُسْن حال المسلمين ؛ فمن حيث هذا كله موطن واحد في كلٍّ قول فـ [رُبَمَا] للتقليل ، لأنهم كانوا في الدنيا لا يودون الإسلام في كل أوقاتهم ، ومن حيث موطن الآخرة يدوم ودُّهم فيه جعل بعض الناس [رُبَمَا] هذه للتكثير ؛ إذْ كلما تذكر أمره ودَّ أن لو كان مسلماً .

---

(١) أخرج ابن أبي عاصم في السنة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث والنشور عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفارُ للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلى ، قالوا : فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار ؟ قالوا : كانت لنا ذنوب فأُخذنا بها ، فسمع الله ما قالوا ، فأمر بكل من كان في النار من أهل القبلة فأُخرجوا ؛ فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا ؛ ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الـٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ، رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ، (الدر المنثور) .

و [لَوْ] في هذه الآية هي التي للتمني ، ويدخلها الامتناع من الشيء لامتناع غيره بإضمار يوضحه المعنى ، وذلك أنهم وَدُّوا لو كانوا مسلمين فينجون النجاة الذي مانعه أن لم يكونوا مسلمين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومن العِبَر في هذه الآية حديث الوابصي الذي في ذيل الأَمالي ، ومقتضاه أنه ارتد ونسي القرآن إلَّا هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾ الآية ، وعيدٌ وتهديد ، وما فيه من المهادنة منسوخ بآية السيف ، وقوله : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وعيد ثان ، وحكى الطبري عن بعض العلماء أنه قال : الأَول في الدنيا ، الثاني في الآخرة ، فكيف تطيب حياةٌ بين هذين الوعيدين ؟ ومعنى قوله : ﴿ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾ أي يشغلهم أَملهم في الدنيا والتَّزيُّد فيها عن النظر والإِيمان بالله ورسوله .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا ﴾ الآية ، أي : لا تَسْتَبْطِئَن هلاكهم ، فليس من قرية إلَّا مُهْلَكَة بأَجل وكتاب ، ومعنى [مَعْلُومٌ] محدود ، والواو في قوله : [وَلَهَا] هي واو الحال ، وقرأَ ابن أبي عَبْلَة : ﴿ إِلَّا لَهَا ﴾ بغير واو ، وقال منذر بن سعيد : هذه الواو هي التي تعطي أَنَّ الحالةَ التي بعدها هي في الزمان قبل الحالة

التي قبل الواو (١) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَبُهَا ﴾ (٢) . وباقي الآية بيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾

الضمير في [قَالُوا] يُراد به كفارُ قريش ، ويروى أن القائلين كانوا : عبد الله بن أبي أُميَّة ، والنضر بن الحارث وأشباههما ،

(١) للعلماء في هذه الواو آراء كثيرة ، ذكر ابن عطية رأيين ، وقال الفراء : يجوز هذا التعبير بالواو وبدون الواو ، فكل اسم نكرة جاء خبره بعد إلا والكلام في النكرة تامٌّ فافعل ذلك بصلتها بعد إلا ، فإن كان الذي وقع على النكرة ناقصاً فلا يكون إلا بطرح الواو ، قال الشاعر :

إذا ما سُتور البَيْتِ أُرْخِينَ لم يكُنْ سِراجٌ لَنَا إلا ووَجْهُـــكِ أنْوَرُ

فلو قيل : إلا وَجْهُكِ أنورُ جاز ، وقال الآخر :

ومَا مَسّ كَفِّي مِنْ يدٍ طابَ رِيحُهَا مِنَ النَّاسِ إلا رِيحُ كَفَّيْكِ أطْيَبُ

وقال الزمخشري : الجملة واقعة صفة لـ [قَرْيَة] ، والقياسُ ألا تتوسط الواو بينهما ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إلا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ ، وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف ، ووافقه على ذلك أبو البقاء . وعقّب على قول كل منهما أبو حيان الأندلسي فقال : وهذا الذي قاله الزمخشري ، وتبعه فيه أبو البقاء لا نعلم أحداً قاله من النحويِّين ، قال الأخفش : لا يُفصل بين الصفة والموصوف بـ « إلا » .

(٢) من الآية (٧٣) من سورة (الزُّمَر) .

وقرأ الأعمش : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي أُلْقِيَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ » . وقولهم : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ كلامٌ على جهة الاستخفاف ، أي بزعمكَ ودعواكَ ، وهذه المخاطبة كما تقول لرجل جاهل أراد أن يتكلم فيما لا يُحْسِن : يـٰأيُّهَا العالِم أنت لا تُحْسِن تتوضأ .

و [لَوْمَا] بمعنى «لولا» فتكون تخْضيضاً كما هي في هذه الآية ، وقد تكون دالةً على امتناع شيءٍ لوجوب غيره ، كما قال ابن مقبل :

لَوْلَا الحياءُ ولَوْمَا الدِّينُ عِبْتُكُمَا ... بِبَعْضِ ما فيكُمَا إذْ عِبْتُمَا عَوَري[1]

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ مَا تَنَزَّلُ ٱلْمَلَائِكَةُ ﴾ بفتح التاء والرفع[2] ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر كذلك إلَّا أنه ضم التاء ، وهي قراءة يحيى بن وثاب ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص : [نُنَزِّلُ] بنون العظمة [ٱلْمَلَائِكَةَ] نصباً ، وهي قراءة طلحة بن مصرف .

وقوله : ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ، قال مجاهد : المعنى : بالرسالة والعذاب .

---

(١) البيت شاهد على أن «لَوْمَا» بمعنى «لَوْلَا» ، ولهذا تستعمل في امتناع الشيء لوجود غيره ، وقد قال أبو عبيدة في معاني القرآن : «لوما» مجازها ومجاز «لولا» واحد ، ثم استشهد ببيت ابن مقبل ، واستشهد به الطبري ، وعنهما أخذ ابن عطية .

(٢) يعني رفع كلمة «الملائكة» على أنها فاعل للفعل «تَنَزَّل» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والظاهر أن معناه : كما يجب ويحق من الوحي والمنافع التي أراها الله لعباده ، لا على اقتراح كافر ، ولا باختيار معترض . ثم ذكر عادة الله في الأُمم من أنه لم يأْتهم بآية اقتراح إلا ومعها العذاب في أثرها إن لم يؤمنوا ، وكأن الكلام : ما نُنَزِّل الملائكة إلا بحق واجب لا باقتراحكم ، وأيضاً فلو نزلت لم يُنظَروا بعد ذلك بالعذاب ، أي : لم يؤخروا ، والنَّظِرَة : التأْخير ، والمعنى : فهذا لا يكون أبداً إذ كان في علم الله أن منهم من يؤمن ، أو يلد من يؤمن .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ ردٌّ على المستخفِّين في قولهم : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ ، وهذا كما يقول لك رجل على جهة الاستخفاف : «يا عظيم القدر» ، فتقول له على جهة الرَّدِّ والنَّجْه(١) : نعم أنا عظيم القدر ، ثم تأْخذ في قولك ، فتأَمله . وقوله : ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ ، قالت فرقة : الضمير في [لَهُ] عائد على محمد عليه الصلاة والسلام ، أي : نحفظه من أذاكم ، ونحوطه من مكركم وغيره ، ذكر الطبري هذا القول ولم ينسبه ، وفي ضمن هذه العِدَة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أظهر الله به الشرع وحان أجله ، وقالت فرقة – وهي الأكثر – : الضمير في [لَهُ] عائد على القرآن ، وقاله مجاهد ، وقتادة ، والمعنى : لحافظون من أن يبدل

(١) يقال : نَجَهَهُ فلاناً نَجْهاً : ردَّه أقبح ردٍّ . (المعجم الوسيط) .

أو يغير كما جرى في سائر الكتب المنزلة ، وفي آخر ورقة من البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن التبديل فيها إنما كان في التأويل ، وأما في اللفظ فلا ، وظاهر آيات القرآن أنهم بدلوا اللفظ ، ووَضْع اليَدِ على آية الرجم هو في معنى تبديل الألفاظ[1] . وقيل : لحافظون باختزانه في صدور الرجال ، والمعنى متقارب ، وقال قتادة : هذه الآية نحو قوله تعالى : ﴿ لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الآية تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام ، وعَرْض أسوة ، أي : لا يضق صدرك يا محمد بما يفعله قومك من الاستهزاء في قولهم : ﴿ يَأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ وغير ذلك ، فقد تقدم منا إرسال الرسل في شِيَع الأولين ، وكانت تلك سيرتهم في الاستهزاء بالرسل ، و « الشِّيَعُ » جمع شِيعَة ،

---

(١) وضع اليد على آية الرجم ورد في حديث رواه البخاري وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟ فقالوا: نفضحهم ويُجلدون ، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم ، إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك ، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم ، فقالوا : صدق يا محمد ، فيها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرُجما ، قال عبد الله : فرأيت الرجل يَحْنَأُ على المرأة يقيها الحجارة . (البخاري - باب المناقب) . قال ابن الأثير في النهاية : (يُحْنِي) أي : يُكِبُّ عليها ويميل ، أحْنَأَ يُحْنِي إحناءً ، وفي رواية أخرى : (يُحَانِي عليها) ، مفاعلة ، ويروى بالحاء المهملة .

(٢) من الآية (٤٢) من سورة (فُصلت) .

وهي الفرقة التابعة لرأس ، إمَّا مذهب أو رجل أو نحوه ، وهي مأْخوذة من قولهم : شيعت النار إذا استدمت وقدها بحطب أو غيره ، فكأن الشيعة تصل أمر رأسها وتظهره وتمده بمعونة . وقوله : ﴿ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ تقتضي «رُسُلًا» ، ثم اختصر ذكرهم لدلالة ظاهر القول على ذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

الضمير عائد على الاستهزاء أو الشرك ونحوه ، وهو قول الحسن ، وقتادة ، وابن جريج ، وابن زيد ، ويكون الضمير في [بِهِ] يعود على ذلك بعينه ، وتكون باءُ السبب ، أي : لا يؤمنون بسبب شِرْكهم واستهزائهم ، ويكون قوله : ﴿ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ في موضع الحال . ويحتمل أن يكون الضمير في [نَسْلُكُهُ] عائداً على «الذِّكْر المحفوظ» المتقدم الذكر وهو القرآن ، أي : مكَذَّباً به مردوداً مُسْتَهْزَءًا به ندخله في قلوب المجرمين ، ويكون الضمير في [بهِ] عائداً عليه أيضاً ، أي : لا يصدقون به . ويحتمل أن يكون الضمير في [نسْلُكُهُ] عائداً

على الاستهزاء والشرك ، والضمير في [بِهِ] يعود على القرآن ، فيختلف على هذا عَوْد الضميرين ، والمعنى في ذلك كله ينظر بعضه إلى بعض .

و [نَسْلُكُهُ] معناه نُدْخِلُه ، يقال : سلكْتُ الرجل في الأمر إذا أدخلته فيه ، ومن هذا قول الشاعر :

وَكُنْتُ لِزَازَ خَصْمِكَ لَمْ أُعَرِّدْ وَقَدْ سلكُوكَ في أَمْرٍ عَصِيبِ (١)

ومنه قول الآخر :

حَتَّى إِذَا أَسْلَكُوهُمْ في قُتَائِدَةٍ شَلاًّ كما تَطْرُدُ الْجَمَّالَةُ الشُّرُدَا (٢)

ومنه قول أبي وَجْزَة يصف حُمُر وَحْشٍ :

حَتَّى سَلَكْنَ الشَّوى مِنْهُنَّ في مَسَكٍ مِن نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفَاقِ مِهْدَاجِ (٣)

---

(١) البيت لعديّ بن زيد العباديّ ، وقد سبق أن استشهد به ابن عطية في تفسير سورة هود ، عند قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ ، وقد ذكره في اللسان شاهداً على أن السَّلْكَ بالفتح هو مصدر سَلَكْتُ الشيءَ في الشيءِ فانْسَلَكَ ، أي : أدْخلته فيه فدخل . ولِزَاز خَصْمٍ معناه : مُقَارِنه ومُلْتَصِقٌ به لا أفارقه مع القدرة عليه . ولم أُعَرِّدْ : لم أُحْجِم ولم أفِرَّ من المعركة .

(٢) البيت لعبد مناف بن رِبْع الهُذَليّ ، وهو في (اللسان - جمل وسلك) ، وهو هنا شاهد على أن أسلك بالهمزة في أوله مثل سَلَكَ التي في بيت عديّ بن زيد ، وهو أيضاً في خزانة الأدب شاهداً على أن جواب إذا محذوف ، والتقدير : بلغوا أمانيهم ، وهذا هو رأي الرضي شارح كافية ابن الحاجب ، وقال البغدادي أيضاً : إن أسلك لغة في سلك ، يقال : أسلكت الشيء في الشيء ، مثل سلكته فيه ، بمعنى أدخلته فيه ، فهو من رأي ابن عطية ، وكذلك الطبريُّ من رأيهما ، وقُتَائِدَةَ : جَبَلٌ بين المنصرف والروحاء ، قال ذلك البكري ، وقيل : هي ثَنِيَّة ، والشَّلُّ : الطَّرْدُ ، والجَمَّالة : أصحاب الجمال ، وهي في الوزن مثل الحَمَّارة لأصحاب الحمير ، وهي فاعل للفعل تَطْرُد ، والشُّرُد : جمع شرود ، يريد : من الجمال .

(٣) البيت لأبي وجْزَةَ ، قال صاحب (اللسان - مَسَكَ) بعد أن ذكر أن المَسْكَ أسْوِرَةٌ من ذَبْلٍ أو عاج : «واستعاره أبو وجزة فجعل ما تُدخل فيه الأتُن أرْجُلَها من=

قال الزّجاج : ويُقرأُ : [نُسْلِكُهُ] بضم النون وكسر اللام . و [المُجْرِمينَ] في هذه الآية يُراد بهم كفار قريش ومعاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ عموم معناه الخصوص فيمن ختم عليه . وقوله : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي : على هذه الوتيرة ؛ وتقول : سلَكْتُ الرجلَ في الأمر وأسْلَكْتُه بمعنى واحد ، ويُروى :

حَتَّى إِذَا أَسْلَكُوهُمْ فِي قُتَائِدَةٍ البيت

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ الضمير عائد على قريش وكفرة العصر المختوم عليهم ، والضمير في قوله : [فَظَلُّوا] يحتمل أن يعود عليهم ، وهو أبلغ في إصرارهم ، وهذا هو تأْويل الحسن . و [يَعْرُجُونَ] معناه : يصعدون ؛ وقرأ الأعمش ، وأبو حيوة : [يَعْرِجُونَ] بكسر الراء[1] ، والمعارج : الأدراج ، ومنه المِعْراج ، ومنه قول كثير :

=الماء مسْلكاً فقال : حتى سلكن ... البيت » . وفي التهذيب : « المَسْلك الذَّبْل من العاج كهيئة السِّوار تجعله المرأة في يديها ، فذلك المسك ، والذَّبْل : القرون » . والشَّوَى : القوائم ؛ وقيل : هي اليدان والرجلان ، والمرادُ واحد . وجابَ يجوب جوباً : قطَع وخرَقَ ، ورجلٌ جوّابٌ : مُعتادٌ لذلك إذا كان قطّاعاً للبلاد سيَّاراً فيها ، والمِهْداجُ : العطوف الحنون على ولدها ، يقول : إن هذه الحمر أدْخلت قوائمها أو أرجلها فيما يشبه المَسْك من الماء ، ثم جعل ذلك الماء من نسل ريح تجوب البلاد ، فجعل الماء للريح كالولد لأن الريح حماتـــه .

(١) وهي لغة هذيل في العروج بمعنى الصعود .

إِلَى حَسَبٍ عَوْدٍ بَنَى الْمَرْءِ قَبْلَهُ أَبُوهُ لَهُ فِيهِ مَعَارِجُ سُلَّمِ (١)

ويحتمل أن يعود على الملائكة لقولهم : ﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ ﴾ ، فكأن الله تعالى قال : «ولو رأوا الملائكة يصعدون ويتصرفون في باب مفتوح في السماءِ لما آمنوا» ، وهذا هو تأويل ابن عباس رضي الله عنهما .

وقرأ السبعة سوى ابن كثير : [سُكِّرَتْ] بِضَمِّ السِّين وشد الكاف ، وقرأ ابن كثير وحده بتخفيف الكاف ، وهي قراءة مجاهد ، وقرأ الزهري بفتح السين وتخفيف الكاف ، على بناء الفعل للفاعل ، وقرأ أبان بن تغلب : «سُحِّرت أبصارنا» ، ويجيءُ قوله : ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ انتقالا إلى درجة عُظمى من سحر العقل . وتقول العرب : «سَكَرَت الريحُ تَسْكُر سُكُوراً» إذا ركدت ولم تنفذ لما كانت بسبيله أولا ، وتقول : «سَكِر الرَّجُلُ من الشراب يَسْكَرُ سُكْراً» إذا تغيرت حاله وركد ولم ينفذ فيما للإنسان أن ينفذ فيه ، ومن هذا المعنى «سَكْران لا يَبِتُّ» ، أي : لا يقطع أمراً ، وتقول العرب : «سَكَرْتُ الفَتْق في مجاري الماءِ سَكْراً» إذا طمسته وصرفتَ الماءَ عنه فلم ينفذ لوجهه .

---

(١) الحَسَب : الشرف الثابت في الآباء ، أو ما يَعُدُّه الإنسان من مفاخر آبائه ، والعَوْد : القديم الضخم ، والمعارج : جمع مِعْرج (بالفتح والكسر في الميم) وهو ما يصعد فيه ، والعروج هو الصعود .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذه اللفظة : [سُكِّرَتْ] بشَدِّ الكاف ، إن كانت من سُكْر الشراب ، أو من سُكُورِ الرِّيح فهي فعل عُدِّي بالتضعيف ، وإن كانت من سَكْر مجاري الماء فتضعيفها للمبالغة لا للتعدية ، لأن المخفف من فعله مُتَعَدٍّ ، ورجَّح أبو حاتم هذه القراءة ، لأن «الأبصار» جمع ، والتثقيل مع الجمع أكثر ، كما قال : ﴿ مُفَتَّحَةً لَهُمُ ٱلْأَبْوَابُ ﴾(١) ، ومن قرأ : [سُكِرَتْ] بضم السين وتخفيف الكاف : فإن كانت اللفظة من سَكْر الماء فهو فعل مُتَعَدٍّ ، وإن كانت من سُكْر الشراب ، أو من سُكُور الرِّيح فتضمنا أن الفعل بني للمفعول إلى أن ننزله متعدياً ، ويكون هذا الفعل من قبيل : رجع زَيْدٌ ورَجَعه غيرُه ، وغارت العين وغارها الرجلُ ، فتقول ـ على هذا ـ : سكِرَ الرجلُ وسَكَرَهُ غيرُه ، وسَكَرت الريحُ وسَكَرَها شيءٌ غيرها ، ومعنى هذه المقالة منهم : أي غُيِّرت أبصارُنا عما كانت عليه ، فهي لا تعطينا حقائق الأشياء كما كانت تفعل . وعبَّر بعض المفسرين عن هذه اللفظة بقوله : غشي على أبصارنا ، وقال بعضهم : عميت أبصارنا ، وهذا ونحوه تفسير بالمعنى لا يرتبط باللفظ ، ويقال أيضاً : هؤلاء المبصرون عروج الملائكة أو عروج أنفسهم بعد قولهم : ﴿ سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾ بل سُحِرْنا حتَّى لا نعقل الأشياء كما يجب ، أي صرف فينا السحر .

(١) من الآية (٥٠) من سورة (ص) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾

لما ذكر أنهم لو رأوا الآية المذكورة قبل في السماء لعاندوا فيها عقّب ذلك بهذه الآية ، كأنه قال : وإن في السماء لعبَراً منصوبة غير هذه المذكورة ، وكفرهم بها وإعراضهم عنها إصرارٌ منهم وعُتُوٌّ ، والبروج : المنازل ، واحدها بُرْج ، وسُمِّي بذلك لظهوره ووضوحه ، ومنها تبرُّج المرأة ظهورها وبدوها ، والعرب تقول : «برج الشيءُ» إذا ظهر وارتفع .

وحفظ السماء هو بالرجم بالشهب على ما تضمنته الأحاديث الصحاح ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الشياطين تقرب من السماء أفواجاً ، قال : فينفرد المراد منها فيعلو فيسمع فيرمى بالشهاب ، فيقول لأصحابه وهو يلهث : إنه من الأمر كذا وكذا ، فيزيد الشيطان في ذلك ، ويلقون إلى الكهنة ، فيزيدون مع الكلمة مائة) ، ونحو

هذا الحديث[١] ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن الشهب تَجْرَحُ وتُؤْذي ولا تقتل ، وقال الحسن : تقتل ، وفي الأَحاديث ما يدل على أن الرجم كان في الجاهلية ولكنه اشتد في وقت الإسلام ، وحفظ السماء حفظاً تامًّا . وقال الزَّجاج : لم يكن إلا بعد النبي عليه الصلاة والسلام ؛ بدليل أن الشعراء لم يشبهوا به في السرعة إلا بعد الإسلام ، وذكر الزهراوي عن أبي رجاءٍ العطاردي : كنا لا نرى الرجم بالنجوم قبل الإسلام ، و [رَجِيم] بمعنى مرجوم ؛ فعيل بمعنى مفعول ، فإمَّا من رجْم الشهب ، وإما من الرجم الذي هو الشتم والذم . ويقال : تَبِعْت الرجل واتَّبَعْتُه بمعنى واحد[٢] ، و [إلَّا] بمعنى لكن ، هذا قول ،

(١) روى البخاري في تفسير سورة الحِجْر عن أبي هريرة يَبْلُغ به النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان ، قال علي وقال غيره : صفوان يَنْفُذُهم ذلك ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال : الحقَّ وهو العليُّ الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا ، واحد فوق آخر ، ووصف سفيان بيده ، وفرَّج بين أصابع يده اليمنى ، نصبها بعضها فوق بعض - فربما أدرك الشهابُ المستمع قبل أن يرمي إلى صاحبه فيحرقه ، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه ، إلى الذي هو أسفل منه ، حتى يلقوها إلى الأرض ، وربما قال سفيان : حتى تنتهي إلى الأرض - فتلقى على فم الساحر ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيصدَّق فيقولون : ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقّاً للكلمة التي سمعت من السماء) ، والأحاديث في ذلك كثيرة وصحيحة .

(٢) قال في (اللسان - تبع) : « تَبِعْتُ الشيء تُبُوعاً : سِرْتُ في أثره ، واتَّبَعَه وأتْبَعَه وتَتَبَّعَهُ قفاه وتطلَّبه متَّبِعاً له » ، ونقل عن سيبويه أنه قال : إنَّ (تَتَبَّعْتُ) في معنى (اتَّبَعْتُ) .

والظاهر أَن الاستثناءَ من الحفظ ، وقال محمد بن يحيى عن أَبيه : إِلَّا منِ اسْتَرَقَ السَّمع فإِنها لم تحفظ منه ، ذكره الزهراوي .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ روي في الحديث أَن الأَرض كانت تتكفَّأُ بأَهلها كما تتكفَّأُ السفينة فثبتها الله تبارك وتعالى بالجبال ، ويقال : رَسَا الشيءُ يرسو إِذا رسخ وثبت ، وقوله : [مَوْزُون] ، قال الجمهور : معناه : مقدر محدد[1] بقصد وإرادة ، فالوزن على هذا مستعار ، وقال ابن زيد : المراد ما يوزن حقيقة كالذهب والفضة وغير ذلك مما يوزن .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والأَول أَعَمُّ وأَحسن [2] .

و «المعايش» جمع معيشة ، وقرأَها الأَعرج بالهمز ، وكذلك روى خارجة عن نافع ، والوجه ترك الهمز ، لأَن الأَصل في ياءِ «معيشة»

---

(١) في بعض النسخ : (مُحَرَّر) بالراء ، وهو النَّص الذي نقله عنه أبو حيان في «البحر المحيط» .

(٢) نقل القرطبي عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير أنهما قالا : «إنما قال : [مَوْزُون] لأن الوزن يُعرف به مقدار الشيء» ، ثم أنشد :

قد كنْتُ قَبْلَ لِقَائِكُمْ ذا مِرَّةٍ   عِنْدِي لكُلِّ مُخَاصِمٍ مِيزانُــه

وقال قتادة : موزون يعني مقسوم ، وقال مجاهد : موزون معدود .

الحركة ، فيردها الأَصل إلى الجمع ، بخلاف «مدينة ومدائن»(١) ، وقوله : ﴿ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ يحتمل أَن تكون [مَنْ] في موضع نصب على ثلاثة أَوجه : أَحدها أَن يكون عطفاً على [مَعايِش] ، كأَن الله تعالى عدَّد النِّعم في المعايش وهي ما يُؤْكل ويُلْبس ، ثم عدَّد النعم في الحيوان والعبيد والضياع وغير ذلك مما ينتفع به الناس وليس عليهم رزقهم ، والوجه الثاني أَن تكون [مَنْ] معطوفة على موضع الضمير في [لَكُمْ] ، وذلك أَن التقدير : وأَعَشْناكم وأَعشْنا(٢) أمماً غيركم من الحيوان ، وكأَن الآية – على هذا – فيها اعتبار وعرض آية ، والوجه الثالث أَن تكون [مَنْ] منصوبة بإضمار فعل يقتضيه الظاهر وتقديره : وأَعَشْنا مَنْ لسْتُم له برازقين ، ويحتمل أَن تكون [مَنْ] في موضع خَفْض عطفاً على الضمير في [لَكُمْ] ، وهذا قلق في النحو ، لأَنه العطف على الضمير المجرور وفيه قُبْح ، فكأَنه قال : ومن لَسْتُمْ له برازقين وأَنتم تنتفعون به .

---

(١) يقول النحويون : إن الهمزة إنما تكون في هذه الياء إذا كانت زائدة ، مثل صحيفة وصحائف ، فأما معايش فالياءُ أصلية لأنها من العيش ، ومَعيشة وزنها مَفْعِلة ، والياءُ أصلها متحركة فلا تنقلب في الجمع همزة . وبهذا يتضح كلام المؤلف .

(٢) في بعض الأصول : «وأمعشناكم وأمعشنا أُمَماً غيركم» بالميم ، وفي بعض آخر : «وأنْعَشناكم ... » بالنون .

وقوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزَائِنُهُ ﴾(١) ، قال ابن جريج : هو المطر خاصة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وينبغي أن يكون أَعَمَّ من هذا في كثير من المخلوقات ، و «الخزائن» المواضع الحاوية ، وظاهر هذا أن الماءَ والريح ونحو ذلك موجود مخلوق ، وهو ظاهر قولهم في الريح : «عتَت على الخزائن ، وانفتح منها قدر حلقة الخاتم ، ولو كان قدر منخر الثور لأَهلك الأَرض» ، إلى غير ذلك من الشواهد ، وذهب قوم إلى أن كونها في القدرة هو خَزْنُهَا ، فإذا شاءَ الله أوجدها ، وهذا أيضاً ظاهر في أشياءَ كثيرة ، وهو لازم في الأَعراض إذا عَمَّمْنا لفظة «شيءٍ» ، وكيفما كان الأَمر فالقدرة تسعه وتُتْقنه .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ ﴾ ، ما كان من المطر ونحوه فالإنزال فيه متمكن ، وما كان من غير ذلك فإيجاده والتمكين من الانتفاع به إنزالٌ على تجوز ، وقرأ الأَعمش : « وَمَا نُرْسِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ معْلُوم »(٢) ، وقوله : ﴿ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ روي فيه ابن مسعود وغيره أنه ليس عامٌ أَكثر مطراً من عام ، ولكن ينزله الله في مواضع دون مواضع .

(١) [إنْ] نافية ، و [مِنْ] زائدة ، وأصل الكلام : لا شيء إلا عندنا خزائنه .
(٢) قال أبو حيان في البحر المحيط : « وهي قراءة تفسير معنى ، لا أنها لفظ قرآن لمخالفتها سواد المصحف » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

يقال : لقحت الناقة والشجرة فهي لاقحة إذا حملت ، والرياح تلقح الشجر والسحاب ، فالوجه في الريح أنها مُلَقِّحَة لا لاقحة ، وتتجه صفة الرياح بـ [لَوَاقِح] على أربعة أوجه : أولها وأَوْلاها أن جعلها لاقحة حقيقة ؛ وذلك أن الريح منها ما فيه عذاب أو ضر أو نار ، ومنها ما فيه رحمة أو مطر أو نصر أو غير ذلك ، فإذاً هي تَحْمِلُ مَا حَمَّلَتها القدرة ، أو ما علقته من الهواء أو التراب أو الماء الذي مرت عليه ، فهي لاقحة بهذا الوجه ، وإن كانت أيضاً تلقح غيرها وتصير إليه نفعها ، والعرب تُسمِّي الجنوب الحامل واللاقحة ، وتسمِّي الشمال الحايل[1] والعقيم ومَحْوَة لأنها تمحو السحاب ، روى

(١) أي التي لا تحمل خيراً ، يقال : حالت النَّاقة تحيل حيالا : لم تحمل ، قال الشاعر :
مِنْ سَرَاةِ الهِجَانِ صَلَّبَهَا العُضْـ ـضُ ورَعْيُ الحِمَى وطولُ الحِيَالِ

أبو هريرة أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : (الرِّيح الجنوب من الجنة ، وهي اللواقح التي ذكر الله ، وفيها منافع للناس)(١) ، ومن هذا قول الطِّرِمَّاح :

قَلِقٌ لأَفْنَانِ الرِّيَا ح لِلَاقِحٍ منها وحائل (٢)

وقول أبي وجزة :

. . . . مِنْ نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفَاقِ. . . .(٣)

فجعلها حاملا بنسل .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السحاب ، وابن جرير ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه ، والديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وللحديث بقية هي (والشمال من النار تخرج فتمر بالجنة فيصيبها نعمة منها فبَرْدها هذا من ذلك) . (الدر المنثور ، وفتح القدير) .

(٢) اللَّاقح : الجنوب ، والحائل : الشمال ، وتسمى الشمال عقيماً ، كما سمَّاها الطِّرِمَّاحُ حائلا ، وقال أبو عليٍّ في الحجة : «الرياح أربع : الشمال ، والجنوب ، والصَّبا ، والدبور ، فأما الشمال فمن عن يمين القبلة ، والجنوب من عن شمالها ، والصَّبا والدبور متقابلتان ، فالصَّبا من قِبَل المشرق ، والدبور من قِبَل المغرب ، وإذا جاءت الريح بين الصَّبا والشمال فهي النكباء» .

(٣) هذا جزء من البيت ، وقد سبق الاستشهاد به والحديث عنه في هذا الجزء عند تفسير قوله تعالى في الآية (١٢) من هذه السورة : ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ، والبيت بتمامه :

حَتَّى سَلَكْنَ الشَّوَى مِنْهُنَّ في مَسَكٍ مِنْ نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفَاقِ مِهْدَاجِ

والشاهد هنا أنه جعل الريح التي تجوب الآفاق حاملا بماء تكونت منه بعد ذلك بِرَكٌ أدخلت فيها الحمر الوحشية قوائمها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويخرج هذا على أنها ملقحة فلا حجة فيه .

والثاني أن يكون وصفها بـ [لَوَاقِـحَ] من باب قولهم : «ليل نائـمٌ» ، أي : فيه نوم ومعه ، «ويوم عاصف» ونحوه ، فهذا على طريق المجاز . والثالث أن توصف الرياح بـ [لَوَاقِـح] على جهة النسب ، أي : ذات لقح ، كقول النابغة :

كِليني لِهَمٍّ يا أُمَيْمَـــةَ ناصِبِ . . . . (١)

أي : ذي نصب . والرابع أن يكون [لَوَاقِح] جمع «ملقحة» على حذف زوائده ، فكأنه «لَقِحة» فجمعها كما تجمع «لاقحة» ، ومثله قول الشاعر :

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضارعٌ لِخُصومَـــةٍ وأَشْعَثُ مِمَّنْ طَوَّحَتْهُ الطَّوَائِـحُ (٢)

(١) البيت بتمامه :

كِلِيني لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِبِ وَلَيْلٍ أُقاسيه بَطِيءِ الكَوَاكِبِ

وهو مطلع قصيدة للنابغة يمدح بها عمرو بن الحارث الأعرج ، حين هرب من النعمان بن المنذر ، وفيه يطلب إلى أميمة أن تتركه لهذا الهم الذي ينصب فيه ويتعب ، ولهذا الليل الطويل الذي لا يريد أن يفارقه . والشاهد هنا أن «ناصب» بمعنى «ذي نصب» على جهة النسب ، وهذا رأي من الآراء التي قيلت في البيت ، وقال الأصمعي : ناصب : ذي نصب ، مثل : ليل نائم ، أي ذو نوم ، ورجل دارع ، أي ذو درع ، وكذلك قال سيبويه ، وقال في اللسان : هَمٌّ ناصب : مُنْصِب ، وحكى أبو علي نَصَبَه ! (هَمٌّ) . فهل يا تُرى يريد أنه اسم فاعل قياسي جارٍ على فعله ، وليس على النَّسَب ولا على التجوز في الإسناد ؟

(٢) هذا البيت لنهشل بن حريّ ، وقد استشهد به أبو عبيدة عند تفسير هذه الآية ونسبه لنهشل ، وكذلك نسبه البغدادي لنهشل ، وأورده صاحب (اللسان – طيح) مع اختلاف في بعض الألفاظ ، قال : وأنشد سيبويه – البيت ، ثم قال – أي سيبويه – : «الطوائح» على حذف الزائد ، أو على النسب .

وإنما طَوَّحَتْهُ المطاوح ، وعلى هذا النحو فسَّرها أبو عبيدة في قوله : «لواقح ملاقح» ، وكذلك العبارة عنها في كتاب البخاري : «لواقح ملاقح ملقحة» .

وقرأ الجمهور : [الرِّيَاحَ] بالجمع ، وقرأ الكوفيون : حمزة ، وطلحة بن مصرف ، والأعمش ، ويحيى بن وثاب : [الرِّيحَ] بالإفراد ، وهي للجنس فهي في معنى الجمع ، ومثَّلها الطبريُّ بقولهم : «قميص أخلاقٌ ، وأرضٌ أغفال»(١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله من حيث هو أجزاءٌ كثيرة تجمع صفته ، فكذلك «ريح لواقح» لأنها متفرقة الهبوب ، وكذلك «دارٌ بلاقع» ، أي : كل موضع منها بلقع . وقال الأعمش : إن في قراءة عبد الله «وأَرْسَلْنَا الرِّيحَ تَلْقح» ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (الريح

(١) عبارة الطبري تقول : «إن الريح وإن كان لفظها واحداً فمعناها الجمع ، لأنه يقال : جاءت الريح من كل جانب ، فقيل : لواقح لذلك ، فيكون معنى جمعهم نعتها وهي في اللفظ واحدة معنى قولهم : أرض سباسب ، وأرض أغفال ، وثوب أخلاق ، كما قال الشاعر :

جاء الشِّتَاءُ وقَميصي أخْـــلاقْ شَرَاذِمٌ يَضْحَكُ مِنْهُ التَّوَّاقْ

وكذلك تفعل العرب في كل شيء اتسع » . اهـ . والسباسب : جمع سَبْسَب ، وهي المفازة أو الأرض البعيدة المستوية ، وأغفال : لا عَلَم فيها ، والتَّوَّاق في البيت هو ابن الراجز ، قال ذلك في (اللسان ــ خَلَق) .

من نفس الرحمن)[١] . ومعنى الإضافة هنا إضافة خَلْق إلى خالق ، كما قال : «من روحي» ، ومعنى «من نفس الرحمن» أي من تنفيسه وإزالته الكُرَب والشدائد ، فمن التنفيس بالريح النَّصْر بالصبا[٢] ، ودُرُور الأَرزاق بها ، وما لها من الخدمة في الأَرزاق وجَلْب الأَمطار وغير ذلك مما يكثر عدُّه ، ولقد حُدِّثْتُ أَن ابن أَبي قحافة رحمه الله فَسَّر هذا الحديث نحو هذا ، وأَنشد في تفسيره :

فإنَّ الصَّبا ريحٌ إذا ما تنَفَّسَتْ على نفسِ مَهْمُوم تَجَلَّت همومها[٣]

وهذا من جملة التنفيس .

والعرب تقول : أَسقَى وسقى بمعنى واحد ، قال لبيد :

سقَى قَوْمِي بَني مجـــدٍ وَأَسْقَى نُمَيْراً والقَبَائِلَ مِنْ هِـــلَالِ[٤]

---

(١) النَّص الذي وجدناه في هذا المعنى هو ما رواه البخاري في الأدب ، وأبو داود ، والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة : (الريح من روح الله ، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب ، فإذا رأيتموها فلا تسبوها ، واسألوا الله خيرها ، واستعيذوا بالله من شرها) ، قال الإمام السيوطي : حديث صحيح . (الجامع الصغير) .

(٢) الصَّبَا : ريح مَهَبُّهَا من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار (مؤنث) . (المعجم الوسيط) .

(٣) ويروى : «على قلب محزون» ، وتَجَلَّت همومها : ذهبت وانكشفت عنها . والبيت غير منسوب .

(٤) قال صاحبُ (اللسان – سقى) : «سقاه اللهُ الغيثَ وأَسقاه ، وقد جمعها لبيد في قوله : سقى قومي ... البيت» ثم قال : «ويقال : سقيته لشفته ، وأَسقيته لماشيته وأَرضه» . وهذا يتفق تماماً مع ما قاله ابن عطية ، ومع ما نقله عن أبي عبيدة .

فجاء باللغتين ، وقال أبو عبيدة : أما إذا كان من سَقْي الشفة خاصة فلا يقال إلَّا سَقَى ، وأما إن كان لسَقْي الأَرض والثمار وجملة الأَشياء فيقال : أسقى ، وأما الداعي لأَرض أو غيرها بالسقي فإنما يقال فيه : أسقى ، ومنه قول ذي الرمة :

وَقَفْتُ عَلَى رسْمٍ لِمَيَّةَ نَاقَــتِي ... فما زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وأُخاطِبُهْ
وأَسْقِيهِ حتَّى كادَ مِمَّــا أَبُثُّــهُ ... تُكَلِّمُنِي أَحْجارُهُ وَمَلاعِبُــهْ [1]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

على أن بيت لبيد دعاءٌ وفيه اللغتان .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ﴾ الآية . هذه الآية مع الآيات التي قبلها تضمنت العبرة والدلالة على قدرة الله تعالى ، وما يوجب توحيده وعبادته ، فمعنى هذه الآية : وإنا نحن نحيي من نشاءُ بإخراجه من العدم إلى وجود الحياة ، ونردُّه عند البعث

(١) البيتان في الديوان ، وقد استشهد بهما الطبري في تفسيره ، وأبو عبيدة في كتابه «مجاز القرآن» ، قال : يقال : سقيت الرجل ماءً وشراباً من لبن وغير ذلك ، وليس فيه إلا لغة واحدة بغير ألف ، إذا كان في الشَّفة ، وإذا جعلت له شِرْباً فهو أسْقَيْتُه وأسْقَيت أرضه وإبله ، لا يكون غير هذا ، وكذلك إذا استسقيت له . وهو يتفق مع كلام المؤلف هنا إلا في النقطة الأخيرة ، لأن ابن عطية يقول : «بيت لبيد دعاءٌ وفيه اللغتان» . والرسم : الأثر الباقي من الدار بعد أن عَفَتْ وأسْقِيه : أدعو له بالسقيا . وأَبُثُّه أشكو إليه ، وقد أبدع الشاعر في تصويره وكاد يحرك الأحجار والملاعب .

من مرقده ميتاً ، ونميت بإزالة الحياة عمن كان حيًّا . ﴿ وَنَحْنُ ٱلْوَارِثُونَ ﴾ أي : لا يبقى شيءٌ سوانا ، وكل شيءٍ هالك إلا وجهه ، لا ربَّ غيره .

ثم أخبر تعالى بإحاطة علمه بمن تقدم من الأُمم وبمن تأخر في الزمن ، من لدن أُهبط آدم إلى الأرض إلى يوم القيامة ، وأعلم أنه هو الحاشر لهم ، الجامع لِعرض يوم القيامة على تباعدهم في الأقطار والأزمان ، وأنَّ حِكْمَته وعِلْمه يأتيان بهذا كله على أتَمِّ غاياته التي قدرها وأرادها . وقرأ الأعرج : [يَحْشِرُهُم] بكسر الشين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا سياق معنى الآية ، وهو قول جمهور المفسرين . وقال الحسن : معنى قوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ ﴾ أي : في الطاعة والبدار إلى الإيمان والخيرات ، و [ٱلْمُسْتَأْخِرِينَ] بالمعاصي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإن كان اللفظ يتناول كل من تقدم وتأخر على جميع وجوهه ، فليس يطرد سياق معنى الآية إلا كما قدمناه . وقال ابن عباس ، ومروان بن الحكم ، وأبو الجوزاء : نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ ﴾ الآية في قوم كانوا يصلون مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت امرأة جميلة تصلي وراءه ، فكان بعض القوم يتقدم في الصفوف

لئلا تفتنه ، وكان بعضهم يتأخر ليسرق النظر إليها في الصلاة ، فنزلت الآية فيهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وما تَقَدَّم الآية من قوله : ﴿ وَنَحْنُ ٱلْوَارِثُون ﴾ وما تأخر من قوله : ﴿ وإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُم ﴾ يضعف هذه التأويلات ، لأنها تُذهب إيصال المعنى ، وقد ذكر ذلك محمد بن كعب القرظي لعون بن عبد الله (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ الآية . [الإنسان] هنا للجنس ، والمراد آدم عليه السلام ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : سُمِّي بذلك لأنه عُهِد إليه فنسي ، ودخل مَنْ بعده في ذلك إذ هو من نسله . و «الصلصال» الطين الذي إذا جف صَلْصَل ، هذا قول فرقة ، منها من قال : هو طين الخزف ، ومنها قول الفراء : هو الطين

(١) أما القرظي فهو محمد بن كعب بن سليم بن أسد أبو حمزة القرظي ، المدني ، نزل الكوفة مدة ، ثقة ، عالم ، من الطبقة الثالثة ، ولد سنة أربعين على الصحيح ، قال البخاري : إن أباه كان ممن لم ينبت من بني قريظة . (تقريب التهذيب) .

وأما عون ، فهو عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي ، خطيب ، راوية ، ناسب ، شاعر ، كان من آدب أهل المدينة ، وسكن الكوفة فاشتهر فيها بالعبادة والقراءة ، كان يقول بالإرجاء ، ثم رجع ، وخرج مع ابن الأشعث ثم هرب ، وصحب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في خلافته . (تهذيب التهذيب ــ الأعلام) .

الحر يخالطه رمل دقيق . وقال ابن عباس : خلق من ثلاثة : من طين لازب ، وهو اللازق الجيد ، ومن صلصال ، وهو الأرض الطيبة يقع عليها الماء ثم ينحسر فتتشقق وتصير مثل الخزف ، ومن حمإٍ مسنون ، وهو الطين فيه الحمأة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكان الوجه – على هذا المعنى – أن يقال : «صلال» ، لكن ضوعف الفعل من فائه ، وأُبدلت إحدى اللامين من «صلال» صاداً ، وهذا مذهب الكوفيين ، وقاله ابن جني ، والزبيدي ، ونحوهما على نحو البصرة ، ومذهب جمهور البصريين أنهما فعلان متباينان ؛ وكذلك قالوا في ثَرَّار وثَرْثَارة ، قال بعضهم : تقول : صلَّ الخزف ونحوه إذا صوت بتمديد ، فإذا كان في صوته ترجيع كالجرس ونحوه قلت : صَلْصَلَ ، ومنه قول الكُميت :

فيها الْعَنَاجِيج تَرْدِي في أَعِنَّتِهَا   شُعْثاً تُصلْصِلُ في أَشْدَاقِهَا اللُّجُمُ[1]

(١) العَنَاجيج : جمع عُنْجُوج ، وهو الرائع من الخيل ، وقد استعمل في الإبل أيضاً ، ولكن الوصف هنا للخيل ، ومعنى تَرْدِي أنها تَرْجُم الأرض في عدوها ، نقل صاحب اللسان عن الأصمعي قوله : إذا عدا الفرسُ فرجم الأرض رجماً قيل : رَدَى بالفتح يردِي رَدْياً ورَدَياناً ، والشُّعْث : التي تَلَبَّد شعرها واغبَرَّ ، وصَلْصَلة اللجام : صوتُه إذا ضوعف ، قال الليث (ونقله عنه في اللسان) : يقال : صلَّ اللجامُ إذا توهمتَ في صوته حكايةَ صوت صَلْ ، فإن توهمت ترجيعاً قلتَ : صلصل اللجام ، وهو ما قاله ابن عطية هنا واستشهد عليه بالبيت .

وقال مجاهد وغيره : [صَلْصَال] هنا إنما هو من : «صَلَّ اللَّحْم» إذا أَنْتَن ، فجعلوا معنى [صَلْصَالٍ] و[حَمَإٍ] في لزوم النَّتَن شيئاً واحداً .

و «المَسْنُون» ، قال معمر : معناه : المنتن ، وهو من «أسِن الماءُ» إذا تغير ، والتصريف يردُّ هذا القول . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المسنون : الرطب ، وهذا تفسير لا يخص اللفظة ، وقال الحسن : المعنى : سن ذريته على خلقه ، والذي يترتب في [مَسْنُون] إما أن يكون : محْكُوك مُحْكم العمل أملس السطح . فيكون من معنى المسنّ والسنان وقولهم : «سننت السكين ، وسننت الحجر» إذا أحكمت مَلْسه ، ومن ذلك قول الشاعر :

ثُمَّ دافَعْتُهَا إلَى القُبَّـةِ الْخَضْـ ـراءِ تَمْشِي فِي مرْمَرٍ مَسْنُـونِ[1]

(١) نسب هذا البيت إلى عبد الرحمن بن حسَّان ، وذلك أن يزيد بن معاوية قال لأبيه : ألا ترى إلى عبد الرحمن بن حسَّان يُشَبِّب بابنتك ؟ فقال معاوية : ما قال ؟ فقال : قال :

هِـيَ زَهْرَاءُ مِثْلُ لُؤْلُؤَةِ الغَوّ اصِ مِيزَتْ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونِ

فقال معاوية : صدق ، فقال يزيد : إنه يقول :

وإذا ما نَسَبْتَهَـا لَمْ تَجِـدْهَا في سَنَاءٍ مِنَ المَكَارِمِ دُونِ

قال : وصدق ، قال : فأيْنَ قوله :

ثم خَاصَرْتُها إلى القُبَّةِ الخَضْـ ـراء تَمْشي في مَرْمَرٍ مَسْنُونِ

قال معاوية : كذب .

قال ابن بري : وتُروى هذه الأبيات لأبي دَهْبَل ، وهي في شعره ، يقولها في رمْلَةَ بنت معاوية ، وأول القصيدة :

طَالَ لَيْلِي وَبِتُّ كَالمَجْنُـــونِ وَمَلِلْتُ الثَّـوَاءَ بِالمَاطِـــرُونِ

(راجع اللسان — سَنَن) فللخبر بقية .

أي : مُحْكم الإملاس ، وإما أن يكون بمعنى الْمَصْبُوب : تقول : «سَنَنتُ الترابَ والماءَ» إذا صببْتَهُ شيئاً بعد شيءٍ ، ومنه قول عمرو ابن العاص رضي الله عنه لمن حضر وفاته : «إذَا أدخلتُموني في قبري فسُنُّوا على التراب سنًّا» ، ومن هذا سنُّ الغارة . وقال الزّجاج : هو مأْخوذ من كونه على سُنَّة الطريق ، لأَنه إنما يتغير إذا فارق الماءَ ، فمعنى الآية على هذا : من حمإٍ مصبوب يوضع بعضه فوق بعض على مثال وصورة .

[وَٱلْجَآنَّ] يراد به جنس الشياطين ، ويُسَمَّون جِنَّة وجَانًّا وجِنًّا لاستتارهم عن العين ، وسئل وهب بن مُنَبِّه عنهم فقال : هم أَجناس : فأَما خـالص الجِنِّ فهم ريح لا يأْكلـون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون ، ومنهم أَجناس تفعل هذا كله ، منها السعالي والغول وأَشباه ذلك . وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن : «الجأَن» بالهمز[(١)]، والمراد بهذه الخلقة إبليس أَبو الجن ، وفي الحديث : (إن الله تعالى خلق آدم من جميع أَنواع التراب ، الطيب والخبيث ، والأَسود والأَحمر)[(٢)]، وفي سورة البقرة إيعاب هذا . وقوله : ﴿مِنْ قَبْلُ﴾

---

(١) وهي أيضاً قراءة عمرو بن عبيد ، قاله في «البحر المحيط» .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، وأبو داود ، والترمذي ، والحاكم في مستدركه ، والبيهقي في السنن ، عن أبي موسى . ورمز له الإمام السيوطي بالصحة ، ولفظه كما في «الجامع=

لأَن إبليس خلق قبل آدم بمدة ، وخلق آدم آخر الخلق . و « السَّمُومُ » في كلام العرب إفراط الحرّ حتى يقتل ، من نارٍ أو شمس أو ريح ، وقالت فرقة : السَّموم بالليل ، والحرُور بالنهار ، وأَما إضافة النار إلى السموم في هذه الآية فيحتمل أَن تكون النار أَنواعاً ويكون السموم أمراً يختص بنوع منها فتصح الإضافة حينئذ ، وإن لم يكن هذا فَيُخَرَّج هذا على قولهم: « مسجد الجامع» و « دار الآخرة » على حذف مضاف.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

[إِذْ] نصبت بإضمار فعل مقدر ، تقديره : واذكر إذ قال ربك ، و « البشر » ها هنا آدم ، وهو مأْخوذ من البشرة ، وهي وجه الجلد

= الصغير » : (إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والسهل والحسن والخبيث والطيب وبين ذلك) .

في الأَشهر من القول ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (وأَنْقوا البشرة)[١] . وقيل : البشرة ما يلي اللحم ، ومنه قولهم في المثل : «إنما يُعَاتَبَ الأَديمُ ذُو البَشَرَة»[٢] ؛ لأَن تلك الجهة هي التي تبشر ، وأَخبر الله تعالى الملائكة بعجب عندهم ؛ وذلك أَنهم كانوا مخلوقين من نور ، فهي أَجسامٌ لطاف ، فأَخبرهم أَنه يخلق جسماً حيًّا ذا بشرة ، وأَنه يخلقه من صلصال ، والبِشْر والبِشارة أَيضاً أَصلهما البَشَرة لأَنهما فيها يظهران .

و [سَوَّيْتُهُ] معناه : كمَّلته وأَتقنته حتى إذا استوت أَجزاؤُه على ما يجب ، وقوله : ﴿مِنْ رُوحِي﴾ إضافة خلق وملك إلى خالق مالك ، أَي : من الروح الذي هو لي ، ولفظ الروح هنا للجنس ، وقوله : [فَقَعُوا] من وقع يَقَع ، وفتحت القاف لأَجل حرف الحلق ، وهذه اللفظة تُقَوِّي أَن سجود الملائكة إنما كان كالمعهود عندنا ؛ لا أَنه خضوع وتسليم وإشارة كما قال بعض الناس ، وشبهوه بقول الشاعر :

---

(١) (فاغْسِلُوا الشعر وأَنْقوا البشرة) ، هكذا رواه الترمذي ، وابن ماجه في الطهارة . (المعجم المفهرس لأَلفاظ الحديث النبوي) .

(٢) جاء في «مجمع الأَمثال» للميداني : «المعاتبة : المعاودة ، وبشرة الأَديم : ظاهره الذي عليه الشعر ، أَي : إنَّما يُعاد إلى الدّباغ من الأَديم ما سلمت بَشَرَته ، يُضْرَبُ لمن فيه مراجعة ومُسْتَعْتَب ، قال الأَصمعي : كل ما كان في الأَديم محتمل ما سلمت البشرة ، فإذا نغلت البشرة بطل الأَديم» .

فَكِلْتَاهُمَا خرَّتْ وأَسْجَدَ رأْسُهَا   كَمَا سَجَدتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحَنَّفِ(١)

وهذا البيت يشبه أن يكون السجود فيه كالمعهود عندنا ، وحكى الطبري في تفسير هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : «خلق الله ملائكة وأمرهم بالسجود لآدم فأبوا ، فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم ، ثم خلق آخرين فكذلك ، ثم خلق آخرين فأمرهم بالسجود فأطاعوا إلا إبليس فإنه كان من الأَولين» ، وقوله : «من الأولين» يحتمل أن يريد : من الأولين في حالهم وكفرهم ، ويحتمل أن يريد أنَّه بقِيَ منهم .

وقوله : ﴿ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ هو عند سيبويه تأكيد بعد تأكيد ، يتضمن الآخر ما تضمن الأَول ، وقال غيره : [كُلُّهُمْ] لَوْ وُقف عليه لصلحت للاستثناء ، وصلحت على معنى المبالغة مع أن يكون البعض لم يسجد .

---

(١) تأتي «خرَّ» بمعنى سجد ، فقد نقل صاحب (اللسان ـ خرر) أن الأخفش قال : «خرَّ : صار في حال سجوده» ، وتأتي «أسجد» بمعنى «سجد» ، قال الزمخشري في (أساس البلاغة ـ سجد) : «وسجد البعير وأسجد : طامن رأسه لراكبه» . «ولم تحنَّف» لم تُسْلِمْ ، وابن عطية يستشهد بالبيت على أن السجود هنا سجود حقيقي كالمألوف عندنا ، وليس مجرد خضوع وتسليم وإشارة .

هذا والبيت لأبي الأخزر الحماني ، وهو في (سيبويه) ، وفي (اللسان نصر) ، وأنشده في (الإنصاف ٤٤٥) ، وفيه يصف الشاعر ناقتين خرَّتا من الإعياء ، أو نُحِرتا فطأطأتا رأسيهما ، فشبه إسجادهما بسجود النصرانة ، والنحويون يستشهدون بالبيت على أن (نصرانة) مؤنثة بالهاء ، وأن المذكر منها (نصران) وإن لم يستعمل في الكلام إلا بياء النسب (نصراني) ، وأن (النصارى) جمع (نصران) كما أن ندامى جمع ندمان .

وهذا كما يقول القائل : «كلُّ الناس يعرف كذا» ، وهو يريد أن المذكور أمر مشتهر ، فلما قال : [أَجْمَعُونَ] رفع الاحتمال في أن يبقى منهم أحد ، واقتضى الكلامُ أن جميعهم سجد ، وقال المبرّد : لو وُقف على [كُلُّهُمْ] لاحتمل أن يكون سجودهم في مواطن كثيرة ، فلما قال : [أَجْمَعُونَ] دلَّ على أنهم سجدوا في موضع واحد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واعترض قول المبرّد بأنه جعل قوله تعالى : [أَجْمَعُونَ] حالا بمعنى «مُجْتَمِعِينَ» ، ويلزمه – على هذا – أن يكون [أَجْمَعُونَ] هنا على أن يقرب من التنكير إذ هو معرفة لكونه يلزم إتباع المعارف ، والقراءة بالرفع تَأْبَى قوله .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ ، قيل : إنه استثناءٌ من الأول ، وقيل : إنه ليس من الأول ، وهذا متركب على الخلاف في إبليس ، هل هو من الملائكة أم لا ؟ والظاهر من كثير من الأحاديث ومن هذه الآية أنه من الملائكة ، وذلك أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود ، ولو لم يكن إبليس من الملائكة لم يذنب في ترك السجود ، وقد روي عن الحسن بن أبي الحسن أن إبليس إنما كان من قبيل الجن ، ولم يكن قط ملَكاً ، ونسب ابن فُورك القول إلى المعتزلة ، وتعلّق من

قال هذا بقوله تعالى في صفته : ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾[١] ، وقالت الفرقة الأُخرى : لا حجة في هذا لأن الملائكة قد تُسمَّى جِنًّا لاستتارها ، وقد قال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَباً﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ يَاإِبْلِيسُ﴾ ، قيل : إنه حينئذ سمَّاه إبليس ، وإنما كان اسمه قَبْلُ عَزَازِيل[٣] ، وهو من الإبلاس ، وهو الإبْعَاد ، أي : يا مُبْعَد . وقالت طائفة : إبليس كان اسمه ، وليس باسم مشتق ، بل هو أعجمي ، ويقضي بذلك أنه لا ينصرف ، ولو كان عربياً مشتقاً لكان كإجفيل ، من أجفل ، وغيره ، ولكان منْصرفاً ، قاله أبو علي الفارسي . وقوله : ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ ، [أنْ] في موضع نصب ، وقيل : في موضع خفض ، والأصل : «مالك في ألا تكون» ، وقول إبليس : ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾ ليس هذا موضع كفره عند الحذاق ، لأن إبايته إنما هي معصية فقط ، وأما تعليله فإنما يقتضي أن الله خلق خلقاً مفضولا وكَلَّف خلقاً أفضل منه أن يذلَّ له ، فكأنه قال :

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٥٠) من سورة (الكهف) : ﴿فَسَجَدُوا إلا إبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ .

(٢) من الآية (١٥٨) من سورة (الصافات) .

(٣) وقيل : كان اسمه (الحارث) ، والاسمان منقولان عن ابن عباس رضي الله عنهما ، (راجع الطبري) .

«وهذا جور» ؛ وذلك أن إبليس لما ظن أن النار أفضل من الطين ظن أن نفسه أفضل من آدم من حيث النار تأكل الطين ، فقاس وأخطأ في قياسه ، وجهل أن الفضائل إنما هي حيث جعلها المالك للجميع ، لا ربَّ غيره .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

الضمير في [مِنْها] للجنة وإن لم يجر ذكرها ، فالقصة تتضمنها ، ويحتمل أن يعود الضمير على صيغة الملائكة . و «الرجيم» المشئوم ، أي : المرجوم بالقول والشتم ، و ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء ، ومنه قول الشاعر :

ولَمْ يبْقَ سِوَى ٱلْعُـــدْوا نِ دِنَّــاهُمْ كما دَانُوا (١)

وسأَل إبليس النَّظرة إلى يوم البعث فأَعطاه الله إياها إلى وقت معلوم ، واختُلف فيه - فقيل : إلى يوم القيامة ، أي يكون آخر من يموت من الخلق ، قاله الطبري وغيره . وقيل : إلى وقت غير معين ولا مرسوم بقيامة ولا غيرها ، بل علمه عند الله وحده . وقيل : بل أمره كان إلى يوم بدر ، وأنه قتل يوم بدر ، وهذا - وإن كان رُوي - فهو ضعيف . والمُنْظر : المؤخَّر . وقوله : [رَبِّ] مع كفره يخرج على أنه يُقِرُّ بالربوبية والخلق ، وهو الظاهر من حاله وما تقتضيه فيه الآيات والأَحاديث ، وهذا لايدفع في صَدْر كفره .

وقوله : ﴿بِما أَغْوَيْتَنِي﴾ ، قال أبو عبيدة ، وغيره : «أَقْسَمَ بالإِغواءِ» ، كأَنه جعله بمنزلة قوله : «ربِّ بقدرتك عليَّ وقضائك» ، ويحتمل أن يكون بالسبب ، كأَنه قال : «ربِّ والله لأُغوينهم بسبب إغوائك لي ومن أَجله وكفاءً له» ، ويحتمل أَن يكون المعنى تجلداً منه ومبالغة في الجد ، أي : «بحالي هذه وبعـدي من الخير

(١) المعنى : جازيناهم كما جازَوْا ، ومن نفس المعنى قوله تعالى : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّين﴾ ، قال قتادة : معناه : مالك يوم يُدان فيه العباد ، أي يجازون بأعمالهم ، وفي المثل : «كما تَدين تُدان» ، أي كما تجازي تُجازَى ، وقال خُوَيْلد بن نوفل الكلابي للحارث بن أبي شَمِر الغَسَّاني وكان اغتصبه ابنته أبياتاً منها:

يا حارِ أيْقِنْ أنَّ مُلْكَكَ زائلٌ واعلَمْ بأنَّ كما تدينُ تُدانُ

والله لأفعلن ولأُغوِيَنَّ » ومعنى ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي الشهوات والمعاصي ، والضمير في [لَهُمْ] لذرية آدم وإن كان لم يجر لهم ذكر ، فالقصة بجملتها حيث وقعت كاملة تَتَضَمَّنُهم ، والإغواء : الإضلال » .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والحسن ، والأعرج : [ٱلْمُخْلَصِين] بفتح اللام ، أي الذين أخلصتهم أنت لعبادتك وتقواك ، وقرأ الجمهور بكسر اللام ، أي الذين أخلصوا الإيمان بك وبرسولك .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ ، القائل هو الله تبارك وتعالى ، ويحتمل أن يكون ذلك بواسطة ، وقرأ الضحاك ، وحُمَيْد ، والنَّخَعي ، وأبو رجاء ، وابن سيرين ، وقتادة ، وقيس ابن عبَّاد ، ومجاهد ، وغيرهم : ﴿عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ﴾ من العُلُوِّ والرفعة ، والإشارة بـ [هَٰذَا] - على هذه القراءة - إلى الإخلاص ، لما استثنى إبليس من أخلص قال الله له : هذا الإخلاص طريق رفيع مستقيم لا تنال أنت بإغوائك أهله . وقرأ جمهور الناس : [عَلَيَّ] بياء مشددة مفتوحة ، والإشارة بـ [هَٰذَا] - على هذه القراءة - إلى انقسام الناس إلى غاو ومخلص ، لما قَسَّم إبليس الناس هذين القسمين قال الله له : هذا طريق إِلَيَّ ، أي : هذا أمر مصيره إِلَيَّ ، والعرب تقول : «طريقك في هذا الأمر على فلان» ، أي : إليه يصير النظر في أمرك . وهذا نحو

قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾(١) ، والآية - على هذه القراءة - خبر تتضمن وعيداً (٢) .

ثم ابتدأ الإخبار عن سلامة عباده المتقين من إبليس ، وخاطبه بأنه لا حجة له عليهم ولا ملكة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والظاهر من قوله : [عِبَادِي] الخصوص في أهل الإيمان والتقوى لا عموم الخلق ، وبحسب هذا يكون ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ مستثنى من غير الأول ، والتقدير : لكن من اتبعك من الغاوين لك عليهم سلطان ، وإن أخذنا العباد عاماً في عباد الناس ، إذ لم يقدر الله لإبليس سلطاناً على أحد ، فإنا نقدر الاستثناء في الأقل في القدر(٣) من حيث لا قدر للكفار ، والنظر الأول أصوب ، وإنما الغرض ألا نقع في استثناء الأكثر من الأقل وإن كان الفقهاء قد جوزوه ، وقال أبو المعالي : ليس معروفاً في استعمال العرب ، وهذه الآية أمثل ما احتج به مُجَوِّزوه .

---

(١) الآية (١٤) من سورة (الفجر) .

(٢) قال أبو الحسن في معنى الآية على قراءة الجمهور : «هو كقولك : الدلالة اليوم عليّ ، أي : هذا صراط في ذمّتي وتحت ضماني ، كقولك : صحة هذا المال عليّ ، وتوفية عدله عليّ : وليس معناه عنده أنه مستقيم عليّ ، كقولنا : قد استقام عليّ الطريق ، واستقر عليّ كذا» ، وقال ابن جني : «وما أحسن ما ذهب إليه أبو الحسن فيه» .

(٣) في إحدى النسخ : «في الأقل على القدر» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا حجة لهم في الآية على ما بيَّنته .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ أي موضع اجتماعهم ، والموعد يتعلق بزمان ومكان ، وقد يذكر المكان ولا يحدد زمان الموعد. و [أَجْمَعِينَ] تـأكيد ، وفيه معنى الحال[1] ، وقوله : ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ قيل : إن النار بجملتها سبعة أطباق . أعلاها جهنَّم ، ثم لظَى ، ثم الحُطَمَة ، ثم السَّعير ، ثم سَقَر ، ثم الجَحِيم وفيه أبو جهل ، ثم الهاوية ، وإن في كل طبق منها باباً ، فالأبواب – على هذا – بعضها فوق بعض ، وعُبِّر في هذه الآية عن النار جملة بجهنم ، إذ هي أشهر منازلها وأولها ، وهي موضع عصاة المؤمنين الذين لا يخلدون ، ولهذا روي أن جهنم تخرب وتبلى . وقيل : إن النار أطباق كما ذكرنا ، لكن الأبواب السبعة كلها في جهنم على خط استواءٍ ، ثم ينزل من كل باب إلى طبقة الذي يفضي إليه . واختصرت ما ذكر المفسرون في المسافات بين الأبواب ، وفي هواء النار ، وفي كيفية الحال ، إذ هي أقوال كثيرة أكثرها لا يستند ، وهي في حيِّز الجائز ، والقدرة أعظم منها ، عافانا الله من ناره ، وتغمدنا برحمته بِمنِّه .

---

(١) قال أبو حيان في البحر : «وهذا جنوح لمذهب من يزعم أن [أَجْمَعِينَ] تدل على اتحاد الوقت ، والصحيح أن مدلوله مدلول «كلهم» .

وقوله : [جُزْءٌ] ، قرأ الجمهور بالهمز ، وقرأ ابن شهاب بضم الزاي[1] ، وقرأت فرقة : [جُزٌّ] بشد الزاي دون همز ، وهي قراءة ابن القعقاع[2].

قوله عزّ وجلّ :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾

ذكر الله تعالى ما أعد لأهل الجنة عَقِب ذكره ما أعد لأهل النار ليظهر التباين ، وقرأ الجمهور : [وَعُيُونٍ] بضم العين ، وقرأ نُبَيْح ، والجراح ، وأبو واقد ، ويعقوب – في رواية رُوَيْس – بكسر العين ، مِثْل بيوت وشيوخ .

---

(١) قال أبو حيان في البحر : « لعلّه تصحيف من الناسخ ، لأني وجدت في التحرير : وقرأ ابن وثّاب بضمها مهموزاً » فهي قراءة ابن وثاب لا ابن شهاب .

(٢) وجهه أنه حذف الهمزة ، وألقى حركتها على الزّاي ، ووقف بالتشديد ، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف .

وقرأ الجمهور : [ٱدْخُلُوهَا] على الأمر بمعنى يقال لهم : ادخلوها ؛ وقرأ رويس عن يعقوب : [أُدْخِلُوها] على بناء الفعل للمفعول بضم الهمزة وكسر الخاء وضم التنوين في [عُيُونُ] أُلْقي عليه حركة الهمزة[١]. و «السَّلام» ها هنا يحتمل أن يكون السلامة ، ويحتمل أن يكون التحية ، و «الغِلُّ» : الحقد ، وذكر الله تعالى في هذه الآية أنه ينزع الغِلَّ من قلوب أهل الجنة ، ولم يذكر لذلك موطناً ، وجاء في بعض الحديث أن ذلك على الصــراط ، وجاء في بعضها أن ذلك على أبواب الجنة ، وفي لفظ بعضها أن الغِلَّ ليبقى على أبواب الجنة كمعاطن الإبل[٢] .

(١) وعلى هذا تكون قراءة رويس عن يعقوب هي ﴿في جنات وعُيونُ ادْخِلُوها﴾ من الإدخال مع تنوين النون في (عُيُونُ) بالضم لإلقاء حركة الهمزة في الفعل «أُدْخِلَ» عليها ، وقرأ الحسن كذلك مع إبقاء تنوين النون في (عيونٍ) مكسوراً . وفي الرواية عن رُوَيْس خلاف .

(٢) من هذه الأحاديث ما أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يُحْبَس أهل الجنة بعدما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظُلُماتِهم في الدنيا ، ويدخلون الجنة وليس في قلوبهم على بعض غِلٌّ) . ومنها ما أخرجه ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن قتادة في قوله : ﴿وَنَزَعْنَا مَا في صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ ، قال : حدثنا أبو المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يَخْلُص المؤمنون من النار فيُحْبَسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنة ، فو الذي نفسي بيده لأحدهم أهدى لمنزله في الجنة من منزله كان في الدنيا) ، قال قتادة : وكان يقال : ما يُشَبَّه بهم إلا أهل جمعة انصرفوا من جمعتهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا على أن الله تعالى يجعل ذلك تمثيلا بكون يخلقه هناك ونحوه ، وهذا كحديث ذبح الموت [١] ، وقد يمكن أيضاً أن يُسلّ من الصدور ، ولذلك جواهر سود فيكون كمبارك الإبل ، وجاء في بعض الأحاديث أن نزع الغل إنما يكون بعد استقرارهم في الجنة ، والذي يقال في هذا أن الله ينزعه في موطن من قوم ، وفي موطنٍ من آخرين ، وقال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه : «إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم : ﴿وَنَزَعْنَا مَافِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ ، وذكر أن ابناً لطلحة كان عنده[٢] ، فاستأذن الأشتر فحبسه مدة ، ثم أذن له فدخل ، فقال : ألهذا حبستني ؟ وكذلك لو كان ابن عثمان حبستني له ؟ فقال عليٌّ : نعم ، إني أنا وعثمان وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ الآية . وقد رُوي أن المستأذن غير الأشتر .

---

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، وغيرهم ، ولفظه كما في مسند الإمام أحمد (٢–١١٨) : عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا صار أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، جيء بالموت حتى يوقف بين الجنة والنار ، ثم يذبح ، ثم ينادي مناد : يأهل الجنة خلود لا موت ، يأهل النار خلود لاموت ، فازداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ، وازداد أهل النار حزناً على حزنهم) .

(٢) أي كان عند عليٍّ رضي الله عنه ، ومعنى قوله : «فحبسه مدة» : أمهله مدة فلم يأذن له بالدخول فوراً .

و [إِخْوَاناً] نصب على الحال [(١)] ، وهذه أُخُوَّة الدِّين والوُدّ . والأَخ من ذلك يجمع على إخوان وإخْوة ، والأَخ من النسب يجمع إخوة وآخاء [(٢)] ، ومنه قول الشاعر :

. . . . وأيُّ بَنِي الآخاءِ تصْفُو مَذاهِبُهْ؟ [(٣)]

و «السُّرُر» : جمع سرير ، و [مُتَقَابِلِين] الظاهر أَن معناه : في الوجوه ، إذ الأَسِرَّة متقابلة ، فهي أَحسن في الزينة ، قال مجاهد : لا ينظر أَحدهم في قفا صاحبه ، وقيل : متقابلين في المودة ، وقيل غير هذا مما لا يعطيه اللفظ .

---

(١) يجوز أن يكون حالاً من [المُتَّقِينَ] ، أو من المضمر في [ادْخُلُوهَا] ، أو من المضمر في [آمِنِينَ] ، أو يكون حالاً مقدرة من الهاء والميم في [صُدُورِهِم] ، وقد جوَّز أبو البقاء أن يكون حالاً من الضمير في الظرف في قوله : ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ ، واعترض في «البحر» على كونها حالاً من الضمير في [صُدُورهم] ، لأن الحال من المضاف إليه إذا لم يكن معمولاً لما أُضيف على سبيل الرفع أو النصب تَنْدُر ، ولهذا قال بعضهم : إذا كان المضاف جزءاً من المضاف إليه كما في هذا المثال حيث أن الصدور بعض ما أُضيفت إليه جاءت الحال من المضاف ، قال أبو حيان : ونحن نقرر أن ذلك لا يجوز ، والأفضل هنا أنها منصوبة على المدح ، أي : أمدح إخواناً» .

(٢) نقل صاحب اللسان عن الجوهري أن الأخ أصله أَخَوٌ بالتحريك ، لأنه جمع على آخاء مثل آباء ، والذاهب منه الواو ، لأنك تقول في التثنية : أخوان .

(٣) هذا عجز بيت ، ورواية اللسان : «تنبو مناسِبُهْ» . قال : ويدُلُّ على أن أخاً فَعَلٌ مفتوحة العين جمعهم إيَّاها على أفْعَال نحو آخاء ، حكاه سيبويه عن يونس ، وأنشد أبو عليٍّ :

وجَدْتُمْ بَنِيكُمْ دُونَنَا إذْ نُسِبْتُمْ وَأَيُّ بَنِي الآخَاءِ تَنْبُو مناسِبُهْ ؟

و «النَّصَب» : التَّعب ، يقع على القليل من ذلك والكثير ، ومن الكثير قول موسى عليه السلام : ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً﴾[١] ، ومنه قول الشاعر :

كِلِينِي لِهَمٍّ يا أُمَيْمَـةَ نَاصِبِ . . . .[٢]

وقوله تعالى : [نَبِّئْ] معناه : أَعْلِم ، و [عِبَادِي] مفعول بـ [نَبِّئْ] ، وهي تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل ، فـ [عِبَادِي] مفعول ، و [أَنَّ] تسد مَسَدَّ المفعولين الباقيين ، واتفق ذلك وهي مع ما عملت فيه بمنزلة اسم واحد ، ألا ترى أنك إذا قلت : «أعجبني أنَّ زيداً منطلق» إنما المعنى : أعجبني انطلاق زيد ، لأَن دخولها إنما هو على جملة ابتداء وخبر ، فسدت تلك مسَدَّ المفعولين ، وقد يتعدى «نَبَّأَ» إلى مفعولين فقط ، ومنه قوله تعالى : ﴿مَنْ أَنْبَأَكَ هَذا﴾[٣] ، وتكون في هذا الموضع بمعنى : أَخْبِر وعرِّف ، وفي هذا كله نظر .

وهذه آية ترجية وتخويف ، وروي في هذا المعنى عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : (لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من

---

(١) من الآية (٦٢) من سورة (الكهف) .

(٢) هذا صدر بيت قاله النابغة في مطلع قصيدة يمدح بها عمرو بن الحارث الأعرج حين هرب من النعمان بن المنذر ، والبيت بتمامه :

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ

(٣) من الآية (٣) من سورة (التَّحْرِيم) .

حرام ، ولو يعلم قدر عذابه لبَخَع نفسه »[١] ، ورُوي في هذه الآية أن سببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى جماعة من أصحابه عند باب بني شيبة في الحرم فوجدهم يضحكون ، فزجرهم ووعظهم ، ثم ولى ، فجاءه جبريل عن الله فقال : يا محمد ، أتقنط عبادي ؟ وتلا عليه الآية ، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وأعلمهم[٢] . ولو لم يكن هذا السبب لكان ما قبلها يقتضيها ، إذ قد تقدم ذكر ما في النار وما في الجنة فأكد تعالى تنبيه الناس بهذه الآية.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

---

(١) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ . (الدر المنثور) ، وأخرج الترمذي مثله عن أبي هريرة ، ورمز له السيوطي بأنه حديث حسن . (الجامع الصغير) .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، من طريق عطاء بن أبي رباح ، عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . وأخرج مثله ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مصعب ابن أبي ثابت . وأخرج مثله البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة . (الدر المنثور) و (فتح القدير) .

قرأ أبو حيوة : [وَنبِّهُمْ] بضم الهاء من غير همز . وهذا ابتداءُ قصص بعد انصرام الغرض الأول (١) ، و «الضَّيف» مصدر وُصف به فهو للواحد وللاثنين والجمع والمذكَّر والمؤنث بلفظ واحد ، قال النحاس وغيره : التقدير : عن أصحاب ضيف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويغني عن هذا أن هذا المصدر عومل معاملة الأسماء ، كما فعل في «رهن» ونحوه ، والمراد بالضيف هنا الملائكة الذين جاءُوا لإهلاك قوم لوط وبشروا إبراهيم – عليهما السلام – ، وقد تقدم قصصهم .

وقوله : [سَلَاماً] مصدر منصوب بفعل مضمر تقديره : سلَّمنا ، أو نُسَلِّم سلاماً . والسلام هنا التحية . وقوله : [سَلَاماً] حكاية قولهم ، فلا يعمل القول فيه ؛ وإنما يعمل إذا كان ما بعده ترجمة عن كلام ليس يحكى بعينه ، كما تقول لمن قال : «لا إله إلا الله» : قُلْت حَقًّا ، ونحو هذا .

---

(١) في قوله تعالى : ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ الآية ترجيح لجهة الخير ، لأن الله تبارك وتعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا التبليغ فكأن الله أشهده على نفسه بالتزام المغفرة والرحمة ، ولأنه أضاف العباد إليه وفي هذا تشريف لهم ، ولأنه أكَّد اسم [أنَّ] بقوله : (أنا) ، وأدخل (ألْ) على صفتي الغفران والرحمة ، وجاء بهما في صيغة المبالغة ، وبدأ بالصفة السَّارة وهي الغفران ، ثم أتبعها بالصفة التي نشأ عنها الغفران وهي الرحمة ، وقد أخرج مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد) .

وقوله : ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي : فزعون ، وإنما وجل إبراهيم عليه السلام منهم لمَّا قدم إليهم العجل الحنيذ فلم يرهم يأْكلون ؛ وكان عندهم العلامة المؤمِّنة أكل الطعام ، وكذلك هو في غابر الدهر أَمَنَةٌ للنازل والمنزول به .

وقرأ الجمهور : [تَوْجلْ] مستقبل «وَجِل» ، وقرأ الحسن بضم التاء على بناء الفعل للمفعول من «أوجل» ، لأن «وَجِلَ» لا يتعدى ؛ وكانت هذه البشارة بإسحاق ، وذلك بعد مولد إسماعيل بمدة ، وقول إبراهيم : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾(١) ليس يقتضي أنه حينئذ وهبهما ، بل قبل الحمد بكثير .

وقرأ الجمهور : [أَبَشَّرْتُمُونِي] بألف استفهام ، وقرأ الأعرج : [بشَّرْتُمُونِي] بغير ألف ، وقوله : ﴿عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ﴾ أي : في حالة قد مسني الكبر فيها ، وقرأ ابن محيصن [الكُبْرُ] بضم الكاف وسكون الباء ، وقرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [تُبَشِّرُونَ] بفتح النون التي هي علامة الرفع ، والفعل - على هذه القراءة - غير مُعَدّى ، وقرأ الحسن البصري : [تُبَشِّرُونِّي] بنون مشددة وياء ، وقرأ ابن كثير بشَدِّ النون دون ياء ، وهذه القراءة أُدغمت فيها نون العلامة في النون التي هي للمتكلم موطئة للياء ، وقرأ نافع :

(١) من الآية (٣٩) من سورة (إبراهيم) .

[تُبَشِّرُونِ] بكسر النون ، وغلَّط أبو حاتم نافعاً في هذه القراءة ، وقال : إن شاهد الشعر في هذا اضطرار .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا حمْل منه ، وتقدير هذه القراءة أنه حُذفت النون التي للمتكلم ، وكُسرت النون التي هي علامة الرفع بحسب الياء ، ثم حذفت الياءُ لدلالة الكسرة عليها ، ونحو هذا قول الشاعر ـ أنشده سيبويه ـ :

تَـرَاهُ كالثَّغَامِ يُعَلُّ مِسْـــــكاً   يَسُرُّ الْفَــالِيَاتِ إِذَا فَلَيْنِي (١)

(١) البيت لعمرو بن معديكرب الزَّبيدي ، وبعده يقول :

فَأُقْسِمُ لوْ جَعَلْتُ عَلَيَّ نَذْراً   بِطَعْنَةِ فَارِسٍ لَقَضَيْتُ دَيْنِي

ورواية اللسان : « يسوءُ الْفَالِيَاتِ » ، وكذلك رواه الفراء في « معاني القرآن » ، وهو في الأصول هنا « يَسُرُّ الْفَالِيَاتِ » ، والشاهد فيه حذف النون ، إذ أراد « فَلَيْنَنِي » بنونين ، فحذف إحداهما استثقالا للجمع بينهما ، قال الأخفش : حذفت النون الأخيرة لأن هذه النون وقاية للفعل وليست باسم ، فأما النون الأولى فلا يجوز طرحها لأنها الاسم المضمر ، وقال الفراء : وقد خففت العرب النون من أن الناصبة ثم أنفذوا لها نصبها ، وهي أشدُّ من ذا ، قال الشاعر يخاطب زوجه عندما طلبت منه الطلاق :

فَلَوْ أَنَّكِ فِي يَوْمِ الرَّخَاءِ سَأَلْتِنِي   فِرَاقَكِ لَمْ أَبْخَلْ وَأَنْتِ صَدِيقُ

فَمَا رُدَّ تَزْوِيجٌ عَلَيْهِ شَهَـــادَةٌ   وَمَا رُدَّ مِنْ بَعْدِ الْحِرَارِ عَتِيقُ

إذ الأصل : سَأَلْتِينَنِي . والثَّغَام بالفتح : نبت على شكل الحَلِيِّ ، وهو أغلظ منه وأجَلُّ عُوداً ، يكون في الجبل ، ينبت أخضر ثم يَبْيَضُّ إذا يبس ، وله سنمة غليظة ، ولا ينبت إلا في قُنَّة سوداء ، قال ذلك في اللسان ، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتي بأبي قحافة يوم الفتح وكان رأسه ثغامة ، فأمرهم أن يغيروه . وفَلَى رأسه فلياً : بحثه عن القمل ، =

ومنه قول الآخر :

أَبِالْمَوْتِ الَّذِي لابُدَّ أَنِّي مُلاقٍ ـ لا أَبَاكِ ـ تُخَوِّفِينِي ؟ (١)

ومن حذف هذه النون قول الشاعر :

قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الْخُبَيْبَيْنِ قَدِي (٢)

يريد عبد الله ومصعباً ابني الزبير ؛ وكان عبد الله يكنى أبا خبيب . وقرأ الحسن ﴿فَبِمَ تَبْشُرُونِ﴾ بفتح التاء وضم الشين . وقول إبراهيم :

= وعَلّه: سقاه مرة بعد مرة ، أو سقاه تباعاً ، فمعنى « يُعَلُّ مسكا » أنه يدهن بالمسك مرة بعد مرة ، أو يدهن تباعاً . والضمير الأول في (تراه) لزوجه التي كانت زوج أبيه من قبله ، والضمير الثاني لشعر رأسه ؛ أي أن زوجه ترى شعر رأسه كالثغام .

(١) البيت لأبي حَيَّة النُّمَيْري ، أراد: تُخَوِّفينني فحذف ، قال في (اللسان ـ فلا) : وعلى هذا قرأ بعض القراء : ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُون﴾ فأذهب إحدى النونين استثقالا . يقول : إنه لا يخاف من الموت لأنه يعلم أنه لابُدَّ ملاقيه ولهذا يستنكر أن تخوفه به .

(٢) هذا الرجز لحميد بن مالك الأرقط ، وقيل : إنه لأبي بحدلة ، وهو في كتاب سيبويه ، وفي ابن عقيل وفي خزانة الأدب . وبعده :

لَيْسَ الإمَامُ بالشَّحِيحِ المُلْحِـدِ ولا بِوَتْنٍ بالحِجَـازِ مُفْرَدِ

ومعنى « قدني » : حسبي ، والخُبَيْبَيْن : عبد الله بن الزبير ، وابنه خُبَيْب ، أو هما عبد الله وأخوه مصعب بن الزبير ، والإمام في البيت الثاني هو عبد الملك بن مروان ، والمعنى : حسبي منهما ما نلتُ ، ولن أطلب نصرتهما ، فإن عبد الملك خير وأفضل ؛ لأنه ليس شحيحاً ولا ملحداً ، وقيل : أراد بالإلحاد هنا الظلم . ويقال : الملحد : الظالم في الحرم ، والوَتْنُ بمعنى واتن ؛ أي : ولا بدائم ثابت في أرض الحجاز مفرد ، ويقال للماء المعين الدائم الذي لا يذهب : واتن ، وكذا واثن بالثاء المثلثة .

﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ تقرير على جهة التعجب والاستبعاد لكبرهما ، أو على جهة الاحتقار وقلة المبالاة بالمسرات لمضيِّ العمر واستيلاء الكبر . قال مجاهد : عجب من كبره وكبر امرأته ، وقد تقدم ذكر سنِّه وقت البشارة .

وقولهم : ﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ فيه شدّة مَّا ، أي : أَبْشِر بما بُشرت به ودع غير ذلك ، وقرأ جمهور الناس : [ٱلْقَانِطِينَ] ، والقنوطُ : أتمُّ اليأْس ، وقرأ يحي بن وثاب ، والأعمش ، وابن مصرف ، ورويت عن أبي عمرو : [ٱلْقَنِطِينَ] ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة : ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ﴾ بفتح النون في كل القرآن . وقرأ أبو عمرو ، والكسائي بكسرها ، وكلهم قرأ : ﴿مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا﴾[1] بفتح النون ، وردَّ أبو عبيدة قراءة أهل الحرمين ، وأنكر أن يقال : «قَنِطَ» بكسر النون ، وليس كما قال ، لأنهم لا يُجمعون إلا على قويٍّ في اللغة مرويٍّ عندهم ، وهي قراءة فصيحة ، يقال : قَنَط يقْنِط ، وقَنِط يقْنَط ، مثل : نَقَم ونَقِم ، وقرأ الأعمش هنا : [يَقْنِطُ] بكسر النون ، وقرأ : ﴿منْ بَعْدِ ما قَنِطوا﴾ بكسر النون أيضاً ، فقرأ باللغتين ، وقرأ الأشهب : [يَقْنُط] بضم النون ، وهي قراءة الحسن ، والأعمش أيضاً ، وهي لغة تميم .

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٢٨) من سورة (الشورى) : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ
۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ
ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢
قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ
۝٦٤ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ
وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝٦٥ ﴾

القائل هنا إبراهيم عليه السلام ، وقوله : [مَا خَطْبُكُمْ] ؟ سؤال فيه عنف مَّا ؛ كما تقول لمن تنكر حاله : ماذا دهاك ؟ وما مصيبتك ؟ وأنت إنما تريد استفهاماً عن حاله فقط ، لأن «الخطب» لفظة إنما تستعمل في الأُمور الشداد ، على أن قول إبراهيم : ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ، وكونهم أيضاً قد بشَّروه ، يقتضي أنه قد كان عرف أنهم ملائكة حين قال : ﴿مَا خَطْبُكُمْ﴾ ؟ فيحتمل قوله : ﴿مَا خَطْبُكُمْ﴾ مع هذا أنه أضاف الخطب إليهم من حيث هم حملته إلى القوم المعذبين . أي : ما هذا الخطب الذي تحملونه ؟ وإلى أي أُمَّة ؟

و «القوم المجرمون» يراد بهم أهل مدينة سدوم الذين بعث فيهم لوط عليه السلام ، والمجرم : الذي يجرُّ الجرائم ويرتكب المحظورات ، وأصل جَرم وأجْرَمَ : كَسَب ، ومنه قول الشاعر :

جَرِيمَةُ نَاهِضٍ فِي رَأْسِ نيق . . . . (١)

أي : كَسْب عقاب في قُنَّة شامخ ، ولكن اللفظة خُصَّت في عرفها بالشر ، لا يقال لكاسب الأجر مجرم .

وقولهم : ﴿إِلَّا آلَ﴾ استثناءٌ منقطع ، و «الآلُ» : القوم الذين يؤول أمرهم إلى المضاف إليه ، كذا قال سيبويه ؛ وهذا نصٌّ في أن لفظة «آلٍ» ليست لفظة «أَهْلٍ» كما قال النحاس ، ويجوز - على هذا - إضافة «آلٍ» إلى الضمير وأما «أُهَيْل» فتصغير «أَهْل» ، واحترزوا به عن تصغير «آلٍ» ، فرفضوا «أُوَيْلا» . وقرأ جمهور السبعة : [لَمُنَجُّوهُمْ] ، وقرأ حمزة ، والكسائي بالتَّخفيف ، والضمير في «مُنَجُّوهُم» في موضع خفض بالإضافة ، وانحذفت النون للمعاقبة ،

(١) هذا صدر بيت قاله أبو خِرَاشٍ الهُذَلِيُّ يصف عُقَاباً تَرْزق طفلها وتكسب له ، والبيت بتمامه :

جَرِيمَةُ نَاهِضٍ فِي رَأْسِ نِيقٍ تَرَى لِعِظَامِ مَا جَمَعَتْ صَلِيباً

وجريمة هنا بمعنى : كسْب ، وقال في اللسان : بمعنى : كاسبة ، وفي التهذيب عن هذا البيت : «يصف عقاباً تصيد فرخَها الناهضَ ما تأكله من لحم طير أكلته ، وبقي عظامه يسيل منها الودك» ، أي : تصيد له . هذا وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت .

هذا قول جمهور النحويين ، وقال الأخفش : الضمير في موضع نصب ، وانحذفت النون لأنه لابُدَّ من اتصال هذا الضمير .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا نظر .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ﴾ استثناءٌ بعد استثناءٍ ، وهما منقطعان فيما حكى بعض النحاة ، لأنهم لم يجعلوا امرأته الكافرة من آله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا نظر ، لأنها قبل الاستثناء داخلة في اللفظ الذي هو «الآل» ، وليس كذلك «الآل» مع المجرمين ، فيظهر الاستثناءُ الأول منقطعاً ، والثاني متصلا ، والاستثناءُ بعد الاستثناء يردُّ المستثنى الثاني في حكم الأمر الأول ، ومثَّل بعض الناس في هذا بقولك : «عندي مائة درهم إلا عشرة دراهم إلا درهمين» ، فرجعت الدرهمان في حكم التسعين درهماً . وقال المبرّد : ليس هذا المثال بجيد ، لأنه من خلف الكلام وردِّه ، إذْ لَه طريق إلى أداءِ المعنى بأجمل من هذا التحليق ، وهو أن يقول : «عندي مائة إلا ثمانية» ، وإنما ينبغي أن يكون مثلا للآية قولك : «ضربت بني تميم إلا بني دارم إلا حاجباً» ، لأن «حاجباً» من بني دارم ، فلما كان المستثنى الأول في ضمنه مالا يجري الحكم عليه ، والضرورة تدخله في لفظه ، ولا يمكننا العبارة

عنه دون ذلك الذي لا يجري الحكم عليه ، اضطررت إلى استثناءٍ ثانٍ[١] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ونزعة المبرد في ذلك نبيلة . وقرأ جميعهم سوى عاصم في رواية أبي بكر : [قَدَّرْنا] بتشديد الدَّال في كل القرآن ، وقرأ عاصم بتخفيفها وثَقَّل في رواية حفص ، والتخفيف يكون بمعنى التثقيل ، كما قال الهذليُّ أبو ذؤيب :

ومُفْرِهَةٍ عَنْسٍ قَدَرْتُ لِسَاقِهَا   فَخَرَّت كَمَا تَتَّابَعُ الرِّيحُ بالقَفْلِ[٢]

يريد : قدَّرْتُ ضربي لساقها ، وكقول النبي صلى الله عليه وسلم في الاستخارة : (واقْدُرْ لي الخير حيث كان)[٣] ، ويَكُونُ أيضاً بمعنى :

(١) يرى الزمخشري أنه ليس استثناءً من استثناءٍ ، يقول : « لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه ، وأن يقال : أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته ، كما اتحد الحكم في قول المطلق : أنتِ طالق ثلاثاً إلا اثنتين إلا واحدة ، فأما في الآية فقد اختلف الحُكمان؛ لأن ﴿آلَ لُوطٍ﴾ متعلق بـ [أَرْسَلْنَا] أو بـ [مُجْرِمِينَ] و ﴿إِلا امْرَأَتَهُ﴾ قد تعلق بـ [مُنَجُّوهُمْ] ، فأنَّى يكون استثناء من استثناءٍ ؟

(٢) الناقة المُفْرِهَةُ : التي تَلِدُ الفُرْهَةَ ، أي : الملاحَ ، يقال : جارية فارهة إذا كانت حسناء مليحة ، والعَنْس : الناقة القوية ، شُبِّهَت بالصخرة لصلابتها . وخرَّت : سقطت ، والقَفْل : الشجر اليابس ، يقول : قدَّرت ضربي لساق هذه الناقة القوية الصلبة التي تلد الملاح فسقطت وتدحرجت كما تفعل الريح بالشجر اليابس حين تدفعه على الرمال .

(٣) هذا جزءٌ من حديث شريف أخرجه البخاري في التَّهجد ، والتوحيد ، والدعوات ، وأخرجه أبو داود ، والترمذي في الوتر ، والنسائي في النكاح ، وابن ماجه في الإقامة ، والإمام أحمد في مسنده (٣-٣٤٤) ، ولفظه كما في كتاب التوحيد في البخاري عن جابر بن عبد الله السَّلَمي ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلم السورة من القرآن ، يقول : (إذا هَمَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل : اللَّهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، =

يَسَّر ووَفَّق ، ومنه قول الشاعر :

بِقُنْدُهارَ ومَنْ تُقْدَرْ مَنِيَّتُـــهُ بِقُنْدُهَارَ يُرَجَّمْ دُونَهُ الْخَبَرُ (١)

وكسرت الألف من [إنَّهَا] بسبب اللام التي في قوله تعالى : [لَمِنَ] ، و «الغَابر» : الباقي في الدهر وفي غيره . وقالت فرقة – منهم النحاس – : هو من الأضداد ، يقال في الماضي وفي الباقي (٢) ، وأما في هذه الآية فهي للبقاء ، أي : من الغابرين في العذاب .

= فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللّهم فإن كنت تعلم هذا الأمر – ثم يُسَمّيه بعينه – خيراً لي في عاجل أمري وآجله ، – قال : أو في ديني ومعاشي وعاقبة أمري – فاقْدُرْهُ لي ، ويسّره لي ، ثم بارك لي فيه ، اللّهم إن كنت تعلم أنه شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري – أو قال : في عاجل أمري وآجله – فاصرفني عنه ، واقْدُرْ لي الخير حيث كان ، ثم رَضِّني به) .

(١) البيت ليزيد بن مفرّغ ، وقُنْدُهار – بضم القاف والدال وسكون النون بينهما مدينة في الإقليم الثالث كما قال الحموي في «معجم البلدان» ، قال : غزا عبّاد بن زياد ثغر السند وسجستان ، فأتى «سَنَارُوذ» ثم نزل «كِسّ» وقطع المفازة حتى أتى «قُنْدُهار» فقاتل أهلها فهزمهم وقتلهم ، وفتحها بعد أن أصيب من المسلمين ، فرأى قلانس أهلها طوالا فعمل عليها فسُمّيت العبادية ، وقال يزيد بن مفرغ :

كَمْ بِالْجُرُومِ وأرْضِ الهِنْدِ مِنْ قَدَمٍ ومِنْ سَرَابِيلَ قَتْلَى لَيْتَهُمْ قُبِرُوا
بِقُنْدُهــار ومَنْ تُقْدَرْ مَنِيَّتُـــهُ بِقُنْدُهارَ يُرَجَّـــمْ دونَهُ الخَبَـــرُ

وترجيم الخبر أو الكلام معناه : يقال عن غير يقين .

(٢) أما في الباقي فمنه ما ورد في الحديث الشريف : (أنه اعتكف العشر الغوابر من شهر رمضان) أي البواقي ، ويقال عن الناقة : «بها غُبْرٌ من لبن» ، أي بقية من لبن ، وقال ابن حلِّزة :

لا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بِأَغْبَارِهَـــا إِنَّكَ لا تَدْرِي مَنِ النَّاتِـــجُ

وأما في الماضي فمنه قول الأعشى :

عَضَّ بِمَا أَبْقَى المَوَاسِي لَـــهُ مِنْ أُمِّهِ في الزَّمَنِ الغَابِـــرِ

يريد ما تركته الموسى عند ختان أمه .

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ الآيات . تقدم القولُ وذِكْرُ القصص في أمر لوط ، وصورة لقاءِ الرسل له ، وقيل : إن الرسل كانوا ثلاثة : جبريل وميكائيل وإسرافيل ؛ وقيل : كانوا اثني عشر . وقوله : [مُنْكَرُونَ] أي لا تُعرفون في هذا القطر ، وفي هذه اللفظة تحذير ، وهو من نمط ذمِّه لقومه ، وجريه ألا ينزل هؤلاءِ القوم في تلك المدينة خوفاً منه أن يظهر سوءُ فعلهم وطلبهم الفواحش ، فقالت الرسل للوط : بل جئناك بما وعدك الله من تعذيبهم على كفرهم ومعاصيهم [١] ، وهو الذي كانوا يشكون فيه ولا يحققونه .

وقرأت فرقة : [فَاسْرِ] بوصل الألف ، وفرقة بقطعها ، يقال : سَرَى وأَسْرَى بمعنى إذا سار ليلا ، قال النابغة :

أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوْزَاءِ سَارِيَةٌ . . . . [٢]

فجمع بين اللغتين [٣] ، وقرأ اليماني : «فَسِرْ بِأَهْلِكَ» ، وهذا الأمر

---

(١) قال العلماء : [بَلْ] هنا إضرابٌ عن قول محذوف ، أي : ما جئناك بشيء تخافه ، بل جئناك بالعذاب لقومك ، لأنهم كانوا يشكون فيه .

(٢) هذا صدر بيت سبق الاستشهاد به ، والبيت بتمامه :

أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوْزَاءِ سَارِيَةٌ تُزْجِي الشَّمَالُ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرَدِ

والسارية هي السحابة الممطرة التي تكون ليلا ، وجمعها : سواري . ويروى البيت : «سَرَتْ عليه ...» .

(٣) في بعض النسخ : «فجمع بين اللغتين في بيت واحد» .

بالسُّرى هو عن الله تعالى ، أي : يقال لَكَ ، و «القِطْعُ» : الجزءُ من الليل ؛ وقرأت فرقة : [بِقِطَع] بفتح الطاء ، حكاه منذر بن سعيد .

وقوله : ﴿وَٱتَّبِـعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ أي : كن خلفهم وفي ساقهم حتى لا يبقى منهم أحد ولا تلْوي[1] . و «حَيْثُ» في مشهورها ظرف مكان ، وقالت فرقة : أُمِرَ لوطٌ أن يسير إلى زُغَر[2] ، وقيل : إلى موضع نجاة غير معروف عندنا ، وقالت فرقة : «حيث» قد تكون ظرف زمان ، وأنشد أبو علي في هذا بيت طرفة :

لِلْفَتَى عَقْـــلٌ يعِيشُ بِهِ حَيْثُ تَهْدِي سَاقَهُ قَدَمُه[3]

كأنه قال : مُدَّةَ مَشْيِهِ وتنقله ، وهذه الآية من حيث أمر أن يسري بقطع من الليل ، ثم قيل له : «حيث تُؤمر» ، ونحن لا نجد في الآية أمراً إلا في قوله : ﴿بِقِطْعٍ مِنَ ٱلَّيْلِ﴾ أمكن أن تكون «حيثُ» ظرف زمان . و ﴿يَلْتَفِتْ﴾ مأْخوذ من الالتفات الذي هو نظر العين ، قال

---

(١) أي : لا تلتفت ، لأن من معاني «لفت» أنها تكون بمعنى «لوى» كما سيوضح ذلك ابن عطية . وقد وردت هكذا بالياء على إرادة العطف على «لا يبقى» .

(٢) «زُغَر» بوزن «زُفَر» : قرية بمشارف الشام ، وإياها عنى أبو دؤاد الإيادي حيث قال :

كَكِتَـابةِ الزُّغَرِيِّ غَشَّـــا هَا مِنَ الذَّهَبِ الدُّلامِصِ

وقيل : «زُغَر» : اسم بنت لوط عليه السلام ، نزلت بهذه القرية فسميت باسمها . قال حاتم الطائي :

سَقَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ سَحّاً وَدِيمَةً جَنُوبَ السَّرَاةِ مِن مَآبٍ إلى زُغَرْ

بِلادَ امرِئٍ لا يعرِفُ الذَّمَّ بَيْتُهُ لهُ المَشْرَبُ الصَّافي ولا يطْعَمُ الكدرْ

(٣) هو آخر بيت في قصيدة له مطلعها :

أَشَجَاكَ الرَّبْعُ أَمْ قِدَمُـــهُ أَمْ رَمادٌ دارِسٌ حُمَمُهْ ؟

وفيها يخاطب بني تغلب ويفخر عليهم في الحروب التي كانت بينهم وبين قومه بكر .

مجاهد : المعنى : لا ينظر أَحد وراءه ، ونُهوا عن النظر مخافة الغفلة وتعلق النفس بمن خلف ، وقيل : بل لئلا تتفطَّر قلوبهم من معاينة ما جرى على القرية في رفعها وطرحها ، وقيل : [يَلْتفِتْ] معناه : يلوي ، من قولك : «لَفَتُّ الأَمر» إذا لويته ، ومنه قولهم للقصيدة : لفيتة ، لأَنها ملويٌّ بعضها على بعض [(١)] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

المعنى : وقضينا ذلك الأمر ، أي : أَمضيناهُ وحتمناه ، ثم أدخل في الكلام [إِلَيْهِ] من حيث أَوحى إليه ذلك وأَعلمه الله به ، فجاب

---

(١) في بعض النسخ : «لأنها يلتوي بعضها على بعض» .

هذا المعنى بإيجاز ، وحذف ما يدل الظاهر عليه . و [أَنَّ] في موضع نصب ، قال الأخفش : هي بدل من [ذلك] ، وقال الفراء : التقدير : «بأن دابر» فحذف حرف الجر(١)، والأول أصوب .

و «الدَّابِرُ» : الذي يأتي في آخر القوم ، أي في أدبارهم ، وإذا قطع ذلك وأُتي عليه فقد أتى العذاب من أولهم إلى آخرهم ، وهذه ألفاظ دالَّة على الاستئصال والهلاك التام ، يقال : «قطع الله دابره» ، و «استأْصل شأْفته» ، و «أَسْكَتَ نأْمته» بمعنى . و [مُصْبِحِينَ] معناه : إذا أصبحوا ودخلوا في الصباح .

وقوله تعالى : ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يحتمل أن يرجع إلى وصف أمر جرى قبل إعلام لوط بهلاك أُمَّته ، ويدل على هذا أن محاجَّة لوط لقومه في الأضياف تَقتضي ضعف من لم يعلم إهلاكهم وأن الأضياف ملائكة . ويحتمل أن يكون قوله : ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ بعد علمه بهلاكهم ، وكان قولهم ما يأْتي من المحاورة على جهة التكتم عنهم ، والإملاء لهم ، والتَّربُّص بهم .

---

(١) عبارة الفراء تشير إلى احتمالين حيث قال في «معاني القرآن» : «أنَّ مفتوحة على أنْ تردَّ على الأمر ، فتكون في موضع نصب بوقوع القضاء عليها ، وتكون نصباً آخر بسقوط الخافض منها ، أي : قضينا ذلك الأمر بهذا ، وهي في قراءة عبد الله «وَقُلْنَا إنَّ دابِرَ» ، فعلى هذا لو قرئ بالكسر لكان وجهاً» ، ولو رجعت إلى الطبري لوجدت هذا الكلام بنصه فيه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والاحتمال الأول عندي أرجح ؛ وهو الظاهر من آيات غير هذه السورة . وقوله : [يَسْتَبْشِرُونَ] أي : بالأضياف طمعاً منهم بالفاحشة ، والضَّيف مصدر وُصف به فهو يقع للواحد والجميع والمذكر والمؤنث .

وقولهم : ﴿أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾ ؛ رُوي أنهم كانوا قد تقدموا إليه في ألَّا يضيف أحداً ولا يجيره ؛ لأنهم لا يراعونه ولا يكفون عن طلب الفاحشة فيه ، وقرأ الأعمش : ﴿إِنَّ دَابِرَ﴾ بكسر الهمزة ؛ ورُوي أن في قراءة عبد الله : «وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ وَقُلْنَا إِنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ» ، وذكر السديُّ أنهم كانوا يفعلون الفاحشة مع الغرباء ولا يفعلونها بعضهم ببعض ، فكانوا يتعرضون الطرق .

وقول لوط عليه السلام : ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ اختلف في تأويله — فقيل : أراد نساء أُمَّته ، لأنَّ زوجات البنين أُمهات الأُمم وهو أبوهم ، فالنساءُ بناته في الحرمة ، والمراد بالتزوج ، ويلزم من هذا التأويل أن يكون في شرعه جواز زواج الكافر للمؤمنة ، وقد ورد أن المؤمنات به قليل جداً . وقيل : إنما أراد بنات صلبه ، ودعا إلى التزويج أيضاً ، قاله قتادة ، ويلزم هذا التأويل ما لزم المتقدم في ترتيبنا . ويحتمل أن يريد عليه السلام بقوله : ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ بنات صلبه ، ويكون ذلك على طريق المجاز . وهو لا يحقق في إباحة بناته ، وهذا كما تقول لإنسان تراه يريد قَتْل آخر : اقتلني ولا تقتله ، فإنما ذلك على

جهة التشنيع عليه ، والاستنزال من جهة ما ، واستدعاء الحياء منه ، وهذا كله من مبالغة القول الذي لا يدخله معنى الكذب ، بل الغرض منه مفهوم ، وعليه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (وَلَوْ كَمَفْحَص قَطاةٍ)(١) إلى غير هذا من الأمثلة .

و «العَمْرُ» و «العُمُرُ» بفتح العين وضمها واحد ، وهما عُمْر الحياة ومدتها ، ولا يستعمل في القَسَم إلا بالفتح ، وفي هذه الآية شرف لمحمد صلى الله عليه وسلم لأن الله تعالى أقسم بحياته ، ولم يفعل ذلك مع بشر سواه ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، والقَسَم بـ «لَعَمْرِك» في القرآن وبـ «لَعَمْري» ونحوه في أشعار العرب وفصيح كلامها في غير موضع ، كقوله :

لَعَمْري ومَا عَمْـري عَلَيَّ بِهَيِّنٍ . . . . (٢)

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، والإمام أحمد في مسنده (١-٢٤١) ، ولفظه : (مَنْ بَنَى لله مسجداً ولو كمَفْحَص قَطاة لبيضها بنى الله له بيتاً في الجنة) ــ عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة . (الجامع الصغير) .

(٢) هذا صدر بيت للنابغة ، وهو من قصيدة يمدح بها النعمان بن المنذر ويعتذر إليه مما وشت به بنو قريع بن تميم ، وهو بتمامه :

لَعَمْري وما عَمْري عَلَيَّ بِهَيِّنٍ لَقَدْ نَطَقَتْ بُطْلا عَلَيَّ الأقارِعُ

واللام في «لَعَمْري» لام ابتداء يقصد بها توكيد الجملة ، و «لَعَمْري» مبتدأ وخبره محذوف تقديره : يميني ، و «ما عُمْري» رويت بضم العين وبفتحها ، وبُطْلا ــ بضم الباء وسكون الطاء ــ مصدر بَطَل إذا كان غير حق ، والأقارع : بنو قريع بن عوف .

وقول الآخر :

لَعَمْـرُ أَبِيكَ ما نُسِبَ الْمُعَـلَّى . . . . [1]

وكقول الآخر :

لَعَمْرُكَ إنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لَكَالطِّوَلِ الْمُرْخَى وثِنْيَاهُ بالْيَدِ [2]

والعرب تقول : « لعَمْرُ الله » ، ومنه قول الشاعر :

إذَا رَضِيَتْ عَلَيَّ بنـــو قُشَيْـرٍ لَعَمْرُ اللهِ أَعْجَبَـني رِضاهَـا [3]

---

(١) هذا صدر بيت لأبي علي البصير ، وهو واحد من بيتين ذكرهما صاحب الأمالي ، قال : انشد علي بن سليمان لأبي عليّ البصير :

لَعَمْرُ أبيكَ ما نُسِبَ المُعَلَّى إلى كَرَمٍ وفي الدُّنْيَا كَرِيـمُ
ولكِنَّ البلادَ إذا اقْشَعَـــرَّتْ وصَوَّحَ نَبْتُهَا رُعِيَ الْهَشِيمُ

ومعنى صَوَّح : يَبِسَ وتشقق ، والهجاء في البيتين قاس ومؤلم .

(٢) الشاعر هو طَرَفة بن العبد ، والبيت من معلقته الّتي امتازت بالحكمة وبالنظر الصائب في أمور الحياة ، وقوله : « ما أخطأ الفتى » يحتاج إلى شيء من البيان ، إذ أن (ما) مع الفعل هنا بمنزلة مصدر حلَّ محلَّ الزمان ، نحو قولهم : « آتيك خفوق النجم ومقدم الحاج » أي : وقت خفوق النجم ، ووقت مقدم الحاج ، والطِّوَل : الحبل الذي يطول للدابة ويعطيها فرصة الرعي على مسافة كبيرة ، والإرخاء : الإرساء . والثِّنْيُ : الطرف والجمع الأثناء ، يقسم طَرَفة أن الموت في مدة تركه للفتى ، أو مجاوزته إياه بمنزلة حبل طويل ترك على طوله لترعى الدابة فيه وطرفاه بيد صاحبها ، فكما أن الدابة لا يمكن أن تفلت ما دام صاحبها آخذاً بطرفي الحبل فكذلك الموت لا يمكن للفتى أن يتخلص منه ، ولما جعل الموت بمنزلة صاحب الدابة التي أرخى طولها قال : متى شاء الموت قاد الفتى لهلاكه ، ومن كان في حبل الموت انقاد له .

(٣) البيت للقُحَيْف العُقَيْلي ، وبعده يقول :

ولا تَنْبو سُيوفُ بَني قُشَيْـرٍ ولا تَمْضي الأسِنَّةُ في صَفَـاهَا =

وقال الأعشي :

وَلَعَمْرُ مَنْ جَعَلَ الشُّهــورَ عَلاَمَةً فينَا فبَيَّن نِصْفَها وكمَــالها (١)

وقال بعض أصحاب المعاني : لا يجوز هذا لأنه لا يقال : لله تعالى عُمْر ، وإنما يقال : بقاءٌ أزلي ، ذكره الزهراوي ، وكره إبراهيم النَّخَعي أن يقول الرجل : «لعمري» ، لأنه حلف بحياة نفسه ، وذلك من

=يقال: رضيتُ عنْك وعليك ، وقد عدّاها الشاعر في بيتنا بـ «على» لأنه إذا رضيت عنه أحببته وأقبلت عليه . فلذلك استعمل على بمعنى عن ، قال صاحب اللسان : وكان أبو علي يستحسن قول الكسائي في هذا ، لأنه لما كان رضيت ضد سخطت عدّى رضيت بـ «على» حملاً للشيء على نقيضه كما يحمل على نظيره .

(١) الرواية في الديوان : «فلَعَمْر بالفاء ، و «فبيّن نصفها وهلالها» ، ويُروى : «نَقْصَهَا» ، وهو من قصيدة للشاعر يمدح بها قيس بن معد يكرب ، وبعده يقول مخاطباً الممدوح :

ما كُنْتَ في الحَرْبِ العَوَانِ مُغَمَّراً إذْ شَبَّ حَرُّ وَقُودها أجْزَا لَهــا

ومن الشواهد الشعرية على استعمال العرب «لَعَمْري» و «لَعَمْرك» قول الشاعر :

لعَمْرُكَ ما يدْري الفتَى أيُّ أمْرِهِ وإنْ كانَ محْروصاً على الرُّشْدِ أرْشَدُ

أفي عاجِلاتِ الأمرِ أمْ آجِــلاتِهِ أمِ اليوْمُ أدْنَى لِاسْتِعَادَةٍ أمْ غَدُ ؟

وقول العباس بن الأحنف :

لعَمْري لئِنْ كانَ المُقرَّبُ مِنكُمُ هوًى صادِقاً إنّي لَمُسْتَوْجِبُ القُرْبِ

وقد استعمله أبو خِراشٍ في الطير فقال :

لعَمْرُ أبي الطَّيْرِ المُرِبَّةِ غُــدْوَةً على خالِدٍ لقَدْ وقَعْتِ على لَحْمِ

وتأتي «عَمْر» بدون اللام ، قال عُمر بن أبي ربيعة :

أيُّهَا المُنْكِحُ الثُّريَّا سُهَيْـــــلاً عَمْرَكَ اللهَ ، كيْفَ يَجْتَمِعَانِ ؟

قيل : معنى «عَمْرَكَ اللهَ» هنا : عبادتُك الله ، ولذلك نصب الشاعرُ لفظ الجلالة . وتأتي «عَمْر» بالراء بدلا من اللام في أولها فيقال : «رَعَمْرُك» .

كلام ضعفة الرجال ، ونحو هذا . وقوْلُ مالك في «لَعَمْري ولَعَمْرِكَ» أنها ليست بيمين ، وقال ابن حبيب : ينبغي أن تصرف «لعمرك» في الكلام اقتداءً بهذه الآية .

و [يَعْمَهُونَ] أي يَرْتَبكون ويتحيرون ، والضمائر في [سَكْرَتِهِمْ] يراد بها قوم لوط المذكورون ، وذكر الطبري أن المراد قريش ، وهذا بعيد لأنه ينقطع مما قبله ومما بعده . وقوله : ﴿ في سَكْرَتِهِمْ ﴾ مجازٌ وتشبيه ، أي : في ضلالتهم وغفلتهم عن الحق ولهوهم ، و [يَعْمَهُونَ] معناه : يترددون في حيرتهم ، و [مُشْرِقِينَ] معناه : قد دخلوا في الإشراق ، وهو سطوع ضوء الشمس وظهوره ، قاله ابن زيد ، وهذه الصيحة هي صيحة الوجبة[1] ، وليست كصيحة ثمود ، وأُهلكوا بعد الفجر مصبحين ، واستوفاهم الهلاك مشرقين . وخبر قوله : [لَعَمْرُكَ] محذوف تقديره : لعَمْرك قسمي أو يميني . وفي هذا نظر . وقرأ ابن عباس : [وَعَمْرك] ، وقرأ الأشهب العقيلي : ﴿ لفِي سُكْرَتِهِمْ ﴾ بضم السين ، وقرأ ابن أبي عبلة : [سَكَرَاتِهِمْ] ، وقرأ الأعمش : ﴿ لفِي سُكْرِهِمْ ﴾ بغير تاء ، وقرأ أبو عمرو في رواية الجهضمي : [أَنَّهُمْ] بفتح الهمزة ﴿ في سكْرَتِهِمْ ﴾ .

---

(١) هكذا في جميع النسخ الأصلية ، ولا نرى لها معنى ، وقد وجدناها في «البحر المحيط» نقلا عن ابن عطية : «صيحة الوَحْشَة» .

ورُوي في معنى قوله : ﴿ فَجعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ أن جبريل عليه السلام اقتلع المدينة بجناحه ورفعها حتى سمعت ملائكة السماء صراخ الديكة ونباح الكلاب ، ثم قلبها وأرسل الكل ، فمن سقط عليه شيءٌ من ردم المدينة مات ، ومن أفلت منهم أصابته حجارة من سِجِّيل ، و «سِجِّيل» اسم من أسماءِ سماءِ الدنيا ، وقيل : هي لفظة فارسية ، وهي الحجارة المطبوخة من الطين كالآجُرِّ ونحوه ، وقد تقدم القول في هذا .

و «المُتَوَسِّمُونَ» قال مجاهد : المتفَرِّسون ، وقال الضحاك : الناظرون ، وقال قتادة : المعتبرون ، وقيل غير هذا مما هو قريب منه ، وهذا كله تفسير لها بالمعنى ، وإنما تفسيرها باللفظ ، فإن المعاني التي تكون في الإنسان وغيره من خير أو شرٍّ يلوح عليه وَسْم على تلك المعاني كالسكون والديانة والهيبة التي تكون عن الخير ونحو هذا ، فالمتوسِّم هو الذي ينظر في وَسْم المعنى ليستدل به على المعنى ، وكأن معصية هؤلاءِ أبقت من العذاب والإهلاك وسْماً ، فمن رأى الوَسْم استدل على المعصية به ، واقتاده النظر إلى تجنب المعاصي لئلا ينزل به ما نزل بهم ، ومن الشعر في هذه اللفظة قول الشاعر :

تَوَسَّمْتُـــه لَمَّا رَأَيْتُ مَهَــابَةً عَلَيْهِ وقلْتُ الْمَرْءُ مِنْ آلِ هاشِمِ (١)

(١) رواه الزمخشري في أساس البلاغة : «وقلتُ الشيْخُ من آل هاشم» ، قال : توسَّمْتُ فيه الخير : تبيَّنت فيه أثره . ثم ذكر البيت ، والمهابة : الإجلال والمخافة . وابن عطية يستشهد به على أن التوسم هو النظر في العلامات الدالة على المعنى ليستدل بها عليه .

وقال آخر :

* وظَلَلْتُ فيهَا واقِفاً أتوَسَّمُ * (١)

وقال آخر :

إنِّي توسَّمْتُ فيكَ الْخَيْرَ نَافِلَةً . . . . (٢)

والضمير في قوله : [وَإِنَّهَا] يحتمل أن يعود على المدينة المهلكة ، أي : أنها في طريق ظاهر للمعتبر ، وهذا تأْويل مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد ، ويحتمل أن يعود على الآيات ، ويحتمل أن يعود على الحجارة ، ويقوي هذا التأْويل ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن حجارة العذاب معلقة بين السماء والأرض منذ أَلْفَيْ عام لعصاة أُمَّتي) (٣) .

---

(١) قال في التاج : «التوسُّم : التفرُّس كما في الصحاح ، قال شيخنا : وأصله : عِلْمُ حقيقته بسمته ، ويقال : توسَّمه إذا نظر من قرنه إلى قدمه واستقصى وجوه معرفته» ، فالتوسم هنا هو استقصاء وجوه معرفة الشيء . ومنه ما استشهد به سيبويه وهو قول طريف بن تميم العنبري :

أوَ كُلَّمَا وَرَدَتْ عُكَاظَ قَبِيلَةٌ بَعَثُوا إليَّ عَرِيفَهُمْ يَتَوَسَّمُ ؟

(٢) هذا صدر بيت قاله عبد الله بن رواحة يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم ، والبيتُ بتمامه كما رواه في القرطبي :

إنِّي تَوَسَّمْتُ فيكَ الخَيْرَ أعْرِفُهُ والله يَعْلَمُ أنِّي ثَابِتُ البَصَرِ

(٣) لم نعثر على هذا الحديث في المراجع التي بين أيدينا ، ولكن وجدنا في القرطبي حديثين يدلان على أن العذاب بالحجارة ينتظر من يفعل فعل قوم لوط من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولفظ الأول : (سيكون في آخر أمتي قوم يكتفي رجالهم بالرجال ، ونساؤهم بالنساء ، فإذا=

وقوله : [لَآيَة] أي أمارة وعلامة ، كما تقول : آيةُ ما بيني وبينك كذا وكذا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾

[ٱلْأَيْكَة] : الغيْضة والشجر الملتف المخضر ، يكون السِّدر ونحوه ، قال قتادة : رُوي أن أيكة هؤلاء كانت من شجر الدوم . وقيل : من المقل ، وقيل : من السِّدْر ، وكان هؤلاء قوماً يسكنون غَيْضة ويرتفقون بها في معايشهم ، فبعث الله إليهم شعيباً عليه السلام فكفروا ،

=كان ذلك فارتقبوا عذاب قوم لوط أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل) ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ . واللفظ الثاني : (لا تذهب الليالي والأيام حتى تستحل هذه الأمة أدبار الرجال كما استحلوا أدبار النساء ، فتصيب طوائف من هذه الأمة حجارة من ربك) .

فسلَّط الله عليهم الحر فدام عليهم سبعة أيام ، ثم رأوا سحابةً فخرجوا فاستظَلُّوا تحتها فاضطرمت عليهم ناراً ، وحكى الطبريُّ قال : بُعث شُعَيْبٌ إلى أُمتين كفرتا فعُذِّبتا بعذابين مختلفين : أهل مدين عذبوا بالصيحة ، وأصحاب الأَيكة عذِّبوا بالظُّلَّة ، ولم يختلف القراءُ في هذا الموضع في إدخال الألف واللام على « أَيْكَة » ، وأكثرهم همز ألف « أيكة » بعد اللام ، ورُوي عن بعضهم أنه سهَّلها ونقل حركتها إلى اللام فقرأ : [الَايْكَةَ] دون همز ، واختلفوا في سورة الشعراء ، وفي سورة صٓ (١) .

و [إنْ] هي المخففة من الثقيلة على مذهب البصريين ، وقال الفراءُ : [إنْ] بمعنى « ما » ، واللام في قوله : [لَظَالِمِين] بمعنى « إلَّا » ، قال أبو علي : الأَيْكُ : جمع أَيْكة كتَمرة وتَمْر ، ومن الشاهد على اللفظة قول أُمَيَّة بن أبي الصلت :

كَبُكَا الْحَمَام عَلَى غُصُـو نِ الأَيْكِ في الطَّيْـرِ الْجَوَانِـح (٢)

---

(١) أما في الشعراء ففي قوله تعالى في الآية (١٧٦) : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وأما في صٓ ففي قوله تبارك وتعالى في الآية (١٣) : ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ ﴾ .

(٢) قال أمية هذا البيت من قصيدة له يرثي بها قتلى بدر ، ومطلعها :

ألا بَكَيْتِ عَلَى الكِـرَا مِ بَنِي الْكِرَامِ أُولِي الْمَمَادِحْ

والأيك : الشجر الملتف ، واحدته أيكة ، والجوانح : الموائل ، يقال : جنَح إذا مال . وفي اللسان : الأيكة : الشجر الكثير الملتف ، وقيل : هي الغيضة تنبت السِّدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر ، وخصَّ بعضهم به منبت الأثل ومجتمعه . وقد رُوي البيت : « على فروع » بدلا من : « على غصون » .

وقول جرير :

وَقَفْتُ بها فَهَاجَ الشَّوْقَ مِني حَمامُ الأَيْكِ يسعِدُها حَمامُ (١)

ومنه قول الآخر :

ألا إنَّما الدُّنيـــا غَضارةُ أَيْكَةٍ إذَا اخْضَرَّ منِها جانِبٌ جَفَّ جَانِبُ (٢)

ومنه قول الهذلي :

مُوَشَّحَـــةٌ بالطُّرَّتَيْنِ دَنَا لَهَا جَنَى أَيْكَةٍ يَضْفُو عَليْهَا قِصَارُهَا (٣)

---

(١) « هاج » يهيج : ثار لمشقّة أو ضرر ، يتعدّى ولا يتعدّى ، والذي حرّك الشوق هنا هو الحمام السعيد في الأيك بأليفه ، وقد اعتاد الشعراء تداول هذا المعنى ، قال الشاعر :

وَمَا هَاجَ هذا الشَّوْقَ إلا حَمَامَةٌ تَغَنَّتْ على خَضْرَاءَ سُمْرٌ قُيُودُهَا

صَدوحُ الضُّحَى مَعروفةُ اللَّحن لم تزَلْ تَقودُ الهَوَى مِن مُسْعِدٍ ويَقُودُها

وقال آخر :

إذا تَغَنَّى الحَمامُ الوُرْقُ هَيَّجَني ولَوْ تَعَزَّيْتُ عَنْها أُمَّ عَمَّـــار

(٢) يقال : غَضُرَ غَضارةً : كان في سعة وطيب عيش ، وغَضُرَ النباتُ : نَعُم فهو غاضر وغضير ، يصور الدنيا في صورة الأيْكة . إذا اشتدت خضرة النبات في جانب منها جفّ منها جانب آخر ، وكذلك الدنيا تعطي وتأخذ ، والبيت غير منسوب .

(٣) قال أبو ذؤيب هذا البيت من قصيدة يرثي بها نُشَيْبة بن مُحرِّث ، أحد بني مُؤَمَّل ، ومطلعها :

هَلِ الدَّهْرُ إلا لَيْلَةٌ وَنَهَارُهَـــا وإلا طُلُوعُ الشَّمْسِ ثُمَّ غِيارُها

والموشّحةُ من الظباء والشاء والطير : التي لها طُرَّتان مسبلتان من جانبيها ، ويروى « مُوَلَّعَةٌ » ، والتَّوْليع : ألوان مختلفة ، و « الطُّرَّتان » : طريقتان في جنبيها ، وهو حيث ينقطع اختلاف لون الظهر من لون البطن ، و « دَنَا لَهَا » قَرُبَ لها ، و « الجَنَى » : الثمر الذي يُجتنى ، و « يَضْفُو » : يكثر ويَسْبُغُ عليها ، فإذا سبغَ عليها القصار من الأغصان فالطوال أحرى أن تكون أسبغ ، والشاعر يصف ظبية ويقول في هذا البيت وما بعده : إنها ملونة جميلة تأكل ما تشاء من الثمار ، وقد نعمت بالربيع ، ومع ذلك فإنها ليست أجمل ولا أحسن من حبيبته .

وأنشد الأَصمعي :

وما خليجٌ من . . . . ذو حَدَبٍ يَرْمِي الصَّعيدَ بخُشْبِ الأَيْكِ والضَّالِ[١]

والضمير في قوله : [وَإِنَّهُمَا] يحتمل أَن يعود على المدينتين اللَّتَين تقدم ذكرهما ، مدينة قوم لوط ، ومدينة أَصحاب الأَيكة ، ويحتمل أَن يعود على النَّبيَّين لوطٍ وشُعيب في أَنهما على طريق من الله وشرع مبين .

و «الإمامُ» في كلام العرب : الشيءُ الذي يهتدى به ويُؤْتَمُّ ، يقولونه لخيط البناء ، وقد يكون الطريق ، وقد يكون الكتاب المفيد ، وقد يكون القياس الذي يعمل عليه الصناع ، وقد يكون الرجل المُقْتدى به ، ونحو هذا ، ومن رأي عود الضمير في [إِنَّهُما] على المدينتين قال : الإمامُ : الطريق ، وقيل على ذلك : الإمامُ : الكتاب الذي سبق فيه إهلاكهما .

و ﴿أَصْحَابُ ٱلْحِجْرِ﴾ ثمود ، وقد تقدم قصصهم ، و [ٱلْحِجْر] مدينتهم ، وهي ما بين المدينة وتبوك ، وقال : [ٱلْمُرْسَلِينَ] من حيث

(١) لم أقف على قائله ، ومكان النقط كلمة غير واضحة في النسخ الخطية ، وتختلف صورتها وحروفها من نسخة إلى أخرى . والخليج من البحر : شَرْمٌ منه ، أو نهر في شق من النهر الأعظم إلى موضع ينتفع به ، وذو حَدَب : ذو موج مرتفع ، وحَدَب الماء : ما ارتفع من أمواجه . والصعيد : الأرض المرتفعة ، وقيل : ما ارتفع من الأرض في أرض منخفضة ، وقيل : وجه الأرض عموماً ، والأَيْكَة : الغيضة تُنْبِت السِّدرَ والأراك ونحوهما من ناعم الشجر ، وعن ابن الأعرابي : أيكة من أَثْل ، ورهْطٌ من عُشَر ، وقصيمة من عضا ، والضَّال : السِّدْرُ البَرِّي ، غير مهموز ، واحدته ضالة وألفه منقلبة عن ياء . والشاهد في البيت أن الأيكة بمعناها المعروف مستعملة في الشعر العربي .

يجب بتكذيب رسول واحد تكذيب الجميع ، إذ القول في المعتقدات واحد للرسل أجمع ، فهذه العبارة أشنع على المكذبين .

والآيات التي آتاهم الله هي الناقة وما اشتملت عليه من خرق العادة حسب ما تقدم تفسيره وبسْطه ، وقرأ أبو حيْوة : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَتنَا ﴾ مفردة .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ ﴾ الآية . يصف قوم صالح بشدة النظر للدنيا والكسب منها ، فذكر من ذلك مثالا أن بيوتهم كانوا ينحتونها في حجر من الجبال ، والنحتُ : النقر بالمعاول ونحوها في الحجارة والعود ونحوه ، وقرأ جمهور الناس بكسر الحاء ، وقرأ الحسن بفتحها وذلك لأجل حرْف الحلق ، وهي قراءة أبي حيوة ، وقوله : [آمِنِينَ] ، قيل : معناه : من انهدامها ، وقيل : من حوادث الدنيا ، وقيل : من الموت لاغترارهم بطول الأعمار .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله ضعيف ، وأصح ما يظهر في ذلك أنهم كانوا يأْمنون عواقب الآخرة ، فكانوا لا يعملون بحسبها ، بل كانوا يعملون بحسب الأمن منها .

ومعنى [مُصْبِحِينَ] أي عند دخولهم في الصباح ، وذُكر أن ذلك كان يوم سبت ، وقد تقدم قصص عذابهم وميعادهم وتغيُّر ألوانهم ،

ولم تغن عنهم شدة نظرهم للدنيا وتكَسُّبهم شيئاً ، ولا دفع عذاب الله . و [ما] الأُولى للنفي ، وتحتمل التقرير [(١)] ، والثانية مصدريَّة [(٢)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ الآية . المراد أن هؤلاءِ المكتسبين للدنيا الذين لم يغن عنهم اكتسابهم ليسوا في شيءٍ ، فإن السموات والأَرض وجميع الأَشياء لم تخلق عبثاً ولا سُدى ولا لتكون طاعة الله كما فعل هؤلاءِ ونظراؤُهم ، وإنما خلقت بالحق ، ولواجب مقصود وأغراض لها نهايات من عذاب ونعيم ، وإنَّ الساعة آتية على جميع أُمور الدنيا ، أي : فلا تهتم يا محمد بأَعمال قومك ، فإن الجزاء لهم بالمرصاد ، فاصفح عن أعمالهم ، أي : وَلِّها صفحة عنقك بالإعراض عنها ، وأَكَّد الصفح بِنَعْت الجَمَال إذ المرادُ منه أن يكون لا عَتْب فيه ولا تعرض . وهذه الآية تقتضي مهادنة ، ونسختها آية السيف ، قاله قتادة .

ثم سلَّاه في آخر الآيات بأَن الله تعالى يخلق ما شاء لمن شاء ، ويعلم تعالى وجه الحكمة في ذلك ، لا هذه الأَوثان التي تعبدونها . وقرأ جمهور الناس : [ٱلْخَلَّاقُ] ، وقرأ الأَعمش والجحدري : [ٱلْخَالِقُ] .

---

(١) قال أبو حيان في البحر : «وتحتمل الاستفهام المراد منه التعجب» .

(٢) يصح أن تكون بمعنى «الذي» والضمير محذوف ، والتقدير : فما أغنى عنهم الذي كانوا يكسبونه في البيوت المتينة والأموال والعَدَد .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن مسعود ، وابن عمر ، ومجاهد ، وابن جبير : السّبع هنا هي السبع الطُّوَل : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والمّص ، والأنفال مع براءة[1] ؛ وقال ابن جبير : بل السابعة يونس ، وليست الأنفال وبراءة منها . و [المَثَانِي] – على قول هؤلاء – القرآن كله ، كما قال تعالى : ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي﴾[2] ، وسُمّي بذلك لأن القصص والأخبار تُثَنَّى فيه وتُــرَدَّد .

وقال عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وابن عباس أيضاً ، وابن مسعود ، والحسن ، وابن أبي مُلَيْكة ، وعبيد بن عمير ،

(١) لأنهما في حكم سورة واحدة ، ولذلك لم يفصل بينهما بالبسملة .
(٢) من الآية (٢٣) من سورة (الزُّمَر) .

وجماعة : السبع هنا هي آيات الحمد ، قال ابن عباس : هُنَّ سبع بالبسملة ، وقال غيره : هُنَّ سبع دون البسملة ، ورَوى في هذا حديث أُبَيٍّ بن كعب ونَصُّه : قال أُبَيٌّ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألا أُعلمك يا أُبَيُّ سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها) ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : (إنِّي لأرجو ألا تخرج من ذلك الباب حتى تعلمها) ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقمت معه ، ويدي في يده ، وجعلت أُبطيءُ مخافة أن أخرج ، فلما دنوت من المسجد قلت : يا رسول الله ، السورة التي وعدتنيها ؟ فقال : (كيف تقرأُ إذا قُمت في الصلاة ؟) قال : فقرأْتُ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ حتى أكملت فاتحة الكتاب ، فقال : (هي هي ، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيت ، كذا أو نحوه ، ذكره مالك في الموطأ ، وهو مروي في البخاري ، ومسلم عن أبي سعيد بن المعلى أيضاً . وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم (أنها السبع المثاني ، وأُم القرآن ، وفاتحة الكتاب)[1] ،

(١) قال في (فتح القدير) : «أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أمُّ القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم)» . وفي القرطبي : «وخرَّج الترمذي من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الحمد لله أُم القرآن وأُم الكتاب والسبع المثاني) .

وفي كتاب الزهراوي : «وليس فيها بسملة» . و «المثاني» — على قول هؤلاء — يحتمل أن تكون القرآن ، ف [مِن] للتبعيض ، وقالت فرقة : بل أراد الحمد نفسها ، كما قال : ﴿ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَانِ ﴾[1] ف [مِن] لبيان الجنس ، وسميت بذلك لأنها تثنى في كل ركعة ، وقيل : سميت بذلك لأنها يثنى بها على الله تبارك وتعالى ، جوّزه الزجاج ، وفي هذا القول من جهة التصرف نظر[2] ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : سميت بذلك لأن الله تعالى استثناها لهذه الأمة ولم يعطها لغيرها ، وقال نحوه ابن أبي مُلَيْكَة . وقرأت فرقة : [وَٱلْقُرْآنِ] بالخفض عطفاً على [ٱلْمَثَانِي] ، وقرأت فرقة : [وَٱلْقُرْآنَ] بالنصب عطفاً على قوله : [سَبْعاً] .

وقال زياد بن أبي مريم[3]: المراد بقوله : [سَبْعاً] أي سبع معانٍ من القرآن خوّلناك فيها شرف المنزلة في الدنيا والآخرة ، وهي : مُرْ ، وانْهَ وبَشِّر ، وأَنْذِرْ ، واضرب الأمثال ، واعــدد النعم ، وقُصَّ الغيوب .

وقال أبو العالية : السبع المثاني هي آي فاتحة الكتاب ، وقد نزلت هذه السورة وما نزل من السبع الطُّوَل شيء[4] .

---

(١) من الآية (٣٠) من سورة (الحَجّ) .

(٢) قال أبو حيان في البحر : «ولا نظر في ذلك ، لأنها جمع مُثْنى بضم الميم ، مُفعل من أثنى رباعياً ، أي مقر ثناء على الله تعالى ، أي : فيها ثناء على الله تعالى» .

(٣) هو زياد بن أبي مريم الجزري ، وثّقه العجلي ، من الطبقة السادسة .

(٤) يَرُدُّ أبو العالية بذلك على من قال إنها السبع الطُّوَل . وأُجيب بأن الله تعالى أنزل القرآن إلى السماء الدنيا ، ثم أنزله منها نجوماً ، فما أنزله إلى السماء الدنيا فكأنما آتاه محمداً صلى الله عليه وسلم وإن لم ينزل بعد عليه .

وفي كتاب الزهراوي : «وليس فيها بسملة» . و «المثاني» – على قول هؤلاء – يحتمل أن تكون القرآن ، فـ [مِن] للتبعيض ، وقالت فرقة : بل أراد الحمد نفسها ، كما قال : ﴿ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَانِ ﴾[١] فـ [مِن] لبيان الجنس ، وسميت بذلك لأنها تثنى في كل ركعة ، وقيل : سميت بذلك لأنها يثنى بها على الله تبارك وتعالى ، جوّزه الزجاج ، وفي هذا القول من جهة التصرف نظر[٢] ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : سميت بذلك لأن الله تعالى استثناها لهذه الأئمة ولم يعطها لغيرها ، وقال نحوه ابن أبي مُلَيْكَة . وقرأت فرقة : [وَٱلْقُرْآنِ] بالخفض عطفاً على [ٱلْمَثَانِي] ، وقرأت فرقة : [وَٱلْقُرْآنَ] بالنصب عطفاً على قوله : [سَبْعاً] .

وقال زياد بن أبي مريم[٣]: المراد بقوله : [سَبْعاً] أي سبع معانٍ من القرآن خوَّلناك فيها شرف المنزلة في الدنيا والآخرة ، وهي : مُرْ ، وانْهَ وبَشِّر ، وأَنْذِرْ ، واضرب الأمثال ، واعدد النعم ، وقُصَّ الغيوب .

وقال أبو العالية : السبع المثاني هي آي فاتحة الكتاب ، وقد نزلت هذه السورة وما نزل من السبع الطُّوَل شيء[٤] .

---

(١) من الآية (٣٠) من سورة (الحَجّ) .

(٢) قال أبو حيان في البحر : «ولا نظر في ذلك ، لأنها جمع مُثْنَى بضم الميم ، مُفْعَل من أثنى رباعياً ، أي مقر ثناء على الله تعالى ، أي : فيها ثناء على الله تعالى» .

(٣) هو زياد بن أبي مريم الجزري ، وثّقه العجلي ، من الطبقة السادسة .

(٤) يَرُدُّ أبو العالية بذلك على من قال إنها السبع الطُّوَل . وأُجيب بأن الله تعالى أنزل القرآن إلى السماء الدنيا ، ثم أنزله منها نجوماً ، فما أنزله إلى السماء الدنيا فكأنما آتاه محمداً صلى الله عليه وسلم وإن لم ينزل بعد عليه .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ الآية . حكى الطبري عن سفيان بن عُيَيْنَة أنه قال : هذه الآية أمر بالاستغناء بكتاب الله عن جميع زينة الدنيا ، وهي ناظرة إلى قوله عليه الصلاة والسلام : (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)[1] ، أي : يستغني به ، فكأنه قال : ولقد آتيناك عظيماً خطيراً ، فلا تنظر إلى غير ذلك من أمور الدنيا وزينتها التي متعنا بها أنواعاً من هؤلاء الكفرة ، ومن هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من أُوتي القرآن فرأى أن أحداً أُعطي أفضل مما أُعطي فقد عظَّم صغيراً وصغر عظيماً)[2] ، وكأن مدَّ العين يقترن به تَمَنٍّ ، ولذلك عبَّر عن الميل إلى زينة الدنيا بِمَدِّ العين . و«الأزواج» هنا : الأنواع والأشباه .

وقوله : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ ، أي : لا تتأسف لكفرهم وهلاكهم ، واصرف وجهك وتَحَفِّيك إلى من آمن بك ، واخفض لهم جناحك ،

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ، وأبو داود في الوتر ، والدارمي في الصلاة وفي فضائل القرآن ، والإمام أحمد (١-١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٩) ، وفي رواية الإمام أحمد بعد أن ذكر الحديث قال وكيع : «يعني : يستغني به» ، ووكيع هو الراوي .

(٢) رواه أبو القاسم الطبراني عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً بلفظ : (من قرأ القرآن فرأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظَّم الله) ، (راجع ج ١ ص ١٥) من هذا الكتاب .

وهذه استعارة بمعنى : ليِّن جانبك ووطِّئ أكنافك ، و «الجناح» : الجانب والجنب ، ومنه قوله : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾(١) ، فهو أمر بالميل إليهم ، والجنوحُ : المَيْلُ .

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾ ، أي : تمسَّك بهذا القدر العظيم الذي وهبناك ، والكاف من قوله : [كَمَا] متعلقة بفعل محذوف تقديره : وقل إني أنا النذير بعذاب كالذي أنزلناه على المقتسمين ، والكاف اسمٌ في موضع نصب ، هذا قول المفسرين ، وهو عندي غير صحيح(٢) ؛ لأن [كَما] ليست مما يقوله محمد صلى الله عليه وسلم ، بل هو من قول الله تعالى له ، فينفصل الكلام ، وإنما يترتب هذا القول بأن يقدر أن الله تعالى قال له : تنذر عذاباً كما ، والذي أقول في هذا : إن المعنى : وقل إني أنا نذير كما قال قبلك رسلنا ، وأنزلنا عليهم كما أنزلنا عليك . ويحتمل أن يكون المعنى : وقل أنا النذير كما أنزلنا في الكتب أنك ستأتي نذيراً ، وهذا على أن [ٱلْمُقْتَسِمِينَ] أهل الكتاب .

---

(١) من الآية (٢٢) من سورة (طه) .

(٢) علّق أبو حيان في البحر على قوله : «وهذا عندي غير صحيح» فقال : «استعذر بعضهم عن ذلك فقال : الكاف متعلقة بمحذوف دلّ عليه المعنى ، تقديره : أنا النذير بعذاب مثل ما أنزلنا ، وإن كان المنزل هو الله ، كما يقول بعض خواص الملك : «أمرْنا بكذا» وإن كان الملك هو الآمر» .

واختلف الناس في [ٱلْمُقْتَسِمِينَ] . من هم ؟ – فقال ابن زيد : هم قوم صالح الذين ٱقتسموا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وأهله (١) ، فالمقتسمون – على هذا – من القسم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويقلق هذا التأويل مع قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾.

وقال ابن عباس ، وسعيد بن جبير : المقتسمون هم أهل الكتاب الذين فرقوا دينهم ، وجعلوا كتاب الله أعضاء ، آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وقال نحوه مجاهد .

وقالت فرقة : المقتسمون هم من كفار قريش الذين اقتسموا الطرق وقت المواسم لِيُعَرِّفوا الناسَ بحال محمد صلى الله عليه وسلم ، وجعلوا القرآن سحراً وشعراً وكهانة ، فعضهوه بهذا وعضّوه أعضاءً بهذا التقسيم .

وقال عكرمة : المقتسمون هم قوم كانوا يستهزئون بِسُوَر القرآن ، ويقول الرجل منهم : هذه السورة لي ، ويقول الآخر : وهذه لي .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ، ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ ، الآية (٤٩) من سورة (النمل) .
ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ ، وقوله : ﴿ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ ، فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه ، فسُمُّوا مقتسمين .

وقوله : [عِضِينَ] مفعول ثان ، و [جَعَلُوا] بمعنى «صَيَّروا» ، أي بألسنتهم ودعواهم ، وأظهر ما فيه أنه جمع عِضَة ، وهي الفرقة من الشيء ، والجماعة من الناس كثُبَة وثُبين ، وعِزة وعِزين ، وأصلها عِضْهَة وثُوبَة ، فالياء والنون عوض من المحذوف ، كما قالوا : سَنَة وسنون ، إذ أصلها سَنْهَة[1]. وقال ابن عباس وغيره : [عِضِينَ] مأخوذ من الأعضاء ، أي عضّوه فجعلوه أقساماً وأعضاءً ، ومن ذلك قول الراجز :

وَلَيْسَ دِينُ اللهِ بِالْمُعَضَّى[2]

وهذا هو اختيار أبي عبيدة . وقال قتادة : [عِضِين] مأخوذ من العَضْه وهو السَّبُّ المفحش ، فقريش عَضَهوا كتاب الله بقولهم : هو شعر ، هو سحر ، هو كهانة ، وهذا هو اختيار الكسائي . وقالت فرقة : [عِضِين] جمع عِضَة ، وهو اسم للسِّحْر خاصة بلغة قريش ، ومنه

---

(١) استثقلوا الجمع بين هاءين فقالوا : عِضَة ، كما قالوا : شَفَة ، والأصل شَفْهَة ، وسَنَة ، والأصل سَنْهَة ، ومن علماء العربية من قال : عِضِين واحدتها عِضَة ، ولكن أصلها عِضْوة من : عَضَّيْتُ الشيء إذا فرقته ، جعلوا النقصان هو الواو . اتفقوا على أن الأصل (عِضَة) ولكن اختلفوا في المحذوف ، أهو واو أو هاء ؟

(٢) الراجز هو رؤبة بن العجاج ، والبيت من قصيدة له يمدح بها تميم ونفسه . يقول : «إن دين الله ليس أقساماً ولا أجزاء» ، وفي مطلع القصيدة يقول :

دايَنْتُ أرْوَى والدُّيونُ تُقْضَى
فَمَطَلَتْ بَعْضاً وأدَّتْ بَعْضـا

قول الراجز :

لِلْمَاءِ مِنْ عِضَاتِهِنَّ زَمْزَمَهْ [1]

قال هذا القول عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال : العَضْه : السِّحْر ، وهم يقولون للساحرة : العاضِهة ، وفي الحديث : (لعن الله العاضِهة والمُسْتَعْضِهَة)[2] ، وهو اختيار الفراء .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومن قال : «جعلوه أعضاءً» فإنما أراد : قسَّموه كما يُقَسَّم الجزور أعضاءً .

وقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إلى آخر الآية ، ضمير عام ، ووعيد محضٌ يأْخذ كل أحد منه بحسب جرمه وعصيانه ، فالكافر يُسأل عن «لا إله إلا الله» ، وعن الرسل ، وعن كفره وقصده ، والمؤمن العاصي يُسأل عن تضييعه ، والإمام عن رعيته ، وكلٌّ مكلف عما كلف القيام به ، وفي هذا أحاديث .

---

(١) جاء في (اللسان — عضه) : «العِضَهُ : السِّحْر والكهانة ، والعاضه : السَّاحر ، الفعل كالفعل والمصدر كالمصدر ، قال :

أَعُوذُ بِرَبِّي مِنَ النَّافِثَــــــا ت في عِضَهِ العَاضِهِ المُعْضِــــهِ

وسُمِّي السِّحر عِضَهاً لأنه كذب وتخييل لا حقيقة له » . وعلى هذا نفهم كلام هذه الفرقة ، والرجز الذي ساقه ابن عطية يشهد بأن العِضَة اسم للسِّحر ، والزَّمْزَمة : صوت خفيٌّ لا يكاد يفهم ، وزمزمة الماء : كثرته ، يقول : إن للماء من سحرهن كثرة ، أو صوت خفي لا يكاد يفهم . ولم نقف على قائل هذا الرجز .

(٢) قال ابن الأثير في النهاية : «هي الساحرة والمستسحرة ، سُمِّي السِّحر عضْهاً لأنه كذب وتخييل لا حقيقة له» .

وقال أبو العالية في تفسير هذه الآية : يسأل العباد كلهم عن خلّتين يوم القيامة : عما كانوا يعبدون ، وبماذا أجابوا المرسلين . وقال في تفسيرها أنسُ بن مالك ، وابن عمر ، ومجاهد : إن السؤال عن «لا إلٰه إلا الله» ، وذكره الزهراوي عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1]، قال : يقال لهم : لِمَ عملتم كذا وكذا ؟ قال : وقوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾[2] معناه : لا يقال له : ما أذنبت ؟ لأن الله تعالى أعلم بذنبه منه ؛ ونفيُ السؤال هو نفي الاستفهام المحض ، وإيجاب السؤال هو على جهة التقرير لهم والتوبيخ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾

---

(١) قال الزمخشري : أقسم تعالى بذاته وربوبيته مضافاً إلى رسوله على جهة التشريف .

(٢) من الآية (٣٩) من سورة (الرحمن) .

«أصدع» : معناه : أنفذ وصرِّح بما بعثت به ، والصَّدع : التفريق بين مُلْتحم ، كصدع الزجاجة ونحوه ، فكأن المصرِّح بقول يُرْجع إليه يصْدع به ما سواه مما يضادُّه ، والصَّديعُ : الصُّبْح(١) ، لأنه يصدع الليل . وقال مجاهد : نزلت في أن يجهر بالقرآن في الصلاة .

وفي [تُؤْمَر] ضمير عائد على [مَا] ؛ تقديره : تؤمر به ، أو تؤمره ، وفي هذين تنازع . وقوله : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ من آيات المهادنات التي نسختها آية السيف ، قاله ابن عباس ، ثم أعلمه تعالى أنه كفاه المستهزئين به من كفار مكة ببوائق من الله أصابتهم ، لم يسع بها محمد ، ولا تكلف فيها مشقة .

وقال عروة بن الزُّبير ، وسعيد بن جبير : المستهزئون خمسة نفر : الوليدُ بن المغيرة ، والعاصُ بن وائل ، والأسود بن المطلب أبو زمعة ، والأسود بن عبد يغوث ، ومن خزاعة الحارث بن الطُّلاطلة ، وهو ابن غيطلة ، وهو ابن قيس . قال أبو بكر الهذليُّ : قلت للزهري : إن ابن جبير ، وعكرمة اختلفا في رجل من المستهزئين ، فقال ابن جبير : هو الحارث بن غيطلة ، وقال عكرمة : هو الحارث بن قيس ، فقال الزهري : صَدَقا ، أُمُّه غيطلة وأبوه قيس ، وذكر الشَّعْبي في المستهزئين هَبَّار بن الأسود ، وذلك وهم ، لأن هَبَّار أسلم يوم الفتح

---

(١) قال عمرو بن معد يكرب :

تَرَى السِّرْحانَ مُفْتَرِشاً يَدَيْهِ ... كأنَّ بياضَ لَبَّتِهِ صَدِيعُ

ورحل إلى المدينة . وذكر الطبريُّ عن ابن عباس أن المستهزئين كانوا ثمانية ، كلهم مات قبل بدر ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في المسجد ، فأتاه جبريل ، فجاز الوليدُ فأومأ جبريل بإصبعه إلى ساقه وقال : كُفيت ، ثم جاء العاصي فأومأ إلى أخمَصيه وقال : كفيت ، ثم جاء أبو زمعة فأومأ إلى عينه ، ثم مرَّ الأسود بن عبد يغوث فأومأ إلى رأسه وقال : كفيت ؛ ثم مرَّ الحارث فأومأ إلى بطنه وقال : كفيت ، وكان الوليد قد مرَّ بقَيْن في خزاعة فتعلق سهم من نبله بإزاره فجرح[1] ساقه ، ثم برئ ؛ فانتقض به ذلك الخدش بعد إشارة جبريل عليه السلام فقتله ، وقيل : إن السهم قطع أكْحَلَهُ[2] ، قاله قتادة ، ومقسم . وركب العاصي بغلة في حاجة ، فلما جاء ينزل وضع أخمُصَه على شِبْرِقة[3] ، فورمت قدمه فمات ، وعمي أبو زمعة ، وكان يقول : دعا عليَّ محمد بالعمى فاستجيب له ؛ ودعوت عليه بأن يكون طريداً شريداً فاستجيب لي ؛ وتمخض رأسُ الأسود بن عبد

---

(١) في بعض النسخ : « فخدش ساقه » ، وهو مناسب لقولك بعد ذلك : « فانتقض به ذلك الخدش » .

(٢) الأكحَل : عِرْقٌ في اليد يُفْصد ، قال ابن سيدة : يقال له النَّسا في الفخذ ، وفي الظهر الأبْهَر ، وقيل : الأكْحَلُ : عِرْقُ الحياة ، يُدْعى نهر البَدَن ، وفي كل عضو منه شعبة لها اسمٌ على حدة ، فإذا انقطع في اليد لم يرقأ الدم . (اللسان) .

(٣) الشِّبْرِقُ بالكسر : نبات ثمرتُه شائكة ، صغيرة الحجم ، حمراء مثل الدم ، منبِتُها السباخ والقيعان ، وواحدته : شِبْرِقة ؛ وقيل : إذا يبس الضريع فهو الشّبرق ، وهو نبت كأظفار الهرّ » (اللسان - شبرق) .

يغوث قيحاً فمات ، وامتلأبطن الحارث ماءً فمات حيناً[1] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي ذكر هؤلاء وكفايتهم اختلاف بين الرواة ، وفي صفة أحوالهم وما جرى لهم جلبت أصحَّه مختصراً طلباً للإيجاز .

ثم قرر الله تبارك وتعالى ذنبهم في الكفر ، واتخاذ الأصنام آلهة مع الله ، ثم توعَّدهم بعذاب الآخرة الذي هو أشق .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ آية تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم وتسلية عن أقوال المشركين وإن كانت مما يقلق ، وضيق الصدر يكون من امتلائه غيظاً بما يكره الإنسانُ ، ثم أمر تعالى بملازمة الطاعة ، وأن تكون مَسْلاته عند الهموم . وقوله : ﴿ مِنَ ٱلسَّاجِدِينَ ﴾ يريد : من المصلين ، فذكر من الصلاة حالة القرب من الله تعالى وهي السجود ، وهي أكرم حالات الصلاة وأقمنها بنيل الرحمة ، وفي الحديث : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبه أَمْرٌ فزع إلى الصلاة)[2] ، فهذا منه عليه الصلاة والسلام أخذٌ بهذه الآية .

---

(١) الحَيْن : الهلاك . يقال : حان يحين حَيْناً : هلك ، وأحانه الله .

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥–٣٨٨) ، والنسائي في المواقيت ، عن حذيفة ، ولفظه في المسند : (كان إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلّى) .

و [ٱلْيَقِينُ] : الموتُ ؛ بذلك فسَّره هنا ابن عمر ، ومجاهد ، وقتادة ، والحسن ، وابن زيد ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم عند موت عثمان بن مظعون : (أما هو فقد رأى اليقين)[1] ، ويروى : (فقد جاءه اليقين) ، وليست اليقين من أسماءِ الموت ، وإنما العلم به يقين لا يمتري فيه عاقل ، فسمَّاه هنا يقيناً تَجَوُّزاً ، أي : يأْتيك الأمر اليقين علْمُه ووقوعُه ، وهذه الغاية معناها : مُدَّة حياتك ، ويحتمل أن يكون المعنى : حتى يأْتيك اليقين في النصر الذي وُعِدْتَه[2] .

نجـز تفسير سـورة الحِجْـر ، ولله الحمد والمنة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ، والتعبير ، ومناقب الأنصار ، والشهادات ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦ ـ ٤٣٦) ، (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) ــ ولفظه كما في المسند : عن أم العلاء الأنصارية ، قالت : اشتكى عثمان بن مظعون عندنا فمرضناه ، حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه ، فدخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : رحمة الله عليك يا أبا السائب ، شهادتي عليك لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ قالت : فقلت : لا أدري ، بأبي أنت وأمي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإني لأرجو له الخير ، والله ما أدري ــ وأنا رسول الله ــ ما يُفعل بي . . . قال يعقوب (الراوي) : به ــ قالت : والله لا أزكِّي أحداً بعده أبداً ، فأحزنني ذلك ، فنمت فأُريت لعثمان عيناً تجري ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك عمله) .

(٢) قال بعض العلماء : حكمة التَّغْيِيَة باليقين وهو الموت أنه يقتضي ديمومة العبادة ما دام حيّاً ؛ بخلاف الاقتصار على الأمر بالعبادة دون غاية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

(١٦) سُورَةُ النَّحْلِ مَكِّيَّة
وآياتها ثمان وعشرون ومائة

تفسير سورة النحل

هذه السورة كانت تُسمى سورة النِّعم بسبب ما عدَّد الله فيها من نعمه على عباده ، وهي مكية غير قوله تعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ الآية ، نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة رضي الله عنه وقتلى أُحد ، وغير قوله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ، وغير قوله : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ الآية ، وأما قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ فمكيٌّ في شأن هجرة الحبشة [1] .

---

(١) قال الحسن ، وعكرمة ، وعطاء ، وجابر : السورة مكية كلها . وقال ابن عباس : هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة رضي الله عنه ، وهي قوله تعالى : ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى قوله : ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هذا والآيات التي ذكرها المؤلف على أنها مكية هي على حسب ترتيبه لها رقم (١٢٦) ، ورقم (١٢٧) ، ورقم (١١٠) ، أما الآية التي أكد أنها مكية فهي رقم (٤١) من السورة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ① يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ② خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ③ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ④ ﴾

رُوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا قال جبريل عليه السلام في سرد الوحي : ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وثب رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً ، فلما قال : ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ سكن (١) .

وقوله : ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قال فيه جمهور المفسِّرين : إنه يريد القيامة ، وفيه وعيد للكفار ، وقيل : المرادُ نصر محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وقيل : المرادُ تعذيب كفار مكة بقتل محمد عليه الصلاة والسلام

(١) الذي وجدناه في (الدر المنثور) ، و (فتح القدير) ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لما نزلت ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ ذعر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى نزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فسكنوا » ، وما أخرجه عبد الله بن أحمد في (زوائد الزهد) ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن أبي بكر بن حفص قال : « لما نزلت ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قاموا ، فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ » . وفي القرطبي عن ابن عباس : (نزلت ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وخافوا ؛ فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فاطمأنوا) .

لهم وظهوره عليهم ، ذكر نحو هذا النقاشُ عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقيل : المراد فرائض الله وأحكامه في عباده وشرعه لهم ، هذا قول الضحاك ، ويُبعده قوله : ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ، لأنَّا لا نعرف استعجالًا إلَّا ثلاثة : اثنان منها للكفار في القيامة وفي العذاب ، والثالث للمؤمنين في النصر وظهور الإسلام ، وقوله : [أَتَى] - عَلَى هذا القول - إخبارٌ عن إتيان ما سيأتي ؛ وصحَّ ذلك على جهة التأكيد ، وإذا كان الخبر حقًّا يُؤكَّد المستقبل بأن يخرج في صيغة الماضي ، أي كأنه لوضوحه والثقة به قد وقع ؛ ويحسن ذلك في خبر الله تبارك وتعالى لصدق وقوعه .

وقال قومٌ : [أَتَى] بمعنى قَرُبَ ، وهذا نحو ما قلتُ ، وإنما يجوز الكلام بهذا عندي لمن يعلم قرينة التأكيد ويفهم المجاز ، وأما إن كان المخاطب لا يفهم القرينة فلا يجوز وضع الماضي موضع المستقبل ، لأن ذلك يفسد الخبر ويوجب الكذب ، وإنما جاز في الشرط لوضوح القرينة بـ (إنْ) ، ومن قال : «إن الأمر القيامة» قال : إن قوله : ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ردٌّ على القائلين : ﴿عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا﴾[1] ونحوه من العذاب ، أو على مستبطئي النصر من المؤمنين في قراءة من قرأ

(١) من الآية (١٦) من سورة (صٓ) .

بالتاء ـ وهي قراءة الجمهور ـ على مخاطبة المؤمنين ؛ أو على مخاطبة الكافرين ، بمعنى : قُلْ لهم : فلا تستعجلوه . وقرأ سعيد بن جبير بالياء على غيبة المشركين ؛ وقرأ حمزة ، والكسائي : [تُشْرِكُونَ] بالتاء من فوق ؛ وجميع الباقين قرءُوا بالياء ، ورجح الطبري القراءة بالتاء من فوق في الحرفين ؛ قال أبو حاتم : قرأ [يُشْرِكُونَ] بالياء من تحت في هذه والتي بعدها الأعرجُ ، وأبو جعفر ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن نَصَّاح ، والحسن ، وأبو رجاء ، وقرأ عيسى الأُولى بالتاء من فوق ، والثانية بالياء من أسفل ، وقرأهما جميعاً بالتاء من فوق أبو العالية ، وطلحة ، والأعمش ، وأبو عبد الرحمن ؛ ويحيى ابن وثاب ، والجحدري ، وقد روى الأصمعي عن نافع التاء في الأُولى .

وقوله : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾ معناه : تنزيهاً له . وحكى الطبري عن ابن جريج قال : لما نزلت ﴿أَتَى أَمْرُ ٱللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قال رجالٌ من الكفار : إن هذا يزعم أن أمر الله قد أتى ، فأمسكوا عما أنتم بسبيله حتى ننظر ، فلما لم يروا شيئاً عادوا ، فنزلت ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ (١) ، فقالوا مثل ذلك ، ثم عادوا فنزلت ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ (٢)

---

(١) الآية (١) من سورة (الأنبياء) .

(٢) من الآية (٨) من سورة (هود) .

الآية . وقال أبو بكر بن حفص : لمَّا نزلت ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ رفعوا رؤُوسهم فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ، وحكى الطبري عن أبي صادق أنه قرأ : «يا عبادي أتى أمْرُ الله فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ» ، و [سُبْحَانَهُ] نصب على المصدر ، أي : تنزيهاً له .

وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بالياء وشد الزاي ، ورجحها الطبريُّ لما فيها من التكثير ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بتخفيف الزاي مكسورة وسكون النون ، وقرأ ابن أبي عبلة بالنون للعظمة وشدّ الزاي ، وقرأ قتادة بالنون وتخفيف الزاي وسكون النون ، وفي هذه والتي قبلها شذوذ كثير[١]، وقرأ أبو بكر عن عاصم [تُنَزَّلُ] بضم التاء وفتح النون والزاي وشدها ورفع [ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ] على ما لم يُسَمَّ فاعله ، وهي قراءة الأعمش ، وقرأ الجحدري بالياء مضمومة وسكون النون وفتح الزاي ، وقرأ الحسن ، وأبو العالية ، وعاصم ، والجحدري ، والأعرج بفتح التاء ورفع [ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ] على أنها فاعلة ، ورواها المفضل عن عاصم ، و [ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ] ها هنا جبريل عليه السلام .

(١) قال أبو حيان تعقيباً على كلام ابن عطية : «وشذوذهما أن ما قبله وما بعده ضمير غيبة ، ووجْهُه أنه التفات» .

واختلف المتأولون في «الرُّوح» ـ فقال مجاهد : الروح : النبوة ، وقال ابن عباس : الوحي ، وقال قتادة : بالرحمة والوحي ، وقال الربيع بن أنس : كل كلام الله روح ، ومنه قوله تعالى : ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾(١)، وقال ابن جريج : الروح : شخص له صورة كصورة بني آدم ، ما نزل جبريل قط إلَّا وهو معه ، وهم كثير ، وهم ملائكة . وهذا قول ضعيف لم يأْت به سند ، وقال الزجاج : الروح : ما تحيا به القلوب من هداية الله تعالى لها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول حسن ، وكأَن اللَّفظة على جهة التشبيه بالمقايسة ، أي : إن هذا الذي أُمر الأَنبياءُ أن ينذروا به الناس من الدعاء إلى التوحيد هو بالمقايسة إلى الأَوامر التي هي في الأَفعال والعبادات كالروح للجسد ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً﴾(٢)، و [مِنْ] في هذه الآية ـ على هذا التأْويل الذي قدرناه ـ للتبعيض ،

(١) من الآية (٥٢) من سورة (الشورى) ، هذا وقد قيل أيضاً : الروح : حفظة على الملائكة ، لا تراهم الملائكة ، كما أن الملائكة حفظة علينا ولا نراهم ، وقيل : الباء بمعنى (مع) ، وقال مجاهد أيضاً : الروح : اسم ملك ، ومنه قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً﴾ .

(٢) من الآية (١٢٢) من سورة (الأنعام) .

وعلى سائر الأقوال لبيان الجنس . و [مَنْ] في قوله : ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ هي للأنبياء ، و [أَنْ] في موضع خفض بدل من [ٱلرُّوحِ] ، ويصح أن تكون في موضع نصب بإسقاط الخافض ، على تقدير : بأن أنذروا ، ويحتمل أن تكون مفسِّرة بمعنى «أي» . وقرأ الأعمش : «لِيُنْذِرُوا» ، وحسنت النِّذارة هنا وإن لم يكن في اللفظ ما فيه خوف من حيث كان الْمُنْذَرون كافرين بالأُلوهية ، ففي ضمن أمرهم مكان خوف ، وفي ضمن الإخبار بالوحدانية نهي عَمَّا كانوا عليه ووعيد .

ثم ذكر تعالى ما يقال للأنبياء بالوحي على المعنى ، ولم يذكره على لفظه ، لأنه لو ذكره على اللفظ لقال : أَنْ أنذروا أنه لا إله إلا الله ، ولكنه إنما ذكر ذلك على معناه ، وهذا شائع في كل الأقوال إذا حكيت أن تحكى على لفظها ، أو تحكى بالمعنى فقط .

وقوله تعالى : ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ آية تنبيه على قدرة الله تعالى ، وقوله : [بِالْحَقِّ] أي بالواجب اللائق ، وذلك أنها تدل على صفات يحق لمن كانت له أن يخلق ويخترع ويعيد ، وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة النافذة ، بخلاف شركائهم الذين لا يحق لهم شيءٌ من صفات الربوبية . وقرأ الأعمش بزيادة فاء : [فَتَعَالَىٰ] .

وقوله تعالى : ﴿خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ يراد بالإنسان الجنس ، وأخذ له الغايتين ليظهر البعد بينهما بقدرة الله ، ورُوي أن الآية

نزلت لقول أُبيٍّ بن خلف : «مَنْ يُحْيِـي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ»(١) وقوله : [خَصِيمٌ] يحتمل أن يريد به الكفرة الذين يختصمون في الله ، ويجادلون في توحيده وشرعه ، ذكره ابن سلام عن الحسن البصري ، ويحتمل أن يريد أعم من هذا ، على أن الآية تعديد نعمة الذهن والبيان على البشر ، ويظهر أنها إذ تقرر في خصام الكافرين ينضاف إلى العبرة وعيد مَّا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ ﴾

[الأَنْعَام] : الإبل والبقـر والغنم ، وأكثر ما يقال : نَعَم وأنعـام للإبل ، ويقـال للجموع ، ولا يقال للغنم مفـردة .

(١) ورد ذلك في قوله تعالى في الآية (٧٨) من سورة (يس) : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ .

ونصبها إما عطفاً على [ٱلْإِنْسَان]، وإما بِفِعْل مقدر ، وهو أَوْجَه (١) .

و «الدِّفْءُ» : السَّخَانَةُ (٢) وذهاب البرد بالأكسية ، وذكر النحاسُ عن الأموي قال : الدفْءُ في لغة بعضهم : تناسل الإبل ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نسْل كل شيء ، والمعنى الأول هو الصحيح . وقرأ الزهري ، وأبو جعفر : «دفٌّ» بضم الفاء وشدها وتنوينها (٣) .

و «ٱلْمَنَافِـع» : ألبانُها وما تصرف منها ، ودهونُها وحرثُها والنضحُ عليها ، وغير ذلك ؛ ثم ذكر «الأَكْل» الذي هو من جميعها .

وقوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي : في النظر ، ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ معناه : حين تردُّونها وقت الرواح إلى المنازل فتأْتي بطاءة

(١) قال الفراء : «نصبت بـ [خَلَقَهَا] لما كانت في [الأَنْعَام] واو، وكذلك كُلُّ فعل عاد على اسم بذكره وقبل الاسم واو أو كلام يحتمل نَقْلَة الفعل إلى ذلك الحرف الذي قبل الاسم ففيه وجهان : الرفع والنصب ، أما النصب فأن تجعل الواو ظرفاً للفعل ، والرفع أن تجعل الواو ظرفاً للاسم الذي هي معه . ومثله ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ ، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ . وقرأ عليَّ بعض العرب من سورة يس ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ رفعاً ، قرأها غير مرة» . ومعنى ذلك أنه يجوز رفع [الأَنْعَام] ، وقد قرئ بذلك في الشاذّ ، قاله أبو حيان في البحر .

(٢) السَّخَانة والسُّخونة مصدران للفعل سَخُنَ (بضم الخاء) . راجع اللسان .

(٣) قال أبو الفتح عثمان بن جني : «خفف بأن حذف الهمزة ، وألقى حركتها على الفاء قبلها ، كقولك في مسألة : مَسَلَة ، وفي يَزْئِرُ : يَزِرُ» . وزاد أبو حيان الأندلسي على ذلك فقال : «ثم شدد الفاء إجراء للوصل مجرى الوقف إذ يجوز تشديدها في الوقف» . وقرأ زيد بن علي مثل قراءة الزهري ولكن بدون تنوين .

ممتلئة الضروع ، و [تَسْرَحُونَ] معناه : تخرجونها غدوة إلى السرح ، تقول : «سَرَحْتُ السائمةَ» إذا أرسلتها تسرح ، فسرحَت هي ، كرَجَع ورَجَعْتُه ، وهذا الجمَالُ لمالكها ولمُحِبِّيه وعلى حسدته (١) ، وهذا في المعنى كقوله تعالى : ﴿ٱلْمالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾(٢) ، وقرأ عكرمة ، والضحاك : «حيناً تُريحُونَ وحيناً تسْرَحونَ» (٣) ، وقرأت فرقة : «حيناً تَريحون» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهي ضعيفة ، وأظنها تصحيفاً .

و «ٱلْأَثْقَالُ» : الأمتعة ، وقيل : المراد هنا الأجسام ، كقوله تعالى : ﴿وأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾(٤) ، أي بني آدم ، واللفظ يحتمل

---

(١) الجمَالُ : الحُسْن ، يقال : جَمُل الرجل جمالاً فهو جميل ، والمرأة جميلة ، وقد يقال : جَمْلاء ، وأنشد الكسائي على ذلك :

فَهيَ جَمْلاءُ كَبَدْرٍ طالِـعٍ بَذَّتِ الْخَلْقَ جَميعاً بالْجَمَالِ

(٢) من الآية (٤٦) من سورة (الكهف) .

(٣) بالتنوين وفك الإضافة ، وجعلا الجملتين صفتين حذف منهما العائد ، كقوله سبحانه : ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي﴾ ، ويكون العامل في (حيناً) - على هذا - إمَّا المبتدأ لأنه في معنى «التَّجَمُّل» ، وإما خبرُه بما فيه من معنى الاستقرار .

(٤) الآية (٢) من سورة (الزلزلة) .

المعنيين . قال النقاش : ومنه سمِّي الإنس والجن الثقلان . وقوله : ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ أي : إلى أيِّ بلدٍ توجهتم بحسب اختلاف أغراض الناس ، وقال عكرمة ، وابن عباس ، والربيع بن أنس : المراد مكة (١) ، وفي الآية - على هذا - حضٌّ مَّا على الحج . و «الشِّقُّ» : المشقَّة ، ومنه قول الشاعر :

وذي إبلٍ يَسْعَى ويحْسِبُهَــا لَهُ　　أخي نَصَبٍ من شِقِّهَا ودؤُوبِ (٢)

أي : من مَشقَّتها . ويقال فيها : شِقٌّ وشَقٌّ ، أي : مَشقَّة ، وقرأ أبو جعفر القاري ، وعمرو بن ميمون ، وابن أرقم ، ومجاهد ، والأعرج : [بِشَقِّ] بفتح الشين ، ورويت عن نافع ، وأبي عمرو ، وذهب الفراء إلى أن معنى ﴿بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ أي : بذهاب نصفها ، كأنها قد ذابت تعباً ونصبا ، كما تقول لرجل : لا تَقْدرُ على كذا إلّا بذهاب جُلِّ نفسك ، وبقطعة من كبِدِ لك ، ونحو هذا من المجاز ، وذهبوا في

(١) وقيل : مدينة الرسول ، وقيل : مصر . قال أبو حيَّان : «وينبغي حمل هذه الأقوال على التمثيل لا على المراد ، إذ المنَّة لا تختص بالحمل إليها» .

(٢) البيت للنَّمر بن تولب ، قال ذلك في (اللسان - شقق) ، وفيه : الشِّقُّ : المشقَّة . وقد ينشد البيت بكسر الشين وبفتحها ، قال أبو عبيدة في «معاني القرآن» : «إلا بشِقِّ الأنفس» بكسر أوله ويفتح ، ومثل هذا البيت قول العجاج :

أصْبَحَ مَسْحُولٌ يُوازي شِقَّا

ومسحُول هو بَعيره ، ويوازي : يقاسي . والشِّقّ : المشقّة .

فتح الشين إلى أنه مصدر : شقَّ يَشُقُّ . ثم أوجب الله رأفته ورحمته في هذه النعم التي أذهبت المشقات ورفعت الكلف .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ عطف ، أي : وخَلَق الخيلَ ، وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿وَٱلْخَيْلُ وَٱلْبِغَالُ وَٱلْحَمِيرُ﴾ بالرفع في كلها ، وسميت الخيل خيلا لاختيالها في المشية ، أفهمه أعرابي لأبي عمرو بن العلاء . وقوله : [وَزِينَةً] نصبت بإضمار فعل تقديره : «وجعلناها زينة» ، وقرأ أبو عياض : ﴿لِتَرْكَبُوهَا زِينَةً﴾ دون واو ، والنصب حينئذ على الحال من الهاء في [تَرْكَبُوهَا](1) . وقوله : ﴿وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ﴾ عبرة منصوبة على العموم ، أي أن مخلوقات الله تعالى من الحيوان وغيره لا يُحيط بعلمها بشر ، بل ما يخفى عنه أكثر مما يُعْلم وقد روي أن الله تعالى خلق ألف نوع من الحيوان ، منها في البرِّ أربعمائة ، وبثّها بأعيانها في البحر ، وزاد فيه مائتين ليستا في البر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكل من خصَّص في هذه الآية شيئاً ــ كقول من قال : سُوس الثياب وغير ذلك ــ فإنما هو على جهة المثال ، لا أن ما ذكره هو

(1) وقال الزمخشري : «التقدير : خلقها زينة لتركبوها» .

المقصود في نفسه ، وقال الطبري : ﴿مَالَا تَعْلَمُونَ﴾ هو ما أُعدَّ في الجنة لأهلها ، وفي النار لأهلها ، مما لم تره عين ، ولا سمعته أُذن ، ولا خطر على قلب بشر . واحتج بهذه الآية مالك ومن ذهب مذهبه في كراهية لحوم الخيل والبغال والحمير وتحريمها بحسب الاختلاف في ذلك ، وذكره الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال ابن جبير : سُئل ابن عباس عن لحوم الخيل والبغال والحمير فكرهها واحتج بهذه الآية ، وقال : جعل الله الأَنعام للأَكل وهذه للركوب ؛ وكان الحكم بن عيينة يقول : الخيل والبغال والحمير حرام في كتاب الله تعالى ، ويحتج بهذه الآية ، وهذه الحجة غير لازمة عند جماعة من العلماء ، قالوا : إنما ذكر الله تعـالى عظم منافع الأَنعـام ، وذكر عظم منـافع هذه وأهم ما فيهـا ، وليس يقضي ذلك بـأَن ما ذكره لهذه لا تدخل هذه فيه . قال الطبري : وفي إجماعهم على جواز ركوب ما ذكر للأَكل دليل على جـواز أكل ما ذكر للـركوب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا نظر ، ولحوم الخيل عند كثير من العلماء حلال ، وفي جواز أكلها حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ، وحديث

جابر بن عبد الله : « كنا نأكل الخيل في عهد النبي عليه الصلاة والسلام »[1] والبغال والحمير مكروهة عند الجمهور ، وهو تحقيق مذهب مالك رحمه الله ، وحُجَّة من ألْحَق الخيل بالبغال والحمير في الكراهية القياسُ ، إذ قد تشابهت وفارقت الأنعام في أنها لا تجْتَرّ ، وأنها ذات حوافر ، وأنها لا أكراش لها ، وأنها متداخلة في النسل ، إذ البغال بين الخيل والحمير ، فهذا من جهة النظر ، وأما من جهة الشرع فإنها قرنت في هذه الآية وأُسقطت الزكاة فيها .

وقوله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ الآية . هذه أيضاً من أجَلِّ نعم الله تبارك وتعالى ، أي : على الله تقويم طريق الهدى وتبيينه ، وذلك بِنَصْب الأدلة وبعث الرسل ، وإلى هذا ذهب المتأوِّلون ، ويحتمل أن يكون المعنى : إن من سلك السبيل القاصد فعلى الله رحمته ونعيمه وطريقه ، وإلى ذلك مصيره . فيكون هذا مثل قوله تعالى : ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ

---

(١) هذا هو لفظ حديث جابر ، أما حديث أسماء فلم يذكره . ولفظه : (نحرْنا فرساً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة فأكلناه) ، رواه مسلم ، ورواه الدارقطني بزيادة تبين سبب الذبح ، (قالت أسماء : كان لنا فرس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أرادت أن تموت فذبحناها فأكلناها) ، فذبحها إنما كان لخوف الموت لا لغير ذلك من الأحوال .

مُسْتَقِيمٌ ﴾(١) ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم : (والشَّرُّ ليس إليك) ، أي : لا يُفضي إلى رحمتك . و «طَرِيقٌ قاصِدٌ» معناه : بيِّن مستقيم قريب ، ومنه قول الراجز :

فَصَدَّ عنْ نَهْجِ الطَّرِيقِ ٱلْقَاصِدِ (٢)

والألف واللام في [السَّبيلِ] للعهد ، وهي سبيل الشرع ، وليست للجنس ، ولو كانت للجنس لم يكن فيها جاير .

قوله : ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ يريد طريق اليهود والنصارى وغيرهم كعباد الأصنام ، والضمير في [مِنْهَا] يعود على [السُّبُلِ] التي يتضمنها معنى الآية ، كأنه قال : «ومن السُّبُلِ جائر» ، فأعاد عليها وإن كان

(١) من قوله تعالى في الآية (٥١) من سورة (آل عمران) : ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ، وتكررت في سورة (مريم) في الآية (٣٦) في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ، وفي قوله تعالى في الآية (٦١) من سورة (يس) : ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ، وفي سورة (الزخرف) في الآية (٦١) في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ . وفي الآية (٦٤) في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ .

(٢) النَّهْجُ : الطريق المستقيم ، ونَهْج الطريق : وَضَحُه ، وطريق نَهْجٌ : واضحٌ بَيِّنٌ ، والطَّريق القاصِدُ : السهل المستقيم ، و ﴿عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ : أي : على الله تَبْيِينُ الطريق المستقيم . والدعاءُ إليه بالحجج والبراهين الواضحة . (اللسان) .

لم يَجْرِ لها ذكر لتَضَمُّن لفظة [السَّبيل] بالمعنى لها ، ويحتمل أن يعود الضمير في [مِنْهَا] على سبيل الشرع المذكورة ، وتكون [مِنْ] للتبعيض ، ويكون المراد فِرَق الضلالة من أُمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كأنه قال : «ومنْ بُنَيَّات الطريق في هذه السبيل ومن شُعَبها جـــائِر »(١).

وقوله : ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ معناه : لَخَلَق الهداية في قلوب جميعكم ولم يَضل أحد ، وقال الزَّجاج : معناه : لو شاء لعرض عليكم آية تضطركم إلى الإيمان والاهتداءِ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول سوءٍ لأهل البِدَع الذين يرون الله لا يخلق أفعال العباد لم يُحصِّله الزجاج ، ووقع فيه رحمة الله عليه من غير قصد(٢)، وفي مصحف عبد الله بن مسعــود : «ومنكم جائر» ، وقرأ عــلي ابن أبي طالب رضي الله عنه : «فمنكم جائر» ، والسَّبيل تُذَكَّر وتُؤَنَّث .

---

(١) قيل : إن (ألْ) في [السَّبِيل] للجنس ، وانقسمت إلى طريق الحق وطريق الباطل .

(٢) قال أبو حيَّان تعقيباً على هذا : «ولم يعرف ابن عطية أن الزجاج معتزلي ، فلذلك تأول عليه أنه لم يحصله ، وأنه وقع فيه من غير قصد» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) ﴾

هذا تعديد نعمة الله في المطر ، وقوله : ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي : يكون منه بالتدريج ، إذْ يَسقي الأَرض فينبت عن هذا السقي الشجر ؛ وهذا من التَّجَوُّز ، كما قال الشاعر :

أَسْنِمَةُ الآبَالِ في رَبَابِهْ (١)

---

(١) الأَسْنِمَة : جمع سنام وهو الجزء المرتفع من ظهر الجمل ، والآبال : جمع إبل ؛ وإبل جمع لا مفرد له ، وربما قالوا (إِبْل) بسكون الباء . والرَّبابُ : السحاب الأبيض، وقيل : هو السحابُ المتعلِّق الذي تراه كأنه دون السحاب ، والواحدة : رَبَابة ، وبهذا سُمِّيت المرأة الرَّباب . قال الشاعر :

سَقَى دارَ هِنْدٍ حَيْثُ حَلَّ بها النَّوَى مُسِفُّ الذُّرَى دَانِي الرَّبابِ سَخِينُ

والشاهد أنه جعل الأَسْنِمة في السحاب ، وهذا من التجوز ، إذ المراد أن الأسنمة تنمو من أكل النبات الذي ينشأ عن المطر النازل من السحاب .

وكما سَمَّى الآخر الغَيْثَ سماءً في قوله :

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَــوْمٍ ... رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَــابا (١)

قال أبو إسحق : يقال لكل ما ينبت على الأرض : شَجَرٌ ، وقال عكرمة : لا تأكلوا ثمر الشجر فإنه مسحت ، يعني الكلأ .

و [تُسِيمُونَ] معناه : ترعون أنعامكم ، وسَوْمها من الرعي ، وتسرحونها ، ويقال للأنعام : السائمة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (في سائمة الغنم الزكاة) (٢) ، يقال : أسامَ الرجلُ ماشيته إسامةً إذا أرسلها ترعى ، وسَوَّمها أيضاً فسامَتْ هي ، ومن ذلك قول الأعشى :

---

(١) البيت لمعوِّد الحكماء معاوية بن مالك ، وسُمِّي مُعَوِّد الحكماء لقوله في قصيدته التي منها هذا البيت :

أُعَوِّدُ مِثْلَهَا الحُكَمَاءَ بَعْدِي ... إِذَا مَا الحَقُّ فِي الحَدَثَانِ نَابَـــا

وهو في الأمالي للقالي (١ ـ ١٨١) ، والرواية فيها « إذا سقط السماء » ، والبيت تصوير لشجاعتهم وهيبتهم ، فهم يرعون في أي أرض وإن كان أصحابها غضاباً محافظين على حقوقهم ، والشاهد كما قال المؤلف أنه أطلق على الغيث اسم السماء ، وفيه أيضاً من التجوّز أنه جعل الرعي للغيث . مع أن الإبل ترعى النبات الذي ينبت بسبب الغيث .

(٢) الحديث في الموطأ ، وأخرجه أبو داود ، والدارمي في كتاب الزكاة ، ولفظه في الدارمي : (عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب الصدقة ، وكان في الغنم في كل أربعين سائمة شاة إلى العشرين ومائة ، فإذا زادت ففيها شاتان إلى مائتين ، فإذا زادت ففيها ثلاث شياه إلى ثلاثمائة ، فإذا زادت شاة لم يجب فيها إلا ثلاث شياه حتى تبلغ أربعمائة ، فإذا بلغت أربعمائة شاة ففي كل مائة شاة ، ولا تؤخذ في الصدقة هرمة ، ولا ذات عوار ولا ذات عيب) .

وَمَشَى القَوْمُ بالْعِمَادِ إلى الرَّزْ حَى ، وأَعْيَا المُسِيمُ أَيْنَ المسَاقُ (١)

ومنه قول الآخر :

مِثْلِ ابنِ بزْعَةَ أَوْ كآخَرَ مِثْلِهِ أَوْلَى لَكَ ابْنَ مُسيمَةِ الأَجْمَالِ (٢)

أي : راعية الأجمال . وفسّر المتأولون [تُسِيمُونَ] بِـ «تَرْعَوْنَ» .

وقرأ الجمهور : [يُنْبِتُ] بالياء ، على معنى : يُنبت اللهُ ، يقال : نبت الشجر وأنبته الله ، ويقال : أنبت الشجرُ بمعنى نَبَتَ ، وكان الأصمعي يأبى ذلك ويتهم قصيدة زهير التي فيها :

. . . . حَتّى إذا أَنْبَتَ البَقْلُ (٣)

---

(١) البيت من قصيدة له قالها بنجران يتشوق إلى قومه مفتخراً بهم ، والرَّزْحَى : التي لا تستطيع المشي من الهزال ، وكانوا يضعون العماد تحت بطونها ليرفعوها ، والمُسِيمُ : الراعي ، والمساق : المكان الذي تساق إليه الماشية ، والرواية في الطبري : «إلى المرعى» بدلا من «إلى الرَّزْحَى» .

(٢) البيت للأخطل ، وهو في الديوان من قصيدة قالها في مدح عكرمة بن ربعي الفياض ، ويروى : «كابْنِ البَزِيعَةِ» ، ويعني بابن بَزْعَةَ شدَّاد بن المنذر أخا حُضَيْن الذُّهَلِيّ ، ويعني بقوله : «كآخَرَ مِثْلِهِ» حَوْشَبَ بنَ رُوَيْم ، وقبل هذا البيت يقول مخاطباً عكرمة :

وَلَقَدْ مَنَنْتَ عَلَى رَبِيعَةَ كُلِّهَا وَكَفَيْتَ كُلَّ مُوَاكِلٍ خَذَّالِ

إلى أن يقول : مثل ابن بَزْعَةَ ... الخ ، وهو يعيره بأن أُمَّه ترعى الإبل كالإماء ، والشاهد هنا أن كلمة «مُسِيمَة» معناها : التي ترعى الإبل من «السَّوْم» وهو الرَّعْيُ .

(٣) هذا جزء من بيت قاله زهير بن أبي سُلْمى ، والبيت بتمامه مع بيت قبله :

إذا السَّنَةُ الشَّهْبَاءُ بِالنَّاسِ أَجْحَفَتْ وَنَالَ كِرَامَ النَّاسِ في الحَجْرَةِ الأَكْلُ

رَأَيْتَ ذَوِي الحَاجَاتِ حَوْلَ بُيُوتِهِم قَطِيناً لَهُمْ حَتَّى إذا أَنْبَتَ البَقْلُ =

وقرأ أبو بكر عن عاصم : [نُنْبِتُ] بنون العظمة ، وخَصَّ عزَّ وجلَّ ذكر هذه الأربعة لأنها أشرف ما يَنْبُت وأجمعها للمنافع ، ثمَّ عمَّ بقوله : ﴿وَمِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾ ، ثم أحال القول على الفكرة في تصاريف النبات والأشجار ، وهي موضع عبرة في ألوانها واطراد خلقها وتناسب ألطافها فسبحان الخلاق العظيم .

وقوله تعالى : ﴿وسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهارَ﴾ الآية . قرأ الجمهور بإعمال [سَخَّرَ] في جميع ما ذكر ، ونصب [مُسَخَّرَاتٍ] على الحال المؤكدة ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً﴾(١) ، وكما قال الشاعر :

أَنَا ٱبْنُ دَارَةَ مَعْرُوفاً بِهَا نَسَبِـي . . . . (٢)

= والسَّنة الشهباء : البيضاء من شدة الجدْب لأنها تَبْيَضُّ بالثلج أو بعدم النبات . والحَجْرَةُ : السَّنة الشديدة التي تَحْجُرُ الناسَ في بيوتهم فينحرون كرام إبلهم ليأكلوها . والقَطِينُ : الحَشَمُ وسُكَّان الدار ، وأَجْحَفَتْ : أضرَّتْ بهم وأهلكت أموالهم . وأنبت البَقْلُ : نَبَتَ ، وهو الشاهد في الشعر . يقال : نبت وأنبت بمعنى واحد ، مثل : مَطَرَ وأمطر ، وإن كان ذلك لا يرضي الأصمعي .

(١) من الآية (٩١) من سورة (البقرة) .

(٢) البيت لابن دارة ، واسمه سالم بن دارة ، ودارة أُمُّه ، سميت بذلك لجمالها ، تشبيهاً لها بدارة القمر ، واسم أبيه مسافع ، وهو من بني عبد الله بن غطفان بن قيس ، والبيت بتمامه هو :

أنا ابْنُ دارَةَ مَعْـــرُوفاً بِهَا نَسَبي وَهَلْ بِدارَةَ يا لَلنَّاسِ مِنْ عَـــارِ ؟

وهو في أمالي ابن الشجري ٢ ٢٨٥ ، والخصائص٢–٢٦٨ ، ٣١٧ ، ٣٤٠ ، ٣–٦٠ ، والخزانة ١–٥٥٣ ، والعيني ٣ ١٨٦ ، وابن يعيش ٢–٦٤ ، وسيبويه ٢ ‑٧٩ ، والأشموني ٢–١٨٥ ، والبيت من قصيدة يهجو بها بني فزارة ، والشاهد فيه أنه نصب «معروفاً» على الحال المؤكدة لجملة «أنا ابن دارة» .

ونحو هذا ، وقرأ ابن عامر : ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ برفع هذا كله ، وقرأ حفص عن عاصم : ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ بالرفع ، ونصب ما قبل ذلك ، والمعنى في هذه الآية أن هذه المَخْلُوقات مُسَخَّرات على رتبة قد استمر بها انتفاع البشر من السكون بالليل والمعايش وغير ذلك بالنهار ، وأما منافع الشمس والقمر فأكثر من أن تُحصى ، وأما النجوم فهدايات ، ولهذا الوجه اعتدت في جملة النعم على بني آدم ، ومن النعمة بها ضياؤُها أحياناً ، قال الزجاج : وعلم عدد السنين والحساب بها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا نظر .

وقرأ ابن مسعود ، والأعمش ، وطلحة بن مصرف : «والرِّياحُ مُسَخَّرات» في موضع «والنجوم» . ثم قال : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ لعظم الأمر ، لأن كل واحد مما ذكر آية في نفسه لا يشترك مع الآخر ، وقال في الآية قَبْلُ : [لَآيَةً] لأن شيئاً واحداً يعم تلك الأربعة وهو النبات ، وكذلك في ذكر ما ذرأ لِيَسَارَته بالإضافة ، وأيضاً فإنه بمعنى «آيات» ، واحد يراد به الجمع .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ معناه : بَثَّ ونشر ، و « الذُّرية » من هذا في أحد الأقوال في اشتقاقها ، وقوله : [أَلْوَانُه] معناه : أصنافه ، كما تقول : هذه ألوان من التَّمر ومن الطعام ، ومن حيث كانت هذه المبثوثات في الأرض أصنافاً عُدّت في النعمة ، وظهر الانتفاع بها أنه على وجوه ، ولا يظهر ذلك من حيث هي متلونة حُمرة وصُفرة وغير ذلك ، ويحتمل أن يكون التنبيه على اختلاف الألوان حمرة وصفرة ، والأول أَبْيَن .

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ الآية ، تعديد نعم الله ، وتسخير البحر هو تمكين البشر من التصرف فيه ، وتذليله للركوب والأرفاد [١] وغيره .

---

(١) الأرْفاد : جمع رِفْد ، وهو العطاء والصِّلة .

والبحر : الماءُ الكثير ملحاً كان أو عذباً ، كلُّه يسمى بحراً ، والبحر هنا اسم جنس ؛ وإذا كان كذلك فمنه أكل اللحم الطري ، ومنه استخراج الحلية ، وأكل اللحم يكون من ملحه وعذبه ، وإخراج الحلية إنما هو – فيما عرف – من الملح فقط ؛ ومما عُرِف من ذلك اللُّؤلؤ والمرجان والصدف البحري ، وقد يوجد في العَذْب لؤلؤٌ لا يلبس إلا قليلا ، وإنما يُتَدَاوى به ، ويقال : إن في الزُّمرد بحرياً ، وقد خُطِّئَ الهذليُّ في قوله في وصف الدُّرَّة :

فجَاءَ بِهَا مِنْ دُرَّةٍ لَطَمِيَّـــــةٍ عَلَى وَجْهِهَا مَاءُ الْفُرَاتِ يَمُوجُ(١)

فجعلها من الماء الحلو .

---

(١) رُوي البيت في أكثر النسخ « يَدُومُ » بدلا من « يموج » ، والقصيدة جيمية ، وتعليق ابن عطية على البيت بقوله : (وتأمل قوله : « يموج ») لا يتفق مع رواية « يدوم » ، والرواية في « شرح أشعار الهذليين » :

فَجَاءَ بها ما شِئْتَ مِنْ لَطَمِيَّةٍ تَدومُ البحــــارُ فَوْقَهَا وتَمُوجُ

والضمير في (بها) يعود على دُرَّة شبه بها الشاعر ابنة السَّهْمي التي يتغزل فيها بقوله قبل هذا البيت بأبيات :

كأن ابنَةَ السَّهْمِيِّ دُرَّةَ قَــامِسٍ لَهَا بَعْدَ تَقْطِيعِ النُّبُوحِ وَهِيجُ

والقَامِسُ هو الغواص ، وعليه يعود الضمير في (جاء) من بيت الشاهد ؛ والنُّبُوح : أصوات الناس وضجتهم ، واللَطِيمَةُ : عيرٌ تحمل التجارة والعِطْر ، فإن لم يكن فيها عطرٌ فليست بلطيمة ؛ فجعل هذه الدُّرَّة تحملها عير اللَّطيمة ، وتدوم البحارُ : تسْكُن فوقها ؛ وتموج : تتحرك فتجيء وتذهب ؛ والفُرات : العَذْبُ ، ومن هنا قالوا : لا يجيءُ منه الدُّر ، إلا أن الشاعر غلط ، وظن أن الدُّرة إذا كانت في الماء العذب فليس لها شبه ، ولم يعلم أنها لا تكون في العذب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتـأمل قوله : «يموج» على أنه أراد وصف بريقها ومَائِيَّتِهَا فشبَّهه بماءِ الفرات ، ولم يذهب إلى الغرض الذي خُطِّئَ فيه . و «اللَّحم الطريُّ» : السمك ، و «الحِلْيَةُ» : ما تقدم ، و «الفُلْك» هنا جمع ؛ و [مَوَاخِر] : جمع ماخرة ، و «المَخْر» في اللغة الصوتُ الذي يكون من هبوب الريح على شيءٍ يُشَقُّ ، أو يصحب في الجملة الماءَ ، فيترتب منه أن يكون «المَخْر» من الريح ، وأن يكون من السفينة ونحوها ، وهو في هذه الآية من السفن ؛ ويقال للسحاب : «بَنَات مَخْر» تشبيهاً ، إذ في جريها ذلك الصوت الذي هو عن الريح ؛ والماء الذي في السحاب وأمرها يشبه أمر البحر ، على أن الزَّجاج قد قال : «بَنَاتُ ٱلْبَحْرِ» : سحاب بيض لا ماءَ فيها ، وقال بعض اللغويين : المَخْر في كلام العرب : الشَّقُّ ، يقال : مَخَر الماءُ في الأرض ، فهذا بيِّنٌ أن يقال فيه للفُلْك : مواخر ، وقال قوم : [مَوَاخر] معناه : تجيءُ وتذهب بريح واحدة ، وهذه الأقوال ليست تفسيراً لِلَّفظة ، وإنما أرادوا بها أنها مواخر لهذه الأحوال ، فنصُّوا على هذه الأحوال ؛ إذ هي موضع النعم المعدودة ؛ إذْ نفس كون الفلك ماخرة لانعمة فيه ، وإنما النعمة في مخرها بهذه الأحوال في التجارات ، والسفر فيها ، وما يمنح الله فيها من الأرباح

والمِنَن ، وقال الطبري : «المَخْر» في اللغة : صوت هبوب الريح ، ولم يقيد ذلك بكونٍ في ماءٍ ، وقال : إن من ذلك قول واصل مولى أبي عُيَيْنَة : إذا أراد أحدكم البول فَلْيَتَمَخَّر الريح ، أي : لينظر في صوتها في الأجسام من أين تهب فيتجنب استقبالها لئلا تردَّ عليه بوله .

وقوله : [وَلِتَبْتَغُوا] عطف على قوله : [تَأْكُلُوا]، وهذا ذكر نعمة لها تفاصيل لا تُحْصى ، وفيه ركوب البحر للتجارة وطلب الأرباح ، فهذه ثلاثة أسباب في تسخير البَحْر .

وقوله تعالى : ﴿وَأَلْقَى فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية . قال المتأولون : [أَلْقَى] بمعنى خلق وجَعَلَ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهي عندي أخصُّ من خلَق وجعَل ، وذلك أَنَّ أَلْقَى تقتضي أن الله أحدث الجبال ليس من الأرض ، لكن من قدرته واختراعه ، ويؤيد هذا النظر ما رُوي في القصص عن الحسن عن قيس بن عباد أن الله تعالى لما خلق الأرض جعلت تمور ، فقالت الملائكة : ما هذه بمُقرَّة على ظهرها أحداً . فأصبحت ضحى وفيها رواسيها ، و «الرَّواسي» : الثوابت ، رسَا الشيءُ يرسو إذا ثبت ، ومنه قول الشاعر

في وصف الوتـــد :

. . . . وَأَشْعَثَ تُرْسِيهِ الْوَلِيدَةُ بِالْفِهْرِ (١)

و [أَنْ] مفعولٌ من أجله ، و « الْمَيَدُ » : الاضطراب ، وقوله : [أَنْهَاراً] منصوب بفعل مضمر ، تقديره : وجَعَلَ أو خَلَق أنهاراً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإجماعهم على إضمار هذا الفعل دليل على خصوص [أَلْقَى] ، ولو كان [أَلْقَى] بمعنى « خَلَقَ » لم يحتج إلى الإضمار . و « السُّبُلُ » : الطُّرق ، وقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يحتمل أن يكون : لعلكم تهتدون في مشيكم وتصرفكم في السُّبل ، ويحتمل لعلكم تهتدون بالنظر في دلالة هذه المصنوعات على صانعها ، وهذا التأويل هو البارع ، أي : سخَّر وألقى وجعل أنهاراً وسُبُلا لعلَّ البشر يعتبرون ويرشدون ، ولتكون علامات .

---

(١) هذا عجز بيت للأحوص ، ذكر صاحب اللسان أن ابن برّي قال : يقال أرسيتُ الوتد في الأرض إذا ضربتها فيها ، قال الأحوص :

سِوَى خَالِدَاتٍ ما يُرِمْنَ وَهَامِــــدٍ وَأَشْعَثَ تُرْسِيهِ الْوَلِيدَةُ بِالْفِهْــــرِ

والفِهْرُ: الحَجَر ، يُذَكَّر ويُؤَنَّث . والشاهد هنا أن « رسا » بمعنى ثَبَتَ ، وهذا مثال للشيء المحسوس ، وتستعمل « رسا » بمعنى ثَبَتَ أيضاً في المعنويات ، قال عنترة يصور شجاعته وثبات نفسه في المواقف الصعبة :

وَعَلِمْتُ أَنَّ مَنِيَّتِي إِنْ تَأْتِــــنِي لا يُنْجِنِي مِنْهَا الْفِرَارُ الأَسْرَعُ
فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِذَلِكَ حُـــرَّةً تَرْسُو إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطَلَّعُ

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

[عَلاَمَاتٍ] نصب على المصدر ، أي : فعل هذه الأشياء لعلَّكم تعتبرون بها ، وعلامات ، أيْ عبرة واعلاماً في كل سلوك ، فقد يُهتدى بالجبال والأنهار والسُّبل . واختلف الناس في معنى قوله : [وَعَلاَمَاتٍ] على أن الأظهر عندي ما ذكرتُ ـ فقال ابن الكلبي : العلامات : الجبال ، وقال إبراهيم النَّخَعي ومجاهد : العلامات : النجوم ، منها ما سُمِّي علامات ، ومنها ما يهتدى بها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : العلامات : معالم الطرق بالنهار ، والنجوم هداية بالليل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والصواب ـ إذا قدرنا الكلام غير معلَّق بما قبله ـ أن اللفظة تعم هذا وغيره ، وذلك أن كل ما دلَّ على شيء أو علم به فهو علامة ،

وأحسن الأقوال المذكورة قول ابن عباس رضي الله عنهما لأنه عموم بالمعنى فتأمله ، وحدثني أبي رحمه الله أنه سمع بعض أهل العلم بالمشرق يقول : إن في بحر الهند الذي يجرى فيه من اليمن إلى الهند حيتاناً طوالًا رقاقاً كالحيَّات في ألوانها وحركتها والتوائها ، وأنها تُسمَّى العلامات ، وذلك أنها علامة الوصول إلى بلاد الهند ، وأَمَارة النجاة والانتهاء إلى الهند لطول ذلك البحر وصعوبته ، وأن بعض الناس قال : إنها التي أراد الله تعالى في هذه الآية ، قال أبي رضي الله عنه : وأنا ممن شاهد تلك العلامات في البحر المذكور وعاينها ، فحدثني منهم عدد كثير .

وقرأ الجمهور : [وَبِالنَّجْمِ] على أنه اسم الجنس ، وقرأ يحيى ابن وثاب : [وَبِالنُّجْمِ] بضم النون وإسكان الجيم على التخفيف من ضمها ، وقرأ الحسن بضمهما ، وذلك جمعٌ ، كسَقْف وسُقُف ، ورَهْن ورُهُن ، ويحتمل أن يُراد به النُّجوم ، فحذف الواو (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا عندي توجيه ضعيف .

(١) ورد في الشعر العربي النُّجُم والمراد النجوم ، قال الشاعر :

إنَّ الفقير بيننا قاضٍ حكَمْ أنْ ترِدَ الماءَ إذا غابَ النُّجُمْ

أراد : النُّجُوم ولكنه قصر .

وقال الفراءُ : المرادُ الجدْيُ والفرقدان(١) ، وقال غيره : المراد القطب الذي لا يجري ، وقال قوم غير هذا ، وقال قوم : هو اسم الجنس ، وهذا هو الصواب .

ثم قررهم تعالى على التفرقة بين من يخلق الأشياء ويخترعها وبين من لا يقدر على شيءٍ من ذلك. وعبَّر عن الأصْنامِ بـ [مَنْ] لوجهين: أحدهما أن الآية تضمنت الرَّدَّ على جميع من عبد غير الله ، وقد عبدت طوائف ممن تقع عليه العبارة بـ «من» ، والآخر أن العبارة جرت في الأصنام بحسب اعتقاد الكفرة فيها من أن لها تأثيراً وأفعالا(٢) ، ثم وبَّخهم بقوله : ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ، أي : إن حاولتم إحصاءها عدداً حتى لا يشذَّ منها شيءٌ لم تقدروا على ذلك ،

(١) الجَدْيُ : برج في السماء بجوار الدَّلْوِ ، والفَرْقَدان : نجمان في السماء ، نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريباً ، ولذا يهتدى به ، وهو المُسَمَّى «النجم القطبي» ، وبقربه نجم آخر مماثل له وأصغر منه ، قال القرطبي : «وسأل ابن عباس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النجم فقال : «هو الجَدْي ، عليه قبلتكم ، وبه تهتدون في بَرِّكم وبحركم» ، وعلَّل القرطبي ذلك بقوله : «وذلك أن آخر الجَدْي بنات نعش الصغرى ، والقطب الذي تستوي عليه القبلة بينها» .

(٢) ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ . قال الفراء : «والعرب تقول : اشتبه عليَّ الراكبُ وجمله فما أدري مَنْ ذا ومَنْ ذا ؟ حيث جمعتهما وأحدُهما إنسان صلحت (مَنْ) فيهما جميعاً» .

ولا اتَّفق لكم إحصاؤُها ؛ إذ هي في كل دقيقة من أحوالكم ، و «النِّعْمَة» هنا مفردة يراد بها الجمع ، وبحسب العجز عن عدد نعم الله تبارك وتعالى يلزم أن يكون الشكر لها مقصراً عن بعضها ، فلذلك قال عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي تقصيركم في الشكر عن جميعها ، نحا هذا المنحى الطبري ؛ ويرد عليه أن نعمة الله في قول العبد : «الحمدُ لله رَبِّ ٱلْعَالَمِين» مع شرطها من النِّيَّة والطاعة يوازي جميع النعم ، ولكن أين قولها بشروطها ؟ والمخاطبة : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ عامة لجميع الناس .

وقوله : ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ الآية متصل بما قبله ، أي : إنَّ الله الغفور الرحيم في تقصيركم عن شكر مالا تحصونه من نعم الله . وإنَّ الله تعالى يعلم سِرَّكُم وعَلَنكم ؛ فيغني ذلك عن التزامكم بشكر كل نعمة . هذا على قراءة من قرأ : [تُسِرُّونَ] بالتَّاء مخاطبة للمؤمنين . فإن جمهور القراء قرأ : [تُسِرُّونَ] بالتَّاء من فوق ، و [تُعْلِنُونَ] و [تَدْعُونَ] كذلك ، وهي قراءة الأعرج ، وشيبة ، وأبو جعفر ، ومجاهد ؛ على معنى : قُلْ يا محمد للكفار . وقرأ عاصم : [تُسِرُّونَ] و [تُعْلِنُونَ] بالتاء من فوق ، و [يَدْعونَ] بالياء من تحت على غيبة الكفار ؛ وهي قراءة الحسن بن أبي الحسن . وروى هبيرة

عن حفص عن عاصم كلَّ ذلك بالياء على غيبة الكفار ، ورُوي عن الكسائي ، وأبي بكر عن عاصم كلُّ ذلك بالتاء من فوق ، وقرأ الأعمش وأصحـاب عبد الله : «يعلم الذي تُبـدون وما تكتمون» و [تَدْعُونَ] بالتَّاء من فوق في الثلاثة ، وقرأ طلحة : «ما تُخْفُونَ وما تُعْلِنُون» و [تدْعُونَ] بالتَّاء من فوق في الثلاثة . و [يَدْعُونَ] معناه : يدعونه إلهاً ، وعبَّر عن الأصنام بـ [ٱلَّذِينَ] على ما قدمناه من أن ذلك يعُمُّ الأصنام ومَنْ عُبِد من دون الله من غيرها .

وقوله تعالى : ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أجمع عبارة في أحوال الربوبية عنهم ، وقرأ محمد اليماني : ﴿وَٱلَّذِينَ يُدْعَوْنَ﴾ بضم الياء وفتح العين على ما لم يُسَمَّ فاعله .

و [أَمْوَاتٌ] يراد به الذين يدعون من دون الله ، ورفع على ابتداء خبر مضمر تقديره : هم أموات ، ويجوز أن يكون خبراً لقوله : [وَٱلَّذِينَ] بعد الخبر في قوله : [لَا يَخْلُقُونَ] ، ووصفهم بالموت مجازاً ، وإنما المراد أنَّهم لم يقبلوا حياةً قط ولا اتَّصفوا بها ، وعلى قراءة من قرأ : ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ بالياء على غيبة الكفار يجوز أن يراد بالأموات الكفار الذين ضميرهم في [يَدْعُونَ] ، شبَّههم بالأموات غير الأحياء من حيث هم ضلال غير مهتدين ، ويستقيم ـ على هذا ـ

فيهم قوله : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ والبعث هنا هو الحشر من القبور . و [أَيَّانَ] ظرف زمان مبني ، وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِي : [إِيَّانَ] بكسر الهمزة ، والفتح فيها والكسر لغتان . وقالت فرقة : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي الكفار ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ الضميران لهم . وقالت فرقة : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي الأصنام أيان يبعث الكفار . ويحتمل أن يكون الضميران للأصنام الأمارة . كما تقول : «بعثت النائم من نومه» إذا نبهته . وكما تقول : «بعث الراعي سهمه» . فكأنه وصفهم بغاية الجمود ، أي : وإن طلبتَ حركاتهم بالتحريك لم يشعروا بذلك ، وعلى تأويل من يرى الضميرين للكفار ينبغي أن يُعتقد في الكلام الوعيد ، أي : وما يشعر الكفار متى يُبعثون إلى التعذيب ؛ ولو اختصر هذا المعنى لم يكن في وصفهم بأنهم لا يشعرون أيان يُبعثون طائل ؛ لأن الملائكة والأنبياء والصالحين كذلك هم في الجهل بوقت البعث . وذكر بعض المفسِّرين أن قوله : ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ظرف لقوله : ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ، وأن الكلام تَمَّ في قوله : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(١) ، ثم أخبر عن يوم القيامة أن الإِلٰه فيه واحد ؛ وفي هذا توعُّد .

(١) قال أبو حيان في (البحر) تعقيباً على ذلك : «لا يصح هذا القول ، لأن (أيَّانَ) إذْ ذاك تخرج عما استقر فيها من كونها ظرفاً إما استفهاماً وإما شرطاً . وفي هذا التقدير تكون ظرفاً بمعنى وقت مضافاً للجملة بعدها معمولا لقوله (واحدٌ) ، كقولك : (يوم يقوم زيد قائماً)» .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

لما تقدم وصف الأصنام جاء الخبر الحق بالوحدانية ، وهذه مخاطبة لجميع الناس مُعلمة بأن الله تعالى متحدٌ وحدانية تامة ، لا يحتاج لكمالها إلى مضاف إليها ، ثم أخبر عن إنكار قلوب الكافرين ، وأنهم يعتقدون إلهية أشياء أُخر ، ويستكبرون عن رفض معتقدهم فيها واطِّراح طريقة آبائهم في عبادتها ، ووسمهم بأنهم لا يؤمنون بالآخرة ، إذ هي أقوى رُتَب الكفر ، أعني الجمع بين التكذيب بالله تبارك وتعالى وبالبعث ، لأن من صدق بالبعث فمحالٌ أن يُكذِّب بالله تبارك وتعالى .

وقوله تعالى : [لَا جَرَمَ] عبَّرت فرقة من اللغويين عن معناها بـ «لَابُدَّ ، ولا محالة» ، وقالت فرقة : معناها : «حقٌّ أن الله» ، ومذهب سيبويه أنَّ (لَا) نفيٌ لما تقدَّم من الكلام ، و (جَرَمَ) معناه : وجَبَ

أَو حقٌ ، ونحو هذا من مذهب الزَّجاج ، ولكن مع مذهبهما (لاَ) ملازمة لـ (جَرَمَ) ؛ لا تنفكُّ هذه من هذه ، وفي جرم لغات قد تقدم ذكرها في سورة هود[١]، وأنشد أبو عبيدة :

. . . . جَرَمَتْ فَزَارَةُ . . . . [٢]

وقال : معناها : حقت عليهم وأوجبت أن يغْضبوا . و [أَنَّ] على مذهب سيبويه فاعلة بـ [جَرَمَ] . وقرأ الجمهور : [أَنَّ] مفتوحة ، وقرأ عيسى الثَّقفي : [إِنَّ] بكسر الألف على القطع . قال يحيى بن سلام ، والنقاش : المراد هنا بـ ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ تشاورهم في دار الندوة في قتل النبي صلى الله عليه وسلم . وقوله : ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ عامٌّ في الكافرين والمؤمنين ، يأْخذ كل واحد منهم بقسطه ، وفي الحديث : (لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من كبر)[٣]، وفيه (إِنَّ الكِبْر منع الحق

---

(١) راجع الجزء السابع صفحة ٢٦٧ و ٢٦٨ .

(٢) هذا جزء من بيت لأبي أسماء بن الضريبة ، أو لعطية بن عفيف ، وهو بتمامه :

وَلَقَدْ طَعَنْتَ أَبَا أُمَيْمَةَ طَعْنَةً جَرَمَتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَن يَغْضَبُوا

وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى : ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ الآية (٢٢) من سورة (هود) ولنا عليه تعليق فارجع إليه في الجزء السابع صفحة ٢٦٧ .

(٣) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والدارمي ، والإمام أحمد في مسنده ، ولفظه كما في المسند (١-٣٩٩) عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، ولا يدخل الجنة من كان =

وغمط الناس)(١)، ويروى عن الحسن بن عليٍّ أنه كان يجلس مع المساكين ويحدثهم ثم يقرأ: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾، ورُوي في الحديث أنه (من سجد لله سجدة من المؤمنين فقد برئ من الكبر)(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ الآية. الضمير في [لَهُمْ] لكفار مكة، ويقال: إن سبب الآية كان أن النضر بن الحارث سافر عن مكة إلى الحيرة وغيرها. فجاء إلى مكة وكان قد اتَّخذ كتب التاريخ «كليلة ودِمنة، وأخبار اسفنديار ورستم»، فكان يقول: إنما يحدث محمد بأساطير الأولين: وحديثي أجمل من حديثه. وقوله: [مَاذَا] يجوز أن تكون [مَا] استفهاماً و [ذَا] بمعنى: الذي، وفي [أَنْزَلَ] ضمير عائد، ويجوز أن يكون [مَا] و [ذَا] اسماً واحداً مركباً، كأنه قال: أي شيء؟ وقولهم: «أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين»

= في قلبه مثقال حبَّة من كِبْر، فقال رجل: يا رسول الله: إني ليعجبني أن يكون ثوبي غسيلا، ورأسي دهيناً، وشراك نعلي جديداً، وذكر أشياء حتى ذكر علاقة أسواطه أفَمِنَ الكبر ذاك يا رسول الله؟ قال: لا، ذاك الجمال، إن الله جميل يحب الجمال، ولكن الكبر من سفه الحق وازْدَرَى النَّاس). (المعجم المفهرس)، وفي (الدر المنثور): أخرجه ابن أبي شيبة، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن مردويه، والبيهقي.

(١) أخرجه أبو داود، والحاكم في مستدركه – عن أبي هريرة، ولفظه كما في الجامع الصغير (الكبر من بطر الحق وغمط الناس). وقد رمز له الإمام السيوطي بالصحة.

(٢) أخرجه الترمذي في السِّير، وفي لفظه: (وهو بريءٌ من الكبر والغلول). (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي).

ليس بجواب عن السؤال الأول ، لأنهم لم يريدوا أنه نَزَل شيءٌ ، ولا أن ثم منزلا . ولكنهم ابتدءُوا الخبر بأن هذه أساطير الأولين ، وإنما الجواب عن السؤال قول المؤمنين في الآية المستقبلة : خيراً ، وقولهم : «أساطيرُ الأوَّلين» إنما هو جواب بالمعنى . فأما على السؤال وبحسبه فلا .

واللَّام في قوله : [لِيَحْمِلُوا] يحتمل أن تكون لام المعاقبة (١) ، لأنهم لم يقصدوا بقولهم : «أساطِير الأولين» أن يحملوا الأوزار ، ويحتمل أن تكون صريح لام كيْ على معنى : قَدَّرَ هذا (٢) ، ويحتمل أن تكون لام الأمر على معنى الحتم عليهم بذلك والصغار الموجب لهم . و «الأَوْزار»: الأَثقال ، وقوله : [وَمِن] للتبعيض (٣) ، وذلك أن هذا الرأس المضل يحمل وزر نفسه كاملا ، ويحمل وزراً من أوزار كل من ضلَّ بسببه ، ولا تنقص أوزار أُولئك . وقوله : ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يجوز أن يريد بها

---

(١) في إحدى النسخ «لام العاقبة» ، وهو التعبير المشهور بين النحويين .

(٢) صريحُ لام كَيْ هي لام التعليل ، لكنه لم يعلقها بقوله : [قَالُوا] ، بل أضمر فعلا آخر هو : قدَّر هذا ليحملوا أوزارهم .

(٣) قال الواحدي : ليست [مِنْ] للتبعيض ، لأنه يستلزم تخفيف الأوزار عن الأتباع وذلك غير جائز لقوله صلى الله عليه وسلم : (من غير أن ينقص من أوزارهم شيءٌ) . وقال الأخفش : [مِنْ] زائدة ، أي : وأوزار الذين يُضِلُّونهم ، والمعنى : ومثل أوزار الذين يضلونهم .

المضِلّ ، أي : أضلَّ بغير برهان قام عنده ؛ ويجوز أن يريد : بغير علم من المقلِّدين الذين يضلونهم . ثم استفتح الله تعالى الإخبار عن سوءِ ما يتحملونه للآخرة ، وأسند الطبري وغيره في معنى هذه الآية حديثاً نصه : (أيُّما داع دعا إلى ضلالة فاتُّبع فإن عليه مثل أوزار من اتَّبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيءٌ ، وأيُّما داع دعا إلى هدى فاتُّبع فله مثل أُجورهم من غير أن ينقص من أُجورهم شيءٌ) (١) ، و [سَاءَ] فعل مسند إلى [مَا] ؛ ولا يحتاج في ذلك هنا إلى صلة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – وغيره من المفسرين : الإشارة بـ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى نمروذ الذي بنى الصرح ليصعد به إلى السماء على زعمه ، فلما أفرط في غُلُوِّه وطوَّله في السّماء فرسخين

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ... عن الربيع بن أنس . (الدر المنثور) .

على ما حكى النقاش بعث الله عليه ريحاً فهدمه ، وخَرَّ سقفه عليه وعلى أتباعه ، وقيل : إن جبريل عليه السلام هدمه بجناحه ، وألقى أعلاه في البحر ، وانجعف(1) من أسفله . وقالت فرقة أُخرى : المراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ جميع من كفر من الأُمم المتقدمة ومكر ، ونزلت به عقوبة من الله تعالى ، وقوله — على هذا — : ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ إلى آخر الآية تمثيل وتشبيه ، أي : حالهم كحال من فُعِل به هذا . وقالت فرقة : المراد بقوله : ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أي : جاءهم العذاب من قِبَل السماء .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ينحو إلى اللّغز .

ومعنى قوله : ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ رفع الاحتمال في قوله : ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾ ، فإنك تقول : «انهدم على فلان بناؤُه» وهو ليس تحته ، كما تقول : «انفسد عليه متاعه» . وقوله : ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ ألزم أنهم كانوا تحته .

وقوله : [فَأَتَى] أي : فأتى أَمْرُ الله وسلطانه . وقرأ الجمهور : [بُنْيَانَهُمْ] ، وقـرأت فرقة «بِنيَتَهُمْ» ، وقرأ جعفـر بن محمد :

---

(1) انْجَعَفَ مطاوع جَعَفَ ، يقال : جَعَفَه جَعْفاً : قلبه وقلعه ، فانجعف .

«بَنِيَّتَهُمْ» ، وقرأ الضحاك : «بُيُوتَهُم» . وقرأ الجمهور : [ٱلسَّقْف] بسكون القاف ، وقرأت فرقة بضمها ، وهي لغة فيه ، وقرأ الأعرج بضم السين والقاف ، وقرأ مجاهد بضم السِّين وسكون القاف .

وقوله : ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ الآية ، لما ذكر الله تعالى في الآية المتقدمة حال هؤلاء الماكرين في الدنيا ، ذكر في هذه حالهم في الآخرة ، وقوله : [يُخْزِيهِمْ] لفظ يعم جميع المكاره التي تنزل بهم ، وذلك راجع إلى إدخالهم النار ، وهذا نظير قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾(١) . وقوله : ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ توبيخ لهم ، وأضافهم إلى نفسه في مخاطبة الكفار ، أي : على زعمكم ودعواكم ، قال أبو عليٍّ : وهذا كما قال تعالى حكايةً : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾(٢) ، وكما قال تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾(٣) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والإضافات تترتب معْقُولَةً وملفوظاً بها بأرقِّ سبب ، وهذا كثير في كلامهم ، ومنه قول الشاعر :

(١) من الآية (١٩٢) من سورة (آل عمران) .
(٢) الآية (٤٩) من سورة (الدخان) .
(٣) من الآية (٤٩) من سورة (الزُّخْرُف) .

إِذَا قُلْتُ قَدْنِي قَالَ بِاللهِ حلْفَةً ... لتُغْنِي عَنِّي ذَا إِنَائِكَ أَجْمَعَا (١)

فَأَضَافَ الإناءَ إلى حاسيهِ . وقرأ البزي عن ابن كثير : [شُرَكَايَ] بقصر الشركاء وفتح الياء ، مثل هدايَ ، وقرأ الجمهور بالمدِّ وفتح الياء بعد الهمزة ؛ وقرأت فرقة بالمدِّ وياءٍ ساكنة .

وقوله : [تُشَاقُّونَ] معناه : تحاربون وتحاجُّونَ ، أي : تكونون في شقٍّ والحق في شقٍّ ، وقرأ الجمهور : [تُشَاقُّونَ] بفتح النون ، وقرأ نافع وحده بكسرها ، ورويت عن الحسن بخلاف ، وضعَّف هذه القراءة أبو حاتم ، وقد تقدم القول في مثله في « الحِجْر » في [تُبَشِّرُونَ](٢) ، وقرأت فرقة : [تُشَاقُّونِّي] بشدِّ النون وكسرها وياءٍ بعدها . و ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾ هم الملائكة فيما قال بعض المفسرين ، وقال يحيى بن سلام : « هم المؤمنون ، وهذا الخطاب منهم يوم القيامة » .

---

(١) البيت لحُرَيْث بن عناب الطائي ، وهو في (الخزانة) ، وفي (اللسان – لوم) ، ورواية اللسان :

إِذَا هُوَ آلَى حِلْفَةً قُلْتُ مِثْلَهَا ... لِتُغْنِيَ عَنِّي ذَا أَتَى بِكَ أَجْمَعَا

وقال : أراد : لَيُغْنِيَنَّ ، فأسقط النون وكسر اللام ، ويُرْوَى : لَتُغْنِنَّ . أما على رواية المؤلف والخزانة فإن قَدْنِي بمعنى : حَسْبِي ، وذا إنائِكَ : صاحب إنائك ، يريد به اللَّبَن ، والمعنى أنه حلف أن أغني عنه لبن الإناء جميعاً ، أي : أشربه عنه . والشاهد فيه هو إضافة الإناء إلى شاربه كما ذكر المؤلف .

(٢) من قوله تعالى في الآية (٥٤) من سورة (الحجر) : ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والصواب أن يعم جميع من آتاه الله علم ذلك من جميع من حضر الموقف من ملَك وإنْسي وغير ذلك ، وباقي الآية بيِّنٌ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

[ٱلَّذِينَ] نعت لـ [ٱلْكَافِرِينَ] في قول أكثر المتأَوِّلين ، ويحتمل أن يكون [ٱلَّذِينَ] مرتفعاً بالابتداءِ منقطعاً مما قبله ، وخبره في قوله : ﴿فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ﴾ فزيدت الفاءُ في الخبر ، وقد يجيءُ مثل هذا . [وَٱلْمَلَائِكَةُ] يريد بهم القابضين لأَرواحهم ، وقوله : ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ حال . و [ٱلسَّلَمِ] هنا : الاستسلام ، أي : رموا بأَيديهم وقالوا : ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ فحذف «قالوا» لدلالة الظاهر عليه .

قال الحسن : هي مواطن ، فمرَّة يقرون على أنفسهم ، كما قال : ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾(١) ، ومرَّة يجحدون كهذه الآية ، ويحتمل قولهم : ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ وجهين : أحدهما أنهم كذبوا وقصدوا الكذب اعتصاماً منهم به ؛ على نحو قولهم : ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(٢)، والآخر أنهم أَخْبَروا عن أنفسهم أنهم لم يكونوا يعملون سُوءًا ، فأَخبروا عن ظنهم بأَنفسهم ، وهو كذب في نفسه ، وحَسُن الردُّ عليهم في الوجهين جميعاً بـ [بَلَى]، أي يقال لهم : بَلَى ، وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وعيد وتهديد ، وظاهر الآية أنها عامة في جميع الكفار . وإلقاؤُهم السَّلَم ضدُّ مُشَاقَّتهم قَبْلُ ، وقال عكرمة : نزلت في قوم من أهل مكة آمنوا بقلوبهم ولم يهاجروا ؛ فأَخرجهم كفار مكة مكرهين إلى بدر فقتلوا هنالك ، فنزلت فيهم هذه الآية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما اشتبهت عليه بالآية الأُخرى التي نزلت في أُولئك باتفاق من العلماء ، وعلى هذا القول يحسن قطع [ٱلَّذِينَ] ورفعه بالابتداء ،

(١) من الآية (١٣٠) من سورة (الأنعام) .
(٢) من قوله تعالى في الآية (٢٣) من سورة (الأنعام) : ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ .

فتأمله . والقانون أن «بَلَى» تجيءُ بعد النفي ، و «نعم» تجيءُ بعد الإيجاب ، وقد تجيءُ بعد التقرير ، كقولك : أَلَيْسَ كذا ؟ ونحوه ، ولا تجيءُ بعد نفي سوى التقرير . وقرأ الجمهور : [تَتَوَفَّاهُمُ] بالتَّاء من فوق ، وقرأها حمزة بالياء ، وهي قراءة الأعمش ، قال أبو زيد : أدغم أبو عمرو : ﴿ٱلسَّلَم مَّا﴾ .

وقوله تعالى : [فادْخُلُوا] من كلام الذي يقول : [بَلَى] ، و «أَبْوَابُ جَهَنَّم» مفضية إلى طباقها التي هي بعض على بعض ، والأَبواب كذلك بابٌ على باب ، و [خَالِدِينَ] حالٌ ، واللام في قوله : [فَلَبِئْسَ] لام التأْكيد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذكره سيبويه ، وهو إجماعٌ من النحويين فيما علمتُ أن لام التأْكيد لا تدخل على الفعل الماضي ، وإنما يدخل عليه لام القسم ، ولكن دخلت على «بئس» لأَنها لمَّا لم تتصرف أشبهت الأَسماء وبعدت عن حال الفعل في هذا ، وهي بعيدة أَيضاً عن حال الفعل من جهة أَنها لا تدخل على زمان . و «المَثْوى» : موضع الإقامة ، ونعم وبئس إنما يدخلان على معرَّف بالألف واللام ، أو مضاف إلى معرَّف بذلك ، و «المَثْوَى» هنا محذوف تقديره : ولبئس المثوى مثوى

المتكبرين ، والمتكَبِّر هنا هو الذي أفضى به كِبْره إلى الكفر .

وقوله تعالى : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ الآية . لما وصف الله تعالى مقالة الكفار الذين قالوا : «أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ» عادَلَ ذلك بذكر مقالة المؤمنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وأوْجَب لكلٍّ فريق ما يستحق لتباين المنازل بين الكفر والإيمان ، و [مَاذَا] تحتمل ماذكر في التي قبلها(١) ، وقولهم : [خَيْراً] جواب بحسب السؤال . واختلف المتأَوِّلون في قوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ إلى آخر الآية – فقالت فرقة : هو ابتداءُ كلام من الله تعالى مقطوع مما قبله ، ولكنه بالمعنى وعْدٌ متصل بذكر إحسان المتقين في مقالتهم ، وقالت فرقة : هو من كلام الذين قالوا : [خَيْراً] ، وهو تفسير للخير الذي أُنزل . أي : أنزل الله في الوحي على نَبِيِّنا (٢) خيراً ، أي : من أحسن في الدنيا بالطاعة فله حسنة في الدنيا ونعيم في الآخرة بدخول الجنة . وروى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّ الله لا يظلم المؤمن حسنة ، يثاب عليها الرزق في الدنيا .

(١) يريد [مَاذَا] التي سبقت في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ .
(٢) في بعض النسخ «أنبيائه» بدلا من «نَبِيِّنَا» ، وفي نسخ أخرى الكلمتان : «نَبِيِّنا» ، ثم بين قوسين «أنبيائه» .

ويُجزى بها في الآخرة)(١) ، وقد تقدم القول في إضافة الدار إلى الآخرة ، وباقي الآية بَيِّن .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يحتمل أن يرتفع [جَنَّاتُ] على خبر ابتداءٍ مضمر بتقدير : هي جنات عدن ، ويحتمل أن ترتفع بقوله : ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ جَنَّاتُ عَدۡنٍ﴾ ، ويحتمل أن يكون التقدير : لهم جناتُ عدن ، ويحتمل أن تكون [جَنَّاتُ] مبتدأً ، وخبره : ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ ، وقرأ زيد بن ثابت ، وأبو عبد الرحمن : [جَنَّاتِ] بالنَّصب ، وهذا على نحو قوله : «زيداً ضربته» ، وقرأ جمهور الناس : [يَدۡخُلُونَهَا] ،

(١) أخرجه مسلم ، والإمام أحمد ، ولفظه كما في مسنده (٣ ـ ١٢٥) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله عزّ وجلّ لا يظلم المؤمن حسنة ، يثاب عليها الرزق في الدنيا ، ويُجزى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيعطى بحسناته في الدنيا ، فإذا لقي الله عزّ وجلّ يوم القيامة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً) .

وقرأ إسماعيل عن نافع : [يُدْخَلُونَهَا] بضم الياء وفتح الخاء ، ولا يصح هذا عن نافع ، ورويت عن أبي جعفر ، وشيبة بن نصاح . وقوله : ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ في موضع الحال ، وباقي الآية بيِّن .

وقرأ الجمهور : [تَتَوَفَّاهُمْ] بالتاء ، وقرأ الأعمش ، وحمزة : [يَتَوَفَّاهُم] بالياء من تحت ، وفي مصحف ابن مسعود [تَوَفَّاهُم] بتاءٍ واحدة في الموضعين(١) . و [طَيِّبِينَ] عبارة عن صلاح حالهم واستعدادهم للموت ، وهذا بخلاف ما قال في الكفرة : ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِم﴾ ، والطَّيب : الذي لا خبث معه ، ومنه قوله تعالى : ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾(٢) ، وقول الملائكة : ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ بشارة من الله تعالى ، وفي هذا أحاديث صحاح يطول ذكرها (٣) . وقوله :

(١) أي في هذه الآية ، وفي قوله تعالى قبلها : ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِم﴾ .

(٢) من الآية (٧٣) من سورة (الزُّمَر) .

(٣) أخرج ابن مالك ، وابن جرير ، وابن المنذر وغيرهم عن محمد بن كعب القرظي قال : إذا استقاقت نفس العبد المؤمن جاءه الملَك فقال : السلام عليك يا وليّ الله . الله يقرأ عليك السلام ، ثم نزع بهذه الآية ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ . (الدر المنثور) ، وفي القرطبي : (إذا استَنْقَعَتْ نَفْسُ العَبْدِ المؤمن) ومعنى استنقعت : تجمعت في فيه لتخرج ، من قولهم : استنقع الماء بمعنى تجمع وثبت — وقال ابن مسعود : إذا جاء ملَك الموت يقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام .

﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي : بما كان في أعمالكم من تكسبكم ، وهذا على التجوز ، علّق دخولهم الجنة بأعمالهم من حيث جعل الأعمال أمارة لإدخال العبد الجنة ، ويعترض في هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل أَحَدٌ الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلّا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة)(١) ، وهذه الآية تُرَدُّ بالتأويل إلى معنى الحديث . ومن الرحمة والتغمد أن يوفق الله العبد إلى أعمال برّة ، ومقصد الحديث نفي وجوب ذلك على الله تعالى بالعقل كما ذهب إليه فريق من المعتزلة .

قوله عزّ وجلّ :

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾

[يَنْظُرُونَ] معناه ينتظرون ، و «نَظَرَ» متى كانت من رؤية العين فإنما تُعَدِّيها العرب بإلى ، ومتى لم تتعدَّ بإلى فهي بمعنى انتظر ، كما

(١) أخرجه البخاري ، وابن ماجه ، والدارمي ، ومسلم ، وأحمد . (المعجم المفهرس) .

قال امرؤُ القيس :

فَإِنَّكُمَـا إِنْ تَنْظُـرَانِي سَـاعَةً مِنَ الدَّهْرِ تَنْفَعْني لَدَى أُمِّ جُنْدبِ(١)

ومنه قوله تعالى حكاية : ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾(٢) ، وقد جاء شاذًّا نظرتُ بمعنى الرؤية متعدياً بغير إلى كقول الشاعر :

بَاهِرَاتُ الْجَمَـالِ وَالْحُسْنِ يَنْظُرْ نَ كما يَنْظُرُ الأَرَاكَ الظِّبَـاءُ(٣)

وقرأ الجمهور : [تَأْتِيَهُمْ] بالتاء من فوق ، وقرأ حمزة والكسائي : [يَأْتِيَهُمْ] بالياء ، وهي قراءة يحيى بن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ،

---

(١) يقول مخاطباً صديقين له — على عادته — : إن انتظرتماني ساعة من الزمن تنفعني عند أم جندب ، فالفعل (تنظر) هنا بمعنى (تنتظر) لأنه من النظر بالعين ولم يتعدَّ بـ (إلى) . وأمُّ جُنْدَب : زوج الشاعر تزوجها في بني طيّ ، وقد فضّلت عليه علقمة في الشّعر في قصة معروفة فطلقها ، وقبل هذا البيت يقول وهو مطلع القصيدة :

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ نُقَضِّ لُبَانَاتِ الْفُـؤادِ الْمُعَذَّبِ

والجُنْدب في الأصل نوع من الجراد يصرُّ ويقفز ويطير ، وجمعه جنادب ، و « أم جُنْدَب » : الداهية والغدر والظلم ، ويقال : ركب أمَّ جندب : غَدَرَ وظَلَم .

(٢) من الآية (١٣) من سورة (الحديد) .

(٣) امرأةٌ باهرة الحُسْن : تفوق غيرها من النساء فيه ، والأراك ، أو شجر المِسْواك : نبات شجيري ، من الفصيلة الأراكية ، كثير الفروع ، خوّار العود ، متقابل الأوراق ، له ثمار حُمْرٌ دكناءُ تؤكل ، ينبت في البلاد الحارة ، ويوجد في صحراء مصر الجنوبية الشرقية ، يُشَبِّهُهُنَّ وهن ينظرن بالظباء وهي تنظر إلى شجر الأراك في صورة باهرة من الجمال والحسن ، والشاهد أن (نظر) هنا بمعنى الرؤية والنظر بالعين ، ولم تتعدّ بإلى كما اعتادت العرب .

ومعنى الكلام أن تأتيهم الملائكة لتقبض أرواحهم ظالمي أنفسهم ، وقوله : ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وعيد يتضمن قيام الساعة أو عذاب الدنيا . ثم ذكر تعالى أن هذا كان فعل أسلافهم من الأمم ، أي : فَعُوقبوا ، ولم يكن ذلك ظلماً لأنه لم يوضع ذلك العقاب في غير موضعه ، ولكن هم ظلموا أنفسهم بأن وضعوا كفرهم في جهة الله تعالى ، وميلَهم إلى الأصنام والأوثان ، فهذا وضع الشيء في غير موضعه . وظلموا أنفسهم ، أي : آذوها بنفس فعلهم وإن كانوا لم يقصدوا ظلمها ولا إذايتها .

وقوله تعالى : ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ ، أي جزاءُ ذلك في الدنيا والآخرة ، [وَحَاقَ] معناه نزل وأحاط ، وهنا محذوف يدل عليه الظاهر من الكلام ، تقديره : جزاءً بما كانوا به يستهزئون .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الآية جدل من الكفار ، وذلك أن أكثر الكفار كانوا يعتقدون وجود الله تعالى ، وأنه خالقهم ورازقهم ، فإن كان أهل هذه الآية من هذا الصنف فكأنهم قالوا : يا محمد ، نحن من الله بمرأى في عبادتنا الأوثان ، واتخاذها لتنفع وتقرِّب زُلفى ، ولو كره الله فعلنا لغيَّره منذ مدة ، إمَّا بإهلاكنا وإمَّا بهدايتنا . وكان من الكفار فريق لا يعتقدون بوجود الله ، فإن كان

أهل هذه الآية من هذا الصنف فكأنهم أخذوا الحجة على النبي عليه الصلاة والسلام من قوله ، أي : إن الرَّبَّ الذي تثبته يا محمد وهو على ما تصفه يعلم ويقدر ، ولاشَكَّ أنه يعلم حالنا ، ولو كرهها لَغَيَّرَها . والرَّدُّ على هذين الفريقين هو أن الله تعالى ينهى عن الكفر وقد أراده بقوم ، وإنما نصب الأدلة وبعث الرسل ويَسَّرَ كــلًّا لما حتم عليه ، وهذا الجدال – بين أيِّ الصِّنفين فَرَضْتَهُ – ليس فيه استهزاءٌ ، لكن أبا إسحٰق الزجاج قد قال : إن هذا الكلام على جهة الهُزْء ، فذهب أبو إسحٰق – والله أعلم – إلى أنَّ الطائفة التي لا تقول بالإثم ؛ ثم أقامَت الحجة من مذهب خصمها كأنها مستهزئة في ذلك ، وهذا جدالٌ محض ، والرَّدُّ عليه كما ذكرناه ، وقوله : ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ يُشير إلى ما ذكرناه .

وقوله : ﴿وَلَا حَرَّمْنَا﴾ يريدون البَحِيرَة والسائبة والوصيلةَ وغير ذلك مما حرَّموه ، وأخبر الله تبارك وتعالى أنَّ هذه النزعة قد سبقهم الأولون من الكفار إليها ، وكأنه قال : والأمر ليس على ما ظنُّوه من أن الله تعالى إذا أراد الكفر لا يأْمر بتركه ، بل قد نصب الله لعباده الأدلة ، وأرسل الرسل منذرين ، وليس عليهم إلاَّ البلاغ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

لما أشار قوله : ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ إلى إقامة الحجة حسب ما ذكرناه بيّن ذلك في هذه الآية ، أي أنه بعث الرسل آمراً بعبادته وتجنب عبادة غيره . و « الطَّاغُوت » في اللغة كلُّ ما عُبِد من دون الله من آدميٍّ راضٍ بذلك أو حجر أو خشب ، ثم أخبر أَن منهم من اعتبر وهداه الله ونظر ببصيرته ؛ ومنهم من أعرض وكفر فحقت عليه الضلالة ، وهي مؤدية إلى النار حتماً ، ومنهم من أدّته إلى عذاب الله في الدنيا ، ثم أحالهم في علم ذلك على الطلب في الأَرض ؛ واستقراء الأُمم ، والوقوف على عواقب الكافرين المكذبين .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ تَحْرِصْ﴾ ؛ الحِرْصُ : أَبلغ الإرادة في الشيء ، وهذه تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام ، أي أَنَّ حرصك لا ينفع ،

فإنها أمور محتومة . وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والحسن ، والأعرج ، وأبو جعفر ، وشيبة ، ومجاهد ، وشبل ، ومزاحم الخراساني ، وأبو رجاءٍ العطارديّ ، وابن سيرين : ﴿لَا يُهْدَى﴾ بضم الياءِ وفتح الدال [1] ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿لَا يَهْدِي﴾ بفتح الياءِ وكسر الدال ، وهي قراءة ابن مسعود ، وابن المسيب ، وجماعة ، وذلك على معنيين : أي أن الله لا يَهْدِي من قضى بإضلاله ؛ والمعنى الآخر أن العرب تقول : «يَهْدِي الرجل» بمعنى «اهتدى» ، حكاه الفراءُ [2] ، وفي القرآن : ﴿لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ [3] ، وجعله أبو علي وغيره بمعنى «يهتدي» ، وقرأت فرقة بفتح الياءِ وكسر الهاءِ والدَّال . وقرأت فرقة : [يُهْدِي] بضم الياءِ وكسر الدال ، وهي ضعيفة [4] ، وفي مصحف أُبيّ بن كعب «فإنَّ الله لا هَادِيَ لِمَنْ

---

(١) قال الفراءُ في (معاني القرآن) : وهو وجه جيّد ، لأنها في قراءة أُبيٍّ : «لا هَادِيَ لِمَنْ أَضَلَّ» .

(٢) الذي حكاه الفراءُ هو أن العرب تقول : «قَدْ هَدَّى الرَّجل» يريدون : اهتدى ، ثم استشهد بالآية وهي بتشديد الدال المكسورة ، ثم عاد الفراءُ فنقل عن الأعمش أنه قرأ : [يَهْدِي] بفتح الياء وكسر الدال . وقال محقق «معاني القرآن» للفراء : إنه يريد قراءة حمزة ، والكسائي ، «بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال» ، وبهذا يكون ما ذكره ابن عطية عن الفراء صحيحاً إذا كان قد فهم ما يريده الفراء كما فهمه المحقق .

(٣) من الآية (٣٥) من سورة (يونس) .

(٤) قال أبو حيان تعقيباً على هذا : «وإذا ثبت أن «هدى» لازمة بمعنى «اهتدى» لم تكن ضعيفة ، لأنه أدخل على اللازم همزة التعدية ، فالمعنى : لا يجعل مهتدياً من أضلّه» .

أَضَلَّ» ، وحكاها أبو حاتم : «فَإِنَّه لا هادِيَ لِمَنْ أَضَلَّ» ، قال أبو عليٌّ : «الراجع إلى اسم [إنَّ] مقدر في [يُضِلُّ] على كل قراءة إلَّا قراءة [يَهْدِي] بفتح الياء وكسر الدال ، أي : يهدي الله ، فإنَّ الراجع مقدر في [يَهْدِي] . وقوله : ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ضمير على معنى [مَنْ] ، وتقول العرب : حَرَصَ يَحْرُصُ[١] وَحَرَصَ يَحْرِصُ ، والكسر في المستقبل لغة أهل الحجاز ، وقرأ الحَسَن ، وإبراهيم ، وأبو حيوة بفتح الراء في قوله [تَحْرَصْ] وقرأ إبراهيم : «وإنْ تَحْرِصْ» بزيادة واو .

والضمير في قوله : [وَأَقْسَمُوا] لكفار قريش ، وذكر أن رجلاً من المسلمين جاور رجلاً من المشركين ، فقال في حديثه : «لا والذي أرجوه بعد الموت» ؛ فقال له الكافر : «أو تُبعث بعد الموت»؟ قال : «نعم» ، فأقسم الكافر مجتهداً في يمينه أن الله لا يبعث أحداً بعد الموت ، فنزلت الآية بسبب ذلك ، و [جَهْدَ] مصدر ، ومعناه : بغاية جهدهم ، ثم ردَّ الله تعالى عليهم بقوله : [بَلَى] فأوجب بذلك البعث . وقوله : ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدران مؤكدان ، وقرأ الضحاك :

---

(١) ضبطها محقق (اللسان) طبعة دار المعارف ـــ القاهرة ـــ بضم الراء ، وضبطها محقق المحتسب لابن جني بفتح الراء . أما لغة أهل الحجاز وهي الكسر فلا خلاف فيها .

﴿بَلَى وَعْدٌ عَلَيْهِ حَقٌّ﴾ بالرفع في المصدرين(١)، وأكثر الناس في هذه الآية الكفار المكذبون بالبعث ؛ والبعث من القبور مما يُجَوِّزه العقل ، وأثبته خبر الشريعة على لسان جميع النَّبِيِّين ، وقال بعض الشيعة : إن الإشارة بهذه الآية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وإن الله سيبعثه في الدنيا ، وهذا هو القول بالرجعة ، وقولهم هذا باطل وافتراء على الله ، وبهتان من القول ردَّه ابن عباس رضي الله عنهما ، وغيره .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾

اللام في قوله : [لِيُبَيِّن] متعلقة بما في ضمن قوله : [بَلَى] ، لأن التقدير : بلى يبعث ليبين ؛ وقيل : هي متعلقة بقوله : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ ، والأول أصوب في المعنى ، لأن به يُتَصور كذب الكفار في إنكار البعث .

---

(١) وعلى هذا تكون [وعْدٌ] خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير : بَعَثْهم وعدٌ عليه حقٌّ ، و [حَقٌّ] صفة لـ [وَعْدٌ] .

وقوله : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ الآية . «إِنَّمَا» في كلام العرب هي للمبالغة وتحقيق وتحضيض على المذكورين ، وقد تكون – مع هذا – حاصرةً إذا دلَّ على ذلك المعنى ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾(١) ، وأما قول النبي عليه الصلاة والسلام : (إنما الربا في النَّسيئة)(٢) ، وقول العرب : «إنما الشجاع عنترة» فبقي فيها معنى المبالغة فقط ، و[إِنَّمَا] في هذه الآية هي للحصر ، وقاعدة القول في هذه الآية أن نقول : إن الإرادة والأَمر اللذين هما صفتان من صفات الله تبارك وتعالى القديمة هُما قديمان أزليَّان ، وإن ما في ألفاظ هذه الآية من معنى الاستقبال والاستئناف إنما هو راجع إلى المراد لا إلى الإرادة ، وذلك أن الأَشياء المرادة المكوَّنة في وجودها استئناف واستقبال ، لا في إرادة ذلك ، ولا في الأَمر به ، لأَن ذينك قديمان ، فمن أجل المراد عبَّر بـ [إِذَا] و [نَقُول] . ونرجعُ الآن على هذه الأَلفاظ فنوضِّحُ الوجه فيها واحدةً واحدةً : أما قوله : [لِشَيْءٍ] فيحتمل وجهين : أَحدهما أن هذه الأَشياء التي هي مُرادة وقيل لها : [كُنْ] معلوم أن الوجود يأْتي

(١) من قوله تعالى في الآية (١٧١) من سورة (النساء) : ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَــٰــهٌ وَاحِدٌ﴾ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والنسائي ، وابن ماجه – عن أُسامة بن زيد ، ورمز له الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» بالصحة .

على جميعها بطول الزمن وتقدير الله تعالى ، فلما كان وجودها حتْماً جاز أن تسمى «أشياء» وهي في حالة عدم ، والوجه الثاني أن يكون قوله : [لِشَيْءٍ] تَنْبيهاً لنا على الأمثلة التي ننظر فيها ، أي أنَّ كل ما تأْخذونه من الأشياء الموجودة فإنما سبيله أن يكون مراداً وقيل له : «كُنْ» فكان ، ويكون ذلك الشيءُ المأْخوذ من الموجودات مثالاً لما يتأخر من الأُمور وما تقدم ، فبهذا نتخلص من تسمية المعدوم شيئاً ، وقوله : ﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ مُنَزَّل منزلة مراد ، ولكنه أتى بهذه الألفاظ المستأْنفة بحسب أن الموجودات تجيءُ وتظهر شيئاً بعد شيءٍ فكأنه قال : «إذا ظهر المراد منه» ، وعلى هذا الوجه تخرج قوله تعالى : ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٢) ، ونحو هذا مِمَّا معناه : ويقع منكم ما رآه الله تعالى في الأزل كلَّه وعَلِمَه . وقوله : ﴿أَنْ نَقُولَ﴾ نزل منزلة المصدر ، كأنه قال : «قولنا» ، ولكن «أنْ» مع الفعل تعطى استئنافاً ليس في المصدر في أغلب أمرها ، وقد تجيءُ في مواضع لا يُلحظ فيها الزمن كهذه الآية ، وكقوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ

(١) من الآية (١٠٥) من سورة (التوبة) .
(٢) من الآية (١٤٠) من سورة (آل عمران) .

بِـأَمْرِهِ﴾(١) وغير ذلك . وقوله : [لَهُ] ذهب أكثر الناس إلى أن «الشَّيْءَ» هو الذي يقال له كالمخاطَب ، وكأن الله تبارك وتعالى قال في الأزل لجميع ما خلق : «كُنْ» بشرط الوقت والصفة ، وقال الزَّجَّاج : [لَهُ] بمعنى : من أجله ، وهذا ممكن أن يُرَدَّ بالمعنى إلى الأول ، وذهب قومٌ إلى أن قوله : ﴿أَنْ نَقُولَ﴾ مجازٌ ، كما تقول : قال برأسه فرفعه ، وقال بيده فضرب فلاناً ، وردَّ على هذا المنزع أبو منصور ، وذهب إلى أن الأول هو الأول . وقرأ الجمهور : [فَيَكُونُ] برفع النون ، وقرأ ابن عامر ، والكسائي هنا وفي «يٰسٓ» (٢) [فَيَكُونَ] بنصبها ، وهي قراءة ابن محيصن (٣) .

---

(١) من الآية (٢٥) من سورة (الروم) .

(٢) من قوله تعالى في الآية (٨٢) : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ .

(٣) قال القرطبي : في الآية دليل على أن القرآن غير مخلوق ، لأنه لو كان قوله : (كُنْ) مخلوقاً لاحتاج إلى قول ثان ، والثاني إلى ثالث وتسلسل ، وكان محالا ، وفيها دليل على أن الله سبحانه مريد لجميع الحوادث كلها خيرها وشرها نفعها وضرها ، والدليل على ذلك أن من يرى في سلطانه ما يكرهه ولا يريده فلأحد شيئين : إما لكونه جاهلا لا يدري ، وإما لكونه مغلوباً لا يطيق ، ولا يجوز ذلك في وصفه سبحانه ، وقد قام الدليل على أنه خالق لاكتساب العباد ، ويستحيل أن يكون فاعلا لشيء وهو غير مريد له ، لأنّ أكثر أفعالنا يحصل على خلاف مقصودنا وإرادتنا ، فلو لم يكن الحق سبحانه مريداً لها لكانت تحصل من غير قصد ، وهو قول الطّبيعيين ، وهو فاسد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأول أبْعَدُ على التعقيب الذي يصحب الفاء في أغلب حالها ، فتأمله .

وفي هذه النُّبذة ما يُطّلع منه على عيون هذه المسألة ، وشرط الإيجاز منع من بسط الاعتراضات والانفصالات ؛ والمقصود بهذه الآية إعلامُ مُنكري البعث بهوان أمره على الله تعالى وقربه في قدرته ، لا ربَّ غيره .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

لمَّا ذكر الله تعالى كفار مكة الذين أقسموا أن الله لا يبعث من يموت وردَّ عليهم قولهم ذكر مؤمني مكة المعارضين لهم ؛ وهم الذين هاجروا إلى أرض الحبشة ، هذا قول الجمهور ، وهو الصحيح في سبب هذه الآية ، لأن هجرة المدينة لم تكن وقت نزول الآية ؛

وقالت فرقة : سبب الآية أبو جندل بن سهيل بن عمرو[1] ، وهذا ضعيف ، لأن أمر أبي جندل إنما كان والنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وقالت فرقة : نزلت في عمّار وصهيب وخبّاب وأصحابهم الذين أُوذوا بمكة وخرجوا عنها ، وعلى كل قول فالآية تتناول بالمعنى كل من هاجر أوّلًا وآخراً .

وقرأ الجمهور : [لَنُبوِّئَنَّهُمْ] ، وقرأ ابن مسعود ، ونعيم بن ميسرة ، والربيع بن خَيْثَم[2] ، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : [لَنُثْوِيَنَّهُم][3]، وهاتان اللفظتان معناهما التقرير

---

(١) قيل : اسمه عبد الله ، وكان من السابقين إلى الإسلام ، وممّن عُذِّب بسبب إسلامه ، ثبت ذكره في صحيح البخاري في قصة الحديبية ، قال : وجاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده ، فقال : يا معشر المسلمين ، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئتُ مسلماً ، ألا ترون إلى ما لقيتُ ؟ وكان مجيئه قبل أن يتم كتاب الصلح ، ولم يرض المشركون بأن ينضم إلى المسلمين مع أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب ذلك ، وقال من يمثلهم : هذا أول ما أقاضيك عليه ، استشهد أبو جندل باليمامة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة . (الإصابة) .

(٢) ذكر في أكثر النسخ أن اسمه : الربيع بن تميم ، والصواب ما ذكرناه ، والتصويب عن كتب التفسير والقراءات ، وهو أبو يزيد الكوفي الثوري ، تابعي جليل ، وردت عنه الرواية في حروف القرآن . أخذ القراءة عن عبد الله بن مسعود ، وقال له ابن مسعود : لو رآك محمد صلى الله عليه وسلم لأحبك ، وما رأيتك إلا ذكرتُ المخبتين . مات في ولاية عبيد الله ابن زياد . (طبقات القراء لابن الجوزي) .

(٣) بالثاء المثلثة ، مضارع أثْوَى المنقول بهمزة التعدية من ثوَى بالمكان بمعنى أقام فيه . وعلى هذه القراءة تُنْصب [حَسَنَةً] على تقدير : إثْوَاءةً حسنة ، أو على نزع الخافض ، أي في حسنة ، يعني في دار حسنة ، أو منزلة حسنة .

في موضع ، فقالت فرقة : «الْحَسَنَةُ» عِدَةٌ ببقعة شريفة كشف الغيب أنها كانت بالمدينة ، وإليها كانت الإشارة بقوله : [حسَنَة] ، وقالت فرقة : الحَسنَةُ هنا لسانُ الصدق الباقي عليهم في غابر الدهر ، وفي قوله : [لَنُبَوِّئَنَّهُم] أَوْ [لَنُثْوِيَنَّهُم] على هذا التأْويل في لسان الصدق تَجَوُّز كثير واستعارة بعيدة ، وهذا على أن «الحسنة» هي الحياة والمثوى ، وأن الفعل الظاهر عامل فيها ، وقال أبو الفتح : نصبها على معنى : «نُحْسن إليهم في ذلك إحساناً» ، وجعلت [حَسَنَة] موضع «إحساناً» ، وذهبت فرقة إلى أن الحسنة عامة في كل أمر مستحسن يناله ابن آدم ، وتخف الاستعارة المذكورة على هذا التأْويل ، وفي هذا القول يدخل ما رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يعطي المال وقت القسمة الرجلَ من المهاجرين ويقول له : خُذ ما وعدك الله في الدنيا ولأَجر الآخرة أكبر ، ثم يتلو هذه الآية ، ويدخل في هذا القول النصرُ على العدو وفتح البلاد وكل أمل بلغه المهاجرون ، و «أَجر الآخرة» هنا إشارة إلى الجنة ، والضمير في [يَعْلَمُونَ] عائد على كفار قريش ، وجواب [لَوْ] مقدر محذوف ، ومفعول [يَعْلَمُونَ] كذلك ، وفي هذا نظر .

وقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا﴾ من صفة المهاجرين الذين وعدهم الله ، والصبر يَجْمَع : عن الشهوات ، وعلى المكاره في الله تعالى ،

والتوكل بتفاصيل مراتبه ، فَمُطيل فيه وذلك مباحٌ حَسَن ما لم يَغْلِ حتى يُسَبِّب الهلاك ، ومتوسط يسعى جميلا ويتوكل ، وهذا مع قول النبي صلى الله عليه وسلم : (قَيِّدها وتوكل)(١) ، ومقصِّر لا نفع في تقصيره ، وإنَّما لَهُ مَا قُدِّر له .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية ، هي ردٌّ على كفار قريش الذين استبعدوا أن يكون البشر رسولًا من الله تعالى ، فأعلمهم اللهُ مخاطباً لمحمد صلى الله عليه وسلم أنه لم يرسل إلى الأُمم إلا رجالًا ، ولم يرسل ملَكاً ولا غير ذلك ، و [رِجَالًا] منصوب بـ [أَرْسَلْنَا] ، و [إلَّا] إيجابٌ ، وقرأ الجمهور : [يُوحَى] بضم الياء وفتح الحاء ، وقرأت فرقة بضم الياء وكسر الحاء ، وقرأ عاصم من طريق حفص وحده(٢) [نُوحِي] بالنون وكسر الحاء ، وهي قراءة ابن مسعود ، وطلحة ابن مصرف ، وأبي عبد الرحمن . ثم قال تعالى : [فَاسْأَلُوا] ، أي : قل لهم فاسألوا ، و «أَهْلَ الذِّكْرِ» هنا اليهود والنصارى ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن . وقال الأعمش ، وسفيان بن عُيَيْنَة : المرادُ من أسلم منهم ، وقال أبو جعفر ، وابن زيد : «أَهْلُ الذِّكْرِ» :

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عمرو بن أُمية الضمري ، ولفظه كما في الجامع الصغير : (قيِّدْ وتوكل) ـ ورمز له الإمام السيوطي بالصحة .

(٢) يعني وحده من السبعة ، وإلا فقد قرأ بها معه كثيرون .

أَهْلُ القرآن ، وهذان القولان فيهما ضعف ؛ لأَنه لا حجة على الكفار في إخبار المؤمنين بما ذكر ، لأَنهم يكذبون هذه الصنائف ، وقال الزجاج : «أَهْلُ الذِّكْرِ» عام في كل من يُعزى إلى علم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأَظهر في هذا كله قول ابن عباس رضي الله عنهما أن يكون أَهل الذكر هنا أَحبار اليهود والنصارى الذين لم يسلموا ، وهم في هذه النازلة خاصة إنما يُخْبِرُونَ بأَن الرسل من البشر ، وأَحبارهم حجة على هؤلاءِ ، فإنهم لم يزالوا مُصَدِّقين لهم ، ولا يتهمون بشهادة لنا لأَنهم مدافعون في صدر ملة محمد صلى الله عليه وسلم قاتلهم الله ، وهذا هو كسْر حجتهم من مذهبهم ، لا أَنَّا (١) افتقرنا إلى شهادة هؤلاءِ ، بل الحق واضح في نفسه ، وقد أَرسلت قريش إلى يهود يثرب يسأَلونهم ويُسْنِدون إليهم .

وقوله تعالى : [بِالْبَيِّنَاتِ] متعلق بفعل مضمر تقديره : أَرسلناهم بالبيِّنات ، وقالت فرقة : إنها متعلقة بـ [أَرْسَلْنَا] في أَول الآية (٢) ،

---

(١) في أكثر النسخ «لكنا» بدلا من «لا أَنَّا» . وقد نقلها أبو حيان في «البحر» كما أثبتناها هنا وهي الملائمة للمعنى .

(٢) وأجاز الزمخشري أن تكون صفة لـ [رجالاً] ؛ أي : رجالا متلبسين بالبينات ، فيتعلق بمحذوف، وهذا وجه سائغ لأنه في موضع صفة لما بعد «إلا» ، وبهذا يكون الله تعالى=

والتقدير ـ على هذا ـ : وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزُّبُرِ إلا رجالًا ، ففي الآية تقديم وتأْخير ، و «الزُّبُر» : الكتب المزْبُورَة ، تقول : «زبرت ودبرت» إذا كتبتَ ، و [الذِّكر] في هذه الآية القرآن . وقوله : [لِتُبَيِّن] يحتمل أن يريد : لِتُبيِّن بِسَرْدِك نص القرآن ما نزل ، ويحتمل أن يريد : لِتُبَيِّن بتفسيرك المجمل وبشرحك ما أشكل مما نُزِّل ، فيدخل في هذا ما تُبيِّنه السُّنَّة من أمر الشريعة ، وهذا قول مجاهد .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

هذه آية تهديد لأهل مكة ، وهم المراد بـ [ٱلَّذِينَ] في قول الأكثرين ، وقال مجاهد : المراد نمروذ بن كنعان .

= قد وصف « الرجال » بأنهم يوحى إليهم ، وبذلك العامل في [البيِّنَات] ، كما تقول : ما أكرمت إلا رجلا مسلماً مُتَلَبِّساً بالخير ، وأجاز أيضاً أن يتعلق بـ ﴿ يُوحَىٰ إِلَيْهِم ﴾ ، وأن يتعلق بـ ﴿ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأول أظهر ، ونصب [السَّيِّئَاتِ] يحتمل وجهين ، أحدهما أن ينصب بقوله : ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ﴾ ، وتكون السيئات – على هذا – العقوبات التي تسوءُ من تنزل به ، ويكون قوله : ﴿أَنْ يَخْسِفَ﴾ بدلًا منها ، والوجه الثاني أن تنصب بـ [مَكَرُوا] ، وعُدِّي [مَكَرُوا] لأنه في معنى «عملوا» أو «فعلوا» ، و [ٱلسَّيِّئَات] – على هذا – معاصي الكفر وغيره ، قاله قتادة . ثم توعدهم بما أصاب الأُمم قبلهم من الخسف ، وهو أن تبتلع الأَرض المخسوف به ويقعد إلى أسفل ، وأسند النقاش عن بعض أهل العلم أن قوماً في هذه الأُمة أُقيمت الصلاة فتدافعوا الإمامة وتَصَلَّفُوا في ذلك (١) ، فما زالوا كذلك حتى خُسِفَ بهم .

و [تَقَلُّبِهِم] : سفرهم ومحاولتهم المعايش بالسفر وبالرعاية وغيرها ، و «ٱلْمُعْجِز» : المُفْلت هرباً ، كأَنَّه عجَّز طالبه ، وقوله : ﴿عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ ، أي : على جهة التَّخَوُّف ، والتَّخَوُّف : التَّنَقُّص ، ومنه قول الشاعر يصف ناقة :

---

(١) المراد أنهم وصلوا إلى درجة أبغض بعضهم فيها بعضاً ، يقال : صَلِفَ فلان : لم يحظ عند الناس وأبغضوه ، وأَصْلَفَه الله : بَغَّضه إلى الناس . ويقال : صَلِفَه صَلَفاً : أبغضـــه .

تَخَـوَّفَ السَّيْرُ مِنْهَا تَامِـكاً قَرِداً كما تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ(١)

فالسَّفَن : المبْرد ، ويُروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خفي عليه معنى «التَّخَوُّف» في هذه الآية ، وأراد الكتب إلى الأمصار يسأل عن ذلك حتى سمع هذا البيت ، ويُروى أنه جاءَ فتىً من العرب وهو قد أشكل عليه أمر لفظة التخوف ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن أبي يَتَخَوَّفَني مالي ، فقال عمر رضي الله عنه : الله أكبر ، ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ ، ومنه قول طرفة :

وَجَــامِلٍ خَوَّفَ مِنْ نِيبِــــهِ زَجْرُ المُعَلَّى أُصُــلًا والسَّفِيحْ(٢)

(١) البيت لابن مقبل ، (اللسان ــ خوف) ، والتَّخَوُّف : التَّنَقُّص ، وقال الفراء : «إنه التنقيص ، والعرب تقول : تَحَوَّفته (بالحاء المهملة) بمعنى : تَنَقَّصْته من حافاته ، وقد جاء التفسير بالحاء» ، وقال ابن الأعرابي : «تَحَوَّفته وتَحَيَّفته ، وتَخَوَّفته وتَخَيَّفته». والتَّامِكُ : السَّنام ، وقيل : السَّنام المرتفع . والقَرِدُ : الذي تَجَمَّع شَعْره ، أو الذي تراكم لحمُهُ من السمن ، والنَّبْعَةُ : واحدة النَّبع ، وهو من شجر الجبال ، تُتَّخذ منه القِسِيُّ لصلابته ، والسَّفَن : الحديدة التي تبرد بها القِسِيُّ . يقول ابن مقبل : إن السَّيْر قد أخذ ينقص من سنام هذه الناقة ومن لحمها السمين كما ينتقص المبرد من خشب القِسِيِّ . ويروى : «تَخَوَّف الرَّحْلُ» بدلا من : «تَخَوَّف السَّيْرُ» .

(٢) هذا البيت لطرفة ، وهو من أبيات قالها يصف مرضه ويسأل عن عُوَّاده فيه ، والجامِلُ : القطيع من الإبل ، وخَوَّف : تَنَقَّص ، ويروى «خَوَّعَ» وهي بمعنى تَنَقَّص أيضاً ، ولكن لا يصلح شاهداً ، وفاعِلُ الفعل (خَوَّفَ) هو قوله : «زَجْرُ المُعَلَّى» في الشطر الثاني ، والنِّيبُ: جمع ناب وهي النَّاقة المُسِنَّة . والمُعَلَّى : سابع سهام المَيْسِر ، =

ويروى : من نفسه ، ومنه قول الآخر :

أَلَامُ عَلَى الْهِجَـاءِ وكُلَّ يَـوْمٍ يُلَاقِيني مِنَ الْجِيـرَانِ غُـولُ
تَخَوَّفَ عَدْوُهُمْ مَالِي وَأَهْـدَى سَلَاسِلَ فِي الْحُلُوقِ لَهَا صَلِيلُ(١)

يريد الأهاجي . ومنه قول النابغة :

تَخَوَّفَهُمْ حَتَّى أَذَلَّ سَرَاتَهـم بِطَعْنٍ ضِرَارٍ بَعْدَ نَفْحِ الصَّفَائحِ(٢)

وهذا التنقيص يتجه الوعيد به على معنييْن : أحدهما : أن يهلكهم ويخرج أرواحهم على تخوف ، أي أفذاذاً ، يتنقّصهم بذلك الشيء

=والسَّفيح : قَدَحٌ من قداح المَيْسر لا نصيب له ، وأصُلا : جمع أصيل ، وهو الوقت بين العصر والمغرب ، يقول : إن هذا القطيع من الإبل قد أتى على نيافه النقص بسبب ما خسره صاحبه منه في لعب الميسر في وقت الأصيل . وفي (اللسان — خوف) أن أبا إسحق رواه : «منْ نَبْتِه» بدلا من «نِيِّه» .

(١) استشهد أبو عبيدة بهذين البيتين في «مجاز القرآن» على أن «التَّخَوّف» هو «التَّنَقُّص» والشاهد في البيت الثاني ، أي : تَنَقَّص عَدْوُهم مالي ، والعَدْوُ هو العدوان أو الاعتداء ، ويروى «غَدْرُهُمْ» بالغين والراء ، ويريد بالسلاسل : قوافي الشعرّ التي تنشد ، وهي قلائد في الأعناق ، وصليل القوافي هو صوتها حين تنشد .

(٢) التَّخَوُّف : التَّنَقُّص ، والسَّراة : اسم جمع سَرِيّ ، وليس جمعاً ؛ لأن فعيل لم يُجمع على فَعَلَة ، قال سيبويه : الدليل على أنه ليس جمعاً قولهم : سَرَوات ، أو هو جمع سَرِيٍّ على غير قياس ، والسَّرِيُّ : الشريف النفيس الرفيع المنزلة : ذو المروءة ، والطعن ضِراراً هو الطعن عن قرب شديد (راجع أساس البلاغة) ، والصفائح : السيوف العراض ، ونفحت بالسيف : ضربت ضرباً خفيفاً ، أو التناول بالسيف من بعيد شذراً واحتقاراً للمضروب ، فهو طعن شديد بالرماح بعد ضرب خفيف بالسيوف ، أو طعن بالرماح عن قرب بعد تناول بالسيوف من بعيد ، ولم أجد البيت في ديوان النابغة . (طبع ونشر الشركة التونسية للتوزيع الجزائر ، وتحقيق الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، طبعة مكملة) .

بعد الشيء ، وهذا لا يدعي أحد أنه يأْمنه ، وكأن هذا الوعيد إنما يكون بعذاب ما يلقون بعد الموت ، وإلا فهكذا تهلك الأُمم كلها ، ويؤيد هذا قوله : ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ، أي أن هذه الرتبة من الوعيد فيها رأْفة ورحمة وإمهال ليتوب التائب ويرجع الراجع ، والآخرُ : ما قال الضحاك : أن يأْخذ بالعذاب طائفة أو قرية ويترك أخرى ، ثم كذلك حتى يهلك الكل . وقالت فرقة : التخوُّف هنا من الخوف ، أي : يأْخذهم بعد تخوف ينالهم يعذبهم به .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا تكلُّف مَّا .

وقوله : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية ، قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ بالياء ، على لفظ الغائب ، وكذلك في العنكبوت (١)، فهي جارية على قوله : ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ وقوله : ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ﴾ وقوله : ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ ، ورجَّحها الطبري . وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿أَوَ لَمْ تَرَوْا﴾ بالتاء من فوق في الموضعين ، وهي قراءة الحسن ، والأعرج ، وأبي عبد

(١) في قوله تعالى في الآية (١٩) : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ .

الرحمن ، وذاك يحتمل من المعنى وجهين : أحدهما على معنى : قُلْ لهم يا محمد أَوَ لَمْ تَرَوْا ، والوجه الثاني أن يكون خطاباً عاماً لجميع الخلق ابتدأ به القول آنفاً ، وقرأ عاصم في النحل بالتاء من فوق ، واختلف عنه في العنكبوت . وقوله : ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ لفظ عام في كل ما اقتضته الصفة في قوله : ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ﴾ لأن ذلك صفة لما عرض للعبرة في جميع الأشخاص التي لها ظل ، والرؤية هنا هي رؤية القلب ، ولكن الاعتبار برؤية القلب هنا إنما تكون في مرئيات بالعين ، وقرأ أبو عمرو وحده : [تَتَفَيَّأُ] بالتاء من فوق ، وهي قراءة عيسى ويعقوب ، وقرأ الجمهور : [يَتَفَيَّأُ] ، قال أبو علي : إذا تقدم الفعل المسند إلى مثل هذا الجمع فالتذكير والتأنيث فيه حسنان . و «فاء الظِّلُّ» : رجع بعكس ما كان بُكْرة إلى الزوال ، وذلك أن الشمس من وقت طلوعها إلى وقت الزوال إنما هي في نسخ الظِّلِّ العام قبل طلوعها ، فإذا زالت ابتدأ رجوع الظل العام ، ولا يزال ينمو حتى تغيب الشمس فيعم ، والظل الممدود في الجنة لم يذكر الله له فيئاً لأنه لم يرجع بعد أن ذهب ، وكذلك قول حُميد بن ثور الهلالي :

فَلَا الظِّلُّ مِنْ بَرْدِ الضُّحَى تَسْتَطِيعُهُ   وَلَا الْفَيْءُ مِنْ بَرْدِ الْعَشِيِّ تَذُوقُ(١)

(١) قال حميد هذا البيت يصف سَرْحَةً . وكَنَّى بها عن امرأة . وقال في (اللسان - فيأ) : «وإنما سُمِّيَ الظِّلُّ فَيْئاً لرجوعه من جانب إلى جانب» ، ونقل عن ابن السكيت =

فهو على المهيع[١]، وكذلك قول علقمة بن عبدة :

تَتَبَّعُ أَفْيَاءَ الظِّلَالِ عَشِيَّةً ... عَلَى طُرُقٍ كَأَنَّهُنَّ سُيُوبُ[٢]

وكذلك قول امرئ القيس :

. . . . يَفِيءُ عَلَيْهَا الظِّلُّ . . . . . .[٣]

وأما النابغة الجعدي فقال :

فَسَلَامُ الإِلَهِ يَغْدُو عَلَيْهِمْ ... وَفُيُوءُ الْفِرْدَوْسِ ذَاتُ الظِّلَالِ[٤]

= قوله : « الظِّلُّ : ما نسخته الشمس ، والفيءُ : ما نَسَخَ الشمس » ، وقد وضح الشاعر في هذا البيت أن الظلّ بالغداة ، وهو ما لم تَنَلْه الشمسُ ، وأن الفَيْءَ بالعَشِيّ ، وهو ما انصرفت عنه الشمس . والسَّرْحَةُ : واحدة السَّرْح ، وهو شجر عظام طوال .

(١) المَهْيَعُ من الطُّرُق : البَيِّنُ ، وجمعه مهايع . (المعجم الوسيط) .

(٢) هذا البيت من قصيدة قالها علقمة الفحل في مدح الحارث ملك الغساسنة في الشام على أثر الموقعة المعروفة باسم « يوم حليمة » ، وهو في وصف الناقة ، حيث بدأ الشاعر بالغزل : « طَحَابِكَ قَلْبٌ في الحِسان طَرُوبُ » ، ثم قال : « فَدَعْهَا وسَلِّ الهَمَّ عَنْكَ بِجَسْرَةٍ » فهذه الناقة تَتَتَبَّعُ أفياء الظلال على طول الطريق ، والطريق أمامها كأنها مجاري المياه لرطوبتها ، والسُّيُوب : مجاري المياه . وفي رواية « سُبُوب » ، وهي جمع سُبٍّ وهي قطع الكتّان .

(٣) هذا جزء من بيت ، وهو بتمامه :

تَيَمَّمَتِ الْعَيْنَ الَّتِي عِنْدَ ضَارِجٍ ... يَفِيءُ عَلَيْهَا الظِّلُّ عَرْمَضُهَا طَامِ

وهو من قصيدة له يردُّ على سُبَيْع بن عوف بن مالك الذي قال فيه أبياتاً يذمه ، وضارج : جبل معروف ، والعين نبع عند ضارج ، والعرْمض : الطُّحْلُب الأخضر الذي يتغشى الماء كأنه نسج العنكبوت ، ويُسمَّى بالطُّحْلب إذا كان في جوانب الماء ، يقال : عرْمض الماء عرمضة : علاه العرْمضُ ، وطام : مرتفع . يقول : إن ناقتي قصدت العين التي عند ضارج ، وهي عين يفيءُ عليها الظل ، ويرتفع فوقها الطحلب .

(٤) الفِرْدَوس : البستان الجامع لكل ما يكون في البساتين « مذكر ومؤنث » ، أو الوادي الخصيب ، أو المكان تكثر فيه الكروم ، وكل ذلك جائز هنا ، والشاهد في البيت أن النابغة الجعدي تجوَّز لأنه جعل الفُيُوء حيث لا رجوع ، بخلاف المألوف المعروف في الأمثلة الأخرى .

فَتَجَوَّزَ في أَنْ جعل الفَيْءَ حيثُ لارجوع ، وقال رؤْبة بن العجّاج : يقال بعد الزوال : فيءٌ وظِلٌّ ، ولا يقال قبله إلّا ظِلٌّ فقط ، ويقال : فاءَ الظِّلُّ إذا رجع من النقصان إلى الزيادة ، ويُعدَّى (فَاءَ) بالهمزة ؛ كقوله تبارك وتعالى : ﴿مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾(١) ، ويُعدَّى بالتضعيف ، فيقال : أفاءَهُ الله وفيَّأَهُ ، وتَفَيَّأَ مضارع فَيَّأَ ، ولا يقال الفيْءُ إلا من بعد الزوال في مشهور كلام العرب . لكن هذه الآية الاعتبار فيها من أول النهار إلى آخره ، فكأَن الآية جارية في بعض التأْويلات على تجوز كلام العرب واقتضائه وضع (تَتَفَيَّأُ) مكان (تَتَنَقَّل) و (تميل) ، وأضافَ الظلال إلى ضمير مفرد حملاً على لفظ [مَا] ، أو لفظ [شَيْءٍ] ، وهو بالمعنى لجميع ؛ وقرأ الثَّقَفيُّ : [ظُلَلُهُ] بفتح اللام الأُولى وضم الثانية وضم الظاء .

وقوله تعالى : ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ . أفرد [ٱلْيَمِين] وهو يراد به الجمع فكأَنه للجنس . والمراد : عن الأَيمان والشمائل ، كما قال الشاعر :

الوَارِدُونَ وتَيْــمٌ في ذُرَى سَبَــاءٍ قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُم جِلْدُ ٱلْجَوَامِيسِ(٢)

---

(١) من الآية (٧) من سورة (الحشر) .

(٢) البيت لجرير ، وهو في هجاء عمر بن لجأ التَّيْمي ، والرواية في الديوان : «تدعوك تَيْمٌ وتَيْمٌ» ، ويريد بقوله : «عضَّ أعْنَاقَهُم جِلْدُ الجواميس» أنهم أسرى وفي أعناقهم أطواقٌ من جلد الجواميس ، وهو جلد غليظ متين ، والشاهد أن الشاعر هنا أفرد فقال : «جِلْد الجواميس» ، ولم يقل : «جُلُود الجواميس» في مقابلة قوله : «أعْنَاقَهُمْ» .

وقال الآخر :

بِفِي الشَّامِتِينَ الصَّخْرُ إِنْ كَانَ هَدَّنِي رَزِيَّةُ شِبْلَيْ مُخْدَرٍ فِي الضَّرَاغِمِ (١)

والمنصوب للعبرة في هذه الآية هو كل شخص وجرم له ظل كالجبال والشجر وغير ذلك ، والذي يترتب فيه أيمان وشمائل إنما هو البشر فقط ، ولكن ذكر الأيمان والشمائل هنا هو على جهة الاستعارة لغير البشر ، أي : تُقَدِّرُهُ ذات يمين وشمال ، وتُقَدِّرُه يستقبل أيَّ جهة شئت ثم تنظر ظله فتراه يميل إما إلى جهة اليمين وإما إلى جهة الشمال ، وذلك في كل أقطار الدنيا ، فهذا وجه يعمم لك ألفاظ الآية ، وفيه تجوُّزٌ واتساعٌ ؛ ومن ذهب إلى أن اليمين من غدوة النهار إلى الزوال ، ثم يكون من الزوال إلى المغيب عن الشمال ـ وهو قول قتادة ، وابن جريج ـ فإنما يترتب له ذلك فيما قدره مستقبل الجنوب ،

(١) البيت للفرزدق ، وهو من قصيدة له يرثي ابْنَيْن له . والشامتون : جمع شامت وهو الذي يفرح في بليَّة الإنسان ، وهدَّني : أوهن رُكْني ، والمُخْدَر : الأسد ، والضَّراغِم : جمع ضِرْغام وهو الأسد أيضاً ، فهو يتجلد ويتحمل مصيبته في فقد ولديه حتى لا يشمت فيه الشامتون الحاقدون ، والشاهد أنه أفرد فقال : « بِفِي » ولم يقل : « بأفواه » ، وهذا دليل على جواز إفراد اليمين وجمع الشمائل ؛ لأن معنى الكلام في الآية الكريمة : أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيّأ ظلال ما خلق من شيء عن يمينه ـ أي : ما خلق ـ وشمائله ، فالفظ [مَا] لفظ واحد ومعناه معنى الجمع ، فقال سبحانه : ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ بمعنى : عن يمين ما خلق ، ثم رجع إلى معنى [مَا] في [الشمائل] .

والاعتبار في هذه الآية عندي إنما هو في مستقبل الجنوب : وما قاله بعض الناس من «أن اليمين أول دفعة للظل بعد الزوال ، ثم الآخر إلى الغروب هي عن الشمائل ، ولذلك جمع الشمائل وأفرد اليمين» فتخليط من القول يبطل من جهات ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إذا صليت الفجر كان ما بين مطلع الشمس إلى مغربها ظلا ، ثم جعل الله عليه الشمس دليلا فقبض إليه الظل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعلى هذا فأول ذرور الشمس فالظل عن يمين مستقبل الجنوب ، ثم يبدأُ الانحراف فهو عن الشمائل ، لأَنها حركات كثيرة وظلال مقطعة ، فهي شمائل كثيرة ، وكان الظل عن اليمين متصلاً واحداً عامًّا لكل شيء ، وفي هذا القول تجوُّز في [يَتَفَيَّأُ] ،وعلى ما قدَّرنا من استقبال الجنوب يكون الظل أبداً مندفعاً عن اليمين إلى الزوال ، فإذا تحرَّك بعْدُ فارَق الأَيمان جملة وصار اندفاعه عن الشمائل ، وقالت فرقة : الظلال هنا : الأَشخاص ، وهي المراد أَنفسها ، والعرب تُعبِّر أَحياناً عن الأَشخاص بالظلال ، ومنه قول عَبْدة بن الطبيب :

إِذَا نَزلْنَـا نَصَبْنَـا ظِلَّ أَخْبِيَةٍ وَفَارَ لِلْقَوْمِ بِاللَّحْمِ الْمَرَاجِيلُ(١)

---

(١) عبدة بن الطيب من بني عَبْشَمْس بن كعب ، وهو شاعر مخضرم ، أدرك الإسلام وأسلم ، وشهد مع المثنى قتال هرمز ، وله في ذلك آثار مشهورة . والأخبية : جمع خباء ، =

وإنما تُنصب الأَخبية ، ومنه قول الآخر :

تَتَبَّعُ أَفْيَاءَ الظِّـلَالِ عَشِيَّـــةً . . . . (١)

أي أَفياء الأَشخاص ، وهذا كله محتمل غير صريح ، وإن كان أَبو علي قد قرره .

واختلف المتأَوِّلون في هذا السجود - فقالت فرقة : هو سجود عبادة حقيقية ، وذكر الطبري عن الضحاك قال : إذا زالت الشمس سجد كل شيءٍ قِبَلَ القبلة من بيتٍ أَو شجر ، ولذلك كان الصالحون يستحبون الصلاة في ذلك الوقت ، وقال مجاهد : إنما تسجد الظلال لا الأَشخاص ، وقالت فرقة - منهم الطبري - : عبَّر عن الخضوع والطاعة وميلان الظلال ودورانها بالسجود ، كما يقال للمشير برأْسه نحو الأَرض على جهة الخضوع : ساجد ، ومنه قول الشاعر :

فَكِلْتَاهُمَا خَرَّتْ وَأَسْجَدَ رَأْسُهَـــا كَمَا سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحَنَّفِ(٢)

=وهو البيت من الوبر أو الشعر أو الصوف يكون على عمودين أو ثلاثة ، والمراجيل: قدور من الطين أو النّحاس يطبخ فيها ، وقد وضح المؤلف الشاهد في البيت .

(١) هذا صدر بيت قاله علقمة الفحل ، وقد سبق الاستشهاد به قبل ذلك بقليل (ص ٤٣١ هامش ٢) من هذا الجزء ، والبيت بتمامه :

تَتَبَّعُ أفياءَ الظِّـلالِ عَشِيَّـــةً عَلَى طُرُقٍ كَأَنَّهُنَّ سُبُــــوبُ

(٢) البيت لأبي الأخزَر الحِمَّانيِّ ، وفيه يصف الشاعر ناقتين خرّتا من الإعياء والتّعب ، أو نُحِرتا فطأطأتا رأسيهما ، فشبَّه الشاعر سجودهما بسجود النصرانة ، وقد سبق الاستشهاد به في هذا الجزء (ص ٣٠٩ ، هامش ١) والشاهد هنا أنه عبر عن طأطأة الرأس بالسجود .

و «الدَّاخِر» : المتصاغر المتواضع ؛ ومنه قول ذي الرُّمَّة :

فَلَمْ يَبْقَ إلَّا داخِرٌ في مُخَيَّسٍ ... ومُنْجَحِرٍ في غَيْرِ أرْضِكَ في جُحْرِ(١)

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

---

(١) البيت شاهد على أن معنى الدَّاخر : الصاغر ، وقد استشهد به أبو عبيدة في «مجاز القرآن» ، وذكره صاحب اللسان في (خيس) ، ونسبه إلى الفرزدق ، قال في اللسان : «وكل سجن : مُخَيَّسٌ ومُخَيِّسٌ» - بتشديد الياء مفتوحة ومكسورة ، والمُنجحِر - بتقديم الجيم على الحاء - : الداخل في الجحر ، يقال : أجحره : أدخله الجحر فدخله ، والجحر : كل مكان تحتفره الهوام والحيوانات لأنفسها ، والجمع : أجحارٌ وجحَرة ، يقولُ : إن أعداءَ جميعاً أذلاءُ صاغرون في السجون والأجحار . ورواية الديوان : ومُنْحَجِر بتقديم الحاء على الجيم .

وقعت [ما] في هذه الآية لما يعقل ، قال الزجاج : قوله : ﴿مَا فِي السَّمٰوَاتِ﴾ يعمّ ملائكة السماء وما في السحاب وما في الجوّ من حيوان ، وقوله : ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ بَيِّنٌ ، ثم ذكر ملائكة الأرض في قوله : [وَٱلْمَلَائِكَةُ] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يكون قوله : [وَٱلْمَلَائِكَةُ] هو الذي يَعُمُّ ملائكة السموات والأرض ، وما قبل ذلك لا يدخل فيه مَلَك ، إنما هو الحيوان أجمع . وقوله : ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يحتمل معنيَيْن : أحدهما الفوقية التي يوصف الله بها تعالى ، فهي فوقيّة القَدْر والعظمة والقهر والسلطان ، والآخر أن يتعلق قوله : ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ بقوله : [يَخَافُونَ] ، أي : يخافون عذاب ربهم من فوقهم ، وذلك أن عادة عذاب الله للأُمم إنما يأتي من جهة فوق . وقوله : ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ، أمّا المؤمنون فبحسب الشرع والطاعة ، وأما غيرهم من الحيوان فبالتسخير والقَدَر الذي يسوقهم إلى ما تقدم من أمر الله تبارك وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ نهيٌ من الله تبارك وتعالى عن الإشراك به ، ومعناها : لا تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ ٱثنين فصاعداً بما ينصه قوله : ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ، قالت فرقة : المفعول

الأَول لـ[تَتَّخِذُوا] قوله : [إِلَٰهَيْنِ] ؛ وقوله: [ٱثْنَيْنِ] تـأْكيدٌ وبيانٌ بالعدد ، وهذا معروف في كلام العرب ؛ أَن يبيَّن المعدود بذكر عدده تـأْكيداً ، ومنه قوله : ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ (١) ، لأَن لفظة الإِلٰه تقتضي الانفراد ، وقال قومٌ منْهم : المفعول الثاني محذوف ؛ تقديره : مفرداً ، أَو معبوداً ، أَو مطاعاً ، ونحو هذا ؛ وقالت فرقة: المفعول الأَول قوله: [ٱثْنَيْن] ، والثاني قوله: [إِلَٰهَيْن] ، وتقدير الكلام : لا تتخذوا اثنين إِلٰهين ؛ ولا يحتاج إلى اعتذار بالتـأْكيد ، ومثله قوله تعالى : ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ؛ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ (٢) ، ففي هذه الآية ــ على بعض الأَقوال ــ تقديم المفعول الأَول لـ [تَتَّخِذُوا] ، وقوله : [فَإِيَّايَ] منصوب بفعل مضمر تقديره : فارهبوا إِيَّايَ فارهبون ؛ ولا يعمل فيه الفعل الظاهر ؛ لأَنه قد عمل في الضمير المتصل به .

وقوله تعالى : ﴿وَلَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ﴾ الآية ، الواو في قوله : [وَلَهُ] عاطفة على قوله : ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ، وجائز أَن تكون واو ابتداءٍ(٣) ، و [مَا] عامة جميع الأَشياءِ مما يعقل وما لا يعقل ، والسمٰوات هنا كل ما ارتفع من الخلق في جهة فوق ، فيدخل فيه العرش والكرسي ،

---

(١) ورد ذلك في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰـــهٌ وَاحِدٌ﴾ ، وتكرر ذلك في القرآن الكريم مرات كثيرة .

(٢) من الآيتين (٢ و ٣) من سورة (الإسراء) .

(٣) قال أبو حيان في البحر تعقيباً على ذلك : « لا يقال واو ابتداء إلا لواو الحال ، ولا يظهر هنا الحال ؛ فهي عاطفة على الخبر ، أو على الجملة بأسرها ، أو تكون الجملة في تقدير المفرد » .

و [ٱلدِّينُ] : الطاعة والمُلك كما قال زهير :

. . . . في دينِ عَمْرٍو وحَالَتْ بَيْنَنَا فَدَكُ (١)

في طاعته وملكه . و «الواصِبُ» : الدائم ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ؛ وقال الشاعر :

لا أَبْتَغِي الْحَمْدَ القليلَ بقاؤُهُ يَوْماً بِذَمِّ الدَّهْرِ أَجْمَعَ واصِبا (٢)

ومنه قول حسّان بن ثابت :

غَيَّرَتْهُ الرِّيـــحُ تَسْفِـــي بِـــهِ وهَزِيمٌ رَعْـــدُهُ وَاصِـــبُ (٣)

(١) هذا عجز بيت ، وهو بتمامه مع بيت آخر بعده :

لَئِنْ حَلَلْتَ بِجَوٍّ في بَنِي أَسَـــدٍ في دِينِ عَمْرٍو وحَالَتْ بَيْنَنَا فَدَكُ
لَيَأْتِيَنَّكَ مِنِّي مَنْطِقٌ قَـــذِعٌ بَاقٍ كَمَا دَنَّسَ القِبْطِيَّةَ الـــوَدَكُ

وفَدَكُ بالتحريك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان . وقيل : ثلاثة ؛ أفاءها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم صلحاً . والشاهد أن «الدِّين» هنا بمعنى الطاعة ، أي : في طاعة عمرٍو ومُلكه .

(٢) البيت لأبي الأسود الدُّؤَلي ، وقد استشهد به القرطبي . والشطر الثاني فيه : (بِذَمٍّ يكون الدَّهْرَ أجمعَ واصباً) ، ثم قال : وأنشد الغزنوي والثعلبي وغيرهما :

ما أبتغي الحَمْدَ القَلِيلَ بَقَـــاؤُهُ يَوْماً بِذَمِّ الدَّهْرِ أَجْمَعَ وَاصِبَـــا

وهي كرواية ابن عطية ما عدا (ما) ؛ واستشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن . واستشهد به الطبريّ أيضاً . والرواية فيهما كرواية ابن عطية . والشاهد فيه أن (واصب) تأتي بمعنى (دائم) .

(٣) هو البيت الثاني من قصيدة ، وقبله المطلع ، وهو :

قَدْ تَعَفَّى بَعْدَنَا عَـــاذِبُ ما بِهِ بَادٍ وَلا قَـــارِبُ

وتَسْفِي به : تحمل إليه التراب ، والهزيم : السحاب المتشقق بالمطر ، يقول : لقد غَيَّرَ هذا المكان ما حملته الريح إليه من التراب ، وما ساق السحابُ من مطر دائم الرَّعْد .

وقالت فرقة : هو من الوصَب وهو التعب : أي : وله الدِّين على تعبه ومَشَقَّته ، فـ «واصب» ـ على هذا ـ جارٍ على النسب ، أي : ذَا وَصَبٍ ، كما قال :

. . . . أَضْحَى فؤَادِي بِهِ فاتِنا(١)

وهذا كثير ، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً : الواصِبُ : الواجب ، وهذا نحو قوله : الواصب : الدائم .

وقوله تعالى : ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ توبيخ في لفظ استفهام ، ونصب [غَيْرَ] بـ [تَتَّقُونَ] ، لأنه فعل لم يعمل في سوى [غَيْرَ] المذكورة .

والواو في قوله تعالى : ﴿وَمَا بِكُمْ﴾ يجوز أن تكون واو ابتداء ، ويجوز أن تكون واو الحال ويكون الكلام متصلا بقوله : ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ ، كأنه يقول على جهة التَّوبيخ : أَتَتَّقُون غير الله ولا يُنْعِم عليكم سواهُ ؟ والباءُ في قوله : [بِكُمْ] متعلقة بفعل تقديره : وما نَزَلَ أو أَلَمَّ ، ونحو هذا ، و [مَا] بمعنى «الذي» ، والفاءُ في قوله : ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾

(١) هذا جزء من عجز بيت ذكره في (اللسان ـ فتن) شاهداً على أن (فاتِناً) تأتي بمعنى (مُفْتَتِن) ، والبيت بتمامه كما في اللسان :

رَخِيمُ الكَلامِ قَطِيعُ القِيَا م أَمْسَى فُؤَادِي بِهِ فَاتِنَا

وابن عطية يستشهد به على أن المعنى : ذَا فِتْنَة ، أو ذَا فُتُون ، ونلاحظ أن رواية اللسان : «أمْسَى» ورواية المؤلف : «أضْحَى» .

دخلت بسبب الإبهام الذي في [مَا] التي هي بمعنى «الذي» ، فأشبه الكلام الشرط[١] ، ومعنى الآية التذكير بأن الإنسان في جليل أمره ودقيقه إنما هو في نعمة الله وأفضاله ، إيجاده داخل في ذلك فما بعده ؛ ثم ذكَّر تعالى بأوقات المرض لِكَوْن الإنسان الجاهل يُحِسُّ فيها قدر الحاجة إلى لطف الله ؛ و «الضُّرُّ» — وإن كان يعُمُّ كل مكروه — فأكثرُ ما يجيءُ عبارة عن أرزاء البدن . و [تَجْأَرُونَ] معناه ترفعون أصواتكم باستغاثة وتضرع ، وأصله من جؤار الثور والبقرة وصياحهما ؛ وهو عند جهد يلحقهما ، أو في أثر دَمٍ يكون من بقر يُذبح ، فذلك الصراخ يشبه به انتحاب الداعي المستغيث بالله إذا رفع صوته ،

(١) هذا هو رأي الفراء ، قال في (معاني القرآن) : «[ما] في معنى جزاء ، ولها فعل مضمر ، كأنك قلتَ : ما يكن بكم من نعمة فمن الله ؛ لأن الجزاء لا بُدَّ له من فعل مجزوم ؛ إن ظهر فهو جزم ؛ وإن لم يظهر فهو مضمر ، كما قال الشاعر :

إنِ العَقْلُ في أمْوَالِنَـــا لا نَضِقْ بِهِ ذِرَاعاً وإنْ صَبْراً فَنَعْرِفُ لِلصَّبْــــرِ

أراد : «إن يكن» فأضمرها ، ولو جعلت ﴿مَا بِكُمْ﴾ في معنى (الذي) جاز ، وجعلت صلته [بِكُمْ] و [ما] حينئذ في موضع رفع بقوله : ﴿فَمِنَ اللهِ﴾ ، وأدخل الفاء كما قال تبارك وتعالى : ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ ، وكل اسم وصل مثل (من) و (ما) و (الذي) فقد يجوز دخول الفاء في خبره ؛ لأنه مضارع للجزاء ؛ والجزاء قد يجاب بالفاء» . وقد ناقشه أبو حيان في إضمار الفعل ، وقال : إنَّ هذا ضعيف جداً ، ولا يجوز إلا بعد (إنْ) وحدها في باب الاشتغال ، واستشهد على ذلك فارجع إليه (٥ـ٥٠٢) إن شئت .

ومنه قول الأعشى :

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَــوَاتِ الْمَلِيــــ ـــكِ طَوْراً سُجُوداً وَطَوْراً جُؤَارَا (١)

وأنشد أبو عبيدة :

. . . . بِأَبِيلٍ كُلَّمَا صَــلَّى جَـــأَرْ (٢)

والأصوات تأتي غالباً على فُعال أو فَعِيل . وقرأ الزهري [تَجَرُونَ]

---

(١) هذا البيت من قصيدة للأعشى يمدح بها قيس بن معديكرب ، وقبله يقول :

وَمَا أَيْبُلِيٌّ عَلَى هَيْكَــلٍ بَنَاهُ وَصَلَّبَ فِيهِ وَصَــارَا

والأيْبُلِيُّ : الراهب : أو رئيس الرهبان ، أو الذي حرّم على نفسه النساء . والهيكل : مكان في صدر الكنيسة يقدم فيه القربان ، وصَلَّب : صوّر صورة الصّليب ، وصارَ : صوّر كما قال في اللسان عن أبي عليٍّ الفارسي ، والمراد أنه رَسَمَ صورة الصليب بيده فأشار إلى جبهته فقلبه، ثم إلى صدره يسرة ويمنة ، والمراوحة : المداولة بين الأمرين أو العملين ، يفعل هذا مرّة ، وذاك مرة ، وهما هنا السجود والجؤار ، وجأر رفع صوته بالدعاء والاستغاثة ، والمعنى الذي يقوله الأعشى هو : إن الراهب المتبتل الضارع إلى الله في الهيكل المقدس أمام الصليب ، الدائب على السجود والاستغاثة والتضرع إلى الله ليس بأعظم منه ولا أكثر تقى ... وخبر (ما) يأتي في بيت تالٍ لهذا حيث يقول :

بِأَعْظَمَ مِنْهُ تُقًى فِي الحِسَــابِ إذا النَّسَمَاتُ نَفَضْنَ الغُبَــارَا

(٢) هذا عجز بيت قاله عديُّ بن زيد ، والبيت بتمامه :

إنَّني واللهِ فاسْمَعْ حَلِفِــــي بِأَبِيلٍ كُلَّمَا صَلَّى جَــأَرْ

والأبيلُ بوزن أمير : الراهب ، وهو الأيْبُلِيُّ والأيْبُل – على خلاف بين اللغويين – وفي الحديث : (كان عيسى بن مريم – على نبينا وعليه الصلاة والسلام – يُسَمَّى أبِيلَ الأبِيلِين) ، وقد سُمِّي الراهب بذلك لتأبُّلِه عن النساء وترك غشيانهن ، والفعل منه : أَبَلَ يَأْبُلُ أَبَالَةً إذا تَنَسَّكَ وترهب .

يفتح الجيم دون همز ، حذفت وأُلقيت حركتها على الجيم ، كما خُفِّف تَسَلُون من تَسْأَلُون .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنْكُمْ﴾ ، قرأ الجمهور : [كَشَفَ] ، وقرأ قتادة : [كَاشف] ، وَوَجْهُهَا أنه فاعل من واحد بمعنى «كشف» ، وهي ضعيفة . و «الفريقُ» هنا يراد به المشركون الذين يرون أن للأصنام أفعالًا من شفاء المرضى وجلب الخير ودفع الضر ، فهم إذا شفاهم اللهُ عظموا أصنامهم وأضافوا ذلك الشِّفَاءَ إليها .

وقوله تعالى : [لِيَكْفُرُوا] يجوز أن تكون اللام لام الصيرورة ، أي : فصار أمرهم ليكفروا ، وهم لم يقصدوا بأفعالهم تلك أن يكفروا ، ويجوز أن تكون لام أمرٍ على معنى التهديد والوعيد ، كقوله تعالى : ﴿ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾(١)، والكفر هنا يحتمل أن يكون كفر الجحد بالله والشرك ، ويؤيده قوله : ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ، ويحتمل أن يكون كفر النعمة ، وهو الأظهر ؛ لقوله : ﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ ، أي : بما أنعمنا عليهم ، وقرأ الجمهور : ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ على معنى : قل لهم يا محمد ، وروى أبو رافع عن النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿فَيُمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ بياءٍ من تحت مضمومة ، و ﴿فَسَوْفَ

(١) من الآية (٤٠) من سورة (فُصِّلت) .

يَعْلَمُونَ﴾ على معنى ذكر الغائب ؛ وكذلك في الروم(١) ، وهي قراءة أبي العالية ، وقرأ الحسن : [فَتَمَتَّعُوا] كالجماعة على الأمر ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ بالياء على ذكر الغائب ، كقراءة أبي رافع ، فيكون [يُمَتَّعُوا] في قراءة أبي رافع في موضع نصب عطفاً على [يَكْفُرونَ] إن كانت اللام لام (كَيْ) ، ونصباً بالفاء في جواب الأمر إن كانت لام الأمر ؛ ومعنى «التَّمَتُّعْ» في هذه الآية : بالحياة الدنيا التي مصيرها إلى الفناء والـزوال .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

الضمير في [يَجْعَلُونَ] للكفار ، ويريد بـ ﴿مَالَا يَعْلَمُونَ﴾ الأصنام ، أي : لا يعلمون فيها حجة ولا برهاناً ، ويحتمل أن يريد بقوله :

(١) في قوله تعالى في الآية (٣٤) : ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ .

[يَعْلَمُونَ] الأَصنام ، أي : يجعلون للجمادات - وهي لا تعلم شيئاً - نصيباً ، فالمفعول محذوف ، ثم عبَّر عنهم بعبارة من يعقل بحسب مذهب الكفار الذين يسندون إليها ما يُسند إلى من يعقل ، وبحسب أنه إسناد منفيٌّ ، وهذا الاحتمال كله ضعيف . و «النصيب» المشار إليه هو ما كانت العرب سنَّتْه من الذبح لأَصنامها ، والإهداء إليها ، والقسم لها من الغلات .

ثم أمر الله تبارك وتعالى نَبِيَّه عليه الصلاة والسلام أن يُقْسم لهم أنهم سَيُسْأَلون عن افترائهم في أن تلك السُّنَن هي الحق الذي أمر الله به كما قال بعضهم ؛ و «الفِرْية» اختلاقُ الكذب .

وقوله تعالى : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَاتِ﴾ الآية . هذا تعديد لقبيح قول الكفار : «الملائكة بناتُ الله» ، ورَدٌّ عليهم من وجهين : أحدهما نِسْبَة النسل إلى الله تعالى عن ذلك ، والآخر أنهم نسبوا من النسل الأَخسَّ المكروه عندهم ؛ و [مَا] في قوله : ﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾ مرتفعة بالابتداء ، والخبر في المجرور ، وأجاز الفراءُ أن تكون في موضع نصب عطفاً على [ٱلْبَنَاتِ] (١) ، والبصريون لا يجيزون هذه الآية من باب :

---

(١) هذا رأي الفراء والحوفي ، ووافقهما عليه الزمخشري ، وقال أبو البقاء : «ذهل هؤلاء عن قاعدة في النحو ، وهي أن الفعل الرافع لضمير الاسم المتصل لا يتعدّى إلى ضميره المتصل المنصوب ، فلا يجوز : «زيد ضربه زيد» تريد: ضرب نفسه ، إلا في باب ظنّ =

ضربني ، وكان يلزم عندهم أن يكون : «ولأنفسهم ما يشتهون» ، والمراد بـ ﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾ الذُّكْرَان من الأولاد .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ الآية . لما صرَّح بالشيء المبَشَّر به حسُن ذكر البشارة فيه ، وإلَّا فالبشارة مطلقةً لا تكون إلَّا في خير . وقوله : ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ عبارة عن العبوس والقطوب الذي يلحق وجه المغموم ، وقد يعلو وجه المغموم سواد وزبد ، وتذهب شراقته ، فلذلك يذكر له السَّواد . و [كَظِيمٌ] بمعنى كاظِم كعليم وعالم ، والمعنى أنه يُخفي وجهه وهَمَّه بالأُنثى .

وقوله : ﴿ يَتَوَارَى مِنَ ٱلْقَوْمِ ﴾ الآية ، هذا التواري الذي ذكره الله تعالى إنما هو بعد البشارة بالأُنثى ، وما يحكى أن الرجل منهم كان إذا أصاب امرأته الطَّلْق توارى حتى يُخبر بأحد الأمرين فليس المراد في الآية ، ويُشْبه أن ذلك كان لكي : إنْ أُخبر بسَارٍّ خرج ، وإنْ أُخبر بِسُوءٍ بَقِي على تواريه ولم يحتج إلى إحداثه ، ومعنى [يتَوَارَى] : يتغيب ، وتقدير الكلام : يَتَوارى من القوم مدبراً أَيُمْسكه

= وأخواتها من الأفعال القلبية ، أو (فقَدَ) و (عَدِمَ) ، فيجوز : «زيد ظنه قائماً ، وزيد فقَدَه ، وزيد عَدِمه» ، والضمير المجرور بالحرف كالمنصوب المتصل ، فلا يجوز : «زيد غضب عليه» تريد : غضب على نفسه ، فعلى هذا الذي تقرر لا يجوز النصب ، إذ يكون التقدير : ويجعلون لهم ما يشتهون» . انتهى كلام أبي البقاء ، وعلّق عليه أبو حيان الأندلسي في البحر بقوله : «وفيه نظر» .

أم يدُسُّه ؟ وقرأت فرقة [أَيُمْسِكُهُ] على لفظ [ما] ؛ ﴿أَمْ يَدُسُّهَا﴾ على معنى الأُنثى ، وقرأ الجحدري : [أَيُمْسِكُهَا] ، ﴿أَمْ يَدُسُّهَا﴾ على معنى الأُنثى في الموضعين . وقرأ الجمهور : ﴿عَلَى هُونٍ﴾ بضم الهاء ، وقرأت فرقة بفتحها ، وقرأ عيسى بن عمر : ﴿عَلَى هَوَانٍ﴾ وهي قراءة عاصم الجحدري ، وقرأ الأعمش : «عَلَى سُوءٍ» ، ومعنى الآية : يُدَبَّر : أَيُمْسك هذه الأُنثى على هوان يتحمله وهمٍّ يتخلد له أم يَئِدُها فيدفنها حيَّة ، فهو الدَّسُّ في التراب . ثم استفتح الله تعالى الإخبار عن سوءِ فعلهم وحكمهم بهذا في بناتهم ورزق الجميع على الله .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

قالت فرقة : [مَثَلُ] هنا بمعنى صفة ، أي : لهؤلاءِ صفة السوءِ ، ولله الوصف الأَعلى ، وهذا لا نَضطر إليه ؛ لأَنه خروج عن اللفظ ، بل قوله : [مَثَلُ] على حاله ، وذلك أَنهم إذا قالوا : «إن البنات لله»

فقد جعلوا له مثلا فالبنات من البشر ، وكثرة البنات عندهم مكروه ذميم ، فهو المثل السوء الذي أخبر الله تعالى أنه لهم وليس في البنات فقط ، لكن لما جعلوه هم في البنات جعله هو لهم على الإطلاق في كل سوء ، ولا غاية بعد عذاب النار .

وقوله : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ على الإطلاق أيضاً ، أي : الكمال المستقر[1] ، وقال قتادة : المثل الأعلى : لا إله إلَّا الله . وباقي الآية بيِّن .

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ الآية . [يُؤَاخِذُ] هو يُفَاعِل من أَخَذَ ، كأن أحد المؤاخذين يأْخذ من الآخر مأْخذاً كما هي في حق الله تعالى ، أو بإذاية من جهة المخلوقين ، فيأْخذ الآخر من الأَول بالمعاقبة والجزاء ، وهي لغتان : وَاخَذَ ، وآخَذَ ، ويُؤَاخذ يصح أن تكون من آخَذ ، وأما كونها من واخذ فبَيِّن . والضمير في [عَلَيْهَا] عائد على الأَرض ، ويمكن ذلك مع أنه لم يجر لها ذكر لشهرتها ، ويمكن الإشارة إليها كما قال لبيد في الشمس :

حَتَّى إذا أَلْقَتْ يَـداً في كافِـــرٍ وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ البِلَادِ ظَلَامُهَا [2]

---

(١) في إحدى النسخ : الكمال المستغني .

(٢) هذا البيت من معلقة لبيد ، ومعنى « ألقت يداً في كافر » بدأت في المغيب ، والكافر هو الليل ، وذلك لأنه يكفر كل شيء ، أي يغطيه ويستره ، وأجَنّ : ستَر ، وفي الديوان : « عورات الثغور » بدلا من « البلاد » ، والثغور : جمع ثغر وهو الموضع الذي تأتي المخافة منه : لأنه على الحدود مع الأعداء .

ومنه قوله تعالى : ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾(١) ، ولم يجر للشمس ذكر . وقوله : ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ ، [مِنْ] دخلت لاستغراق الجنس ، وظاهر الآية أن الله تعالى أخبر أنه لو آخذ النَّاسَ بعقابٍ يستحقونه بظلمهم في كفرهم ومعاصيهم لكان ذلك العقاب يهلك عنه جميع ما يدب على الأرض من حيوان ، فكأنه بالقحوط أو بأمر يصيبهم من الله تعالى ؛ وعلى هذا التأويل قال بعض العلماء : كاد الْجُعَل(٢) أن يهلك بذنوب بني آدم ؛ ذكره الطبريُّ ، ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن الله تعالى لَيُهْزِل الحوتَ في الماء والطير في الهواء بذنوب العصاة)(٣) ؛ وسمع أبو هريرة رجلا يقول : «إن الظالم لا يهلك إلّا نفسه» ، فقال أبو هريرة : «إن الله ليهلك الحبارى في وكورها هُزالا(٤) بذنوب الظلمة» ، وقد نطقت الشريعة في أخبارها بأن الله أهلك الأمم بَرَّها وعاصيها بذنوب العصاة منهم . وقالت

---

(١) من الآية (٣٢) من سورة (صٓ) . ومثل هذه الآية وبيت لبيد في رجوع الضمير إلى غير مذكور قولُ حاتم الطائي :

أماويَّ ما يُغْني الثَّراءُ عن الْفَتَى إذا حشْرَجَتْ يَوْماً وضاقَ بها الصَّدْرُ

إذ يعني بقوله : «حشرجت وضاق بها» النَّفسَ ، ولم يجر لها ذكرٌ قبْلُ .

(٢) الجُعَل : حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية وقد نقل الطبري هذا الكلام عن أبي الأحوص .

(٣) لم نعثر على هذا الحديث فيما بين أيدينا من مراجع .

(٤) أخرجه عبد بن حميد . وابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، والبيهقي في الشُّعَب . (الدر المنثور) .

فرقة : قوله : ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ يريد : من أولئك الظلمة فقط . ويدلُّ على هذا التخصيص أن الله تعالى لا يعاقب أحداً بذنب أحد ، واحتجت بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(١) ، وهذا كلُّهُ لا حجة فيه؛ وذلك أن الله تعالى لا يجعل العقوبة تقصد أحداً بسبب إذْناب غيره ؛ ولكنه إذا أرسل عذاباً على أُمة عاصية لم يمكن البريء التخلص من ذلك العذاب ، فأصابه العذاب لا بأنه له مجازاة ، ونحو هذا قوله : ﴿وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾(٢) ، وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : (نعم ، إذَا كَثُرَ الخبث)(٣). ثم لا بدَّ من تعلق ظلم ما بالأبرياء ؛ وذلك بترك التغيير ومداجنة أهل الظلم ومداومة جوارهم . و «ٱلْأَجَلُ ٱلْمُسَمَّى» في هذه الآية هو بحسب شخص شخص ، وفي معنى الآية ضمائر كثيرة تركتها اختصاراً وإيجازاً .

---

(١) من الآية (١٦٤) من سورة (الأنعام) .

(٢) من الآية (٢٥) من سورة (الأنفال) .

(٣) أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، ومالك في الموطأ ، والإمام أحمد (٦-٤٢٨ ، ٤٢٩) ، ولفظه كما رواه البخاري في الفتن : (عن زينب بنت أمِّ سلمة ، عن أمِّ حبيبة ، عن زينب ابنة جحش رضي الله عنهن أنها قالت : استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم من النوم مُحْمَرّاً وجهه يقول : لا إلـــه إلا الله ، ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج ، مثل هذه - وعقد سفيان تسعين أو مائة - قيل : أنهلكُ وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث) .

وقوله تعالى : ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ يريد البنات ، و [ما] في هذا الموضع تقع لمن يعقل من حيث هو صنف ، وقرأ الحسن : ﴿أَلْسِنْتُهم ٱلْكَذِبَ﴾ بسكون النون خوفاً من توالي الحركات ، وقرأ الجمهور : [ٱلْكَذِبَ] بكسر الذال وفتح الباء ؛ ف [أَنَّ] بدلٌ منه ، وقرأ معاذ بنُ جبل رضي الله عنه وبعض أهل الشام بضم الكاف والذال والباء على صفة الألسنة ، و [أَنَّ] مفعولةٌ ب [تَصِفُ] . و [ٱلْحُسْنَى] قال مجاهد ، وقتادة : يريد المذكور من الأولاد ؛ وهو الأسبق من معنى الآية ، وقالت فرقة : يريد الجَنَّة ، ويؤيد هذا قوله : ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ ، ومعنى الآية على هذا التأويل : يجعلون لله المكروه ويدَّعون مع ذلك أنهم يدخلون الجنَّة ، كما تقول لرجل : أنت تعصى الله وتقول ـ مع ذلك ـ إنَّكَ تنجو ، أي : إنَّ ذلك لبعيد مع هذا ، ثم حكم عليهم بعد ذلك بالنار ، وقد تقدم القول في ﴿لَا جَرَمَ﴾ ؛ وقرأ الجمهور : ﴿أَنَّ لَهُمُ﴾ بفتح الهمزة ، وإعرابها بحسب تقدير [جَرَمَ] ، فمن قدَّرَها ب «كسب فعلهم» فهو نصب ، ومن قدرها ب «وجب» فهو رفع ، وقرأ الحسن ، وعيسى بن عمر : [إنَّ] بكسر الهمزة ؛ وقرأ السبعة سوى نافع : [مُفْرَطُونَ] بفتح الراء خفيفة ، ومعناه : مقدمون إلى النار والعذاب ، وهي قراءة الحسن ، والأعرج ، وأصحاب ابن عباس ،

وقد رُويت عن نافع ، وهو مأخوذ من «فرط الماء» ، وهم القوم الذين يتقدمون إلى المياه لإصلاح الدِّلاءِ والأَرشاءِ(١) ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أنا فرطكم على الحوض)(٢)، ومنه قول القطاميِّ :

واسْتَعْجَلونَا وكانوا من صَحَابَتِنا كما تَعَجَّلَ فُرَّاطٌ لِــــوُرَّادِ (٣)

وقالت فرقة : [مُفْرَطونَ] معناه : مُخَلَّفون متروكون في النار مَنْسِيُّون فيها ، قاله سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وابن هند ، وقال آخرون : [مُفْرَطُونَ] معناه : مُبعدون في النار ، وهذا قريب من الذي قبله ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : [مُفَرِّطونَ] بكسر الراء وتشديدها وفتح الفاء ، ومعناه : مُقَصِّرون في طاعة الله تبارك وتعالى ، وقد رُوي فتح

---

(١) جمع رشاء ، وهو الحبل ، أو حبل الدَّلْو ونحوها .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق والفتن ، ومسلم في الطهارة والإمارة ، وابن ماجه في الزهد ، وأحمد في مسنده (١–٢٥٧ ، ٣٨٤ ، ٤٠٢) ، ولفظه كما في البخاري –كتاب الرقاق– (عن عتبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوماً فصلى على أهل أُحد صلاته على الميت ، ثم انصرف إلى المنبر فقال : إنِّي فَرَطٌ لكم ، وأنا شهيد عليكم ، وإنِّي والله لأنظر إلى حوضي الآن ، وإني قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض ، أو مفاتيح الأرض ، وإنِّي والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها) .

(٣) رواية الديوان «فاستعجلونا» بالفاء ، ومعناها : أعجلونا ، يريد أنهم تقدمونا ، والفُرَّاط : الذين يتقدمون الوُرَّاد فيصلحون الحبال والدلاء . وقد ذكره في اللسان ، قال : فَرَطَ القوم يفرطهم فرطا (من باب قتل) وفراطة : تقدمهم إلى الورد لإصلاح الأرشية والدلاء ومدر الحياض والسقي فيها ، ثم ذكر البيت . والرواية فيه (تقدم) بدلا من (تَعَجَّل)، وفي الصحاح (تَعَجَّل) .

الرَّاءِ مع شدِّها . وقرأ نافع وحده : ﴿مُفْرِطُونَ﴾ بكسر الراءِ وخفتها ، وهي قراءة ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي رجاءٍ ، وشيبة بن نصاح ، وأكثر أهل المدينة ، أي : متجاوزون للحدِّ في معاصي الله .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

هذه آية ضرب مثل لهم بمن تقدم . وفي ضمنها وعيد لهم وتأْنيس للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله : [ٱلْيَوْمَ] يحتمل أن يريد به يوم الإخبار بهذه الآية ، وهو بعد موت أولئك الأُمم المذكورة ؛ أي : لا وليَّ لهم مذ ماتوا واحتاجوا إلى الغوث إلا الشيطان ، ويحتمل أن يريد يوم القيامة ، والألف واللام فيه للعهد ، أي : هو وليُّهم في اليوم المشهود ، وهو وقت الحاجة والمفصل ، ويحتمل أن يريد :

فهو وليُّهم مدة حياتهم ثم انقطعت ولايته بموتهم ، وعبَّر عن ذلك بقوله : [ٱلْيَوْمَ] تمثيلا للمخاطبين بمدة حياتهم ، كما تقول لرجل شابٍّ تحضُّه على طلب العلم : يا فلان لا يدرس أحد من الناس إلا اليوم ، تريد : في مثل سنك هذه ، فكأنه قال لهؤلاء : فهو وليُّهم في مثل حياتكم هذه ، وهي التي كانت لهم ، وسائر الآية وعيد .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ﴾ يريد القرآن ، وقوله : ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ﴾ في موضع المفعول من أجله . وقوله : ﴿وَهُدىً وَرَحْمَةً﴾ عطف عليه ، كأنه قال : إلا للبيان ، أي لأجل البيان ، وقوله : ﴿ٱلَّذِي ٱخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ لفظ عام لأنواع كفر الكفرة من الجحد بالله تعالى وبالقيامة ، أو بالنُّبُوَّات وغير ذلك ، ولكن الإشارة في هذه الآية إنما هي لجحدهم الربوبية ، وتشريكهم الأصنام في الإلٰهية ، يدل على ذلك أخذه بعد هذا في إثبات العِبَر الدَّالة على أن الأنعام وسائر الأفعال إنما هي من الله تعالى لا من الأصنام .

وقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً﴾ الآية . لما أمره تبيين ما اختلف فيه نصَّ العِبَرَ المؤدية إلى بيان أمر الربوبية ، فبدأ بنعمة المطر التي هي أبْين العبر ، وهي ملاك الحياة ، وفي غاية الظهور ، لا يخالف فيها عاقل . وحياة الأرض وموتها استعارة وتشبيه بالحيوان ،

إذ هي هامدة غبراءُ غير مُنْبِتة فهي كالميت ، وإذ هي مُنْبتة مخضرَّة مهتزَّة رابية فهي كالحيِّ . وقوله : [يَسْمَعُونَ] يدل على ظهور هذا المعتبر فيه وبيانه ؛ لأنه لا يحتاج إلى تفكُّر ولا نظر قلب ، وإنما يحتاج المنبه إلى أن يسمع القول فقط .

و [ٱلْأَنْعَامِ] هي الأصناف الأربعة : الإبل والبقر والضأْن والمعز ، و «العِبْرَةُ» : الحال المعتبر فيها ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم – في رواية أبي بكر – وابن مسعود – بخلاف – والحسن ، وأهل المدينة : [نَسْقِيكُم] بفتح النون ، من أَسْقَى يسقي ، وقرأ الباقون ، وحفص عن عاصم بضم النون ، وهي قراءة الكوفيين وأهل مكة ، وقال بعض أهل اللغة : هما لغتان بمعنى واحد ، وقالت فرقة : تقول لمن سقيته بالشَّفة أو في مرة واحدة : سَقَيْتُه ، وتقول لمن تُمِرُّ سَقْيه أو تمنحه شربا : أَسْقَيْتُهُ ، وهذا قول من قرأ : [نَسْقِيكُم] ، لأن ألبان الأنعام من المُسْتَمِرِّ للبشر ، وأنشد من قال : «إنهما لغتان بمعنى» قولَ لبيد :

سَقَى قَوْمي بني بَدْرٍ وأَسْقَى نُمَيْراً والْقَبَائِلَ مِن هِلَالِ (١)

---

(١) البيت من قصيدة له يصف فيها حيوان الصحراء ، ويعاتب قومه لأنهم أسلموا قيادهم إلى رجل سيئ الخليقة ، وأبعدوا عن شيمهم ، وسَقَى وأَسْقَى بمعنى واحد ، والرواية في الديوان ، وفي لسان العرب : «بني مَجْدٍ» ، ومَجْد اسم امرأة هي ابنة تيم بن غالب ، وهي أمُّ كلاب وكليب ابني ربيعة بن عامر ، وبسببها عُدَّ بنو عامر من الحُمْس ؛ لأنها قرشية . =

وذلك لازم ؛ لأنه لايدعو لقومه بالقليل . وقرأ أبو رجاءٍ : [يَسْقِيكُم] بالياءِ ، أي : يسقيكم الله ، وقرأت فرقة : [تَسْقِيكُم] بالتاءِ ، وهي ضعيفة ، وكذلك اختلف القراءُ في سورة المؤمنين(١) ، وقوله : ﴿مِمَّا في بُطُونِهِ﴾ الضمير عائد على الجنس ، وعلى المذكور ، كما قال الشاعر :

* مِثْلُ الْفِرَاخِ نُتِفَتْ حَوَاصِلُهْ *(٢)

=والضمير في « سَقَى وأَسْقَى » يعود على بَرِيقٍ في سحاب أَلْقَى ماءه على كل البقاع ، وقد ذكره في الأبيات السابقة ، وبدأها بقوله :

أصاحِ تَرَى بريقاً هَبَّ وَهْنـــــاً كَمِصْبَاحِ الشَّعِيلَةِ في الذُّبَــالِ

(١) في قوله تعالى في الآية (٢١) من سورة (المؤمنون) : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ .

(٢) ورد هذا الشاهد في كل من (اللسان — نَعِم) ، و « الطبري » ، و « البحر المحيط » ، و « معاني القرآن » للفراء ، والرواية فيها كلها كما هي هنا (نُتِفَتْ) بضم النون وبالفاء ، إلا « معاني القرآن » فقد جاءت « نَتَقَتْ » بمعنى : سمنت وبرزت وارتفعت ، وقد علّق محقق (اللسان) طبعة دار المعارف بالقاهرة على الرواية الأولى وقال : هو خطأٌ صوابه « نَتَقَتْ » بالقاف وبالبناء للفاعل ؛ كذا في التهذيب . وفي اللسان : قال الكسائي في قوله تعالى : ﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا في بُطُونِهِ ﴾ : أراد في بطون ما ذكرنا ؛ ومثله قوله : مثل الفراخ ... الخ أي : حواصل ما ذكرنا . وقال الفراءُ في « معاني القرآن » : « ولم يقل بطونها والأنعام مؤنثة ؛ لأنه ذهب به إلى النَّعَم والنَّعَم ذَكَر .وإنما ذهب به إلى واحدها لأن الواحد يأتي في المعنى على معنى الجمع » ، ثم استشهد بنماذج من الشعر العربي منها هذا الشاهد ، ومثله قول الأسود ابن يَعْفُر :

=

وهذا كثير ، كقوله سبحانه : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ (١) ، وقيل : إنما قال : [بُطُونِهِ] لأن الأنعام والنَّعَم واحد فردٌ ، والضمير على معنى النَّعَم . وقالت فرقة : الضمير عائد على « البعض » ؛ لأن الذكور لا ألبان فيها ، فكأن العبرةَ إنما هي في بعض الأنعام . و « الْفَرْثُ »: ما ينزل إلى الأمعاء ، و « السَّائِــغُ » : المُسَهَّل في الشرب اللَّذيذُ ، وقرأت فرقة : « سيِّغاً » بشدِّ الياء ، وقرأ عيسى الثقفي : « سَيْغاً » بسكون الياء ، وهي تخفيف من « سَيِّغ » كمَيْتٍ وهَيْنٍ ، وليس وزنها فَعْــلًا ؛ لأن اللَّفظة واوية ، فَفَعْل منهــا « سَوْغ » ، ورُوِي أن اللبن لم يشرق به أحد قط ، روي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم (٢) .

= إنَّ المَنِيَّةَ والحُتُوفَ كلاهُمَــــا يوفي المَخَارِمَ يَرْقُبَانِ سَوَادي

فقال : كلاهما ، ولم يقل : كلتاهما ، وقول الصَّلَتَانِ العَبْدِيِّ :

إنَّ السَّمَاحَةَ والمُرُوءَةَ ضُمِّنَــا قَبْراً بِمَرْوَ عَلَى الطَّرِيقِ الوَاضِحِ

وذلك لأنه قال : ضُمِّنَا ، ولم يقل : ضُمِّنَتَا ، وقول الآخر :

وعَفْرَاءُ أدْنَى النَّاسِ مِنِّي مَوَدَّةً وعَفْرَاءُ عَنِّي المُعْرِضُ المُتَــوَاني

إذ قال : المعرض المتواني ، ولم يقل : المعرضة المتوانية .

(١) الآيتان (١١ و ١٢) من سورة (عبس) .

(٢) أخرج ابن مردويه ، عن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي كبشة ، عن أبيه ، عن جده ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما شرب أحدٌ لبناً فشرق) ، إن الله يقول : ﴿ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ .

قوله عزّ وجلّ :

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾

قال الطبريُّ : التقدير : ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون . وقالت فرقة : التقدير : ومن ثمرات النخيل والأعناب شيءٌ تتخذون منه ، ويجوز أن يكون قوله : ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ﴾ عطفاً على [ٱلْأَنْعَامِ] ؛ أي : ولكم من ثمرات النخيل والأعناب عبرة ، ويجوز أن يكون عطفاً على [مِمَّا] ، أي : ونسقيكم أيضاً مشروبات من ثمرات . و « السَّكَر » : ما يُسْكر ، هذا هو المشهور في اللغة ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ، وأراد « بالسَّكَر » الخمر ، و « بالرزق الحسن » جميع ما يُشرب ويؤكل حلالاً من هاتين الشجرتين ، فالحَسَنُ ها هنا الحلالُ . وقال هذا القول ابن جبير ، وإبراهيم ،

والشعبي ، وأبو رزين ، وقال الحسن بن أبي الحسن : ذكر الله نعمته في السَّكَر قبل تحريم الخمر ، وقال الشعبي ، ومجاهد : السَّكَر : المايع من هاتين الشجرتين كالخَلِّ والرُّبِّ والنَّبيذ ، والرزق الحسن : العنب والتمر ، قال الطبري : والسَّكَر أيضاً في كلام العرب : ما يطعم ، ورجح الطبريُّ هذا القول . ولا يدخل الخمر [1] فيه ، ولا نسخ من الآية شيءٌ ، وقال بعض الفرقة التي رأت السَّكر الخَمْرَ : إن هذه الآية منسوخة بتحريم الخمر ، وفي هذه المقالة دركٌ ؛ لأن النسخ إنما يكون في حكم مستقر مشروع ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (حُرمت الخمر لعينها ، والسَّكَرُ من غيرها)[2]، هكذا روي ؛ والرواية الصحيحة بفتح السِّين والكاف ، أي : جميع ما يُسْكر منه حُرِّم على حدِّ تحريم الخمر قليله وكثيره ، ورواه العراقيون و «السُّكْر» بضم السين وسكون الكاف ، وهو مبني على فقههم

(١) في بعض النسخ : «ولا يدخل الخبر فيه» ، والمعنى بها غير صحيح ، ولا يستقيم .
(٢) الحديث الذي رواه مسلم هو : (كلُّ شراب أسْكَر فهو حرام) ، وكذلك (كلُّ شراب مُسْكر حرام) ، وكذلك (كلُّ مسكر حرام) ، وهذا يؤيد فهم المؤلف لهذا الحديث على رواية فتح السين مشددة وفتح الكاف ، ومثل هذا ما أخرجه النسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما (حرّم الله الخمر ، وكل مسكر حرام) ، وفي القرطبي وغيره من الكتب مناقشة طويلة للمراد بالخمر ، وجلّة العلماء ينتهون إلى تحريم الخمر وكل مسكر سواء من ذلك القليل والكثير .

من أن ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فقليله حلال ؛ وباقي الآية بيِّنٌ .

وقوله تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ الآية . الوحي في كلام العرب إلقاءُ المعنَى من الموحِي إلى الموحَى إليه في خفاءٍ ؛ فمنه الوحي إلى الأنبياء برسالة الملك ، ومنه وحْي الرُّؤيا ، ومنه وحْيُ الإلهام وهو الذي ها هنا باتفاق المتأوِّلين ؛ والوحْيُ أيضاً بمعنى الأمر ؛ كما قال تعالى : ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾(١) ، وقرأ يحيى بن وثاب : ﴿إِلَى النَّحَلِ﴾ بفتح الحاء ، و [أَنْ] في قوله : ﴿أَنِ ٱتَّخِذِي﴾ مفسِّرة . وقد جعل الله بيوت النحل في هذه الثلاثة : إمَّا في الجبال وكُواها ، وإمَّا في متجوِّف الأشجار ، وإمَّا فيما يعرش ابن آدم من الأَجْبَاح(٢) والحيطان ونحوها . «وعَرَشَ» معناه : هيَّأ ، وأكثرُ ما يستعمل فيما يكون من اتفاق الأغصان والخشب وترتيب ظلالها ، ومنه العريش

(١) الآية (٥) من سورة (الزَّلْزلة) .

(٢) الجَبْحُ بالجيم المثلثة : حيث تُعَسِّل النحل إذا كان غير مصنوع ، والجمع : أجْبُحٌ وجِباحٌ وجُبُوحٌ ، وفي التهذيب : وأجباحٌ كثيرة ؛ وقيل : هي مواضع النحل في الجبل وفيها تُعَسِّل ، قال الطِّرِمَّاح يخاطب ابنه :

وإنْ كُنْتَ عندي أنتَ أحلَى مِنَ الجَنَى جَنَى النَّحْلِ أضْحَى واتِناً بَيْنَ أجْبُحِ

واتِناً : مقيماً ؛ وقيل : الأجباح : حجارة الجبل . (عن اللسان ــ جبح) .

الذي صُنِعَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، ومن هذا هي لفظة الْعَرْشِ ، ويقال : عَرَشَ يَعْرِشُ ويعْرُشُ بكسر الراءِ وضمها ، وقرأ ابن عامر بالضم ، وسائرهم بالكسر ، واختلف عن عاصم ، وجمهور النـــاس على الكسر ، وقرأ بالضم أبو عبد الرحمـــن ، وعُبَيْد بن نضلة ، وقال ابن زيد في قوله : [يَعْرِشُونَ] قال : الكروم ، وقال الطبري : ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يعني : ما يبنون من السقوف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا منهما تفسير غير مُتْقَن .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾ الآية . المعنى : ثم أَلْهمها أن كُلِي ، بعطف [كُلِي] على [ٱتَّخِذِي] ، و [مِنْ] للتبعيض ، أي : كُلِي جزءًا أو شيئاً من كل الثمرات ، وذلك أنها إنما تأْكل النَّوَّار من الأَشجار . و «السُّبُل» : الطُّرق ، وهي مسالكها في الطيران وغيره ، وأضافها إلى الرَّبِّ من حيث هي مِلْكه وخَلْقه ، أي : التي يسَّر لكِ ربُّكِ . وقوله : [ذُلُلًا] يحتمل أن يكون حالًا من [النَّحْلِ] ، أي : مطيعة منقادة لما يُسِّرت له ، قاله قتادة ، وقال ابن زيد : فهُمْ يخرجون بالنحل ينتجعون ، وهي تتبعهم ، وقرأ : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا

أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ إلى قوله : ﴿يَأْكُلُونَ﴾(١)، ويحتمل أن يكون حالًا من «السُّبُل» ؛ أيْ : مُسَهَّلَةً مستقيمة ، قال مجاهد : لا يتوعَّر عليها سبيل تسلكه .

ثم ذكر تبارك وتعالى - على جهة تعديد النعمة والتنبيه على العبرة - أَمْرَ العسل في قوله : ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ ، وجمهور الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل ، وورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في تحقيره للدنيا : «أشرف لباس ابن آدم فيها لُعاب دودة ، وأشرف شرابه رجيع نحلة» . فظاهر هذا أنه من غير الفم ، واختلاف الألوان في العسل بحسب اختلاف النحل والمراعي ، وقد يختلف طعمه بحسب اختلاف المرعي ، ومن هذا المعنى قول زينب رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم : «جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُطَ» ، حين شبهت رائحته برائحة المغافير(٢) .

---

(١) الآية (٧١) من سورة (يس) .

(٢) قال ابن الأثير في النهاية : المعنى : أَكَلَتِ النَّحْلُ ، والعُرْفط : شجر ، وفي المعجم الوسيط : جَرَسَ النَّحْلُ نَوْرَ الشَّجرة : لَحَسَه للتَّعْسيل ، والعُرْفط : نبات من العضاه من الفصيلة القرنية . والمغافير : جمع مِغْفار ، وهو صمغ حلوٌ يسيل من شجر العُرْفط يؤكل . أو يوضع في ثوب ثم ينضح بالماء فيشرب . وحديث المغافير أو العسل رواه البخاري ، ولفظه : (عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم =

وقوله : ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ ، الضمير للعسل ، قاله الجمهور ، ولا يقتضي العموم في كُلِّ علَّة ، وفي كُلِّ إنسان ، بل هو خبر عن أنه يشفي كما يشفي غيره من الأَدوية في بعضٍ ، وعلى حالٍ دون حال ، ففي الآية إخبارٌ منَبِّه على أنه دواءٌ لمَّا كثر الشفاءُ به وصار خليطاً ومعيناً للأَدوية والأَشربة والمعاجن ، وقد رُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان لا يشكو شيئاً إلَّا تداوى بالعسل ، حتى أنه كان يدهن به الدمل والقرصة ويقرأُ : ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا يقتضي أنه يرى الشفاءَ به على العموم ، وقال مجاهد : الضمير للقرآن ، أي : فيه شفاءٌ ، وذهبَ قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية إنما يراد بها أهل البيت من بني هاشم ، وأنهم النحل ، وأن الشراب القرآنُ والحكمة ، وقد ذكر بعضهم هذا في مجلس المنصور أبي جعفر العباسي ، فقال له رجل ممن حضر : جعل الله طعامك وشرابك ما يخرج من بطون بني هاشم ، فأَضحك الحاضرين وأَبهَتَ الآخر ، وظهرت سخافة قوله ، وباقي الآية بيِّن .

— يشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش ويمكث عندها ، فواطأتُ أنا وحفصة عن أيَّتنا دخل عليها فلتقل له : أكلتَ مغافير ، إني أجد منك ريح مغافير ، قال : لا ، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش ، فلن أعود ، وقد حلفتُ لا تُخبري بذلك أحداً) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

هذا تنبيه على الاعتبار في إيجادنا بعد العدم وإماتتنا بعد ذلك ، ثم اعترض بمن ينكّس من الناس لأنهم موضع عبرة (١) ، و « أرذل العمر » : آخره الذي تفسد فيه الحواس ويختل النطق ، وخصَّ ذلك بالرذيلة ــ وإن كانت حالة الطفولة كذلك ــ من حيث كانت هذه لا رجاء معها ؛ والطفولة إنما هي بُداءة والرجاءُ معها متمكن ، وقال بعض الناس : أول أرذل العمر خمسٌ وسبعون سنة ، رُوي ذلك عن عليٍّ رضي الله عنه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا في الأغلب ، وهو لا ينحصر إلى مدة معينة ؛ وإنما هو بحسب إنسان وإنسان . والمعنى : ومنكم من يرتَدُّ إلى أرذل عمره ، ورُبَّ

(١) يقال : نكّسَ اللهُ فلاناً في العمر : أطال عُمُرَه إلى أرذل العمر فعاد إلى حال كحال الطفولة في الضّعف والعجز ؛ وفي التنزيل العزيز : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ﴾ .

من يكون ابن خمسين سنة وهو في أرذل عمره ، ورُبَّ ابن مائة أو تسعين وليس في أرذل عمره ، واللام في [لِكَيْلَا] يشبه أن تكون لام صيرورة ، وليس ببيِّن ؛ والمعنى : ليصير أمره بعد العلم بالأشياء إلى ألَّا يعلم شيئاً ، وهذه عبارة عن قِلَّة علمه ، لا أنه لا يعلم شيئاً البَتَّةَ ، ولم تَحُل (لا) بين كي ومعمولها لتصرفها ، وأنها قد تكون زائدة . ثم قرر تبارك وتعالى علمه وقدرته التي لا تتبدَّل ، ولا تحيلها الحوادث ، ولا تتغير .

وقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ إخبارٌ يراد به العبرة ، وإنما هي قاعدة بني المثل عليها ، والمثل هو أن المفضَّلين لا يصح منهم أن يساهموا مماليكهم فيما أُعطُوا حتى تستوي أحوالهم ، فإذا كان هذا في اليسير فكيف تنسبون أنتم أيها الكفرة إلى الله تعالى أنه يسمح بأن يشرك في أُلُوهيته الأوثان والأنصاب وهم خلْقُه ، وغير هذا مما عُبِد كالملائكة والأنبياء وهم عبيده وخلْقه ؟ هذا تأْويل الطبري ، وحكاه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وحُكي عنه أن الآية مشيرة إلى عيسى عليه السلام . قال المفسرون : هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية[1] ، ثم وقفهم على

---

(١) من الآية (٢٨) من سورة (الروم) .

جحدهم بنعمة الله في تنبيهه لهم على مثل هذا من مواضع النظر المؤدي إلى الإيمان . وقرأ الجمهور ، وحفص عن عاصم : [يَجْحَدُونَ] بالياء من تحت ، وقرأها أبو بكر عن عاصم بالتاء ، وهي قراءة أبي عبد الرحمن ، والأعرج - بخلاف عنه - ، وهي على معنى : قل لهم يا محمد ، قال قتادة : لا يكون الجَحْدُ إلَّا بعد معرفة .

وقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ الآية آية تعديد نِعَم ، و« ٱلْأَزْوَاجُ » : الزوجات ، ولا يترتب في هذه الآية الأنواع ولا غير ذلك ، وقوله : ﴿مِنْ أَنْفُسِكُم﴾ يحتمل أن يريد خَلْقَه حواء من نفس آدم وجسمه ، فمن حيث كانا مبتدأ الجميع ساغ حمل أمرهما على الجميع حتى صار الأمر كأن النساء خُلقن من أنفس الرجال ، وهذا قول قتادة ، والأظهر عندي أن يريد بقوله : ﴿مِنْ أَنْفُسِكُم﴾ أي : من نوعكم وعلى خِلْقَتِكُم ، كما قال ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية (١). وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ﴾ ظاهر في تعديد النعمة في الأبناء . واختلف الناس في قوله : [وَحَفَدَةً] - قال ابن عباس : الحفدة : أولاد البنين ، وقال الحسن : هم بَنُوك وبنو بنيك ، وقال ابن مسعود ، وأبو الضحى ، وإبراهيم ، وسعيد بن جبير : الحفدة : الأصهار ،

(١) من الآية (١٢٨) من سورة (التوبة) .

وهم قرابة الزوجة ، وقال مجاهد : الحفدةُ : الأَنصار والأَعوان والخدم ، وحكى الزجاج أن الحفدة البنات في قول بعضهم ، قال الزهراوي : لأَنهن خدم الأَبوين ، ولأَن لفظة «البنين» لا تدل عليهن ، ألا ترى أنهن لَسْنَ في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾(١)، وإنما الزينة في الذكور ، وقال ابن عباس – رضي الله عنهما ـ أيضاً : الحفدة : أولاد زوجة الرجل من غيره ، ولا خلاف أن معنى «الحَفْدِ» هو الخدمة والبِرُّ والمشي في الطاعة مسرعاً ، ومنه في القنوت : «وإليك نسعى ونحفد» ، والحفَدَانُ : خَبَبٌ فوق المشي ، ومنه قول الشاعر وهو جميل بن معمر :

حفَــدَ الْوَلَائِدُ بَيْنَهُنَّ وَأُسْلِمَتْ بِأَكُفِّهِنَّ أَزِمَّةُ الْأَجْمَـــــــالِ(٢)

---

(١) من الآية (٤٦) من سورة (الكهف) .

(٢) الرواية في (اللسان ـ حفد) : «حَفَدَ الولائدُ حَوْلَهُنَّ» ، وكذلك استشهد به أبو عبيدة في «مجاز القرآن» ، ونسبه أيضاً لجميل بن عبد الله بن معمر العذريّ ، قال : ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ : أعواناً وخُدَّاماً ، قال جميل : «حَفَدَ الولائد ... الخ» واحِدُهُم : حافِدٌ ؛ خرج مخرج كامل ، والجميع : كَمَلَة» . وقال في اللسان : رُوي عن عُمَر أنه قرأ في قنوت الفجر : وإليك نسْعى ونَحْفِد ؛ أي : نُسرع في العمل والخدمة ، قال أبو عبيد : أصْل الحَفْد «الخِدْمَةُ والعمل» . والبيت يصور ما يقوم به الولائد من خدمة وسَعْي ، ومن إمساك بأزِمَّة الأجْمَال . وقد استشهد ابن عباس رضي الله عنهما بهذا البيت على أن معنى الحفدة : الخدَم ، قال للسائل : «من أعانك فقد حَفَدَك ، أما سمعت قوله :

حَفَدَ الوَلائِدُ حَوْلَهُنَّ وأسْمَعَتْ .... =

ومنه قول الآخر :

كَلَّفْتُ مجْهُولَـهَا نُوقاً يَمَانِيَـةً إِذَا الْحُدَاةُ عَلَى أَكْسَائِهَا حَفَدُوا(١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه ٱلْفِرَق التي ذكرتُ أَقوالها إنما بنت على أن كل أحد جُعل له من أزواجه بنين وحفدة ، وهذا إنما هو في الغالب وعُظْم الناس ، ويحتمل عندي أن قوله : ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ إنما هو على العموم والاشتراك ، أي : إن من أزواج البشر جعل الله لهم البنين ، ومنهم جعل الخدمة ، فمن لم يكن له زوجة فقد جعل الله له حفدة وحصل تلك النعمة ، وأولئك الحفدة هم من الأزواج ، وهكذا تترتب النعمة التي تشمل

= هكذا بلفظ «وأسْمَعَتْ» بدلا من : وأُسْلِمَتْ» . و (الولائد) : الخدم ، والواحدة: وليدة ، وقد نسب القرطبي البيت لِكُثَيِّر عزَّة ، وهذا غير صحيح ؛ لأن ابن عباس رضي الله عنهما قد استشهد به ، وكُثَيِّر ولد بعد زمن ابن عباس .

(١) نسبه القرطبي للأعشى ، ولم أجده في ديوانه (ط دار صادر . بيروت) ، والحَدْو : سوق الإبل والغناء لها ، يقال : حَدَا الإبلَ ، وحَدَا بها يَحْدو حَدْواً وحُداء بضم الحاء وبكسرها في الأخيرة . والأكساء : جمع كُسْءٍ (بضم الكاف وسكون السين) ، وهو مؤخَّر العَجُز . والشاهد أن حَفَد في البيت بمعنى : خَدَم وأسْرَعَ في العمل .

ومن الشواهد على هذا أيضاً قول جميل :

فَلَوْ أنَّ نَفْسِي طاوَعَتْنِي لأصْبَحَتْ لَهَا حَفَدٌ مِمَّا يُعَدُّ كَثِـــيرُ
ولَكِنَّهَا نَفْسٌ عَلَيَّ أَبِيَّـــــةٌ عَيُوفٌ لأصْحَابِ اللِّئَـامِ قَـــذُورُ

جميع العالم ، وتستقيم لفظة «الحَفَدة» على مجراها في اللغة ، إذ البشر بجملتهم لا يستغني أحد منهم عن حفدة (١) . وقالت فرقة : الحَفَدَة هم البنون .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا يستقيم على أن تكون الواو عاطفة صفة لهم ؛ كما لو قال : جعلنا لهم بنين وأعواناً ، أي : وهم لهم أعوان ؛ فكأنه قال : وهم حفدة .

وقوله تعالى : ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ﴾ يريد : المُلِذّ من الأشياء التي تطيب لمن يُرْزقها ، ولا يقتصر هنا على الحلال ؛ لأنهم كفار ولا يكتسبون بشرع ، وفي هذه الآية ردٌّ على من قال من المعتزلة : «إن الرزق إنما يكون الحلال فقط» ، ولهم تعلُّق في لفظة [مِنْ] إذْ هي للتبعيض ، فيقولون : ليس الرزق المعدد عليهم من جميع ما بأيديهم إلّا ما كان حلالاً .

(١) يريد ابن عطية أن يبين سبب اختلاف العلماء في معنى قوله: [وَحَفَدَة]،وهو أنهم فهموا أنه لابدَّ أن يكون لكل واحد من البشر بنين وحفدة ، وهذا غير وارد ؛ لأن المراد العموم والاشتراك بين أغلب الناس ، لا أن كل واحد يجب أن يكون له البنين والحفدة ،ورأيه في معنى [حفدة] يتفق مع المعروف في اللغة ، وقد وضحه ابن العربي بقوله : «الأظهر عندي في قوله ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ أن البنين أولادُ الرجل لصلبه ، والحفدة أولاد أولاده ، ويكون تقدير الآية على هذا : وجعل لكم من أزواجكم بنين ، ومن البنين حفدة» .

وقرأ الجمهور : [يُؤْمِنُونَ] ، وتجيءُ الآية ــ على هذه القراءة ــ توقيفاً لمحمد عليه الصلاة والسلام على إيمانهم بالباطل وكفرهم بنعمة الله ، وقرأ أبو عبد الرحمن بالتاءِ من فوق ، ورويت عن عاصم ، على معنى : قل لهم يا محمد ، ويجيءُ قوله[1] بعد ذلك : ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ إخباراً مجرداً عنهم ، وحُكْماً عليهم لا توقيفاً ؛ وقد يحتمل التوقيف أيضاً على قلة اطراد في القول .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

هذه آية تقريع للكفار وتوبيخ ، وإظهارٌ لفساد نظرهم ، ووضع لهم من الأصنام في الجهة التي فيها سعي الناس وإليها مهمهم ؛ وهي طلب الرزق ، وهذه الأصنام لا تملك إنزال المطر ولا إنبات نعمة ،

(١) في النسخ الأصلية : «ويجيءُ قولهم ...» ، إلا نسخة واحدة ، وعليها اعتمدنا لأنها هي الصواب .

مع أنها لا تملك ولا تستطيع أن تحاول ذلك من مُلْك الله تعالى . وقوله : [رِزْقاً] مصدر ، ونصبه على المفعول بـ [يَمْلِكُ] .

وقوله : [شَيْئاً] ذهب كثير من النحويين إلى أنه منصوب على البدل من قوله : [رِزْقاً] ، و [رِزْقاً] اسم ، وذهب الكوفيون - وأبو علي معهم - إلى أنه منصوب بالمصدر في قوله : [رِزْقاً] ، ولا نقدره اسماً ، وهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتاً ، أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً﴾(١) ، ومنه قوله : ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ، يَتِيماً﴾(٢) . فنصب [يَتِيماً] بـ [إِطْعَام] ، ومنه قول الشاعر :

فَلَوْلَا رجاءُ النَّصْرِ مِنْكَ وَرَهْبَةٌ عِقَابَكَ قَدْ صَارُوا لَنَا كَالمَوَارِدِ(٣)

والمصدر يعمل مضافاً باتفاق ؛ لأنه في تقدير الانفصال ، ولا يعمل إذا دخله الألف واللام ؛ لأنه قد توغَّل في حال الأسماء ، وبَعُد عن الفعلية ، وتقدير الانفصال في الإضافة حسَّن عمله ، وقد جاء عاملا

(١) الآيتان (٢٥) و (٢٦) من سورة (المرسلات) .

(٢) الآيتان (١٤) و (١٥) من سورة (البلد) .

(٣) البيت ذكره ابن يعيش ٦. ٦١ . والشاعر يقول : لولا رجاؤنا في نصرك إيَّانا عليهم ، ورهبتنا لعقابك لنا إن انتقمنا منهم بأيدينا نحن لأذللناهم ووطئناهم كما توطأ الموارد ، وهي الطرق التي يرد الناس منها إلى الماء ، وخصَّها الشاعر بالذكر لأنها تكون عادة أكثر الطرق استعمالا ، وأعمرها بالناس . والشاهد فيه أنه أعْمل (رَهْبَة) مع أنها مصدر مُنَوَّن .

مع الألف واللام في قول الشاعر :

ضَعِيفُ النِّكَايَةِ أَعْـــدَاءَهُ . . . . (١)

وقوله :

. . . . عَنِ الضَّرْبِ مِسْمَعَا (٢)

---

(١) البيت في خزانة الأدب ٣- ٤٣٩ ، وشرح الشواهد للعيني ، وابن يعيش ، وكتاب سيبويه ، وأكثر كتب النحو المعروفة ، وهو من الأبيات الخمسين التي لم يعرف لها قائل ، وهو بتمامه :

ضَعِيفُ النِّكَايَةِ أَعْـــدَاءَهُ يَخَالُ الفِرَارَ يُرَاخِـي الأَجَـلْ

والنكاية : مصدر نكيْتُ العدوَّ ، ونكيت فيه إذا أثَّرْت ، يتعدَّى ولايتعدَّى ، قال أبو النجم :

نَحْنُ مَنَعْنَا وَادِيَــيْ لِصَافَـــا نُنْكِي العِدَى ونُكْرِمُ الأَضْيَافَا

ويُراخي الأجل : يُبْعِدُهُ ويُطيله ، والشاعر يهجو رجلا ويصفه بأنه ضعيف لا يستطيع أن يؤثر في أعدائه ؛ وهو جبان لا يثبت في المعركة بل يَفِرُّ ظنّاً منه ان الفرار يطيل في عمره ويُبْعد أجله ، والشاهد فيه إعمال المصدر المعرف بالألف واللام وهو (النكاية) ؛ لأن اللام هنا معاقبة للتنوين ؛ فهو يعمل عمل المنون .

(٢) هذا جزء من بيت الشنتمري إلى المرّار الأسدي ، ونسبه في الخزانة وابن يعيش إلى مالك بن زغبة الباهلي ، وهو مذكور ومشروح أيضاً في شواهد العيني ، والبيت بتمامه :

لَقَدْ عَلِمَتْ أُولَى المُغِيرَةِ أَنَّنِـي لَحِقْتُ فَلَمْ أَنْكُـلْ عن الضَّرْبِ مِسْمَعَا

والمُغيرة : الخيل التي تخرج للغارة ، وأُولى المُغيرة : أول هذه الخيل ، والمراد فرسانها ، والنُّكُولُ : النُّكُوص والرجوع خوفاً وجُبناً ، يقال : نَكَلَ عنه ينكل (كضرب ونصر وعلم) نكولا ؛ ومِسْمع (بكسر الميم) هو مِسْمع بن شيبان ، من بني قيس بن ثعلبة ؛ يقول: لقد علم أوائل المغيرين من الفرسان أني لقيتهم وهزمتهم ولحقت قائدهم وفارسهم =

وقوله تعالى : [يَمْلِكُ] على لفظ [ما] ، وقوله : [يَسْتَطِيعُونَ] على معناها بحسب اعتقاد الكفار في الأصنام أنّها تعقل ، ويحتمل أن يكون الضمير في [يَسْتَطِيعُونَ] للذين يعبدون ، والمعنى : لا يستطيعون ذلك ببرهان يُظهرونه وحُجّة يُبيِّنُونَهَا .

وقوله : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا﴾ أي : لا تُمَثِّلوا لله الأمثال ، وهو مأخوذ من قولك : «هذا ضريب هذا» أي مثيله ، والضَّرْب : النوع ، تقول : الحيوان على ضروب ، وهذا من ضَرْبٍ واحد ، وباقي الآية بيِّن .

قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ الآية . الذي هو مثال في هذه الآية هو عبْدٌ بهذه الصفة مملوك ، لا يقدر على شيء من المال ولا من أمر نفسه ، وإنما هو مُسخَّر بإرادة سيِّده مدبَّر ، ولا يلزم من الآية أن العبيد كلَّهم بهذه الصفة كما انتزع بعض من ينتحل الفقه ، وقد قال في المثل الثاني: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ ، فيلزم ـ على هذا الانتزاع ـ أن يكون البُكْم لا شيء لهم ، وَبِإزاء العبد في المثال رجل مُوَسَّع عليه

=فلم أتراجع عن ضربه بسيفي ، وقد روي: (لقيت) بدلا من (لحقت) ، وروي أيضاً (كررت) ، والشاهد فيه إعمال المصدر المقرون بالألف واللام وهو (الضَّرْب) في (مِسْمعاً) ــ والبيت يحتمل أن يكون من باب التنازع بإعمال (لحقت) في (مِسْمعاً) ، وعلى هذا الاحتمال لا شاهد فيه .

في المال فهو يتصرف فيه بإرادته ، ولا يلزم من نفس المثال أن يكون مؤمناً ينفق بحسب الطاعة ، أما إنه أشرف أن يكون مثالاً .

و «الرِّزْق» : ما صحَّ الانتفاع به ، وقال أبو منصور في عقيدته[١] : «الرزق ما وقع الاغتذاءُ به» ؛ وهذه الآية تردُّ على هذا التخصيص ، وكذلك قوله تعالى : ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[٢] ، و ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾[٣] ، وغير ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم : (وَجُعِلَ رزقي في ظِلِّ رُمْحِي)[٤] وقوله : (أَرْزَاق أُمتي في سنابك خيلها وأَسِنَّة رماحها) ، فالغنيمة كلها رزق ، والصحيح أن ما صح الانتفاع به هو الرزق ، وهو مراتب ، أعلاها ما تُغُذِّي به ؛ وقد حصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوه الانتفاع في قوله : (يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهلْ لك من مالك إلَّا ما أكلْتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ

(١) أبو منصور الماتُريدي هو محمد بن محمد بن محمود ، مات بسمرقند سنة ٣٣٣ هـ. «والعقيدة» اسمُ كتاب له ذكر فيه هذا الرأي في الرزق . راجع (كشف الظنون) .

(٢) تكررت في الآيات : (٣) من سورة (البقرة) ، و (٣) من سورة (الأنفال) ، و (٣٥) من سورة (الحج) ، و (٥٤) من سورة (القصص) ؛ و (١٦) من سورة (السجدة) ؛ و (٣٨) من سورة (الشورى) .

(٣) من الآية (٢٥٤) من سورة (البقرة) .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد ؛ والإمام أحمد في مسنده (٢ ـ ٥٠ ، ٩٢) ، ولفظه كما في المسند عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بعثت بالسيف حتى يُعبد الله لا شريك له . وجُعل رزقي تحت ظل رمحي ؛ وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ؛ ومن تشبَّه بقوم فهو منهم) .

فأبليت ، أو تصدقت فأَمْضَيْت ؟) (١) . وفي معنى اللباس يدخل الركوب .

واختلف الناس في الذي له هذا المثل – فقال قتادة ، وابن عباس : هو مثل الكافر والمؤمن . فكأن الكافر مملوك مصروف عن الطاعة ، فهو لا يقدر على شيءٍ لذلك ، ويشبه العبد المذكور .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والتمثيل – على هذا التأويل – إنما وقع في جهة الكافر فقط ، جعل له مثلا ، ثم قرن بالمؤمن المرزوق ، إلَّا أن يكون المرزوق ليس بمؤمن ، وإنما هو مثال للمؤمن ، فيقع التمثيل من جهتين ، وقال مجاهد ، والضحاك : هذا المثال ، والمثال الآخر الذي بعده إنما هو لله تعالى والأصنام ، فتلك هي كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيءٍ ،

---

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة ، ولفظه فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يقول العبد : مالي مالي ، وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأفنى ، ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس) . (٢–٣٦٨) . ورواه مسلم في كتاب الزهد عن مطرِّف عن أبيه ، قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ ، قال : (يقول ابن آدم : مالي مالي ، قال : وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تَصَدَّقْتَ فأمضيتَ) .

ومعنى (أمضيت) : أكملت عطاءك وأتممته .

والله تعالى تتصرَّف قدرته دون معقِّب ، وكذلك فسَّر الزجاج على نحو قول مجاهد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا التـأويل أصوب ؛ لأن الآية تكون من معنى ما قبلها وما بعدها في تبيين أمر الله تبارك وتعالى والرَّد على الأصنام . وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : نزلت هذه الآية في عثمان ابن عفان رضي الله عنه وعبْد كان له ، ورُوي تعيين غير هذا لا يصح إسناده ، والمثال لا يحتاج إلى تعيين أحد ، وقوله : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شكر على بيان الأمر بهذا المثال ، وعلى إذعان الخصم له ، كما تقول لمن أذعن لك في حُجَّة وسلَّم ما ينبني عليه قولك : الله أكبر ، وعلى هذا يكون كذا وكذا ، فلما قال هنا : ﴿هَلْ يَسْتَوُون﴾ فكأن الخصم قال له : لا ، فقال : الحمد لله ، ظهرت الحجة ، وقوله : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يريد : لا يعلمون أبداً ولا يداخلهم إيمان ، ويتمكن على هذا قوله : [أَكْثَرُهُمْ] ؛ لأن الأقل من الكفار هو الذي يؤمن ، وهو الذي آمن مِنْ أُولئك ، ولو أراد بقوله : [لَا يَعْلَمُونَ] أي الآن لكان قوله : [أَكْثَرُهُم] بمعنى الاستيعاب ؛ لأنه لم يكن أحد منهم يعلم قوله .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

هذا مثل لله تعالى وللأَصنام ، فهي كالأَبكم لا نطق له ولا يقدر على شيءٍ ، وهو عيالٌ على من والاه من قريب أَو صديق ، و « الكَلُّ » : الثقل والمؤونة ، وكل محمول فهو كَلٌّ ؛ وسُمِّي اليتيم كَــلًّا ، ومنه قول الشاعر :

أَكُولٌ لِمَالِ الْكَلِّ قَبْلَ شَبَــابِهِ ... إِذَا كَانَ عَظْمُ الْكَلِّ غَيْرَ شَدِيدِ (١)

كما أَن الأَصنام تحتاج إلى أَن تنقل وتخدم ويُتَعَذَّب بها ثم لا يأْتي

(١) البيت في (اللسان) غير منسوب ، والكَلُّ هو اليتيم ؛ سمّى بذلك لأنه ثقيل على من يكفله ، يقول هاجياً : إنه يأكل مال اليتيم في صغره ووقت ضعفه عن حماية نفسه .

من جهتها خير البَتَّةَ ، هذا قول قتادة ؛ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو مثل للكافر ، وقرأ ابن مسعود : [يُوَجِّهْ](١) ، وقرأ علقمة : [يُوَجَّهْ](٢). وقرأ الجمهور : : [يُوَجِّهْهُ] ، وهي خطُّ المصحف ، وقرأ يحيى بن وثّاب : [تَوَجَّه] ، وقرأ ابن مسعود أيضاً : [تُوَجِّهْهُ] على الخطاب ، وضعف أبو حاتم قراءة علقمة لأن الجزم لازم (٣). و«الذي يأمر بالعدل» هو الله تعالى ، وقال ابن عباس : هو المؤمن . «والصراط» : الطريق .

وقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية ، أخبر تعالى أن الغيبَ له يملكه ويعلمه ؛ وقوله : ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ إخبارٌ بالقدرة ، وحجة على الكفار . والمعنى على ما قال قتادة وغيرُه :

(١) بهاء واحدة ساكنة مبنياً ، والفاعل ضمير يعود على (مَوْلاه) ، وضمير المفعول محذوف لدلالة المعنى عليه ، والتقدير عند ابن جني : أينما يُوَجِّهْ وجْهَهُ ، ويجوز أن يكون ضمير الفاعل عائداً على «الأبكم» ، ويكون الفعل لازماً ، لأن (وَجَّه) تأتي بمعنى (توَجَّه) ، كأن المعنى : أينما يتوَجَّه . وهي قراءة علقمة أيضاً ، وابن وثاب ، ومجاهد ، وطلحة .

(٢) بهاء واحدة ساكنة أيضاً ، ولكن الفعل مبني للمفعول ، وهي أيضاً قراءة ابن وثاب ، وطلحـة .

(٣) قال أبو حيَّان في البحر المحيط (٥-٥٢٠) : تعليقاً على قراءة علقمة «والذي تُوَجِّه عليه هذه القراءة — إن صحَّتْ — أنَّ [أيْنَمَا] شرط حملت على (إذَا) لجامع ما اشتَرَكا فيه من الشرطية ، ثم حذفت الياء من [يَأْتِ] تخفيفاً ، أو لجزمه على توهم أنه نطق بـ [أينَمَا] المهملة معملةً كقراءة من قرأ : ﴿إنَّهُ مَن يَتَّقِ ويَصْبِرُ﴾ في أحد الوجهين ، ويكون معنى [يُوَجِّهْ] يَتَوَجَّهُ ، فهو فعل لازم لا متعدٍّ» .

«ما تكون الساعة وإقامتها في قدرة الله تعالى إلَّا أن يقول لها : كن» ، فلو اتفق أن يقف على ذلك محصّل من البشر لكانت من السرعة بحيث يقول : هل هي كلمح البصر أو هي أقرب من ذلك ؟ فـ [أوْ] ـ على هذا ـ على بابها للشَّك ، وقيل : هي للتخيير[1]، و «لَمْحُ ٱلْبصر» هو وقوعه على المرئيّ ، وقوّى هذا الإخبار بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ، يريد : على كل شيءٍ مقدور ، ومَن قال : «﴿وَمَا أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي : وما إتيانها ووقوعها بكم ، على جهة التخويف من حصولها» ـ ففيه بُعْدٌ وتجوُّز كثير .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

مِنْ قول النبي صلى الله عليه وسلم : (بُعثت أنا والساعة كهاتين)[2]، ومِنْ ذِكْره ما ذكر من أشراط الساعة ومهلتها ، ووجه التأْويل أن القيامة

---

(١) قال أبو حيَّان تعقيباً على ذلك : «والشك والتخيير بعيدان ؛ لأن هذا إخبار من الله تبارك وتعالى عن أمر الساعة فالشَّك مستحيل عليه ، ولأن التخيير إنما يكون في المحظورات ، كقولهم : خُذ من مالي ديناراً أو درهماً ،أو في التكليفات كآية الكفارات ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ و [أوْ] هنا للإبهام على المخاطب ، كقوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿أَتَىٰهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ وهو تعالى قد علم عددهم ، ومتى يأتيها أمره كما علم أمر الساعة ، ولكنه أوهم على المخاطب» . وكون [أوْ] في الآية للإبهام هو رأي الزجاج ، وقد عارض فيه القاضي وقال : لا يصح ، لأسباب طويلة .

(٢) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وابن ماجه ، والدارمي ، والإمام أحمد في مسنده . (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) . ولفظه كما في البخاري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بعثت أنا والساعة كهذه من هذه ، أو قال : كهاتين ، وقرن بين السبابة والوسطى) .

لما كانت آتية ولا بُدّ جُعلت من القرب كلمح البصر ، كما يقال : ما السَّنَة إلا لحظة ، إلا أن قوله : ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَب﴾ يردُّ أيضاً هذه المقالة .

وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ الآية تعديد نعمة بَيِّنة لا ينكرها عاقل ، وهي نعمة يقبح معها كفرها وتصريفها في الإشراك بالذي وهبها ، فالله تعالى أخبر أنه أخرج ابن آدم لا يعلم شيئاً ، ثم جعل حواسَّه التي قد وهبها له في البطن سُلَّماً إلى إدراك المعارف ليشكر على ذلك ويؤمن بالمنعم عليه . و «أُمَّهات» أصله أُمَّات ، وزيدت الهاءُ مبالغة وتأكيداً ، كما زادوا الهاءَ في «أهرقت الماءَ» ، قاله أبو إسحق . وفي هذا المثال نظر ، وقيل غير هذا ، وقرأ حمزة ، والكسائي : [إِمَّهَات] بكسر الهمزة ، وقرأ الأعمش : ﴿في بُطُونِ مِهَاتِكُم﴾ بحذف الهمزة وكسر الميم ، وقرأ ابن أبي ليلى بحذف الهمزة وفتح الميم مُشَدَّدة ، قال أبو حاتم : «حذف الهمزة رديءٌ ، ولكن قراءة ابن أبي ليلى أصوب»[1] ، والتَّرجِّي الذي في «لَعَلَّ» هو بحسبها ، وهذه الآية تعديد نِعَمٍ وموضع اعتبار[2].

---

(١) لأن كسر الميم إنما كان لإتباعها حركة الهمزة ، فإن كانت الهمزة محذوفة زال الإتباع . أما في قراءة ابن أبي ليلى فقد أبقى حركة الميم على حالها .

(٢) قال بعض العلماء : إن قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ يتضمن إثبات النطق ؛ لأن من لم يسمع لا يتكلم ، وإذا وجدت حاسة السمع وجدت حاسة النُّطق .

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ الآية ، قرأ طلحة بن مصرف ، والأَعمش ، وابن هرمز : ﴿أَلَمْ تروْا﴾ بالتاء ، وقرأ أهل مكة والمدينة : ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ بالياء على الكناية عنهم ، واختُلف عن الحسن ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وعيسى الثقفي . و «الْجَوّ» : مسافة ما بين السماء والأَرض ، وقيل : هو ما يلي الأَرض منها ، وما فوق ذلك هو اللوح ، والآية عبرة بيِّنة المعنى ، تفسيرها تكلُّف بحت .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

هذه آية تعديد نعمة الله على الناس في البيوت ، فذكر أولا بيوت التمدن وهي التي للإقامة الطويلة ، وهي عُظْم بيوت الإنسان ، وإن كان الوصف بالسَّكَنِ يعم جميع البيوت ، و «السَّكَنُ» مصدر يوصف به الواحد ، ومعناه : يسكن فيها وإليها ، ثم ذكر تعالى بيوت النقلة والرحلة .

وقوله : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ ٱلْأَنْعَامِ بُيُوتاً﴾ يحتمل أن يعم به بيوت الأدم وبيوت الشعر وبيوت الصوف ؛ لأن هذه من الجلود لكَوْنها ثابتة فيها ، نحا إلى ذلك ابن سلام ، ويكون قوله : ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ ابتداءُ كلام ، كأنه قال : «جعل أثاثاً» ، يريد الملابس والوطاء وغير ذلك ، ويحتمل أن يريد بقوله : ﴿مِنْ جُلُودِ ٱلْأَنْعَامِ﴾ بيوت الأدم فقط ، ويكون ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ عطفاً على قوله : ﴿مِنْ جُلُودِ ٱلْأَنْعَامِ﴾ ، أي : جعل بيوتاً أيضاً ، ويكون قوله : [أَثَاثاً] نصباً على الحال ، و [تَسْتَخِفُّونَهَا] أي تجدونها خفافاً ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : [ظَعَنِكُم] بفتح العين ، وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي بسكون العين ، وهما لغتان وليس بتخفيف ، و (ظَعَن) معناه رَحَل ، والأصواف للغنم ، والأوبار للإبل ، والأشعار للمعز والبقر ، ولم تكن بلادهم بلاد قطن وكتان ؛ ولذلك اقتصر على هذا ، ويحتمل أن تُرِك ذِكْرُ القطن والحرير والكتان إعراضاً عن السرف ؛ إذْ ملبس عباد الله الصالحين إنما هو الصوف ، وأيضاً فقد أُشير إلى القطن والكتان في لفظة السرابيل . و «الأثاث» : متاع البيت ، واحدها أثاثة ، هذا قول أبي زيد الأنصاري ، وقال غيره : الأثاث : جميع أنواع المال ، ولا واحد له من لفظه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والاشتقاق يقوي هذا المعنى الأعم ؛ لأن حال الإنسان تكون بالمال أثيثةً ، كما تقول : «شعر أثيث ، ونبات أثيث» إذا كثر والتف . وقوله : ﴿إِلَى حِينٍ﴾ يريد به وقتاً غير معين ، وهو بحسب كل إنسان ، إمَّا بموته ، وإمَّا بفقد تلك الأشياء التي هي أثاث ، ومن هذه اللفظة قول الشاعر :

أَهَاجَتْكَ الظَّعَائِنُ يَـوْمَ بانُــوا ... بِذِي الزِّيِّ الْجَمِيلِ مِنَ الْأَثَاثِ؟[1]

قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ الآية . نِعم عدَّدَها عليهم بحسب أحوالهم وبلادهم ، وأنها الأشياءُ المباشرة لهم ؛ لأن بلادهم من الحرارة وصهر الشمس بحيث للظل غنى عظيم ونفع ظاهر . وقوله : ﴿مِمَّا خَلَقَ﴾ يعم جميع الأشخاص المظلِّلة . و «الأكنان» :

(١) البيت لمحمد بن نُمَيْر الثَّقَفيِّ ، وله قصة مع الحجاج ؛ لأنه كان يشبب بزينب أخت الحجاج ، فتوعده فهرب منه (ارجع إلى الكامل للمبرد) ، ويروى : «أشاقتك» ... بدلاً من أهاجتك ، و «بذي الرِّئْيِ» ... بدلا من «بذي الزِّيِّ» . قال في (اللسان — رأى) : «هو ما رأته العين من حال حسنة وكُسوة ظاهرة . وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نُمَيْر الثقفي :

أشاقتْكَ الظَّعائِنُ يومَ بانُــــوا ... بِذي الرِّئْيِ الجَميلِ مِنَ الأثاثِ ؟

والظَّعائنُ : جمع ظعينة ، وهي الراحلة يرتحل عليها ، أو الهودج ، أو الزوجة . ولعله المراد هنا ، وبانوا : سافروا وبعدوا .

جمع كِنٍّ ، وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك . و « السَّرابيل » : جميع ما يلبس على البدن كالقميص والقَرْقَل والمجول والدِّرع والجَوْشَن والخفتان ونحوه (١). وذكر وقاية الحرِّ إذ هو أَمَسُّ في تلك البلاد على ما ذكرنا . والبَرْدُ فيها معدوم في الأكثر ، وإذا جاء في الشتوات فإنما يُتَوَقَّى بما هو أكثف من السربال من الأثاث المتقدم الذكر ، فبقي السرابيل لتوقي الحرِّ فقط ، قاله الطبريُّ عن عطاءٍ الخرساني ، ألا ترى أن الله تعالى قد نبههم إلى العبرة في البرد ولم يذكر لهم الثلج لأنه ليس في بلادهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن الثَّلج شيءٌ أبيض ينزل من السماء ما رأيته قط ، وأيضاً فَذِكْر أحدهما يدلُّ على الآخر ، ومنه قول الشاعر :

وَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضـاً أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِـي ؟ (٢)

---

(١) القَرْقَل : ضرب من الثياب ، قيل : هو ثوب بغير كُمَّيْن ، وقيل : قميص من قُمُص النساء بلا لَبِنَة ، وجمعه قَرَاقل ، ونساءُ أهل العراق يقولون : قرقر ، والجوشن : الدِّرع على الصدر ، أو هو الصدر نفسه ، والمراد هنا الدرع . والدرع : قميص المرأة ، وثوب صغير تلبسه الجارية في البيت . ويغلب على الظن أن المجول والخفتان من أنواع الملابس التي تختلف أسماؤُها باختلاف البلاد والزمان .

(٢) البيت لسُحَيْم بن وثيل الرِّياحي ، وقد استشهد به الفراء في معاني القرآن ، قال : وقوله : ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ ، ولم يقل : والبردَ ، فترك لأن معناه معلوم ، ثم ذكر البيت ، ويروى – « يمَّمْتُ وجهاً » ، يريد : أيُّ الخير والشَّر يليني؟ لأنه إذا أراد =

وهذه التي ذكرناها هي بلاد الحجاز ، وإلّا ففي بلاد العرب ما فيه بردٌ شديد ، ومنه قول مُتَمِّم :

. . . . إِذَا القَشْعُ مِنْ بَرْدِ الشِّتَاءِ تَقَعْقَعَا (١)

وقول الآخر :

فِي لَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أَنْدِيَةٍ . . . . (٢)

—الخير فهو يتقي الشر ، وقد وضّح الشاعر ما يريد في البيت الذي بعده :

أَأَلْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيــــهِ أَمِ الشَّرُّ الَّذِي هُوَ يَبْتَغِينِـــي ؟

والبيتان من قصيدته المشهورة التي مطلعها :

أَفَاطِمُ قَبْلَ بَيْنِكِ مَتِّعِينِـي وَمَنْعُكِ ما سَأَلْتُ كَأَنْ تَبِينِـي

(١) مُتَمِّمُ بن نُوَيْرَة هو شقيق مالك بن نُوَيْرَة الذي قُتل في حرب الرِّدَّة ، وتزوج خالد بن الوليد امرأته ، وما ذكره ابن عطية هو عجز بيت ، والبيت بتمامه :

وَلا بَرَماً تُهْدِي النِّسَاءُ لِعِرْسِــهِ إذا القَشْعُ مِنْ بَرْدِ الشِّتَاءِ تَقَعْقَعَا

والبَرَم : الذي لا يدخل مع القوم في المَيْسر ، والجمع : أَبْرَامٌ ، وفي المثل : أَبَرَماً قَرُوناً؟، أي : هو بَرَم ويأكل مع ذلك تمرتين تمرتين ، وقيل : الأبْرام : اللئام ، والعِرْسُ : الزوجة (هنا) ، ويقال : هو عِرْسُهَا ، وهي عِرْسه ، وهما عِرْسان ، والقَشْعُ : بيت من أدَم ، وقيل : من جِلْدٍ ، والجمع : قِشَعٌ ، وتَقَعْقَعَ : أحدث صوتاً عند التحريك لأنه صار يابساً من البَرد الشديد .

(٢) هذا صدر بيت لِمُرَّةَ بن مَحْكان ، والبيت بتمامه :

في لَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذاتِ أَنْدِيَةٍ لا يُبْصِرُ الكَلْبُ مِنْ ظَلْمَائِهَا الطُّنُبَا

والأندية : جمع النَّدَى على غير قياس ، والندى : ما يسقط بالليل ، والطُّنُبُ (بضم النون وبسكونها) : حبل يُشَدّ به الخِباء والسُّرادق ونحوهما ، يصف الليلة بشدة البرد وشدة الظلام . قال في اللسان بعد أن أورد البيت : «قال الجوهري : هو شاذّ ؛ لأنه جمع ما كان ممدوداً مثل كِساء وأكْسِية ، وقيل : جمع نَدىً على أنداء ، وأنْداء على نِدَاء ، ونداء على أندية ، كرداء وأرْدية» .

البيتين ، وغير هذا ؛ والسَّرابيل التي تقي البأْسَ هي الدروع ، ومنه قول كعب بن زهير :

شُمُّ الْعَرَانِينِ أَبْطَالٌ لَبُوسُهُـــمُ مِنْ نَسْجِ داودَ في الْهَيْجَا سرَابِيلُ (١)

وقال أوسُ بن حجر :

. . . . ولَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ والسِّرْبَالِ (٢)

فهذا يراد به القميص .

و «الْبأْسُ» : مسُّ الحديد في الحرب . وقرأ الجمهور : ﴿يُتِمُّ نعْمَتَهُ﴾، وقرأ ابن عباس : ﴿تَتِمُّ نِعْمَتُهُ﴾ ، على أن النعمة هي التي تتم ؛ ورُوي عنه ﴿تَتِمُّ نِعَمُهُ﴾ على الجمع . وقرأ الجمهور : [تُسْلِمُونَ] من الإسلام ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : [تَسْلَمُونَ] من السلامة ، فتكون اللفظة مخصوصة في بأْس الحرب ، وما في

(١) العَرَانين : جمع عِرْنين ، وهو أول الشيء والمراد هنا : أول الأنف ، والشَّمَمُ : الارتفاع ، والسَّرابيل : الدروع ، وهي مصنوعة من الحديد ، وهو المراد بقوله : «من نسج داود» ، حيث أعطاه الله القدرة على استخدام الحديد في صناعة الدروع لتحمي قومه من بأس الحـــروب .

(٢) هذا عجز بيت قاله أوس في قصيدة يرثي بها فضالة بن كلدة . وهو بتمامه :

فَلَنِعْمَ رِفْـــدُ الحَيِّ يَنْتَظِرُونَهُ وَلَنِعْمَ حَشْوُ الـــدِّرْعِ والسِّرْبَالِ

ورِفْدُ الحيِّ : مُعينهم ومُساعدهم ومقدم العطاء لهم ؛ ومعنى «لَنِعْمَ حَشو الدِّرْع والسِّربال» نعم الرجل فُضالة في الفزع والأمن ، فهو حشو الدرع في الفزع ، وحشو السربال في الأمن ، ويكون السربال هو القميص .

«لَعَلَّ» من التَّرَجِّي والتَّوَقُّع فهو في حيِّز البشر المخاطبين ، أي : لو نظر الناظر في هذه الحالة لترجَّى منها إسلامهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

هذه الآية فيها موادعة نسختها آية السيف ، والمعنى : إن أعرضوا فلستَ بقادر على خلق الإيمان في قلوبهم ، وإنما عليك أن تبلِّغ أمر الله ونهْيَه ، ثم قرعهم ووبَّخهم بأنهم يعرفون نعمة الله في هذه الأشياء المذكورة ، ويقولون إنها من عنده ثم يكفرون به تعالى ، وذلك فعل المنكر للنعمة الجاحد لها . هذا قول مجاهد ، فسماهم منكرين للنعمة تَجَوُّزاً ؛ إذْ كانت لهم أفعال المنكرين من الكفر برَبِّ النعم ، ولشركهم في النعم الأوثان على جهة ما ، وهو ما كانوا يعتقدون للأوثان من الفعل في النفع والضر ، وقال السُّدي : النعمة هنا : محمد عليه الصلاة والسلام . ووصفهم تبارك وتعالى بأنهم يعرفون معجزاته

وآيات نبوته وينكرون ذلك بالتكذيب ، ورجَّحه الطبري ؛ ثم حتم على أكثرهم بالكفر وهم أهل مكة ؛ لأنه كان فيهم من قد داخله الإسلام ومن أسلم بعد ذلك .

وقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ آية وعيد ، التقدير : واذكر يوم نبعث شهيداً على كفرهم وإيمانهم ، فـ «شَهِيدٌ» بمعنى «شاهد» ، وذكر الطبري أن المعنى : ثم ينكرونها اليوم ، ويوم نبعث ، أي : ينكرون كفرهم فيُكَذِّبهم الشهيد . وقوله : ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي في المعذرة ، وهذا في موطن دون موطن ؛ لأن في القرآن ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾(١) ، ويترتب أن تجيء كل نفس تجادل ، فإذا استقرت أقوالهم بعث الله الشهود من الأمم فتكذب الكفار فلا يؤذن للكاذبين بعْدُ في معذرة ، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ بمعنى : يُعْتَبون ؛ تقول : «عتَبْتُ الرجل» إذا كفيتَهُ ما عتب فيه ، كما تقول : «أشْكَيْتُه ما شكا» ، كأنه قال : ولا هم يكفون ما يُعتبون فيه ويشق عليهم ، والعرب تقول : استفعل بمعنى أفعل ؛ تقول : أدْنَيْتُ الرجلَ واستدْنَيْتُه ، وقال قوم : لا يسألون أن يرجعوا عمَّا كانوا عليه في الدنيا(٢) .

---

(١) من الآية (١١١) من سورة (النحل) .

(٢) جاءت هذه العبارة في بعض النسخ كالآتي : «لا يشكون أن يرجعوا كما كانوا عليه في الدنيا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا استعتاب معناه طلب عُتْبَاه ، وقال الطبري : معناه : يطلبون الرجوع إلى الدنيا فلا يعطون فيقع منهم توبة وعمل (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذَابَ ﴾ ، أخبر الله تعالى في هذه الآية أن هؤلاءِ الكفرة الظَّالمين في كفرهم إذا أراهم الله عذاب النار وشارفوها وتحققوا كُنْه شدتها فإن ذلك الأَمر الهائل الذي نزل بهم لا يُخفَّف بوجه ولا يُؤَخَّر عنهم ؛ وإنما مقصد الآية الفرق بين ما يحل بهم وبين رزايا الدنيا ، فإن الإنسان لا يتوقع أمراً من خطوب الدنيا إلَّا وله طمع في أن يتأَخر عنه ، وأن يجيئه في أخف ما يتوهم برجائه ؛ وكذلك متى حلَّ به كان طامعاً في أن يخف ، وقد يقع ذلك في خطوب الدنيا كثيراً ، فأَخبر الله تعالى أن عذاب الآخرة ـ إذا عاينه الكافر ـ لا طماعية فيه بتخفيف ولا تأْخير .

---

(١) قال القرطبي : ﴿ وَلَاهُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يعني يسترضون ، أي : لا يكلفون أن يرضوا ربهم ؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف ، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون . اهـ . وقال المهدوي : أصل الكلمة من العَتْب وهي الموجدة ، يقال : عَتَب عليه يَعْتِب إذا وجد عليه ، فإذا فاوضه ما عتب عليه فيه قيل : عاتبه ، فإذا رجع إلى مسرَّتك فقد أعْتَبَ ، والاسم : العُتْبى ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب » اهـ. وقال النابغة :

فَإِنْ كُنْتُ مَظْلوماً فَعَبْداً ظَلَمْتَهُ   وإنْ كُنْتَ ذا عُتْبى فَمِثْلُكَ يُعْتِبُ

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

أخبر سبحانه وتعالى أنهم إذا رأوا يوم القيامة بأبصارهم الأوثان والأصنام وكلَّ معبود من دون الله ــ لأنها تُحْشر معهم توبيخاً لهم على رؤوس الأشهاد ــ أشاروا إليهم وقالوا : هؤلاء كنا نعبدهم من دون الله ، كأنهم أرادوا بذلك تذنيب المعبودين وإدخالهم في المعصية ، وأضافوا الشركاء إلى أنفسهم من حيث هم جعلوهم شركاء ، وهذا كما يصف رجلٌ آخرَ بأنه خَيْر فتقول له أنْتَ : ما فعل خيرُكَ ؟ فأضَفْتَهُ إليه من حيث وصَفَه هو بتلك الصفة ، والضمير في « القول » عائد على الشركاء ، فمن كان من المعبودين من البشر ألقى القول المعهود بلسانه ، وما كان من الجمادات تكلمت بقدرة الله بتكذيب

المشركين في وصفهم بأنهم آلهة وشركاءُ للهِ ، ففي هذا وقع الكذب لا في العبادة . وقال الطبري : المعنى : إنكم لكاذبون ، ما كنا ندعوكم إلى عبادتنا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فكأنهم كذبوهم في التذنيب لهم .

وقوله : ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللهِ ﴾ ، الضمير في [أَلْقَوْا] عائد على المشركين ، والمعنى : ألْقوا إليه الاستسلام ، وألقوا بأيديهم وذلُّوا لحكمه ولم تكن لهم حيلة ولا دفع . و [السَّلَم] : الاستسلام ، وقرأ الجمهور : [ٱلسَّلَم] بفتح اللام ، وروى يعقوب عن أبي عمرو سكون اللام ، وقرأ مجاهد : [السُّلُم] بضم السين واللام .

وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية في ضِمْنِ قوله : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أنه حلَّ بهم عذاب الله وباشروا نقمته ، ثم فسَّره فأخبر أن الذين كفروا ومنعوا غيرهم من الدخول في الدين وسلوك سبيل الله زادهم عذاباً أجلَّ من العذاب العام لجميع الكفار عقوبة على إفسادهم ، فيحتمل أن يكون قوله : [ٱلَّذِينَ] بدلا من الضمير في [يَفْتَرُونَ] و [زِدْنَاهُمْ] فعل مستأنف إخباره ، ويحتمل أن يكون [ٱلَّذِينَ] ابتداءً وخبره [زِدْنَاهُمْ] ، وروي في ذلك أن الله تعالى سلَّط عليهم عقارب وحيَّاتٍ لها أنياب كالنخل الطِّوال ، قاله

ابن مسعود ، وقال عبيد بن عمير : حيّات لها أنياب كالنخل ، وعقارب كالبغال الدُّلْم(١)، ونحو هذا ، وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن لجهنم سواحل فيها هذه الحيّات وهذه العقارب ، فيفر الكفار إلى السواحل من النار فتتلقاهم هذه الحيّات والعقارب ، فيفرون منها إلى النار ، فتتبعهم حتى تجد حرّ النار فترجع ؛ قال : وهي في أسراب .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ ﴾ الآية ، في ضمنها وعيد ، والمعنى : واذكر يوم نبعث في كل أُمّة شاهداً عليها ، وهو رسولها الذي شاهد في الدنيا تكذيبها وكفرها وإيمانها وهداها ، ويجوز أن يبعث الله شهيداً من الصالحين مع الرسل ؛ وقد قال بعض الصحابة : إذا رأيت أحداً على معصية فانْهَه ، فإن أطاعك وإلّا كنت شهيداً عليه يوم القيامة .

وقوله : ﴿ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ بحسب أن بعثة الرسل كذلك هي في الدنيا ، وذلك أن الرسول الذي مِنْ نفس الأُمّة في اللسان والسِّيرة وفهم الأغراض والإشارات متمكن له إفهامهم والردّ على معاندتهم ، ولا يتمكن ذلك مِنْ غير مَنْ هو مِنَ الأُمّة ، فلذلك لم يبعث الله

(١) أي السّوداء ؛ يقال : دَلِمَ الشَّيْءُ دَلَماً : اشْتَدَّ سواده في مُلُوسة ؛ ويقال : دَلِمَ الرجل : اسْوَدَّ وطال .

نبيًّا قطُّ إلَّا من الأُمة المبعوث إليهم . وقوله : [هَٰؤُلَاءِ] إشارة إلى هذه الأُمة . و [ٱلْكِتَابَ] : القرآن ، وقوله : [تِبْيَاناً] اسم وليس بمصدر ، كالنقصان ، والمصادر في مثل هذا التأْويل منها مفتوحة كالتَّرداد والتَّكرار (١)، ونصب [تِبْيَاناً] على الحال (٢)، وقوله : ﴿ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ مما نحتاج في الشرع ولابُدَّ منه في الملَّة : كالحلال والحرام والدعاء إلى الله والتخويف من عذابه ، وهذا حصر ما اقتضته عبارات المفسرين ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : «أُنْزِلَ في القرآن كلُّ علم ، وكلُّ شيء قد بُيِّن لنا في القرآن» ، وتلا هذه الآية .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أَجمعُ آية في كتاب الله آيةٌ في سورة النحل ، وتلا هذه الآية ، ورُوي عن عثمان بن مظعون

(١) ومثل (تِبْيان) في كسر الأول (تِلقاء) .
(٢) ويجوز أن تنصب على أنها مفعول لأجله .

رضي الله عنه أنه قال : لما نزلت هذه الآية قرأتُها على عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، فعجب وقال : «يا آل غالب اتَّبعوه تفلحوا ، فوالله إن الله أرسله إليكم ليأْمر بمكارم الأَخلاق» ، وحكى النقاش قال : كان يقال : «زكاة العدل الإحسان ، وزكاة القدرة العفو ، وزكاة الغنى المعروف ، وزكاة الجاه كَتْبُ الرجل إلى إخوانه» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

العدل هو فعل كل مفروض(١) من عقائد وشرائع ، وسيرٌ مع الناس في أداءِ الأَمانات وتركِ الظلم ، والإنصافُ وإعطاءُ الحق ، والإحسان هو فعل كل مندوب إليه ، فمن الأَشياء ما هو كله مندوب إليه ، ومنها ما فرض إلَّا أن أَحد الأَجزاءِ منه داخل في العدل ، والتكميل الزائد على حدّ الأَجزاءِ داخل في الإحسان ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما حكى الطبري : العدل : لا إلٰه إلَّا الله ، والإحسان : أداءُ الفرائض .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا القسم الأَخير نظر ؛ لأَن أَداءَ الفرائض هي الإسلام حسب ما فسَّره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث سؤال جبريل

(١) في بعض النسخ : «هو فعل كل معروف» . وقوله في تحديد معنى الإحسان : «هو فعل كل مندوب» يؤيد أنه أراد هنا : كل مفروض . وكذلك تقسيمه الأشياء إلى مندوب ومفروض .

عليه السلام ، وذلك هو العدل ، وإنما الإحسانُ : التكميلاتُ والمندوبُ إليه حسب ما يقتضيه تفسير النبي صلى الله عليه وسلم لسؤال جبريل عليه السلام بقوله : (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) (١) ، فإن صح هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما فإنما أراد أداءَ الفرائض مُكمَّلة .

﴿ وَإِيتَاءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ لفظة تقتضي صلة الرحم ، وتَعُمُّ جميع إسداء الخير إلى القرابة . وتركُهُ مبهماً أبلغ ؛ لأن كل من وصل في ذلك إلى غاية — وإن عَلَت — يرى أنه مقصِّر ، وهذا المعنى المأمور

(١) الحديث في الصحيحين ، وفي رواية مسلم ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذْ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفّيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتَحُجَّ البيت إن استطعتَ إليه سبيلا ، قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويُصدّقه ، قال : فأخبرني عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكُتُبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه ، قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرني عن الساعة ، قال : ما المسئول عنها بأعْلَم من السائل ، قال : فأخبرني عن أمارتها ، قال : أن تلد الأمة ربّتَها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رِعَاءَ الشاء يتطاولون في البنيان ، قال : ثم انطلق ، فلبث مليّاً ثم قال لي : يا عُمر ، أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

به في جانب ذي القربى داخل تحت العدل والإحسان ، لكنه تعالى خصَّه بالذكر اهتماماً به وحثّاً عليه .

و [ٱلْفَحْشَاءِ] : الزِّنَى – قاله ابن عباس – وغيره من المعاصي التي شُنْعَتها ظاهرة ، وفاعلها أبداً مستتر بها ، وكأنهم خصوها بمعاني الفروج ؛ [وَٱلْمُنْكَرِ] أعم منه ؛ لأنه يعم جميع المعاصي والرذائل والإدانات على اختلاف أنواعها ، [وَٱلْبَغْيِ] هو إنشاءُ ظلم الإنسان والسعاية فيه ، وهو داخل تحت المنكر ، لكنه تعالى خصَّه بالذكر اهتماماً لشدَّة ضرره بين الناس ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : (لا ذنب أسرع عقوبة من بغي)(١)، وقال عليه الصلاة والسلام : (الباغي مصروع) ، وقد وعد الله من بُغِيَ عليه بالنصر ؛ وفي بعض الكتب المنزلة : «لو بغَى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهما دكًّا» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتغيير المنكر فرضٌ على الولاة ، إلا أن المغيِّر لا يعِنُّ لمستور ، ولا يُعمل ظنًّا ، ولا يتَجَسَّس ، ولا يُغَيِّر إلَّا ما بدت صفحته ، ويكون

(١) أخرج مسلم في الزهد ، وأبو داود في الأدب ، والترمذي في القيامة ، وأحمد في مسند ٥–٣٦ ، عن أبي بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من ذنب أحرى أن يعجل بصاحبه العقوبة مع ما يؤخر له في الآخرة من بَغْي أو قطيعة رحم) واللفظ عن المسند .

أمرُهُ ونهيُهُ بمعروف ، وهذا كلُّه لغير الولاة ألزم ، وفرض على المسلمين عامة ، مالم يَخَف المغيِّر إذاية أو ذُلاًّ ، ولا يغير المؤمن بيده ما وجد سلطاناً ، فإنْ عدِمَه غيَّر بيده ، إلاَّ أنه لا يصل إلى نصب القتال والمداراة وإعمال السلاح إلَّا مع الرياسة والإمام المتَّبع ، وينبغي للناس أن يُغيِّر المنكَرَ كلُّ أحد منهم ، تقي وغير تقي ، ولو لم يغير إلَّا تقي لم يتغير منكر في الأغلب ، وقد ذَمَّ الله قوماً بأنهم لم يتناهوا عن منكر فعلوه ، فقد وصفهم بفعله ، وذمهم بأنهم لم يتناهوا عنه (١) ، وكل مُنكَر فيه مدخل للنظر فلا مدخل لغير حملة العلم فيه ، فهذه نبذة من القول في تغيير المنكر تضمنت ثمانية شروط ، وروي أن جماعة من الصحابة (٢) رفعت على عاملها إلى أبي جعفر المنصور ، فحاجَّها العامل وغلبها بأنهم لم يُثبتوا عليه كبير ظلم ولا جَوْرَه في شيء . فقام فتًى من القوم فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإنه عَدَلَ ولم يُحْسن ، قال : فعجب أبو جعفر من إصابته وعزل العامل .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى في وصف اليهود : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ . (٧٨ ، ٧٩ المائدة) .

(٢) لا يصح قوله : « من الصحابة » مع كون الحادثة في زمن أبي جعفر المنصور ، ولهذا أسقطها بعض النسخ ، وكذلك ذكرها القرطبي بدون قوله : « من الصحابة » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ الآية . يتضمن قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ﴾ الآية التي قبلها : «افعلوا كذا وانتهوا عن كذا» ؛ فعطف على ذلك التقدير قوله : [وَأَوْفُوا] ، و «عَهْدُ اللهِ» لفظ لجميع ما يُعقد باللسان ويلزمه الإنسان ، من بيع أو صلة أو مُوَاثقة في أمر موافق للديانة ، وقوله : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا ٱلْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ خصَّ في هذه الآية الألفاظ المعهودة التي يُقرن بها أَيْمانٌ تَهَمُّماً بها وتنبيهاً عليها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله فيما كان الثبوت فيه على اليمين طاعة لله تعالى ، وما كان الانصراف عنه أصوب في الحق فهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفِّر عن يمينه وَلْيَأْتِ الذي هو خير) (١)، ويقال : توكيد وتأْكيد ، ووكَّد وأكَّد ، وهما لغتان ، وقال الزجاج : الهمزة مبدلة من الواو .

(١) الحديث رواه الشيخان ، ولفظه كما رواه البخاري في كتاب الأيْمان والنذور ، عن عبد الرحمن بن سَمُرَة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (يا عبد الرحمن بن سمرة ، لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها ، وإن أوتيتها من غير مسألة أُعِنْتَ عليها ، وإذا حلفتَ على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكَفِّر عن يمينك ، وائتِ الذي هو خَيْرٌ).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا غير بيّن ؛ لأنه ليس في وجود تصريفه ما يدلُّ على ذلك .

و [كَفِيلًا] معناه : متكفِّلا بوفائكم ، وباقي الآية وعيد في ضمن خبر بِعِلْم الله تعالى بأفعال عباده ، وقالت فرقة : نزلت هذه الآية في الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، رواه أبو ليلى عن بريدة ، وقال قتادة ، ومجاهد ، وابن زيد : نزلت فيما كان من تحالف الجاهلية في أمر بمعروف أو نهي عن منكر ، فزادها الإسلام شدة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كما قال صلى الله عليه وسلم : (لَا حِلْفَ في الإسلام وما كان من حِلْفٍ في الجاهلية فلم يزده الإسلام إلَّا شِدَّة)(١)، وهذا حديث معنى ،

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ، وأبو داود في الفرائض ، والبخاري في الكفالة والأدب ، والترمذي في السِّير ، وكذلك الدارمي ، والإمام أحمد في المسند في مواضع كثيرة ؛ ولفظه كما في سنن الدارمي عن ابن عباس ، قيل لشريك عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال : (نعم ، لا حِلْف في الإسلام ، والحلف في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شِدَّةً وجِدَّةً) . وعلّق القرطبي عليه فقال : «يعني في نُصرة الحق والقيام به والمواساة ، وهذا كنحو حلف الفضول ، ... قال العلماء : فهذا الحِلْف الذي كان في الجاهلية هو الذي شدّه الإسلام ، وخصّه النبي صلى الله عليه وسلم من عموم قوله : (لا حِلْف في الإسلام) ؛ لأن الشرع جاء بالانتصار من الظالم وأخذ الحق منه» .

وإن كان السبب بعْض هذه الأشياء فألفاظ الآية عامة على جهة مخاطبة العالمين أجمعين .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

شبهت هذه الآية الذي يحلف أو يعاهد ويبرم عقده بالمرأة تغزل غزلها وتفتله محكماً ، وشبه الذي ينقض عهده بعد الإحكام بتلك الغازلة إذا نقضت قويّ ذلك الغزل فحلّته بعد إبرامه . ويُروى أن امرأة حمقاء كانت بمكة تُسَمّى رِيْطَة بنت سعد كانت تفعل ذلك ، فبِهَا وقع التشبيه ، قاله عبد الله بن كثير ، والسُّدّي ، ولم يُسَمِّيا المرأة ، وقيل : كانت امرأة موسوسة تسمّى خطية تغزل عند الحجر وتفعل ذلك ، وقال مجاهد ، وقتادة : ذلك ضرب مثل لا على امرأة معينة . و [أَنْكَاثاً] نصب على الحال ، والنكث : النَّقْض . و « القُوَّةُ » في اللغة واحدةُ قُوَى الغَزْل والحبل وغير ذلك مما يضفر ، ومنه قول

الأَغلب الراجز :

. . . . حَبْلَ عَجُوزٍ فَتَلَتْ سَبْعَ قُوى [١]

ويظهر لي أَن المراد بالقوَّة في الآية الشدَّة التي تحدث من تركيب قُوى الغزل ، ولو قدرناها واحدة القُوى لم يكن معها ما ينتقض أنكاثاً ، والعرب تقول : انتكث الحبل إذا انتقضت قواه ، أَما إنَّ عرف الغزل أنه قوة واحدة ولكن لها أَجزاءٌ كأَنَّها قوى كثيرة له ، قال مجاهد : المعنى : من بعد إِمْرار قوة .

و «الدَّخل» : الدَّغل بعينه ، وهي الذَّرائع إِلى الخدع والغدر ، وذلك أَن المحلوف له مطمئن فيتمكن الحالف من ضرّه بما يريد .

وقوله : ﴿ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ ﴾ ، قال المفسرون : نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أُخرى ، ثم جاءت إحداهما قبيلة كبيرة قوية فداخلتها غدرت الأُولى ونقضت معها

(١) الأغلب الراجز ، هو الأغلب بن جُشَم العِجْلي ، من سعد بن عجْل ، كان جاهليّاً إسلاميّاً ، عاش تسعين سنة ، وقتل بنهاوند ، وهو أول من شبَّه الرَّجز بالقصيد وأطاله بعد أن كان قبله مجرد بيت أو بيتين يقولهما الراجز ، وهذا عجز البيت ، وهو كاملا :

كَأَنَّ عِــــرْقَ أَيْرِهِ إِذَا وَدَى حَبْلُ عَجُــوزٍ فَتَلَتْ سَبْعَ قُوَى

وهو من أرجوزة في سجاح ، قالها حين تزوجت من مسيلمة الكذاب ، ويروى « ضَفَرَتْ » بدلا من « فَتَلَتْ » ، و « خَمْس » بدلا من « سبع » ، و وَدَى : خرج منه الودي ، وقُوى : جمع قُوَّة ، وهي الخصلة الواحدة من قوى الحبل ، أو الطاقة الواحدة من طاقات الحبل ، وفي حديث ابن الدَّيْلمي : (ينقض الإسلام عُرْوة عُرْوة كما ينقض الحبلُ قوّة قوة) ، وتجمع قُوَّة على قُوى ، كما جمعت صُوَّة على صُوى ، وهُوَّة على هُوَى .

ورجعت إلى هذه الكبرى ، فقال الله تعالى(١) : لا تنقضوا العهود من أجل أن تكون قبيلة أَزْيَد من قبيلة في العَدَد والعُدَّة ، و «الرِّبَا» : الزيادة ، ويحتمل أن يكون القول معناه : لا تنقضوا الأَيْمَان من أجل أن تكونوا أَرْبى من غيركم ، أي : أَزيد خيراً ، فمعناه : لا تطلبوا الزيادة بعضكم على بعض بنقض العهود . و [يَبْلُوكُم] معناه : يختبركم ، والضمير في [بِهِ] يحتمل أن يعود على الوفاء الذي أمر الله به ، ويحتمل أن يعود على الرِّبا ، أي أن الله ابتلى عباده بالتحاسد وطلب بعضهم الظهور على بعض ، واختبرهم بذلك ليرى من يجاهد نفسه ممن يُتْبعها هواها ، وباقي الآية وعيدٌ بيوم القيامة .

وقوله : ﴿ هِيَ أَرْبَى ﴾ ، موضع [أَرْبَى] عند البصريين رفع ، وعند الكوفيين نصب و [هِيَ] عماد ، ولا يجوز العماد هنا عند البصريين؛ لأنه لايكون مع النكرة ، و [أُمَّةٌ] نكرة ، وحجة الكوفيين أن [أُمَّة] وما جرى مجراها من أسماء الأجناس تنكيرها قريب من التعريف ، ألا ترى أن إدخال الألف واللام عليها لا يخصصها كبير تخصيص؟ وفي هذا نظر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ الآية . أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه يبتلي عباده بالأوامر والنواهي ليذهب كل واحد إلى ما يُسِّر له ، وذلك منه تعالى بحق المِلْك ، ولا يُسأل عما يفعل ، ولو شاء لكان الناسُ كلهم في طريق واحد ، إمَّا في هدًى وإمَّا

---

(١) يريد : كأن الله تعالى قال مامعناه كذا وكذا .

في ضلالة ؛ ولكنه تعالى شاء أن يفرق بينهم ، ويخص قوماً بالسعادة وقوماً بالشقاوة . و [يُضِلُّ] [وَيَهْدِي] معناه : « يخلق ذلك في القلوب » خلافاً لقول المعتزلة ، ثم توعَّد في آخر الآية بسؤال كل أحد يوم القيامة عن عمله ، وهذا سؤال توبيخ ؛ وليس ثَمَّ سؤال تفهُّم ، وذلك هو المنفي في آيات .

قوله عزّ وجلّ

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

كرَّر النهي عن اتخاذ الأيمان تَهَمُّماً بذلك ، ومبالغة في النهي عنه لعظم موقعه من الدين ، وتردُّده في معاشرات الناس [١] ، و « الدَّخل »

(١) وقيل : إنما كرَّر لاختلاف المعنيَيْن ، لأن الأول فيه نهي عن الدخول في الحِلْف ونقض العهد بالقلة والكثرة ، وهنا نَهْي عن الدَّخَل في الأيْمان التي يراد بها اقتطاع حقوق ؛ فكأنه قال : دخلا بينكم لتتوصلوا بها إلى قطع أموال المسلمين . =

ـ كما قلنا ـ الغوائل . وقوله : ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ استعارة للمستقيم الحال يقع في شرٍّ عظيم ويسقط فيه ؛ لأن القدم إذا زلَّت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شرٍّ ، ومن هذا المعنى قول كُثَيِّر :

. . . . فَلَمَّا تَوَافَيْنَـــا ثَبَتُّ وَزَلَّتِ (١)

أي : تنقلت من حال إلى حال ، فاستعار لها الزلل ، ومنه يقال لمن أخطأ في الشيء : زَلَّ فيه . ثم توعَّد بعْدُ بعذاب في الدنيا وعذاب عظيم

ـ ومن رأي أبي حيَّان الأندلسي أنه لم يتكرر النهي عن اتِّخاذ الأيمان دخلا ، فـما سبق إخبارٌ بأنهم اتَّخذوا أيمانهم دخلا معللا بشيء خاص ، وهو أن تكون أمة هي أربى من أمة ، وجاء النهي هنا بقوله : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا ﴾ استئناف إنشاء عن اتخاذ الأيمان دخلا على العموم ، فيشمل جميع الصور من الحلف في المبايعة وقطع الحقوق المالية وغير ذلك .

(١) هذا عجز بيت قاله كثيِّر من قصيدة له قال عنها أبو عليٌّ القالي : هي من منتخبات شعر كثيِّر ، ومطلعها :

خَلِيلَيَّ هذا رَبْعُ عَزَّةَ فاعْقِــلا قَلُوصَيْكُمَا ثُمَّ ابْكِيَا حيثُ حَلَّتِ

والبيت بتمامه :

وكُنَّا سَلَكْنَا في صَعودٍ مِنَ الهَوَى فَلَمَّا تَوَافَيْنَـــا ثَبَتُّ وَزَلَّتِ

والقصيدة في الديوان . ومنها مختارات في الأمالي . وفي الشعر والشعراء ، وفي الأغاني . والصَّعُود : العقبة الشاقة أو الطريق الصاعد ، ويريد هنا أنه وصل مع عزة في الهوى إلى مرحلة بالغة الصعوبة والمشقة ، ولم تستطع هي الثبات لما فيها من عناء ، أما هو فبقي على حبه صابراً ثابتاً على ما يلاقي من تعب ومشقة .

في الآخرة . وقوله : ﴿ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ ﴾ يدل على أن الآية فيمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللهِ ثَمَناً قَلِيلًا ﴾ الآية . هذه آية نهي عن الرشا وأخذ الأموال على فعل ما يجب على الآخذ تركه ، أو ترك ما يجب عليه فعله ، فإن هذه هي التي عهد الله إلى عباده فيها ، فمن أخذ على ذلك مالًا فقد أعطى عهد الله وأخذ قليلا من الدنيا ، ثم أخبر تبارك وتعالى أن ما عنده من نعيم الجنة ومواهب الآخرة خيرٌ لمن اتّقى وعلم واهتدى ، ثم بيّن الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفد وتنقضي عن الإنسان أو ينقضي عنها ، وأن الآخرة باقية دائمة . وقرأ ابن كثير ، وعاصم : [وَلَنَجْزِيَنَّ] بنون ، وقرأ الباقون : [وَلَيَجْزِيَنَّ] بالياء ، ولم يختلفوا في قوله : [وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ] أنه بالنون ، كذا قال أبو علي ، وقال أبو حاتم : إن نافعاً رُوي عنه : [وَلَيَجْزِيَنَّهُمْ] بالياء . و [صَبَرُوا] معناه : عن الشهوات وعلى مكاره الطاعة ، وهذه إشارة إلى الصبر عن شهوة كسب المال بالوجوه المذكورة ، وقوله : [بِأَحْسَنِ] أي : بقدر أحسن ما كانوا يعملون .

وقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً ﴾ يعُمُّ جميع أعمال الطاعة ، ثم قيَّده بالإيمان ، واختلف الناس في الحياة الطيبة . فقال ابن عباس ،

والضحاك : هو الرزق الحلال ، وقال الحسن ، وعليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه : هي القناعة ، وهذا أطيب عيش الدنيا ، وقال ابن عباس – رضي الله عنهما – أيضاً : هي السعادة ، وقال الحسن البصريٌّ أيضاً : الحياة الطيبة هي حياة الآخرة ونعيم الجنة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

هنالك هو الطيب على الإطلاق ، ولكن ظاهر هذا الوعد أنه في الدنيا ، والذي أقول : إن طيب الحياة اللازم للصالحين إنما هو بنشاط نفوسهم ونُبلها وقوة رجائهم ، والرجاء للنفس أمرٌ مُلِذٌّ ، فبهذا تطيب حياتهم ، وبأنهم احتقروا الدنيا فزالت همومها عنهم ، فإن انضاف إلى هذا مالٌ حلالٌ وصحةٌ أو قناعة فذلك كمالٌ ، وإلَّا فالطيب فيما ذكرناه راتب ، وجاء قوله : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ على لفظ [مَنْ] ، وجاء قوله : [وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ] على معناها ، وهذا وعدٌ بنعيم الجنة ، وباقي الآية بيِّن .

وحكى الطبري عن أبي صالح أنه قال : نزلت هذه الآية بسبب قوم من أهل المِلَل تفاخروا ، وقال كل منهم : مِلَّتي أفضل ، فعرَّفهم الله في هذه أفضل المِلَل .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝١٠٢ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣ ﴾

الفاء في [فَإِذَا] واصلة بين الكلامين ، والعرب تستعملها في مثل هذا ، وتقدير الآية : فإذا أخذت في قراءة القرآن ، كما قال تعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾(١)، وكما تقول لرجل : إذا أكلت فقل بسم الله . والاستعاذة ندب عند الجميع ، وحكى النقاش عن عطاءٍ أنّ التعوُّذ واجب ، ولفظ الاستعاذة هو على رتبة هذه الآية ، وقد ذكرت الخلاف الذي قيل فيه في صدر هذا الكتاب . و [ٱلرَّجِيم] : المرجوم باللّعنة ، وهو إبليس .

(١) من الآية (٦) من سورة (المائدة) .

ثم أَخبر تبارك وتعالى أَن إبليس ليس له ملكة ولا رياسة ، هذا ظاهر «السلطان» عندي في هذه الآية ، وذلك أَن السلطان إن جعلناه الحجة فليس لإبليس حجة في الدنيا على أَحد ، لا مؤمن ولا كافر ، اللّهم إلّا أَن يتأَوَّل متأَوِّل : «ليس له سلطان يوم القيامة» ، فيستقيم أَن يكون بمعنى الحجة ، لأَن إبليس له حجة على الكافرين أَنه دعاهم بغير دليل فاستجابوا له من قِبَل أَنفسهم ، وهؤلاءِ الذين لا سلطان ولا رياسة لإبليس عليهم هم المؤمنون أَجمعون ؛ لأَن الله تعالى لم يجعل سلطانه إلا على المشركين الذين يتولونه ، والسلطان منفي ها هنا في الإشراك ؛ إذْ له عليهم ملكة ما في المعاصي ، وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾(١) ، وهم الذين قال فيهم إبليس : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾(٢) .

و [يَتَوَلَّوْنَهُ] معناه : يجعلونه وليًّا ، والضمير في [بِهِ] يحتمل أَن يعود على اسم الله عزَّ وجلَّ ، والظاهر أَنه يعود على اسم إبليس ، بمعنى : من أَجْله وبسببه ، كما تقول لمعلمك : أَنا أَعلم بسببك ، فكأَنه قال : والذين هم بسببه مشركون بالله ، وهذه الأَخبار بأَن لا سلطان

(١) من الآية (٤٢) من سورة (الحِجْر) .
(٢) الآية (٤٠) من سورة (الحِجْر) .

للشيطان على المؤمنين بعقب الأمر بالاستعاذة تقتضي أن الاستعاذة تَصْرف كيده كأنها متضمنة للتوكل على الله والانقطاع إليه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾ ، كان كفار مكة إذا نسخ الله لفظ آية بلفظ أُخرى أو معناها وإن بقي لفظها ــ لأن هذا كله يقع عليه التبديل ــ يقولون : لو كان من عند الله لم يتبدل ، وإنما هو من افتراء محمد ، فهو يرجع من خطإٍ يبدو له إلى صواب يراه بعْدُ ، فأخبر الله تعالى أنه أعلم بما يصلح للعباد برهة من الدهر ، ثم ما يصلح لهم بعد ذلك ، وأنهم لا يعلمون هذا . وقرأ الجمهور : [يُنَزِّلُ] بفتح النون وشد الزاي ، وقرأ أبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاي ، وعبَّر بالأكثر مراعاة لما كان عند قليل منهم من موقف وقلّة مبالغة في التكذيب وظن ، ويحتمل أن يكون هذا اللّفظ قرّر على قليل منهم أنهم يعلمون ويكفرون تَمَرُّداً وعناداً .

وأمر نبيَّه أن يخبر أن القرآن ناسخَه ومنسوخَه إنما نزّله جبريل عليه السلام ، وهو روح القدس ، لا خلاف في ذلك ، و [ٱلْقُدُس] : الموضع المطهر ، فكأن جبريل أُضيف إلى الأمر المطهر بإطلاق ، وسُمِّي روحاً إمَّا لأنه ذو روح من حملة روح الله الذي بثَّه في خلقه ، وخُصَّ هو بهذا الاسم ، وإما لأنه يجري من الهدايات والرسالات ومن الملائكة أيضاً مجرى الروح من الأجساد لِشَرفه ومكانته ، وقرأ ابن كثير :

[ٱلْقُدْس] بسكون الدال ، وقرأ الباقون بضمها ، وقوله : [بِٱلْحَقِّ] أي : مع الحق في أوامره ونواهيه وأحكامه ومصالحه وأخباره ، ويحتمل أن يكون قوله : [بِٱلْحَقِّ] بمعنى حقًّا ، ويحتمل أن يريد : بالحقِّ في أن ينزل ، أي أنه واجب لمعنى المصلحة أن ينزل ، وعلى هذا الاحتمال اعتراضات عند أصحاب الكلام على أصول الدين ، وباقي الآية بيِّن .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان في مكة غلام أعمى لبعض قريش يُقال له بلعام ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمه ويعلمه الإسلام ويرومه عليه ، فقالت قريش : هذا يعلم محمداً من جهة الأعاجم ، فنزلت الآية بسببه ، وقال عكرمة وسفيان : كان اسم الغلام يعيش ، وقال عبد الله بن مسلم الحضرمي : كان بمكة غلامان ، أحدهما اسمه جَبْر ، والثاني يسار ، وكانا يقرآن بالرومية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس إليهما ، فقالت قريش ذلك ، ونزلت الآية ، وقال ابن إسحق : الإشارة إلى جَبْر ، وقال الضحاك : الإشارة إلى سلمان الفارسي ، وهذا ضعيف ، لأن سلمان إنما أسلم بعد الهجرة بمكة . وقرأت فرقة : ﴿ لِسَانُ ٱلَّذِي ﴾ ، وقرأ الحسن البصري : «اللِّسانُ ٱلَّذي» بالتعريف وبغير تنوين في راءِ [بَشَر][1] . وقرأ نافع ،

(١) قال ابن جني : «ليس قوله : ﴿ لِسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ جملة في موضع الصفة لـ [بَشَر] ، ألا تراها خالية من ضميره ؟ ولأن المعنى أيضاً ليس على كونها صفة ، وإنما الوقف على قوله : [بَشَر] ، ثم استأنف الله تعالى القول ردًّا عليهم .

وابن كثير : [يُلْحِدُونَ] بضم الياء ، مِنْ «أَلْحَدَ» إذا مالَ ، وهي قراءة أبي عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وأبي جعفر بن القعقاع ، وقرأ حمزة ، والكسائي : [يَلْحَدُون] بفتح الياء والحاء ، من «لَحَدَ» ، وهي قراءة عبد الله ، وطلحة ، وأبي عبد الرحمن ، والأعمش ، ومجاهد ، وهما بمعنى ، ومنه قول الشاعر :

قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الخُبَيْبَيْنِ قَـــدِي   لَيْسَ أميري بالشَّحيح المُلْحِدِ[1]

يريد : المائل عن الجود وحال الرياسة .

وقوله : [أَعْجَمِيٌّ] إضافة إلى «أَعْجَم» لا إلى «الْعَجَم» ؛ لأنه كان يقول : «عَجَمِيٌّ» ، والأعجم : هو الذي لا يتكلم بعربيَّة ، وأما العجميُّ فقد يتكلم بالعربية ونسبته قائمة[2] . وقوله : [وَهَذَا] إشارة إلى القرآن ، والتقدير : وهذا سرْدُ لسان ، أو نُطْقُ لسان ، فهو على

(١) هذا الرجز لحُميد بن مالك الأرقط ، وقيل : لأبي بحدله ، وهو في الكتاب لسيبويه ، والخزانة ، وابن عقيل . وقدني : حَسْبي . والخُبَيْبَيْن : عبد الله بن الزبير وابنه خُبيب ، أو هما عبد الله وأخوه مصعب ، والأمير هو عبد الملك بن مروان ، ويروى : «ليس الإمام» ، والمعنى : يكفيني منهما ما نلت ، ولن أطلب نصرتهما ؛ فإن عبد الملك خير منهما ، فهو ليس شحيحاً ولا ملحداً ، وقيل : أراد بالإلحاد هنا الظلم ، وقد سبق الاستشهاد بهذا الشعر قبل ذلك .

(٢) أعْجَمِيّ من أعْجَم بمنزلة أحْمَرِيّ من أحمر ، وأشقريٌّ من أشقر ، وكلابيٌّ من كِلاب ، قاله أبو عثمان بن جني في المحتسب ، وقال : إن العجمي هو المنسوب للعجم وإن كان فصيحاً ، ألا ترى أن سيبويه كان عجمياً وإن كان لسانه العربية .

حذف مضاف ، وهذا على أن نجعل اللسان هنا الجارحة ، واللسان — في كلام العرب — : اللغة ، ويحتمل أن يراد في هذه ، واللسان : الْخَبَر ، ومنه قول الأعشى :

إِنِّي أَتَتْنِي لِسَـــانٌ غَيْرُ كَاذِبَةٍ . . . . (١)

ومنه قول الآخر :

لِسَانُ السُّوءِ تُهْدِيهَـــا إِلَيْنَـــا وحِنْتَ وما حَسِبْتُكَ أَنْ تَحِينَا (٢)

وحكى الطبري عن سعيد بن المسيَّب أن الإشارة بقولهم : [بَشَرٌ] إنما هي إلى كاتب كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول له رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في أواخر الآيات : ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، فيكتب هو «عزيز حكيم» أو نحو هذا ، ثم يشتغل باستماع الوحي فيبدل هو بـ «غفور رحيم» أو نحوه ، فقال له عليه الصلاة والسلام

---

(١) هذا صدر بيت لأعشى باهلة ، قال ذلك في (اللسان) . والبيت بتمامه على رواية اللسان :

إِنِّي أَتَتْنِي لِسَانٌ لا أُسَرُّ بِهَـــا مِنْ عَلْوَ لا عَجَبٌ مِنْهَا ولا سَخَرُ

قال : قد يكنى باللسان عن الكلمة فيؤنث حينئذ ، وقال ابن برِّي : اللسان هنا : الرسالةُ والمقالة ، ومثله :

أَتَتْنِي لِسَـــانُ بَنِي عَامِـــرٍ أَحَادِيثُهَـــا بَعْدَ قَوْلٍ نُكُـــرْ

(٢) البيت في الطبريّ ، ورواه في القرطبي : (وَخُنْتَ وما حَسِبْتُكَ أن تَخُونَا) بالخاء من الخيانة ، أما هنا وفي الطبريّ فهو بالحاء المهملة ، وهو من الحَيْن بمعنى الهلاك ، يقالُ : حانَ يحين حيناً بمعنى : هَلَكَ ، والشاهد هنا أن اللسان بمعنى الخَبَر ، لكنْ في القرطبي وفي الطبري أنه بمعنى القصيدة ، لأن العرب تقول للقصيدة والبيت لساناً ، أو هذا لسان فلان : تريد قصيدته .

في بعض الآيات : هو ما كتبت ، فَفُتِن وقال : أَنا أُعلم محمداً وارتد ولحق بمكة فنزلت الآية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

هذا نصراني أسلم وكتب ثم ارتدّ ومات فلفظته الأَرض ، وإلَّا فهذا القول يضعف ؛ لأَن الكاتب المشهور الذي ارتَدَّ لهذا السبب ولغيره من نحوه هو عبد الله بن أَبي سَرْح العامريّ ، ولسانه ليس بأَعجمي ، فتأَمَّل .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

المعهود (١) من الوجود أَن الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بآياته ، ولكنه قدم في هذا الترتيب وأَخَّرَ تَهَمُّماً بقبيح فعلهم والتشنيع بخطئهم ؛

(١) في بعض النسخ : « المفهوم » بدلا من « المعهود » .

وذلك كقوله : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾[1]، والمراد ما ذكرناه ، فكأنه قال : إنَّ الذين لم يؤمنوا لم يهدهم الله .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ﴾ بمعنى : إنما يكذب ، وهذه مقاومة للذين قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم : «إنما أَنْتَ مُفْتَرٍ» ، و [إِنَّمَا] حاصرةٌ أبداً ، لكن حصرها يختلف باختلاف المعاني التي تقع فيها ، فقد يربط المعنى أن يكون حصرها حقيقياً ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[2]، وقد يقتضي المعنى أن يكون حصرها تجوُّزاً ومبالغة ، كقولك : «إنما الشجاع عنترة» . وهكذا هي في هذه الآية ؛ قال الزجاج : يفتري هذا الصنف لأنهم إذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلا الله كذبوا بها ، فهذا أفحشُ الكذب . وكرَّر المعنى في قوله : ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ ﴾ لفائدة إيقاع الصفة بالكذب عليهم ، إذ الصفةُ بالشيء أبلغ من الخبر به ؛ لأن الصفة تقتضي الدوام أكثر مما يقتضيه الخبر ، فبدأ في هذه الآية بالخبر ثم أكَّد بالصفة ، وقد اعترض هذا النظر مكيٌّ ، وليس اعتراضه بالقوي . و [مَنْ] في قوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ بدل من قوله : [ٱلْكَاذِبُونَ] ، ولم يُجز الزجاج

---

(١) من الآية (٥) من سورة (الصَّفّ) .
(٢) من الآية (١٧١) من سورة (النساء) .

غير هذا الوجه ؛ لأنه رأى أن هذا الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام ، فعلّقه بما قبله ، والذي أبى الزجاجُ سائغ على ما أُورده الآن إن شاء الله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا يتأيد بما رُوي من أن قوله : ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ ﴾ يراد به عبد الله بن أبي سَرْح ، ومقيس بن صبابة وأشباههما ممن كان آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ارتَدَّ ، فلما بيَّن في هذه الآية أمْر الكاذبين بأنهم الذين كفروا بعد الإيمان أخرج من هذه الصفة القوم المؤمنين المعذَّبين بمكة وهم بلال وعمَّار وسُمَيَّة أُمُّه وخبَّاب وصُهَيْب وأشباههم ، وذلك أن كفار مكة كانوا في صدر الإسلام يؤْذون من أسلم من هؤلاء لضعفه ، ويُعذِّبونهم ليرتدُّوا ، فربما سامحهم بعضهم بما أرادوا من القول ، رُوي أَنَّ عمَّار بن ياسر فعل ذلك فاستثناه الله في هذه الآية ، وبقيت الرخصة عامَّة في الأَمر بعده . ثم ابتدأ في الإخبار بأن ﴿ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ ﴾ ، وهذا الضمير على معنى [مَنْ] لا على لفظها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا من الاعتراض أن أمر ابن أبي سَرْح وأُولٰئك إنما كان ورسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، والظاهر من هذه الآيات

أنها مكِّيَّة ، وقالت فرقة : [مَنْ] في قوله : ﴿ مَنْ كَفَرَ ﴾ ابتداءٌ ، وقوله : ﴿ مَنْ شَرَحَ ﴾ تخصيص منه ، ودخل الاستثناءُ لما ذكرنا من إخراج عمَّــار وشبهه ، وَدَنا من الاستثناء الأول الاستدراكُ بلكن . وقوله : [فَعَلَيْهِمْ] خبر عن [مَنْ] الأُولى والثانية ؛ إذ هو واحد بالمعنى ؛ لأن الإخبَــار في قوله إنما قصد به الصنف الشارح بالكفر (١) ، فـ [صَدْراً] نصب على التمييز ، وقوله : ﴿ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً ﴾ معناه : انبسط للكفر باختياره ، ويُرْوى أن عَمَّار بن ياسر شَكَا إلى رســول الله صلى الله عليه وسلم ما صنع به من العذاب ، وما سامح به من القول ، فقال له : (كيف تجد قلبك؟) قال : أجدد مطمئناً بالإيمان ، قال : (فَأَجِبْهُم بلسانك فإنَّهُ لا يضرك ، وإن عادوا فَعُدْ) (٢) ،

(١) عقَّب أبو حيان على هذا بقوله : « وهذا وإن كان كما ذكر فهاتان جملتان شرطيتان وقد فُصل بينهما بأداة الاستدراك ، فلا بد لكل واحدة منهما من جواب على انفراده لا يشتركان فيه ، فتقدير الحذف أحرى على صناعة الإعراب ، وقد ضعَّفوا مذهب أبي الحسن في ادعائه أن قوله : ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ وقوله : ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ جواب لـ [أمَّا] و لـ [إنْ] ، هذا وهما أداتا شرط إحداهما تلي الأخرى » .

(٢) أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهاجر إلى المدينة قال لأصحابه : تفرقوا عني ، فمن كانت به قوة فليتأخر إلى آخر الليل ، ومن لم تكن به قوة فليذهب في أول الليل ، فإذا سمعتم بي قد استقرت بي الأرض فالحقوا بي ، فأصبح بلال المؤذن وخباب وعمَّار وجارية من قريش كانت أسلمت ، فأصبحوا بمكة ، فأخذهم المشركون وأبو جهل ، فعرضوا على بلال أن يكفر =

ويتعلق بهذه الآية شيءٌ من مسائل الإكراه ، أمَّا من عذَّبه كافر قادر عليه ليكفر بلسانه ، وكان العذاب يؤدي إلى قتله فله الإجابة باللسان قولًا واحداً فيما أحفظ ، فإن أراد منه الإجابة بفعل كالسجود للصنم ونحو ذلك ففي هذا اختلاف ــ فقالت فرقة وهي الجمهور : يجيب بحسب التَّقية ، وقالت فرقة : لا يجيب ، ويسلم نفسه ، وقالت فرقة : إن كان الصنم نحو القبلة أجاب واعتقد السجود لله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وما أحراه أن يسجد لله حينئذ حيثما توجه ، وهذا مباح في السفر لتعب النزول عن الدابة في التَّنفل ، فكيف بهذا ؟ واحتجت فرقة على التفريق في المنع بقول ابن مسعود : «ما من كلام يدرأُ عني سوطين من ذي سلطان إلا كنتُ متكلماً به » ، فقصر الرخصة على القول دون الفعل .

= قابي ، فجعلوا يصنعون درعاً من حديد في الشمس ثم يلبسونها إياه ، فإذا ألبسوها إياه قال : أحدٌ أحدٌ . وأما خباب فجعلوا يجرونه في الشوك ، وأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقيَّة . وأما الجارية فوتد لها أبو جهل أربعة أوتاد ، ثم مدَّها فأدخل الحربة في قُبُلها حتى قتلها ، ثم خلُّوا عن بلال وخبَّاب وعمار ، فلحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبروه بالذي كان من أمرهم ، واشتد على عمار الذي كان تكلم به ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف كان قلبك حين قلت الذي قلت ؟ أكان منشرحاً بالذي قلت أم لا ؟ قال : لا ، قال : وأنزل الله : ﴿ إلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمَانِ ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وليس هذا بحجة ، لأنه يحتمل أن جعل الكلام مثالًا وهو يريد أن الفعل في حكمه ، وأمَّا الإكراه في البيع والطلاق والعتق والفطر في رمضان وشرب الخمر ونحو هذا من المعاصي التي بين العبد وبين الله تبارك وتعالى فلا يلزم المكره شيءٌ من ذلك ، قاله مطرّف : ورواه مالك ، وقاله ابن عبد الحـكم وأصبغ ، وروياه عن ابن القاسم عن مالك ، وفرق ابن عباس رضي الله عنهما بين ما منها قول كالعتق والطلاق فجعل فيها التَّقية ، وقال : لا تقيَّة فيما كان فعلا كشرب الخمر والفعار في رمضـــان ، ولا يحل فعلهما لمكره ، وأما المظلوم فيضغط حتى يبيع متاعه ، فذلك بيع لا يجـوز عليه ، وهو أولى بمتاعه يأخـذه بلا ثمن ، ويتبع المشتري بالثمن ذلك الظالم ، فإن فات المتـــاع رجع بثمنه أو بقيمته - بالأكثر من ذلك - على الظالم إذا كان المشتري غير عالم بظلمه ، قال مطرّف : ومن كان من المشترين يعلم حـــال المُكْرِه فإنه ضامنٌ لما ابتـــاع من رقيقه وعروضه كالغاصب ، وأما من لا يعلم فلا يضمن العروضَ والحيـــوان ، وإنما يضمن ما كان تلفه بسببه : مثل طعـــام أكله ، أوْ ثوْب لبسه ، والغَلَّـــةُ - إذا عَلِم أو لم يَعْلَم - ليست له بحال ، هُوَ لها ضامن كالغاصب ، وقـــال أصبغ وعبد الحكم : قال مطرف : وكل ما أحـــدث المبتاع في ذلك

من عِتْق أو تدبير أو تحبيس فـلا يلزم المكرَه ، وله أخـذ متاعه . وأما الإكراه على قتل مسلم أو جَلْـدِهِ وأخذ مالِه أو بيع متـاعه فلا عـذر فيه ؛ ولا استكراه في ركوب معصية تُنْتَهَك من أحـد كالزِّنى والقتل ونحوه ، قال مطرِّف ، وأصبغ ، وابن عبد الحـكم : لا يفعل أحـد ذلك وإنْ قُتل إنْ لم يفعله ، فإن فَعَلَه فهو آثـم ويلزمه الحـدُّ والقَوَد ، وقال مالك : القيْـد إكـراهٌ ، والسِّجن إكراهٌ ، والوعيد المخوف إكراهٌ وإن لم يقع إذا تحقق ظُلْمَ ذلك المُتَعَدِّي وإنفـاذَه لما يتوعَّد به ؛ ويعتبر الإكراه عندي بحسب همَّة المُكرَه وقـدره في الدين ، وبحسب الشيء الذي يُكْرَهُ عليه ، فقد يكون الضرب إكراهاً في شيء دون شيء ، فلهذه النوازل فقه الحال . وأما يمين المُكْرَه كما قلنا فهي غير لازمة ؛ قال ابن الماجشون : وسـواء حلف فيما هو لله تبارك وتعالى طاعة أو معصية إذا أُكره على اليمين ، قاله أصبغ ، وقال مطرِّف : إن أُكْره على اليمين فيما هو لله تعالى معصية أو فيما ليس في فعله طاعة ولا معصية فاليمين فيه ساقطة ، وإن أُكْرِه على اليمين فيما هو طاعة ــ مثل أن يأْخذ الوالي رجـلا فاسقاً فيُكْرِهه على أن يحلف بالطلاق لا يشرب خمراً ، أو لا يفسق ، أو لا يغش في عمله ، أو الوالد يحلف ولده في مثل هذا تأديباً له ــ فإن اليمين تلزم وإن كان المُكْرِه قد أخطأ فيما

تكلف من ذلك ، وقال به ابن حبيب . وأما إن أُكْرِهَ رجـلٌ على أن يحلف وإلّا أُخِـذ له مال ـ كأصحاب المَكْس (١) ، وظَلَمة السعاة ، وأهل الاعتداء ـ فقال مطرّف : لا تقية في ذلك ، وإنما يدْرأُ المرءُ بيمينه عن بدنه لا عن ماله . وقال ابن الماجشون : لا يحنث وإن درأ عن ماله ولم يخف على بدنه . وقال ابن القاسم : يقول مطرّف ، ورواه عن مالك رحمه الله ، وقاله ابن عبد الحكم ، وأصبغ ، وابن حبيب . وقال مطرّف ، وابن الماجشون : وإن يدرأ الحالف بيمينه للوالي الظالم قبل أن يسأله ليذُبَّ بها عما خاف عليه من بدنه وماله فحلف بها فإنها تلزمه ، وقاله ابن عبد الحكم وأصبغ ، وقال أيضاً ابن الماجشون فيمن أخذه ظالم فحلف له بالطلاق البَتَّةَ من غير أن يحلفه وتركه وهو كاذب ، وإنما حاف خوفاً من ضربه وقتله أو أخذ ماله ، فإن كان إنما يتبرع باليمين غلبة خوفٍ ورجاء النجاة من ظُلْمِه فقد دخل في الإكراه ولا شيء عليه ، وإن لم يحلف على رجاء النجاة فهو حانث ، وإذا اتَّهم الوالي أحداً بفعل أمر فقال له : لا بُدَّ من عقوبتك إلا أن تحلف لي ، فإن كان ذلك الأمر مما للذلك المُكْرَه فعلُه ـ إمَّا أن يكون طاعة ، وإمَّا أن يكون لا طاعة ولا معصية ـ

(١) المَكْسُ : واحد المكوس ، وهي الضرائب التي يأخذ المُكَّاسُ ممن يدخل البلد من التُّجار . (المعجم الوسيط) .

فالتَّقية في هذا ، وأما إن كان الأمر ممَّا لا يحلُّ له فِعْله ويكون حظر الوالي فيه صواباً فلا تقية في اليمين ، وهو حانث ، قاله مالك ، وابن الماجشون ، فهذه نُبْذة من مسائل الإكراه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

[ذَٰلِكَ] إشارة إلى الغضب والعذاب الذي توعَّد به قبل هذه الآية (١) ، والضمير في [أَنَّهُمْ] لمن شرح بالكفر صدراً ، ولما فعلوا فعل من اسْتَحبَّ أُلزموا ذلك وإن كانوا غير مصدقين بالآخرة ، لكن الأمر في نفسه بيِّن ؛ فمن حيث أعرضوا عن النظر فيه كانوا كمن استحب غيره ،

(١) وقيل : إن [ذَٰلِكَ] إشارة إلى الارتداد والإقدام على الكفر ؛ لأجل أنهم رجَّحوا الدنيا على الآخرة ، ولأنه تعالى ما هداهم إلى الإيمان .

وهذه الآية عُلّق فيها العقاب بتكسبهم ، وذلك أن استحبابهم زينة الدنيا ولذّات الكفر هو التكسّب .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ إشارة إلى اختراع الله الكفر في قلوبهم ، ولا شكّ أن كفر الكافر الذي تعلّق به العقاب إنما هو باختراع من الله وتكسّب من الكافر ، فجمعت الآية بين الأمرين ، وعلى هذا مرّت عقيدة أهل السنّة(١) . وقوله : ﴿ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ عموم على أنه لا يهديهم من حيث هم كفار في نفس كفرهم ، أو عموم يراد به الخصوص فيمن يوافي .

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية ، عبارة عن صرف الله لهم عن طريق الهدى ، واختراع الكفر المظلم(٢) في قلوبهم ، وتغليب الإعراض على نظرهم ، فكأنه سدّ بذلك طرق هذه الحواس حتّى لا تنفع في اعتبار وتأمّل . وقد تقدم القول وذِكْر الاختلاف في الطبع والختم في سورة البقرة ، وهل هو حقيقة أو مجاز(٣) . و « السَّمْع » : اسم جنس ، وهو مصدر في الأصل . فلذلك

(١) في هذا الكلام ردّ واضح على ابن تيمية الذي اتهم ابن عطية بالاعتزال .
(٢) في بعض النسخ : « واختراع الكفر والظلم » .
(٣) راجع الجزء الأول صفحة ١٥٥ وما بعدها .

وُحِّد ، ونَبَّه على تكسُّبهم الإعراض عن النظر فوصفهم بالغفلة ، وقد سبق شرح ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ في هذه السورة [١] .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ الآية . قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان قوم من أهل مكة أسلموا ، وكانوا يستخفون بالإسلام ، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأُصيب بعضهم ، فقال المسلمون : كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأُكرهوا فاستغفروا لهم ، فنزلت : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾[٢] إلى آخر الآية ، قال : فكتب بها إلى من بقي من المسلمين بمكة ، وأن لا عذر لهم ، فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة ، فنزلت فيهم ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ ﴾ إلى آخر الآية[٣] ، فكتب المسلمون إليهم بذلك ، فخرجوا ويئسوا من كل خير ، ثم نزل فيهم : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجاً ، فخرجوا فلحقهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا ، وقُتل من قُتل .

---

(١) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴾ ، الآية (٦٢) .

(٢) من الآية (٩٧) من سورة (النساء) .

(٣) من الآية (٨) من سورة (البقرة) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

جاءت الرواية هكذا أنَّهم بعد نزول الآية خرجوا ، فيجيءُ الجهاد الذي ذُكر في الآية جهادهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، وروت طائفة أنهم خرجوا واتَّبِعوا وجاهدوا مُتَّبعيهم ، فقتل من قُتل ، ونجا من نجا ، فنزلت الآية حينئذ ، فمعنى الجهاد المذكور جهادهم لِمُتَّبِعِيهم .

وقال ابن إسحٰق : نزلت هذه الآية في عمّار بن ياسر ، وعيَّاش ابن أبي ربيعة ، والوليد بن الوليد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذِكْرُ عمّار في هذا عندي غير قويم ، فإنه أرفع من طبقة هؤلاء ، وإنما هؤلاء مَنْ تاب مِمَّنْ شرح بالكفر صدراً (١) ، فتح الله عليهم باب التوبة في آخر الآية .

وقال عِكْرمة ، والحسن : نزلت هذه الآية في شأن عبد الله بن أبي سَرْح وأشباهه ، فكأنه قال : من بعد ما فتنهم الشيطان . وهذه الآية مدنية ، ولا أعلم في ذلك خلافاً ، وإن وُجد فهو ضعيف .

وقرأ الجمهور : ﴿ مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ﴾ بضم الفاء وكسر التاء ، وقرأ ابن عامر وحده بفتحهما ، فإن كان الضمير للمعذَّبين فتجيء

(١) جاءت هذه الجملة في بعض النسخ : « وإنما هؤلاء من باب : فمن شرح بالكفر صدراً ».

بمعنى : فَتَنُوا أَنفسهم بما أعطوا المشركين من القول ، كما فعل عمَّار ابن ياسر ، وأما على قراءة الجمهور فإن كان الضمير للمعذَّبين فهو بمعنى : من بعد ما فَتنَهم المشركون ، وإن كان الضمير للمشركين فهو بمعنى : من بعد ما فتنهم الشيطان . والضمير في [بَعْدِهَا] عائد على الفتنة ، أو على الفعلة ، أو الهجرة ، أو التوبة ، والكلام يعطيها وإنْ لم يجر لها ذكر صريح .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ ﴾ ، المعنى : لغفورٌ رحيمٌ يومَ ، وقوله : ﴿ كُلُّ نفْسٍ ﴾ أي : « كل ذي نفْس » . ثم أجرى الفعل على المضاف إليه المذكور فأنَّث العلامة ، و [نَفْس] الأُولى هي النفس المعروفة ، والثانية هي بمعنى الذات ، كما تقول : نفس الشيء وعينه ، أي ذاته . ﴿ وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ﴾ أي : تُجازى ، كُلُّ من أحسن بإحسانه ، وكلٌّ من أساء بإساءته .

وظاهر الآية أن كلَّ نفس تجادل ، مؤمنة كانت أو كافرة ، فإذا جادل الكفار بكذبهم وجحدهم الكفر شهدت عليهم الجوارح والرسل وغير ذلك بحسب الطوائف ، فحينئذ لا ينطقون ، ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾(١)، فتجتمع آيات القرآن باختلاف المواطن ،

(١) الآية (٣٦) من سورة (المرسلات) .

وقالت فرقة : قول كل أحد من الأنبياء وغيرهم : نفسي نفسي ، وهذا ليس بجدال ولا احتجاج ، وإنما هو مجرَّد رغبة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد ، وقتادة : القرية المضروب بها المثل مكَّةُ ، كانت بهذه الصفة التي ذكر الله ؛ لأنها كانت لا تُغْزَى ولا يُغير عليها أحد ، وكانت الأرزاق تجلب إليها ، وأنعم الله عليها برسوله صلى الله عليه وسلم ، والمراد بهذه الضمائر كلها أهل القرية فكفروا بأَنْعُم الله في ذلك وفي جملة الشرع والهداية ، فأصابتهم السنون والخوف وسائر سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزواته ، هذا إن كانت الآية مدنية ، وإن كانت مكِّيَّة فجوع السنين وخوف العذاب من الله بسبب الكفر والتكذيب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإذا كانت هي التي ضربت مثلا فإنما ضربت لغيرها مما يأتي بعدها ليحذر أن يقع فيما وقعت هي فيه ، وحكي الطبري عن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها كانت تسأل في وقت حصر عثمان ابن عفان رضي الله عنه : ما صنع الناس ؟ وهي صادرة من الحج من مكة . فقيل لها : قتل ، فقالت : والذي نفسي بيده إنها للقرية — تعني المدينة — التي قال الله فيها : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ الآية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فأدخل الطبري هذا على أن حفصة رضي الله عنها قالت : إن الآية نزلت في المدينة وإنها هي التي ضربت مثلا ، والأمر عندي ليس كذلك ، وإنما أرادت أن المدينة قد حصلت في محذور المثل ، وحلَّ بها ما حلَّ بالتي جعلت مثالًا ، وكذلك يتوجه عندي في الآية أنها قُصد بها قرية غير معينة جعلت مثلا ، لكنه على معنى التحذير لأهلها ولغيرها من القرى إلى يوم القيامة .

و [رَغَداً] نصب على الحال ، و [أَنْعُم] جمع نِعْمَة ، كَشِدَّة وأَشُدّ ، كما قال سيبويه ، وقال قطرب : أَنْعُم : جمع نُعْم ، وهو بمعنى النعيم ، يقال : هذه أيام نُعْم وطُعْم[1] ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا

(١) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن : واحدها نُعْم « بضم النون وسكون العين » ، ومعناها : نِعْمة . وهما واحد ، قالوا : نادى منادي النبي صلى الله عليه وسلم بمنى : « إنها أيام طُعْم=

اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ استعاراتٌ ، أي : لما باشرهم ذلك صار كاللِّبَاس ، وهذا كقول الأعشى :

إذَا ما الضَّجِيعُ ثَنَى جِيـــدَهَا   تَثَنَّتْ عَلَيْهِ فَصَـــارَتْ لِبَاسَا (١)

ونحوه قوله تعالى : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ (٢) ، ومنه قول الشاعر :

لَقَدْ لَبِسَتْ بَعْدَ الزُّبَيْرِ مُجَاشِـعٌ   ثِيابَ الَّتي حاضَتْ وَلَمْ تَغْسِلِ الدِّمَا (٣)

كأن العار لما باشرهم وأُلصق بهم جعلهم لبسوه .

— ونُعْم فلا تصوموا » ، وعلى هذا يكون معنى الآية : فكفرت بنعمة الله ، أو بنعيمه ، واستشهد القائلون بذلك على كلامهم بقول الشاعر :

وعِنْدِي قُرُوضُ الْخَيْرِ والشَّرِّ كُلِّهِ   فَبُؤْسٌ لِذِي بُؤْسٍ ونُعْمٌ بِأَنْعُـمِ

(١) البيت للنابغة الجعدي وليس للأعشى ، قال في (اللسان — لبس) : « ولِبَاسُ الرجل : امرأته ، وزوجها لباسُها ، وقوله تعالى : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ أي : مثل اللباس . والعرب تسمي المرأة لباساً وإزاراً ، قال الجعدي يصف امرأةً :

إذا ما الضَّجِيعُ ثَنَى عِطْفَهَـــا   تَثَنَّتْ عَلَيْهِ فَكَانَتْ لِبَاسَـا

ويقال : لبستُ امرأةً أي : تمتعت بها زماناً » . ورواه في « الشعر والشعراء » للنابغة الجعدي أيضاً ، وهو من قصيدته التي يقول فيها :

لَبِسْتُ أُنَاسـاً فَأَفْنَيْتُهُمْ   وَأَفْنَيْتُ بَعْدَ أُنَاسٍ أُنَاسَـا

(٢) من الآية (١٨٧) من سورة (البقرة) .

(٣) البيت لجرير يردُّ على البعيث ، وهو في الديوان ، ومجاشع : قبيلة الفرزدق والبعيث ، وحاضت : نزل عليها الدم ، يقال : حاضت تحيض حَيْضاً ومَحيضاً فهي حائضة ، أنشد الجوهري :

رَأَيْتُ حُيُونَ العَامِ والعَامِ قَبْلَـهُ   كَحَائِضَةٍ يُزْنَى بِهَـا غَيْرَ طَاهِرِ

وجمع الحائض : حوائض وحُيَّض ، والشاهد فيه هو الاستعارة التي في (لبست) ، كما وضحها ابن عطية .

وقوله : [أَذَاقَهَا] نظير قوله : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾[١]، ونظير قول الشاعر :

دُونَكَ ما جَنَيْتَه فاخْسَ وذُقْ[٢]

وقرأ الجمهور : [وَٱلْخَوْفِ] عطفاً على [ٱلْجُوعِ] ، وقرأ أبو عمرو - بخلاف عنه - : [وَٱلْخَوْفَ] عطفاً على قوله : [لِبَاسَ][٣]، وفي مصحف أُبي بن كعب رضي الله عنه : «لباس الخوف والجوع» ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : «فأذاقها الله الخوف والجوع» ؛ ولا يذكر «لباس» [٤] .

---

(١) الآية (٤٩) من سورة (الدخان) .

(٢) دونَك الشيء ، ودونَك به : أي خذه ، ويقال في الإغراء بالشيء ، والذَّوْقُ يستعمل أصلا في الأجسام ، ولكنه يستعمل مجازاً في المعاني .

(٣) قال صاحب اللوامح : ويجوز أن يكون نصبه بإضمار فعل ، وقال الزمخشري : يجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وأصله : «ولباس الخوف» .

(٤) يرى أبو حيّان الأندلسي أن هذا تفسير للمعنى وليس قراءة ؛ لأن المنقول عنه مستفيضاً مثلُ ما في سواد المصحف .

هذا وقد ذكر الزمخشري تعليلا لطيفاً لإيقاع الإذاقة على اللباس مع أن الإذاقة مستعارة ، واللباس أيضاً مستعار ، قال : «لأنه لمّا وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل : فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف ، ولهم في نحو هذا طريقان : أحدهما أن ينظروا إلى المستعار له كما قال كُثَيِّر :

غَمْرُ الرِّداء إذا تَبَسَّمَ ضاحِكــاً غَلِقَتْ لِضِحْكَتِهِ رِقَابُ الْمالِ

فقد استعار الرداء للمعروف لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه ، ووصفه بالغَمْر الذي هو وصف المعروف والنوال لا صفة الرداء ، وهكذا الأمر في الآية . والثاني أن ينظروا فيه إلى المستعار ؛ كقول الشاعر :

والضمير في [جَاءَهُمْ] لأهل مكة ، والرسول محمد عليه الصلاة والســـلام ، و « العذاب » : الجــوع وأمْر بدرٍ ونحو ذلك إن كان التمثيل بمكة وكانت الآية مدنية ، وإن كانت مكِّيَّة فهو الجوع فقط ، وذكر الطبري أنه القتل ببدر ؛ وهذا يقتضي أن الآية نزلت بالمدينة ، وإن كان التمثيل بمدينة قديمة غير معينة فيحتمل أن يكون الضمير في [جَاءَهُمْ] لأهل تلك المدينة ، ويكون هذا مما جرى كمدينة شعيب وغيره ، ويحتمل أن يكون الضمير المذكور لأهل مكة ، فتأمل .

قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ الآية ، هذا ابتداءُ كلام آخر ومعنى حُكْم ، والفاءُ في قوله : [فَكُلُوا] لصلة الكلام واتساق الجُمَل ، خرج من ذكر الكافرين والمثل عليهم إلى أمر المؤمنين بشرع مَّا فوصل الكلام بالفاء ، وليست المعاني موصلة . هذا قولٌ ، والذي عندي أن الكلام متصل المعنى ، أي : وأنتم أيُّها المؤمنون لستم كهذه القرية ، فكلوا واشكروا الله على تباين حالكم من حال الكفرة ؛ وهذه الآية بسبب أن الكفار كانوا قد سنُّوا في الأنعام سُنَناً ، وأحلُّوا بعضاً وحرَّموا بعضاً ، فأمر الله المؤمنين بأكل جميع الأنعام التي رزقها عباده .

= يُنَازِعُني رِدَائي عَبْدُ عَمْـــــرٍو رُوَيْدَكَ يا أخَا عمْرو بن بَكْرِ
لِيَ الشَّطْرُ الذي مَلَكَتْ يَمِيــــني ودونَكَ فاعْتَجِرْ مِنْهُ بِشَطْــرِ

أراد بردائه سيفه ، ثم قال : فاعتجر منه بشطر ، فنظر إلى المستعار في لفظ الاعتجار ، ولو نُظِر إليه في الآية الكريمة لقيل : فكَسَاهُمُ لباسَ الجوع والخوف ، ولو نظر إليه كُثَيِّر لقال : ضافي الرداء إذا تبسَّم ضاحكاً » . اهـ . بتصرف .

واختلف العلماء في قوله : [طَيِّباً ، والصحيح أنه «مُسْتَلَذٌّ» بعد قوله : [حَلَالًا] ، ووقع النَّصُّ في هذا على المُسْتَلَذِّ إذْ فيه ظهور النِّعمة ، وهو عُظْم النِّعم ، وإن الحلال قد يكون غير مُسْتَلَذٍّ ، ويحتمل أن يكون الطيب بمعنى الحلال ، كرَّره مبالغة وتوكيداً ، وباقي الآية بيِّن .

وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ إقامة للنفوس ، كما تقول لرجل : إن كنتَ من الرجال فافعل كذا ، على معنى إقامة نفسه ، وروى الطبري أن بعض الناس قال : نزلت هذه خطاباً للكفَّار عن طعام كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إليهم في جوعهم ، وأنحى الطبريُّ على هذا القول ، وكذلك هو فاسد من غير وجه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

حصرت [إنَّمَا] هذه المُحَرَّمات وقت نزول الآية ، ثم نزلت المحرَّمات بعد ذلك .

وقرأ جمهور النَّاس : [الْمَيْتَةَ] مخففاً ، وشددها أبو جعفر بن القعقاع ، وهو الأصل ، والتخفيف طارئٌ عليه ، والعامل في نصبها

[حَـــرَّمَ] . وقرأت فـــرقة : [المَيْتَةُ] بالرفع على أن تكون [مَا] بمعنى «الذي» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكون [مَا] متصلة بـ [إنَّ] يضعف هذا ويحكم بأنها حاصرة و [مَا] كافة ، وإذا كانت بمعنى «الذي» فيجب أن تكون منفصلة ، وذلك خلاف خط المصحف . وقرأ الجمهور : [حَرَّمَ] على معنى : حرَّم الله ، وقرأت فرقة : [حُرِّم] على ما لم يُسَمَّ فاعله ، وهذا برفع [ٱلْمَيْتَة] ولابُدَّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والميتة المحرمة هي ما مات من حيوان البَرِّ الذي له نفْسٌ سائِلة حتْفَ أنفه ، وأما ما ليس له نفس سائِلة كالجراد والذباب والبراغيث ودود التين وحيوان الفول وما مات من الحوت حتف أنفه وطفا على المـــاءِ ففيه قولان في المذهب ، وما مات حتف أنفه من الحيوان الذي يعيش في الماءِ وفي البَرِّ كالسلاحف ونحوها ففيه قولان ، والمنْع هنا أظهر ، إلَّا أن يكون الغالب عليه العيش في الماءِ .

والدَّم المحرَّم هو المنسفح الذي يسيل إن ترك مفرداً ، وأمَّا ما خالط اللحم وسكن فيه فحلال طبخ ذلك اللحم به ، ولا يكلف أحد تَتَبُّعه . ودم الحوت مختلف في تحليله وإن كان ينسفح لو تُرِك .

ولحم الخنزير هو معظمُه والمقصودُ الأظهر فيه ؛ فلذلك خصَّه بالذكر ، وأجمعت الأُمة على تحريم شحمه وغضاريفه ، ومن تخصيصه استدلت فرقة على جواز الانتفاع بجلده إذا دُبغ ولبسه ، والأولى تحريمه جملة ، وأما شَعْره فالانتفاع به مباحٌ ، وقالت فرقة : ذلك غير جائز ؛ والأول أرجح .

﴿ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ ﴾ ، يريد كل ما نوي بذبحه غير التقرب إلى الله والقرب إلى سواه ، وسواءٌ تكلم بذلك على الذبيحة أو لم يتكلم ، لكن خرجت العبارة عن ذلك بـ [أُهِلَّ] ، ومعناه صحيح على عادة العرب ، وقصد الغَضّ منها ، وذلك أنها كانت إذا ساقت ذبيحة إلى صنم جهرت باسْم ذلك الصنم وصاحت به .

وقوله : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ ﴾ ، قالت فرقة : معناه : أُكْرِه ، وقال الجمهور : معناه : اضطرَّهُ جوع واحتياج ؛ وقرأت فرقة : [فَمَنُ] بضم النون [ٱضْطُرَّ] بضم الطاء ، وقرأت فرقة : [فَمَنِ] بكسر النون [ٱضْطِرَّ] بكسر الطاء على أن الأصل : «ٱضْطُرِرَ» ، فنقلت حركة الراء إلى الطاء وأُدغمت الراءُ في الراء .[وقوله : ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾](١) قالت فرقة : هو صاحب البغي على الإمام ، أو في قطع الطريق ؛ وبالجملة في سفر المعاصي ، والعادي بمعناه في أنه من ينوي المعصية ، وقال الجمهور :

(١) ما بين العلامتين[......] زيادة يقتضيها سياق الكلام ، وهو غير موجود بالأصل .

﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ معناه : غير مستعمل لهذه المحرمات مع وجود غيرها ، ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ معناه : لا يعدو حدود الله في هذا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا القول أرجح وأعمُّ في الرخصة .

وقالت فرقة : باغٍ وعادٍ في الشِّبَع والتَّزوُّد ، واختلف النَّاسُ في صورة الأكل من الميتة ـ فقالت فرقة : الجائز من ذلك ما يُمسك الرَّمَق فقط ، وقالت فرقة : بل يجوز الشبع التَّام ، وقالت فرقة ـ منهم مالك رحمه الله ـ : يجوز الشِّبع والتَّزوُّد ، وقال بعض النحويين في قوله : [عَادٍ] : إنه مقلوب من عايدٍ ، فهو كشاكي السلاح ، وكيوم راحٍ ، وكقول الشاعر :

لَاثٍ بِهِ الأَشاءُ والْعُبْرِيُّ (١)

(١) استشهد به صاحب اللسان في (لوث) وفي (عبر) ، قال في (لوث) : «ولاثَ الشجرُ والنباتُ فهو لائثٌ ولاثٌ ولاثٍ : لبس بعضه بعضاً وتنعَّم ... ولاثٍ مقلوب عن لائثٍ : من لاثَ يلوثُ فهو لائثٌ ، ووزنه فالِعٌ ، قال : (لاثٍ به الأشاء والعُبري) ، وهذا هو موضع الاستشهاد الذي قصده ابن عطية ، والأشاء (بالفتح والمد) : صغار النَّخْل ، أو النخل عامة ، واحدته أشاءةٌ ، والعُبْري من السِّدْر : ما نبت على عِبْر النهر وعظُم ، منسوبٌ إليه . نادرٌ ، وقيل : هو ما لا ساقَ له منه . وإنما يكون ذلك فيما قارب العِبْر ، وفي (اللسان . عبر) : قال يعقوب : العُبْريُّ والعُمْري منه ما شرب الماء . وأنشد : (لاث به الأشاء والعُبْريّ) : وعلى هذا يكون المعنى : إن صغار النخل والسِّدر الذي نبت على شاطئ النهر قد التف بعضه على بعض .

وقوله : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يقتضي منه الإباحة للمضطر ، وخرجت الإباحة في هذه الألفاظ تحرجاً فيها وتَضْييقاً في أمرها ، ليدل الكلام على عظم الحظر في هذه المحرمات ؛ فغاية هذا المرخَّص له غفرانُ الله له ، وحطُّه عنه ما كان يلحقه من الإثم لولا ضرورته ؛ وهذا التخريج الذي ذكرناه يفهمه الفصحاء من اللفظ ، وليس في المعنى منه شيء ، وإنما هو إيحاء . وكذلك جعل غايته في موضع آخر أن لا إثم عليه (١) ، وإن كان «لَا إِثْمَ عَلَيْهِ» وقوله: «هو له مباح» يرجعان إلى معنى واحد فإن في هيئة اللفظتين خلافاً .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾

(١) هذا الموضع هو قوله تعالى في الآية (١٧٣) من سورة (البقرة) : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

هذه مخــاطبة للكفار الذين حرَّموا البحائر والسوائب وأحَلُّوا ما في بطون بعض الأَنعام وإن كان ميتة ، يدل على ذلك قوله حكاية عنهم : ﴿ وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾(١)، والآية تقتضي كل ما كان لهم من تحليل وتحريم ، فإنه كلّه افتراءٌ منهم ، ومنه ما فعلوه في الشهور (٢) . وقرأت السبعةُ وجمهور النَّاس : [ٱلْكَذِبَ] بفتح الكاف والباءِ وكسر الذَّال ، و [مَا] مصدرية ، فكأَنه قال : لوصف أَلسنتكم . وقرأَ الأَعرج ، وطلحة ، وأَبو معمر ، والحسن : [ٱلْكَذِبِ] بخفض الباءِ على البدل من [مَا] . وقرأَ بعض أَهل الشام ، ومعاذ ابن جبل ، وابن أَبي عبلة : [ٱلْكُذُبُ] بضم الكاف والذال والباءِ ، على صفة الأَلسنة . وقرأَ مسلمة بن محارب : [ٱلْكُذُبَ] بفتح الباءِ على أَنه جمع كِذاب كَكُتُبٍ وكِتَاب .

وقوله : ﴿ هَذَا حَلَالٌ ﴾ إشارة إلى ميتة بطون الأَنعام وكل ما أَحَلُّوا . وقوله : ﴿ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ إشارة إلى البحائر والسَّوائب وكل ما حرَّموا ، وقوله : ﴿ لِتَفْتَرُوا عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ إشارة إلى قولهم في فواحشهم

(١) من الآية (١٣٩) من سورة (الأنعام) .

(٢) ذكره الله تعالى في الآية (٣٧) من سورة (التوبة) في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ﴾ الآية .

التي هذه إحداها : ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ (١) ، ويحتمل أن يريد أنه كان شرعهم لاتباعهم سُنَناً لا يرضاها الله افتراءً عليه ، لأن من شرع أمراً فكأنه قال لأتباعه : هذا هو الحق ، وهذا مرادُ الله . ثم أخبرهم الله أن الذين يفترون على الله الكذب لا يبلغون الأمل ، والفلاحُ : بلوغ الأمل ، فتارةً يكون في البقاء ، كما قال الشاعر :

. . . . والمُسْيُ والصُّبْحُ لا بَقَاءَ مَعَهْ (٢)

ويشبه أن هذه الآية من هذا المعنى ، يُقَوِّي ذلك قوله : ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ .

وقد يكون في نجح المساعي ، ومنه قول عبيد :

أَفْلِــحْ بِمَا شِئْتَ فَقَــدْ يُبْلَغُ بالضْـ ـضَعْفِ وقَدْ يُخْــدَعُ ٱلْأَرِيبُ (٣)

---

(١) من الآية (٢٨) من سورة (الأعراف) .

(٢) هو للأضبط بن قُرَيْع السَّعديّ ، ذكر ذلك صاحب اللسان ، قال : المساء ضد الصباح ، والمُسْيُ من المساء كالصُّبْح من الصباح ، ... والاسم المُسْيُ والصُّبح ، قال الأضبط بن قُرَيْع السَّعْديُّ :

لكُلِّ هَمٍّ مِنَ الأمورِ سَعَهْ
والمُسْيُ والصُّبْحُ لا فَلاحَ مَعَهْ

وقد جاء في بعض النسخ « لا فلاح » كرواية اللسان بدلا من « لا بقاء » .

(٣) البيت من قصيدة لعبيد بن الأبرص يعدُّها ابن قتيبة أجود شعره ، وواحدة من المعلقات السبع ، وعدَّها التبريزي من القصائد العشر ، ومطلعها :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُــــوبُ فَالْقُطَبِيَّـــــاتُ فَالذَّنُوبُ

ومعنى أفْلح : عِشْ ، من الفلاح وهو البقاء ، وفي المنتهى : أفْلِح ، ويروى (يُدرك) =

وقوله : ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ إشارةٌ إلى عيشتهم في الدنيا ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بعد ذلك في الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا ﴾ الآية ، لما قصَّ الله تبارك وتعالى على المؤمنين ما حرَّم أعْلم أيضاً بما حرَّم على اليهود ؛ ليبين تبديلهم الشرع فيما استحلوا من ذلك وفيما حرَّموا من تلقاء أنفسهم . وقوله : ﴿ مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ إشارةٌ إلى ما في سورة الأنعام من ذي الظُّفْر والشحوم (١). وقوله : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أي : لم نضع العقوبة عليهم بتحريم تلك الأشياء عليهم في غير موضعها ، بل هم طرقوا إلى ذلك ، وجاء من تَشَبُّثهم بالمعاصي ما أوجب ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ الآية . هذه آية تأنيس لجميع العالم . أخبر الله تعالى فيها أنه يغفر للتائب ؛

=بدلا من (يُبلغ) ، وفي اللسان (بالنَّوْك) بدلا من (بالضَّعف) ، وضبطها محقق الديوان بضم النون المشددة ، يقول : عش كيف شئت ، فقد يدرك الضعيف بضعفه مالا يدركُ القويُّ ، وقد يخدع الأريبُ العاقِلُ عن عقله . قيل : سأل سعيد بن العاصي الحطيئة : من أشعر الناس ؟ قال : الذي يقول : أفلح بما شئت .

(١) في قوله تعالى في الآية (١٤٦) : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ الآية . وهذا يدل على أن سورة الأنعام نزلت قبل سورة النَّحْل .

والآية إشارة إلى الكفار الذين افتروا على الله ، وفعلوا الأفاعيل المذكورة ، فهم إذا تابوا من كفرهم بالإيمان ، وأصلحوا بأعمال الإسلام ــ غفر الله لهم ، وتناولت هذه ــ بعد ذلك ــ كل واقع تحت لفظها من كافر وعاص ، وقالت فرقة : الجهالة : العَمْد ، والجهالة عندي في هذا الموضع ليست ضد العلم ، بل هي تعدِّي الطور وركوب الرأس ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أَوْ أَجْهَل أو يُجْهَل عَلَيّ)(١) ، وهي التي في قول الشاعر :

أَلَا لا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَــــــا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينا (٢)

ومنه لفظة الجاهلية ، والجهالة التي هي ضد العلم تصحب هذه الأخرى كثيراً ، ولكن يخرج منها المتعمد، وهو الأكثر ، وقلَّما يوجد في العُصاة من لم يتقدم له علم بحظر المعصية التي تُواقع . والضمير في [بَعْدِهَا] عائد على التوبة .

(١) هذا جزء من حديث أخرجه ابن ماجه في الدعاء ، وأبو داود في الأدب ، والترمذي في الدعوات ، والنسائي في الاستعاذة ، والإمام أحمد في مسنده ٦ــ٣٠٦ ، ٨ــ٣ ، ٣٢٢ ، ولفظه كما في المسند ٦ـ ٣٠٦ : عن أم سَلَمة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج من بيته قال : (بسم الله ، توكلت على الله ، اللَّهم إني أعوذُ بك من أن نَزِلَّ أو نَضِلَّ ، أو نَظْلِم أو نُظْلَم أو نَجهلَ أو يُجْهَلَ علينا).

(٢) البيت لعمرو بن كلثوم ، من معلقته المشهورة ، والجهل هو الطيش والغضب ، أي : لا يغضب أحد علينا لئلا نثور فنقابلهم بأشد من غضبهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

لمَّا كَشَفَ الله فعل اليهود وتحكمهم في شرعهم بذكر ما حرَّم عليهم أَراد أَن يبيِّن بُعدهم عن شرع إبراهيم والدعوى فيه ، وأَن يصف حال إبراهيم ليُبيِّن الفرق بين حاله وحالهم وحال قريش أَيضاً .

والأُمَّة في اللغة لفظة مشتركة تقع للخير ، والعامة ، والجمع الكثير من الناس ، ثم يُشبَّه الرجلُ العالم أَو الملك أَو المنفرد بطريقة وحده بالناس الكثير فيُسَمَّى أُمَّة ، وعلى هذا الوجه سُمِّي إبراهيم عليه السلام أُمَّة ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : الأُمة : مُعَلِّم الخير ، وقال في بعض أوقاته : إن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان أُمَّة قانتاً ، فقال له : أَبو قُرَّة الكندي ، أَو فروة ابن نوفل : ليس كذلك ، إنما هو أَن إبراهيم كان أُمَّةً قانتاً . فقال : أَتدري ما الأُمة ؟ هو معَلِّم

الخير ، وكذلك كان معاذ يُعَلِّم الخير ويطيع الله ورسوله . وقال مجاهد : سُمِّي إبراهيم أُمَّة لانفراده بالإيمان في وقته مدة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي البخاري أنه قال لسارة : ليس على الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك ، وقال بعض النحويين ـ أظنه أبا الحسن الأخفش ـ : الأُمة فُعْله من أَمَّ يؤُم ، فهو كالهُمزة والضُّحكَة ، أي : يُؤتَمُّ به .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فـ [أُمَّة] ـ على هذا ـ صفة ، وعلى القول الأول اسْمٌ ليس بصفة . و «القَانِتُ» : المطيع الدائم على العبادة ، و «الْحَنِيفُ» : المائل إلى الخير والإصلاح ، وكانت العرب تقول لمن يَخْتَتِن ويَحُجُّ البيت : حنيفاً ، وحذف النون من ﴿ لَمْ يَكُ ﴾ لكثرة الاستعمال ، كحذفهم من : لا أُبالِ ولا أَدْرِ ، وهو أيضاً لشبه النون في حال سكونها حروفَ العلة لغُنَّتها وخفَّتها وأنها قد تكون علامة وغير ذلك ، فكأَن (لَمْ) هنا دخلت على (يَكُنْ) في حال جزم ، ولا تحذف النون إذا لم تكن ساكنة في نحو قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾(١) ، ولا تحذف

---

(١) من الآية (١) من سورة (البيِّنَة) .

من مثل هذا إلا في الشِّعر فقد جاءت محذوفة ، وقوله : ﴿ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ مُشيرٌ إلى حال تَبَرِّي إبراهيم عليه السلام من حال مشركي العرب ومشركي اليهود ، إذْ كلُّهم ادَّعاه ، ويلزم الإشراكُ اليهودَ من جهة تَجْسِيمهم .

و [شَاكِراً] صفةٌ لإبراهيم تابعة ما تقدم ، و «الْأَنْعُم» : جمع نعمة ، و [ٱجْتَبَاهُ] معناه : تَخَيَّره ، وباقي الآية بيِّن .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ ، الحَسَنَةُ : لسانُ الصدق وإمامَتُه لجميع الخلق ، هذا قول جميع المفسرين ، وذلك أن كل أمَّة متشرعة فهي مُقِرَّة أن إيمانها إيمانُ إبراهيم ، وأنه قُدْوتها ، وأنه كان على الصواب . وقوله : ﴿ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ ﴾ بمعنى : المُنْعَم عليهم ، أي : من الصالحين في أحوالهم ومراتبهم . أو بمعنى أنه في الآخرة ممَّن يُحْكم له بحكم الصالحين في الدنيا ، وهذا على أن الآية وصف حالَيْه في الدَّارَيْن ، ويحتمل أن يكون المعنى : في أعمال الآخرة ، فعلى هذا وصف حالته في الأعمال الدنياوية والأُخْرَوِيَّة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ الآية . الوحيُ إلى محمد صلى الله عليه وسلم بهذا من جملة الحسنة التي أتاها الله إبراهيم عليه السلام ، قال ابن فُورك : وأَمَر الفاضلَ باتباع المفضول لما تقدم إلى قول الصواب

والعمل به[١] ، و [أَنْ] في قوله : ﴿ أَنِ ٱتَّبِـعْ ﴾ مفسِّرة ، ويجوز أَن تكون مفعولة ، و «الْمِلَّة» : الطريقة في عقائد الشرع ، و [حَنِيفاً] حال ، والعامل فيها الفِعْلِيَّة التي في قوله : ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، ويجوز أَن تكون حالًا من الضمير المرفوع في [ٱتَّبِـعْ] ، قال مكي : ولا يكون حالًا من [إِبْرَاهِيمَ] ؛ لأَنه مضاف إليه[٢] ، وليس كما قال ؛ لأَن الحال قد تعمل فيها حروفُ الخفض إذا عملت في ذي الحال ، كقولك : مررت بزيد قائماً[٣] .

(١) نقل أبو حيان عبارة ابن فُورك بلفظ : «لمَّا كان سابقاً» ، وهي أوضح في الدلالة على المراد ، وعلَّل الزمخشري أمر محمد باتِّباع ملَّة إبراهيم بقوله : «في [ثُمَّ] هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإجلال محلِّه ، والإيذان بأن أشرف ما أُوتي إبراهيم من الكرامة ، وأجلَّ ما أُوتي من النعمة اتباعُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ملَّته ، من قِبَل أنَّها دلَّت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها» .

(٢) هذا التعليل ليس على إطلاقه ، لأنه إذا كان المضاف إليه في محلّ رفع أو نصب جازت الحال منه ، نحو : يُعجبني قيامُ زيد مسرعاً ، وشرب السويق ملتوتاً ، وقال بعض النحويين : يجوز أيضاً إذا كان المضاف جزءاً من المضاف إليه ، كقوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا ﴾ ، أو كالجزء منه كقوله تعالى : ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ .

(٣) علَّق أبو حيَّان على كلام ابن عطية هذا بقوله : «إنه بعيد عن قول أهل الصنعة ؛ لأن الباء في (بِزَيْدٍ) ليست هي العاملة في (قائماً) ، وإنما العامل في الحال : (مَرَرْتُ) ، والباء وإن عملت الجرَّ في (زيد) فإن زيداً في موضع نصب بـ (مررت) . وكذلك إذا حذف حرف الجر — حيث يجوز حذفه — نصب الفعل ذلك الاسم الذي كان مجروراً بالحرف» . ومعنى كلام أبي حيان أن المثال الذي ذكره ابن عطية صحيح لأن المجرور في محلّ نصب ، فهو في حدود القاعدة التي ذكرناها في التعليق السابق تكميلا لرأي ابن فورك .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ ﴾ ، أي : لم يكن من ملّة إبراهيم ، وإنما جعله الله فرضاً عاقب به القوم المختلفين فيه ، قاله ابن زيد ، وذلك أن موسى عليه السلام أمر بني إسرائيل أن يجعلوا من الجمعة يوماً مختصاً بالعبادة ، وأمرهم أن يكون يوم الجمعة ، فقال جمهورهم : بل يكون يوم السبت لأن الله فرغ فيه من خلق مخلوقاته ، وقال غيرهم : بل نقبل ما أمر به موسى عليه السلام ، فراجعهم الجمهور ، فتابعهم الآخرون ، فألزمهم الله يوم السبت إلزاماً قويًّا عقوبة منه لهم ، فلم يكن منهم ثبوت ، بل عصوا فيه وتعدوا فأهلكهم .

وقرأ الأعمش : «إنما نزلنا السبت» ، وهي قراءة ابن مسعود ، وقرأ أبو حيوة : [جَعَلَ] بفتح الجيم والعين ، وورد في الحديث أن اليهود والنصارى اختلفوا في اليوم الذي يختص من الجمعة ، فأخذ هؤلاء السبت ، وهؤلاء الأحد ، فهدانا الله إلى يوم الجمعة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه)(١).

---

(١) أخرج الشافعي في الأم ، والبخاري ، ومسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بَيْدَ أنهم أُوتوا الكتاب من قبلنا وأُوتيناه من بعدهم ، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم يوم الجمعة فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تَبَع ، اليهود غداً ، والنصارى بعد غد) . (الدر المنثور) فقوله : (هذا يومهم الذي فرض عليهم) يؤيد قول من يقول : إن الله عيّن يوم الجمعة لليهود فخالفوا ولم يختلفوا ، ولكن رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (أضلّ الله عن الجمعة=

فليس الاختلاف المذكور في الآية هو الاختلاف الذي في الحديث ، وباقي الآية وعيدٌ وبيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنته للمشركين ؛ أمره الله تعالى أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتَلَطُّف ، وهو أن يُسمِع المدعو حكمة ، وهو الكلام الصواب القريب الواقع في النفس أجمل موقع ، و « ٱلْمَوْعِظَةُ ٱلْحَسَنَةُ » : التخويف والتوجيه والتَّلطُّف بالإنسان ، بأن يُجلّه ويُنَشِّطَهُ (١)

= من كان قبلنا) ، ... أخرجه أحمد ومسلم عن أبي هريرة وحذيفة .. وهذا يؤيد قول من يقول : إن الله لم يُعَيِّنه لهم ، بل أمرهم باختيار يوم فاختلفوا ، وتأمل بعد ذلك قول المؤلف : «فليس الاختلاف في المذكور في الآية هو الاختلاف الذي في الحديث» .. والله الموفق للصواب .

(١) في بعض النسخ : ويبسُطه ، والمعنى معها يصح ، إذ يقال : بَسَط فلانٌ فلاناً : سرَّه ، وفي حديث فاطمة : (يَبْسُطني ما يَبْسُطها) .

ويجعله بصورة من يقبل الفضائل ونحو هذا ؛ فهذه حالة من يُدعى ؛ وحالة من يُجادل دون مخاشنة فتظهر عليه دون قتال ، والكلام يعطي أن جدَّك وهمَّك وتعبَك لا يغني ؛ لأن الله قد علم من يؤمن منهم ويهتدي ، وعلم من يَضِل ، فجملة المعنى : اسلك هذه السبيل ولا تلجأْ للمخاشنة فإنها غير مجدية ، لأن علم الله قد سبق بالمهتدي منهم والضال . وقالت فرقة : هذه الآية منسوخة بآية القتال ، وقالت فرقة : هي مُحْكَمة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويظهر لي أن الاقتصار على هذه الحال ، وألَّا يتعدي مع الكفرة متى احتيج إلى المخاشنة وهو منسوخ لا محالة . وأما من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ، ويرجى إيمانه بها دون قتال ، فهي فيه محكمة إلى يوم القيامة ، وأيضاً فهي محكمة في جهة العصاة ، فهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا ﴾ الآية ، أطبق أهل التفسير أن هذه الآية مدنية نزلت في شأْن التمثيل بحمزة رضي الله عنه في يوم أُحد ، ووقع ذلك في صحيح البخاري ؛ وفي كتاب السِّير ، وذهب النحاس إلى أنها مكيَّة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمعنى متصل بما قبلها من المكي اتصالاً حسناً ، لأنها تتدرّجُ الرُّتَب من الذي يُدْعى ويوعظ ، إلى الذي يجادل ، إلى الذي يُجازَى على فعله ، ولكن ما رَوَى الجمهور أثبت ، وأيضاً فقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ ﴾ تعلّق بمعنى الآية على ما روى الجمع أن كفار قريش لما مثّلوا بحمزة رضي الله عنه وقع ذلك من نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (لَئِن أَظْفَرَني الله بهم لأُمثِّلَنَّ بثلاثين – وفي كتاب النحاس وغيره : بسبعين – منهم) ، فقال الناسُ : إن ظفرنا لنفعلن ولنفعلن ، فنزلت هذه الآية (١) .

ثم عزم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصبر في الآية بعدها وسمّى الإذايات في هذه الآية عقوبةً ، والعقوبة حقيقة إنما

---

(١) أخرج ابن إسحق ، وابن جرير ، عن عطاء بن يسار ، قال : نزلت سورة النحل كلها بمكة إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة يوم أُحد حيث قتل حمزة ومثل به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن ظهرنا عليهم لنُمَثِّلَنَّ بثلاثين رجلا منهم ، فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط ، فأنزل الله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ إلى آخر السورة . والأحاديث كثيرة في هذه القصة عن أبي هريرة ، وعن ابن عباس ، وعن أُبيّ بن كعب رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

هي الثانية ؛ وإنما فعل ذلك ليستوي اللفظان وتتناسب ديباجة القول ، وهذا بعكس قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾[١]، وقوله : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾[٢]، فإن الثاني هو المجازيّ ، والأول هو الحقيقة . وقرأ ابن سيرين : «وَإِن عَقَّبْتُم فَعَقِّبُوا» .

وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت : إنما نزلت هذه الآية فيمن أُصيب بظُلامة ألَّا ينال من ظالميه إذا تمكَّن إلَّا مثْل ظلامته ، لا يتعداه إلى غيره ، واختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجل في أخذ مالٍ ، ثم ائتمن الظالم والمظلوم على مالٍ ، هل يجوز له خيانته في القدر الذي ظلمه ؟ ـ فقالت فرقة : «له ذلك» ؛ ومنهم ابن سيرين ، وإبراهيم النَّخَعي ، وسفيان ، ومجاهد ، واحتجت بهذه الآية وعموم لفظها ؛ وقال مالك ـ رحمه الله ـ وفرقة معه : «لا يجوز له ذلك» ، واحتَجُّوا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك)[٣] ، ووقع في مسند ابن إسحق أن هذا الحديث

(١) من الآية (٥٤) من سورة (آل عمران) .

(٢) من الآية (١٥) من سورة (البقرة) .

(٣) أخرجه أبو داود في البيوع ، وكذلك الترمذي ، والدارمي ، وأخرجه أحمد ٣ـ٤١٤ ، ولفظه كما في مسند أحمد : عن رجل من أهل مكة يقال له : يوسف ، قال : كنت أنا ورجل من قريش نلي مال أيتام ، قال : وكان رجل قد ذهب مني بألف درهم . قال : فوقعت له=

إنما ورد في رجل زنا بامرأة آخر ، ثم تمكن الآخر من زوجة الثاني بأن تركها عنده وسافر ، فاستشار ذلك الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمر ، فقال له هذا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويَتَقَوَّى في أمر المال قولُ مالك رحمه الله ، لأن الخيانة لاحقة في ذلك ، وهي رذيلة لا انفكاك عنها ، ولا ينبغي للمرء أن يتأسَّى بغيره في الرذائل ، وإنما ينبغي أن يتجنَّبها لنفسه ، وأما الرجلُ يظلم في المال ، ثمَّ يتمكن من الانتصاف دون أن يُؤْتمن فيشبه أن ذلك جائز ، يرى أن الله حكم له كما لو تمكن له بالحكم من الحاكم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ ، هذه عزيمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصبر على المجازاة على التمثيل بالقتلى ، وقال ابن زيد : هذه الآية منسوخة بالقتال ، وجمهور الناس على أنها مُحكمة ، ويروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : (أمَّا أنا فأصبر كما أُمرتُ ، فماذا تصنعون؟) ، قالوا : نصبر يا رسول الله

= في يدي ألف درهم ، قال : فقلت للقرشي : إنه قد ذهب لي بألف درهم ، وقد أصبت له ألف درهم ، قال : فقال القرشي : حدثني أبي أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك) .

كما ندبنا (١) . وقوله : ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ أي : بمعونة الله وتأييده لك على ذلك ، والضمير في قوله : [عَلَيْهِمْ] ، قيل : يعود على الكفار ، أي : لا تتأسف على أن لم يُسلموا ، وقالت فرقة : بل يعود على القتلى : حمزة وأصحابه رضوان الله عليهم الذين حزن عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأول أصوب ؛ إذ يكون عود الضمائر على جهة واحدة .

وقرأ الجمهور : ﴿ في ضَيْقٍ ﴾ بفتح الضاد ، وقرأ ابن كثير : ﴿ في ضِيقٍ ﴾ بكسرها ، ورويت عن نافع ، وهو غَلَط ممن رواه ، قال بعض اللغويين : الكسر والفتح في الضاد لغتان في المصدر ، وقال أبو عبيدة : الضِّيقُ مصدر ، والضَّيْق مخفف من ضَيِّق ، كَمَيْتٍ ومَيِّت ، وهَيْن وهَيِّن ، وقال أبو علي الفارسي : والصواب أن يكون

---

(١) في نفس المعنى ونفس الآية أخرج الإمام أحمد في مسنده (٥- ١٣٥) عن أُبيٍّ بن كعب قال : لما كان يوم أحد قتل من الأنصار أربعة وستون رجلا ، ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنربينّ عليهم ، فلما كان يوم الفتح قال رجل لا يُعرف : لا قريش بعد اليوم ، فنادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمِنَ الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً - ناساً سماهم - فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (نصبر ولا نعاقب) .

الضَّيْق لغة في المصدر ؛ لأنه إن كان مخففاً من ضَيِّق لزم أن تقام الصفة مقام الموصوف ، وليس هذا موضع ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

إنما تقوم الصفة مقام الموصوف إذا تخصص الموصوف من نفس الصفة ، كما تقول : «رأيْتُ ضاحكاً» ، فإنها تخصص الإنسان ، ولو قلت : «رأيْتُ بارداً» لم يَحْسُن ، وببَاردٍ مثَّل سيبويه رحمه الله ، و «ضَيِّق» لا تخصص الموصوف . وقال ابن عباس ، وابن زيد : إن ما في هذه الآيات من الأمر بالصبر منسوخ .

وقوله : ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا ﴾ أَي : بالنصر والمعونة والتأْييد ، و [ٱتَّقَوْا] يريد : المعاصي ، و [مُحْسِنُونَ] معناه : يزيدون فيما نَدَب إليه من فعل الخير .

نجز تفسير سورة النحل والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه وسلم

تمّ بحمد الله وتوفيقه الجزء الثامن ، ويليه الجزء التاسع ، ويبدأ بقوله تبارك وتعالى في أول سورة الإسراء :

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾

فهرست آيات الجزء الثامن

بقية تفسير سورة يوسف عليه السلام

قوله عزّ وجلّ : (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء) إلى آخر الآية ٥٣ . ١
قوله عزّ وجلّ : (وقال الملك ائتوني به استخلصه لنفسي) إلى آخر الآية ٥٧ . . ٣
قوله عزّ وجلّ : (وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون) إلى آخر الآية ٦٠ . . . . ١٠
قوله عزّ وجلّ : (قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون) إلى آخر الآية ٦٣ . . ١٣
قوله عزّ وجلّ : (قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) إلى آخر الآية ٦٥ . . . . ١٦
قوله عزّ وجلّ : (قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله) إلى آخر الآية ٦٧ . . . . ٢٠
قوله عزّ وجلّ : (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) إلى آخر الآية ٦٩ . . ٢٢
قوله عزّ وجلّ : (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه) إلى آخر الآية ٧٥ . . . . ٢٥
قوله عزّ وجلّ : (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) إلى آخر الآية ٧٦ . . . . ٣٢
قوله عزّ وجلّ : (قالوا إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل) إلى آخر الآية ٧٧ . ٣٥
قوله عزّ وجلّ : (قالوا يأيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً) إلى آخر الآية ٨٠ . . ٣٩
قوله عزّ وجلّ : (ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق) إلى آخر الآية ٨٣ . . . . ٤٥

الآيـــة	الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (وتولى عنهم وقال يا أسفي على يوسف) إلى آخر الآية ٨٦ .	٤٩
قوله عزّ وجلّ : (يا بنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) إلى آخر الآية ٨٨ .	٥٧
قوله عزّ وجلّ : (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) إلى آخر الآية ٩٢	٦٥
قوله عزّ وجلّ : (اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً) إلى آخر الآية ٩٥	٧١
قوله عزّ وجلّ : (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً) إلى قوله تبارك وتعالى (وخروا له سجداً) من الآية ١٠٠	٧٦
قوله عزّ وجلّ : (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل) إلى آخر الآية ١٠٠ .	٨٢
قوله عزّ وجلّ : (رب قد آتيتني من المُلْك وعلمتني من تأويل الأحاديث) إلى آخر الآية ١٠٢	٨٦
قوله عزّ وجلّ : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) إلى آخر الآية ١٠٨ .	٩٠
قوله عزّ وجلّ : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى) إلى آخر الآية ١١٠	٩٥
قوله عزّ وجلّ : (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) إلى آخر الآية ١١١ .	١٠٤

تفسير ســـورة الرعـــد

قوله عزّ وجلّ : (المر تلك آيات الكتاب) إلى آخر الآية ٢	١٠٨
قوله عزّ وجلّ : (وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً) إلى آخر الآية ٤	١١٤

الآيــة	الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (وإن تعجب فعجب قولهم أءذا كنّا ترابا أءنّا لفي خلق جديد) إلى آخر الآية ٧	١٢١
قوله عزّ وجلّ : (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام) إلى آخر الآية ١٠	١٢٨
قوله عزّ وجلّ : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) إلى آخر الآية ١٣	١٣٥
قوله عزّ وجلّ : (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء) إلى آخر الآية ١٦	١٤٩
قوله عزّ وجلّ : (أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً) إلى آخر الآية ١٧	١٥٤
قوله عزّ وجلّ : (للذين استجابوا لربهم الحسنى) إلى آخر الآية ٢١ . . .	١٥٨
قوله عزّ وجلّ : (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية) إلى آخر الآية ٢٤	١٦١
قوله عزّ وجلّ : (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) إلى آخر الآية ٢٩	١٦٤
قوله عزّ وجلّ : (كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم) إلى آخر الآية ٣٢	١٦٩
قوله عزّ وجلّ : (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) إلى آخر الآية ٣٥ . .	١٧٤
قوله عزّ وجلّ : (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) إلى آخر الآية ٣٩	١٧٨

الآيـــة	الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (وإن ما نرينك بعض الذي نعدُهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) إلى آخر الآية ٤٣	١٨٥

تفسير ســـورة إبراهيم عليه السلام

قوله عزّ وجلّ : (الٓر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) إلى آخر الآية ٣	١٩٣
قوله عزّ وجلّ : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) إلى آخر الآية ٥	١٩٨
قوله عزّ وجلّ : (وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون) إلى آخر الآية ٩	٢٠٣
قوله عزّ وجلّ : (قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض) إلى آخر الآية ١٢	٢١٠
قوله عزّ وجلّ : (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا) إلى آخر الآية ١٧	٢١٤
قوله عزّ وجلّ : (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد) إلى آخر الآية ٢٠ .	٢٢٠
قوله عزّ وجلّ : (وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا) إلى آخر الآية ٢١	٢٢٣
قوله عزّ وجلّ : (وقال الشيطان لمّا قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق) إلى آخر الآية ٢٣	٢٢٥

الآيــة	الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء) إلى آخر الآية ٢٦	٢٣٢
قوله عزّ وجلّ : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) إلى آخر الآية ٣٠	٢٣٩
قوله عزّ وجلّ : (قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية) إلى آخر الآية ٣٤	٢٤٣
قوله عزّ وجلّ : (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً) إلى آخر الآية ٣٧ .	٢٥٠
قوله عزّ وجلّ : (ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن) إلى آخر الآية ٤١ . . .	٢٥٥
قوله عزّ وجلّ : (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) إلى آخر الآية ٤٤ .	٢٥٨
قوله عزّ وجلّ : (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم) إلى آخر الآية ٤٨ .	٢٦٣
قوله عزّ وجلّ : (وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد) إلى آخر الآية ٥٢ .	٢٧٠

تفسير ســـورة الحجــر

قوله عزّ وجلّ : (الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) إلى آخر الآية ٥ . .	٢٧٥
قوله عزّ وجلّ : (وقالوا يأيُّها الذي نُزِّل عليه الذكر إنك لمجنون) إلى آخر الآية ١١	٢٨٢
قوله عزّ وجلّ : (كذلك نسلكه في قلوب المجرمين) إلى آخر الآية ١٥	٢٨٦
قوله عزّ وجلّ : (ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين) إلى آخر الآية ٢١	٢٩١

الآيـــة	الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه) إلى آخر الآية ٢٧	٢٩٦
قوله عزّ وجلّ : (وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإٍ مسنون) إلى آخر الآية ٣٣	٣٠٧
قوله عزّ وجلّ : (قال فاخرج منها فإنك رجيم) إلى آخر الآية ٤٤ . . .	٣١٢
قوله عزّ وجلّ : (إن المتقين في جنات وعيون) إلى آخر الآية ٥٠	٣١٧
قوله عزّ وجلّ : (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) إلى آخر الآية ٥٦	٣٢٢
قوله عزّ وجلّ : (قال فما خطبكم أيُّها المرسلون) إلى آخر الآية ٦٥ . . .	٣٢٨
قوله عزّ وجلّ : (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) إلى آخر الآية ٧٧	٣٣٥
قوله عزّ وجلّ : (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين) إلى آخر الآية ٨٦ . . .	٣٤٤
قوله عزّ وجلّ : (ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم) إلى آخر الآية ٩٣ .	٣٥٠
قوله عزّ وجلّ : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) إلى آخر الآية ٩٩ .	٣٥٨

تفسير ســـورة النحـــل

قوله عزّ وجلّ : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون) إلى آخر الآية ٤	٣٦٤

الآيــة	الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) إلى آخر الآية ٩	٣٧٠
قوله عزّ وجلّ : (هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون) إلى آخر الآية ١٢	٣٧٩
قوله عزّ وجلّ : (وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه) إلى آخر الآية ١٥ .	٣٨٤
قوله عزّ وجلّ : (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) إلى آخر الآية ٢١ . . .	٣٨٩
قوله عزّ وجلّ : (إلـٰهكم إلـٰه واحد فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة) إلى آخر الآية ٢٥	٣٩٥
قوله عزّ وجلّ : (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد) إلى آخر الآية ٢٧	٣٩٩
قوله عزّ وجلّ : (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) إلى آخر الآية ٣٠ . .	٤٠٣
قوله عزّ وجلّ : (جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار) إلى آخر الآية ٣٢	٤٠٧
قوله عزّ وجلّ : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك) إلى آخر الآية ٣٥	٤٠٩
قوله عزّ وجلّ : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) إلى آخر الآية ٣٨	٤١٣
قوله عزّ وجلّ : (ليبين لهم الذي يختلفون فيه) إلى آخر الآية ٤٠	٤١٦

الآيــة	الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظُلموا) إلى آخر الآية ٤٤ .	٤٢٠
قوله عزّ وجلّ : (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض) إلى آخر الآية ٤٨	٤٢٥
قوله عزّ وجلّ : (ولله يسجد مافي السموات ومافي الأرض) إلى آخر الآية ٥٥ .	٤٣٦
قوله عزّ وجلّ : (ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم) إلى آخر الآية ٥٩ .	٤٤٤
قوله عزّ وجلّ : (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى) إلى آخر الآية ٦٢	٤٤٧
قوله عزّ وجلّ : (تالله لقد أرسلنا إلى أُمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم) إلى آخر الآية ٦٦	٤٥٣
قوله عزّ وجلّ : (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكَراً ورزقاً حسَناً) إلى آخر الآية ٦٩	٤٥٨
قوله عزّ وجلّ : (والله خلقكم ثم يتوفاكم) إلى آخر الآية ٧٢	٤٦٤
قوله عزّ وجلّ : (ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً) إلى آخر الآية ٧٥ .	٤٧٠
قوله عزّ وجلّ : (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء) إلى آخر الآية ٧٩	٤٧٧
قوله عزّ وجلّ : (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً) إلى آخر الآية ٨١ . . .	٤٨١
قوله عزّ وجلّ : (فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين) إلى آخر الآية ٨٥ . .	٤٨٧
قوله عزّ وجلّ : (وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم) إلى آخر الآية ٨٩ . .	٤٩٠

الآيـــة	الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) إلى آخر الآية ٩١	٤٩٣
قوله عزّ وجلّ : (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً) إلى آخر الآية ٩٣	٥٠٠
قوله عزّ وجلّ : (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم) إلى آخر الآية ٩٧ . .	٥٠٣
قوله عزّ وجلّ : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) إلى آخر الآية ١٠٣	٥٠٧
قوله عزّ وجلّ : (إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم) إلى آخر الآية ١٠٦	٥١٣
قوله عزّ وجلّ : (ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة) إلى آخر الآية ١١١	٥٢١
قوله عزّ وجلّ : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً) إلى آخر الآية ١١٤	٥٢٦
قوله عزّ وجلّ : (إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) إلى آخر الآية ١١٥.	٥٣١
قوله عزّ وجلّ : (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب) إلى آخر الآية ١١٩ .	٥٣٥
قوله عزّ وجلّ : (إن إبراهيم كان أمّة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين) إلى آخر الآية ١٢٤	٥٤٠
قوله عزّ وجلّ : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) إلى آخر الآية ١٢٨	٥٤٥

رقم الايداع بدار الكتب القطرية
٢١٣ لسنة ١٩٨٥

مؤسسة دار العلوم
للطباعة والنشر والتوزيع
الدوحة — قطر